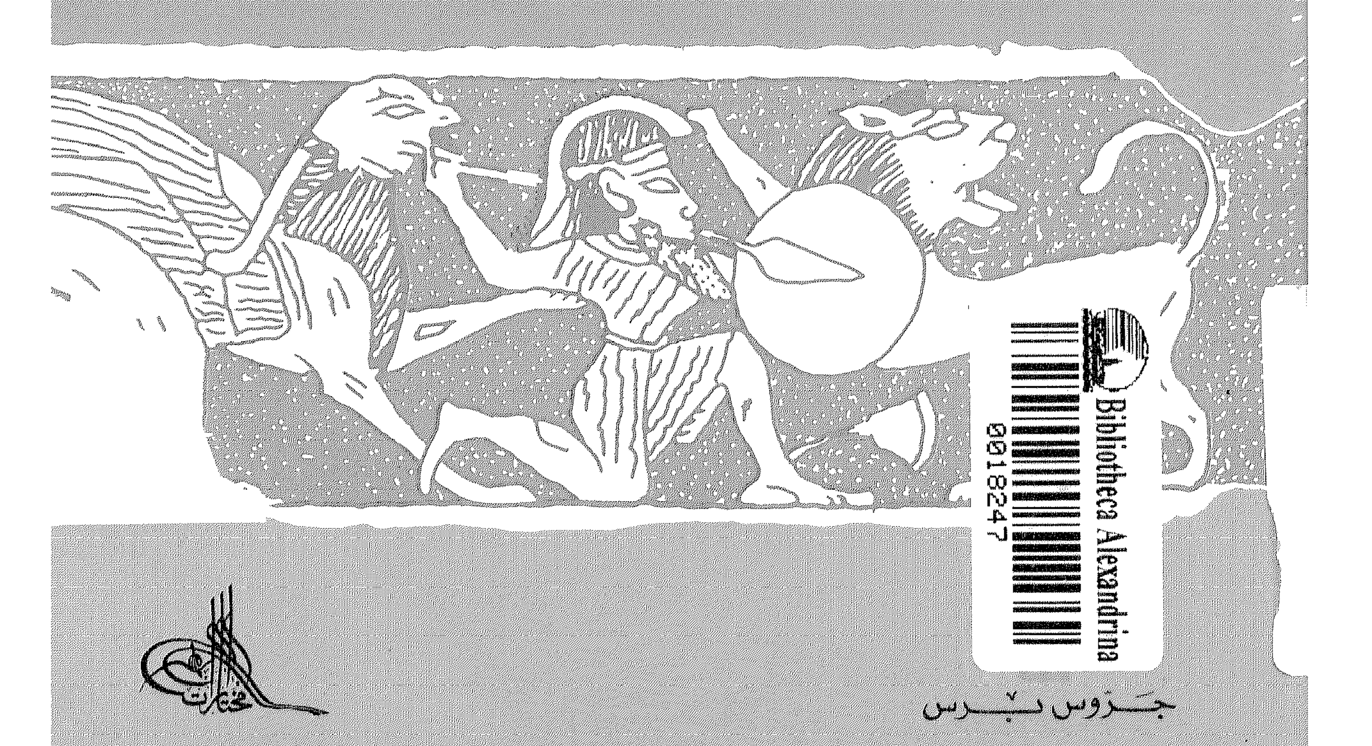
الحضارة الفينيقية في إسبانية

تأليف

الدكتور يولي بركوفيتش تسيركين

ترجمة

الدكتور يوسف أبي فاضل



جروس برس



الحَضارة الفينيقية
في
إسبانية



الحضارة الفينيقية في إسبانية

تأليف

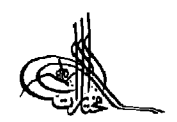
الدكتور يولي بركوفيتش تسيركين

ترجمة

الدكتور يوسف أبي فاضل

مراجعة

الأستاذ ميشال أبي فاضل





الكتاب   الحضارة الفينيقيّة في إسبانية
المؤلّف   د. يولي بركوفيتش تسيركين
المترجم   د. يوسف أبي فاضل
المراجع   أ. ميشال أبي فاضل
الموضوع   تاريخ
الصفحات   ٣٧٦
الطبعة   الأولى
الصدور   كانون الثاني ١٩٨٨
القياس   ١٧ × ٢٤ سم
الصف التصويري   غروب آرت ديزاينرز ش.م.ل.
التصوير والتوليف والطباعة   المطبعة العربيّة ش.م.ل.
المنشورات والتوزيع   جرّوس برس ص.ب. ١٨٩ طرابلس، هاتف ٠٦،٦٢٧٧٢٤
مختارات ص.ب. ٦٠٢١٦ الزلقا، هاتف ٠١،٨٩٠٣٣٣

بيروت   لبنان

مقدمة المؤلف للطبعة العربية

أودُّ أن اعبِّر بادىء بدء، عن صادق شكري للدكتور يوسف أبي فاضل على ترجمته كتابي، ولدار « جرّوس برس » على نشره في لبنان. وانني لسعيدٌ ان يتسنّى لأحفاد الفينيقيين قراءة ما كتبته في حينه، عن نشاط اجدادهم في الطرف الغربي من منطقة البحر المتوسط.

لقد نُشر هذا الكتاب عام ١٩٧٦، بعد مضي فترة على وضعه. وقد قام علماء من دولٍ عدة خلال السنوات التي تلت،بأبحاثٍ حول الحضارة الفينيقية، ومن بينها الحضارة الفينيقية في اسبانيا. وقد اتاحت لنا أعمال خ.م. بلاسكيس، وم.ي. أوْبت زيملر، وأ.ك. غونساليس فاغنر، خ. شوبارت، وخ.غ. نيماير وغيرهم التعرّف الى الحضارة الفينيقية في اسبانيا على نحوٍ أفضل من الوضع الذي كنا عليه قبل خمس عشرة سنة. وامدّتنا الحفريات الأثرية الجارية بانتظام في جنوب شبه جزيرة البيرينه، بالكثير من المعلومات الجديدة التي تفرض في حدودٍ معينة مراجعة جزءٍ من المواقف المتخذة، ومن ضمنها بعض المواقف الواردة في مؤلفنا. فقد تحدثنا مراتٍ عدة مثلاً عن المستوطنة الفينيقية التي كانت قائمةً مكان مدينة ويلقا الحديثة، الاّ ان الأبحاث الأثرية اظهرت بوضوح ان ذلك المكان لم يكن مستوطنة

فينيقية، بل مدينة ترتيسية مهمة. واتاحت لنا الآثار التي اكتشفت هناك التعرّف على نحو أفضل الى العلاقات التي كانت قائمة بين المستعمرين الفينيقيين والترتيسيين. ويبدو أيضاً ان « الحركة »، وهي قرية صيّادي الأسماك، كانت ترتيسية، ولم تكن فينيقية. وما تجمع لدينا اليوم من معلومات يتيح لنا القول انه، باستثناء قادس، لم تعرف غربي اعمدة هرقل (ملقارت) أية مستوطنات فينيقية، لا بل يكتشف الباحثون مزيداً من تلك المستوطنات الى الشرق من تلك الأعمدة. وبوسعنا أيضاً اطلاق بعض الفرضيات الأخرى غير المؤكدة. ومهما يكن من أمر، تبقى المبادىء الأساسية التي طرحها الكتاب ثابتةً، كما يمكن الآن اثبات وبلورة البعض منها بطريقة أفضل.

وفي طليعة الأمور تأتي مسألة بداية الاستعمار الفينيقي وتاريخ بناء قادس. فقد جاء في مؤلفنا ان بعض الباحثين يشككون بامكانية الابحار الفينيقي المبكر (القرن الثاني عشر ــ القرن الحادي عشر ق.م.) الى اسبانيا، ويركزون على اعمال القرصنة الفينيقية في منطقة شرق المتوسط، ويعلنون انعدام البراهين الأثرية على الوجود المبكر للفينيقيين في شبه جزيرة البيرينه. والى ما ورد في الكتاب يمكننا اضافة ما يلي: نجد في « مزمور ديفورا »، وهو الجزء الأقدم من التوراة، الذي عاصر الى حدٍّ ما رحلات الفينيقيين المبكرة، اشارةً الى الأمان الذي كان يتمتع به سكان المناطق الساحلية: « ممَ يخاف **دان** والسفن؟ يجلس **اسير** (اسم علم ــ المترجم) عند شاطىء البحر ويعيش بهدوء عند مرافئه » (Ind. 5, 7). وهكذا فاننا لا نجد أية اشارة الى خطر القراصنة. يضاف الى ذلك ان ادلة اثرية متواضعة جداً ما تزال تظهر. ولكن نادراً ما يعثر علماء الآثار اثناء حفرياتهم في المستوطنات الترتيسية على كؤوس طويلة الساق، شبيهة بتلك التي اكتشفت في منطقة صور وفي الطبقات الفيلستيمية من فلسطين العائدة الى العهد البرونزي المتأخر. ويتساءل أ.م. بيزي بحذر، ألا يمكن اعتبار هذا الدليل تأكيداً على التقليد الأدبي الذي يُ... بناء قادس الى القرن الثاني عشر ق.م.؟ لعل الأمر جائز تماماً. ونتخطى ذلك للقول ان بناء قادس، المدينة الوحيدة على الشاطىء الأطلسي، الواقعة ...وبي اسبانيا على مقربةٍ من وسط الدولة الترتيسية، يمكن أن يشهد على

امكانية نشوئها قبل ظهور المستوطنات الفينيقية على الشاطىء المتوسطي بكثير، وقبل نشوء الدولة الترتيسية.

وينبغي ادراج بناء قادس في سياق تصوّر اوسع للاستعمار الفينيقي. ويبدو لنا الآن انه من الممكن ابراز مرحلتين متميزتين في هذا السياق ان لناحية الترتيب الزمني، او الى حدٍّ كبير، لناحية طابعهما. فمن جهة تعود المرحلة الأولى التي جاء الكتاب على ذكرها الى هزيمة القوة البحرية الميكية، وتعود من جهة أخرى الى التوتر الاجتماعي والديموغرافي في فينيقيا، لا سيما في صور، نتيجة احتشاد السكان الكنعانيين في شريط ضيق من الأرض فرضته الاعتداءات اليهودية والآرامية (وهذا هو بنظرنا السبب الأهم). وانطلق التجار والمستعمرون من صور عبر طريقين كانت تمر احداهما عبر الجزء الشرقي من بحر ايجه باتجاه فاسوس، والأخرى بمحاذاة الطرف الجنوبي لهذا البحر باتجاه صقلية، ومن هناك الى افريقيا، وصولاً الى ساحل اسبانيا الجنوبي. ويمنعنا ضيق المجال، الذي لا يسمح به تقديم الكتاب، من التوسع وعرض البراهين (لقد حاولنا القيام بذلك في مؤلَفٍ آخر)، لكن لا بدَّ من الاعتراف ان اجراء مقارنة للأدلّة الشحيحة المرتبة زمنياً يتيح لنا تحديد تاريخ تلك المرحلة الاستعمارية خلال النصف الثاني من القرن الثاني عشر ــ النصف الأول من القرن الحادي عشر، أو، على نحو ادق، خلال الربع الأخير من القرن الثاني عشر ــ الربع الأول من القرن الحادي عشر ق.م.

ويذكر الكتّاب القدامى ان التجارة كانت أساس النشاط الاقتصادي في تلك المرحلة، وان المعادن الثمينة كانت محط انظار الفينيقيين. وليس من باب الصدفة ان تفضي الطريقان البحريان الفينيقيتان الى فاسوس الغنية بالذهب، والى اسبانيا الغنية بالفضة. ولعل القصد الأساسي من اقامة نقاط وسيطة كان نشر الأمان على تلك الطرق. ويذكر ديودور (V, 25, 3) ان الفينيقيين قايضوا المعادن بالزيت والحلى المختلفة والمنتجات البحرية الصغيرة والتمائم وما شابهها. واعتبرت طريقتهم بالتبادل التجاري غير واضحة المعالم، ويبدو انها كانت « خرساء »، كالطريقة التي مارسها القرطاجيون على الساحة الافريقي

الغربي في وقتٍ لاحق على حد ما ذكر هيرودوت (IV, 196). وقد أتيح للفينيقيين ان يستثمروا المناجم احياناً، على غرار ما فعلوا في فاسوس.

وقد بنى الفينيقيون في ذلك الوقت محطاتٍ تجارية لم يقطنها سكان ثابتون، وانشأوا مراسٍ (جمع مرسى)، ورتبوا احياناً اماكن للمقايضة مع المحيط المحلي. وقد استوطنوا في حالاتٍ معينة حول المعبد لما احسوا بجواره من شعور بالأمان، كما كانت لهم مدن حقيقية أيضاً. وبما ان التضخم السكاني كان العامل الرئيسي للاستعمار، فلم تكن « ازالته » ممكنة الاّ عن طريق اقامة مستعمرات يقطنها سكان ثابتون. وتشهد المحاولات الثلاث لبناء قادس، التي اتى على ذكرها الكتاب، على الطبيعة العدائية للسكان الأصليين، الأمر الذي يدل على امكانية وقوع المحطة التجارية في ظل ظروف مماثلة فريسة سهلة للتصرف العدائي للسكان الأصليين. وتدل التسمية الفينيقية للمدينة (قادير — التحصين)، على ان ما رموا اليه هو اقامة قاعدة قوية اكثر مما رموا الى اقامة مرسى دائم. ويورد يوستينيوس (XVIII, 4, 2) سببين لبناء اوتيكا في افريقيا: اولهما، كثرة السكان في صور؛ والثاني ابعاد الشباب الى الاصلاحية. ويبدو واضحاً ارتباط هذين السببين الواحد بالآخر، لكن هذا التدبير كان عقيماً، لو كان القصد انشاء محطة تجارية مؤقتة لا يقطنها سكان دائمون. ان دفع الشباب للهجرة الى ما وراء البحار، والشباب هو العنصر السكاني الأكثر حيوية وازعاجاً، كان يمثل بنظر الطبقات الحاكمة في صور تخلصاً من عنصرٍ جماهيري قد يهددها بالخطر.

وهكذا يبدو ان بناء قادس لم يكن حلقة منفصلة لكنها ارتبطت بأعمالٍ أخرى قام بها البحارة الفينيقيون في أواخر الألف الثاني ق.م.

وبدأت المرحلة الثانية من الاستعمار في القرن التاسع ق.م.، وهي الفترة التي بدأت تفقد فيها صور اهميتها السياسية، لتفقدها لاحقاً على نحو نهائي بعد ان ضُمَّت الى الامبراطورية الأشورية، لكنها لم تتخلَّ في الوقت نفسه عن مركزها كمرفأ بحري يربط الشرق الأوسط بالمنطقة الغربية القاصية من البحر المتوسط. لقد تمثل دور الاستعمار الفينيقي بالنسبة للشرق الأوسط

بربط مصادر المواد الأولية الموجودة خارج نطاق الامبراطوريات الشرقية باقتصاد تلك الامبراطوريات. وتميزت تلك الفترة من تاريخ صور باشتداد النزاعات الداخلية. وقد ذكر كورسيوس روف (IV, 4, 20) انتفاضة الفلاحين الصوريين المسلحة ومطالبتهم بالانتقال الى المستعمرات. اما سالوستيوس فقد اورد سببين للمد الاستعماري: التضخم السكاني، والصراع داخل الأوساط الحاكمة التي اشركت العامة (Plebs) في تحزباتها. واعتبرت التغيرات السريعة التي شهدها عرش صور دليلاً واضحاً على هذا الصراع الذي كان من مظاهره مصرع الملك فلت على يد ايتوبعل، كاهن عشتروت. واهتمَّ مغتصب السلطة (ايتوبعل) ببناء مدنٍ جديدة تصلح كمنفى لمؤيدي السلالة الملكية السابقة ولأعدائه ومنافسيه. وتعود الى فترة حكم هذا الملك (من حوالي عام ٨٧٩ أو ٨٧٨ حتى عام ٨٤٧ أو ٨٤٦ ق.م.) بداية المرحلة الثانية من الاستعمار الفينيقي.

ومهما يكن من أمر، فقد شهد الوضع في المنطقة الشرقية من البحر المتوسط تبدلاً ملحوظاً. فقد طُرد الفينيقيون من منطقة بحر ايجه، واليونان، واذا كانت قد بقيت مفتوحة امامهم كتجار فقد اغلقت بوجههم كمستعمرين. وفي افضل الظروف ملاءمة استطاع الفينيقيون الاقامة في أماكن أخرى من هذه المنطقة، والاقامة وسط حي خاص داخل المدينة المحلية، كما كان الوضع مثلاً في « مخيم الصوريين » في ممفيس.

وفي المرحلة الثانية، وقعت سردينيا ومليتا وهافلوس تحت نير الاستعمار الفينيقي، وتجمع الفينيقيون الذين طردهم اليونانيون من شرق وجنوب الجزيرة في الجزء الغربي من صقلية، وتوسع نطاق الاستعمار في افريقيا حيث بنى الصوريون في الربع الأخير من القرن التاسع ق.م. قرطاجة الشهيرة، ومدناً أخرى. وشملت هذه المرحلة فترةً زمنية أطول امتدت من القرن التاسع حتى القرن السابع ق.م.، وكانت ذروتها على ما يبدو في النصف الثاني من القرن التاسع ق.م.، أي في الفترة التي يدعوها ديودوروس (VII, 13) فترة الحكم البحري الفينيقي (Talassocratie).

وبقيت المعادن هدف الفينيقيين الأساسي. ولم يكن الثمين منها هو المقصود فقط، بل ذلك الضروري أيضاً للانتاج المباشر: القصدير، والحديد، والرصاص، والنحاس، وغيرها. وبرز الى جانب ذلك هدف جديد للاستعمار هو تملّك اراضٍ لتوطين اعداد من الناس غادروا المتروبول يفوق الأعداد السابقة بكثير. وتبدلت العلاقات بالسكان المحليين الذين كانوا قد تطوروا يومذاك الى درجة اتاحت لهم اقامة شتى العلاقات مع القادمين من الشرق فسيطروا على كل المجالات الاقتصادية والسياسية والثقافية. وظهر أيضاً تأثير عكسي للسكان الأصليين على الفينيقيين، الأمر الذي يفسر، بنوعٍ خاص، التباين في الحضارة الفينيقية الغربية بين منطقةٍ وأخرى، كما يفسر الاختلافات العامة بين « دائرة » الحضارة الفينيقية البونية والشرقية.

ولما كانت الدولة الترتيسية في اسبانيا قد ظهرت في أواخر القرن الثامن ق.م. فقد دعت الحاجة الى تقوية العلاقات مع الأسبان في ظروف قيام هذه الدولة، ومن ثم ممارستها لمهامها، لبناء نقاط اتصال جديدة. وقد ساهمت تقوية العلاقات مع الفينيقيين بدورها في تسريع تطور الترتيسيين. وقد أدّى الاهتمام المتبادل بين الفينيقيين والترتيسيين الى قيام مستوطنات جديدة، لكن الترتيسيين، على ما يبدو، لم يكونوا ينوون اطلاق العنان لتوسع الغرباء على مقربةٍ من مصادر ثرواتهم المنجمية، وعلى اراضيهم الخاصة مباشرة. ولهذا السبب استقر الصوريون الى الشرق من الأعمدة، على الساحل المتوسطي الأسباني، حيث ظهرت خلال القرنين الثامن والسابع ق.م. شبكة كاملة من المستوطنات الفينيقية، تتزايد اليوم أعمال التنقيب عن العديد منها. وقد اظهرت الحفريات انه وان كانت بعض الأماكن قد استوطنت في أواخر العصر النحاسي، أي في الألف الثالث ق.م.، فقد كانت غير مأهولة عند وصول الفينيقيين اليها. وهكذا بنى سكان صور مستوطناتهم في أماكن مقفرة ربطتها بالمناطق الداخلية ممرات جبلية.

ولم تكن العلاقات بين الترتيسيين والمستعمرين الفينيقيين مستقرة. ورغم ما زودتنا به الأبحاث التي اجريت في الفترة الأخيرة من معلومات وفيرة وحديثة، فقد استطعنا تأكيد المبادىء الأساسية فقط التي طرحها الكتاب

حول هذا الموضوع. ولنتوقف مثلاً عند احدى المسائل السياسية المهمة. فقد أظهر علم الآثار ان بعض المستوطنات الفينيقية الأسبانية انهارت، لا بل انقرضت في اواسط القرن السادس ق.م. او في نصفه الثاني. وفي مطلع ذلك القرن وقعت صور كما نعلم، تحت سيطرة بابل، ورغم محافظتها على حكمها الذاتي الداخلي فقد تقهقر دورها السياسي والاقتصادي، وافسح في المجال أمام صيدون لأن تتخطاها. ويحتمل ان يكون التفكك الذي شهدته الدولة الصورية، واتى على ذكره الكتاب، قد حصل خلال تلك الفترة. وهكذا حُرِمت المستوطنات الفينيقية في اسبانيا دعم المتروبول، ويحتمل أن يكون الترتيسيون قد قرروا حينئذٍ القضاء على بعضها، ونجحوا في ذلك، الا ان محاولة تسديد ضربةٍ لقادس انتهت بتدخل قرطاجة وتفكك الدولة الترتيسية.

وفي القرن الثالث ق.م.، ونتيجةً لهجمات هملقار برقه وخلفائه، وقع جزء كبير من اسبانيا تحت سيطرة القرطاجيين. وفي سبيل فهمٍ أفضل للحضارة الفينيقية في اسبانيا، يجدر بنا التوقف لماماً عند دولة القرطاجيين في اسبانيا، وهو ما لم يتعرض له الكتاب لتناوله موضوع بناء المدن الجديدة فقط.

فعلى مدى ثلاثين عاماً، حكم تلك المقاطعة الأسبانية التي احتلها القرطاجيون اعضاء عائلةٍ واحدة من البركيديين، هم: هملقار، وصهره هسدروبعل، وابناء هنيبعل وهسدروبعل. وانطلاقاً من هذا الواقع يمكن التحدث عن دولة البركيديين في اسبانيا. فبعد جمعهم السلطتين العسكرية والمدنية في أيديهم، مارس البركيديون سلطتهم بصورة مستقلة رغم اتفاق سياستهم ومصالح أقوى مجموعة من الأشراف القرطاجيين. وقد ساهمت ثلاثة عوامل في ابراز هذا الوضع: العلاقة مع الجيش، العلاقات الوطيدة مع المجموعة « الديمقراطية » في قرطاجة، والعلاقات مع السكان المحليين.

طُبعت سلطة البركيديين في اسبانيا بطابع عسكري، وانطلقت من واقع الاحتلال بالذات، بصرف النظر عما اذا كانت الأرض المحتلة ساقطة عسكرياً، أو محتلة حديثاً. وفي أواخر الحرب البونية الثانية، وفي عام ٢٠٦ ق.م. تحديداً، خرج البركيدي الأصغر ماغون بقواته من قادس ولم يستطع العودة

اليها بسبب اغلاق القادسيين ابواب المدينة في وجهه (Liv. XXVIII, 37, I). وقد استاء ماغون من عدم سماح القادسيين له بدخول المدينة وهو الحليف والصديق. وقد اعتبر خطاب ماغون مميزاً بما جاء فيه: فهو لم يمتعض لرفض قادس السماح لممثل الحكومة القرطاجية وللقائد البوني بدخول اسوارها، بل لأنها لم تسمح له بالذات وهو الحليف والصديق، الأمر الذي يبرز العلاقة الشخصية بين البركيديين والمدينة الخاضعة.

والحدث الطريف الآخر هو اعلان ايبيريّي جنوب وجنوب شرقي اسبانيا هسدروبعل، صهر هملقار، « قاضياً أول ـــ مطلق السلطة » (stratège-autocrate) (Diod. XXV, 12)، وقد انتقلت هذه الوظيفة من بعده الى خلفائه. وهكذا وجد هسدروبعل نفسه على رأس اتحاد واسع يضم قبائل ودويلات شبه جزيرة البيرينه، وقد قام بصفته الجديدة هذه ببناء مدنٍ جديدة، دافع خليفته عن سكانها من الأعداء الخارجيين. ولا يظهر البركيدي في هذه الحالة كقائدٍ للجمهورية القرطاجية، بل كرئيسٍ للتشكيل السياسي الذي أسسه. وتبرز هنا من جديد علاقة البركيديين الشخصية بالسكان المحليين.

وتؤكد مسكوكات البركيديين على هذه العلاقة. فقد حافظوا على الرموز البونية التي كانت تُسَكُّ على ظهر قطعهم النقدية، لكنهم استبدلوا رسم تينّيت الذي كان يُضرب على وجه نقودهم برأس ملقارت. وقد أكد البركيديون مجدداً من خلال استبدالهم آلهة القرطاجيين بالاله الذي يقدّسه الأسبان، على وضعهم كقادة لاسبانيا، اكثر من كونهم ممثلين لقرطاجة.

ولم تكن علاقات البركيديين بسكان اسبانيا على وتيرة واحدة، فقد كانت مستعمرات صور القديمة، كما ورد في كتابنا، متساوية الحقوق رسمياً مع العاصمة. وقد تمتعت المستعمرات القرطاجية بحكم اداري ذاتي، لكنها كانت خاضعةً للمندوب القرطاجي الذي أصبح تحت الرقابة البركيدية. ويغلب الظن ان تكون المدن التي أنشأها البركيديون قد دخلت رسمياً في نطاق النفوذ القرطاجي، اما البركيديون فقد نظروا اليها قبل كل شيء كقواعد ومراكز ترابط فيها قواتهم العسكرية. وكان سكان المدن مجردين من السلاح، ونستدل

على ذلك من رواية پوليبيوس (X, 12, 15) عن اقتحام الرومان لقرطاجة الجديدة. وقد حددت هذا الاجراء ادارة المدينة التي كان يرأسها موظف منفرد ــ « ذلك الذي فوق المدينة » (وأغلب الظن ان لقب رئيس قرطاجة الجديدة الذي نقله پوليبيوس كان يلفظ على النحو التالي (τεταγμένος. ἐπὶ τῆς πόλεως). ولم تكن قرطاجة الجديدة تسك نقودها، بل كان البركيديون يقومون بذلك.

ولم يكن القرطاجيون يتدخلون من دون سبب في الشؤون الداخلية للشعوب المحلية الأسبانية. في الحالات الاستثنائية فقط كانت بعض المجتمعات والقبائل توضع تحت اشراف الموظفين القرطاجيين « المباشر ». وهذا ما حصل للبرغوسيين الذين كانوا يعيشون بين أيبر والبيرينه والذين استقبلوا بعين الرضى السفراء الرومان قبل بداية حرب قرطاجة مع روما (Liv. XXI, 19, 7; Polyb. III, 35, 4). وهدم هنيبعل ساغونت التي كان يقدر لها ان تصبح رأس جسر روماني الى الجنوب من ايبر. اما بالنسبة لسائر الأسبان، فلا علم لنا بأي شيء مماثل. وقد فرض القرطاجيون نوعاً من الأتاوة على من اخضعوهم، يُعتقد انها كانت توازي عِشر الدخل على نحو ما فرض في صقلية. ومع ذلك، فقد صادر البركيديون جزءاً من الأراضي لبناء المدن مثلاً، على نحو ما فعل هسدروبعل على الاقل. وانتقلت بعض المناجم الى ملكية البركيديين، كانتقال منجم بيبلون مثلاً، في أرض الاوريتانيين الى هنيبعل (Plin. XXXIII, 96). اما المناجم الأخرى فقد بقيت في عهدة اصحابها السابقين، كمناجم مدينة اورونجيس في جنوب البلاد مثلاً (Liv. XXVIII, 3, 3). وكان للبركيديين حق التصرف بالمصادر البشرية لشبه جزيرة البيرينه، وفي القطاع الذي كان داخلاً في نطاق دولتهم بالطبع.

وهكذا، وبنتيجة الفتوح البركيدية في اسبانيا، تكوّنت دولة مهمة اشتملت على جزءٍ كبير من شبه جزيرة البيرينه والجزر البيتيوسية. وضمن هذه المنطقة بالذات كانت تقع المدن الصورية، والمستعمرات القرطاجية القديمة، والمدن التي بناها البركيديون والداخلة ضمن نطاق الحماية القرطاجية، وعدد كبير من السكان المحليين الخاضعين « للقاضي الأول ــ المطلق السلطة » المتمتعين

بالحكم الذاتي، وقبائل ومجتمعات خاضعة مباشرة للموظفين والقادة القرطاجيين. ويعتبر مثل هذا التمازج بين أجزاء الدولة التي يتمتع البعض منها بالحكم الذاتي، والبعض الآخر بعدم تسيير ذاتي، امراً مميزاً للدول الهلينية.

ولقد شعر البركيديون، لا بل أكدوا بأنفسهم على وضعهم القريب من وضع الملوك الهلينيين. فعلى النقود البركيدية مثلاً، أُسبغت على صورة ملقارت ملامح خاصة هي أغلب الظن صُوَرٌ مثالية لهملقارت، وصهره، وابنائهما. ويبدو ان البركيديين قد ساووا انفسهم بالآلهة أو، على أي حال، تطلعوا لجعل مثل هذه المساواة أمراً عادياً بالنسبة للسكان المحليين والجيش. وكما يتضح من اعمال الاختصاصيين الأسبان بعلم المسكوكات، فقد استخدمت صُوَرُ الملوك الهلينيين كنموذج ايقوني لرسم صورة ملقارت البركيدي. ويبدو ان امثلة البعض منهم، ممن اصبحوا ملوكاً بعد ان كانوا قادةً، قد ألهمت خطط خلفاء هملقار. وقد زيّن رأس أحدهم، اغلب الظن انه رأس هسدروبعل، بتاج ملكي، الأمر الذي يمكن مقارنته برواية فابيوس بيكتور التي نقلها پوليبيوس (III, 8, 2) والقائلة بنيّة هسدروبعل القيام بانقلاب ملكي في قرطاجة. ويدعو پوليبيوس (III, 15, 3) قرطاجة الجديدة، مقر البركيديين βασιλειον وهي الكلمة التي كانت تستعمل عادةً في الدول الهلينية للدلالة على العاصمة او الفناء الملكي.

ورغم اوجه الشبه العديدة بين وضع البركيديين والملوك الهلينيين، فقد كان هناك اختلاف جوهري بينهم. فالبركيديون رغم كل شيء لم يستقلوا استقلالاً ناجزاً، وكان بين قادتهم ممثلون لمجلس الشيوخ القرطاجي. وعندما بلغ البركيديون قمة نجاحاتهم السياسية والعسكرية، كانت الرقابة الفعلية للحكومة المركزية في حدِّها الأدنى، ويرجح ان يكون مبعوثو مجلس الشيوخ، كما برهنت الدراسات على ذلك، وبخاصة أبحاث ج ــ شارل ــ بيكار، من اركان تلك الحكومة. لكن هذا الوضع ما لبث ان تبدّل، اذ اشتدت الرقابة الحكومية مع تزايد الهزائم، وتعذر عند اقتراب الحرب مع روما من نهايتها التحدث عن دولة البركيديين المستقلة، أو نصف المستقلة.

وكما ذكرنا في مطلع هذه المقدمة، فقد اتاحت الحفريات والأبحاث التي جرت خلال الخمس عشرة سنة الماضية اغناء الكتاب بمعلومات جديدة. لكننا نتوقف الآن عند أمرٍ واحدٍ فقط لم نبرزه في الفصل الذي يعالج مسألة الديانة.

ينوّه الكتاب بدور ملقارت في الحياة الدينية للفينيقيين الأسبان، وهو أمر لم يكن مدعاةً لأية شكوك. ومع ذلك، فقد كان لأشمون دور كبير في ديانة الفينيقيين، ومن ضمنها ديانة اولئك الفينيقيين والقرطاجيين الذين استوطنوا اسبانيا. وقد جاء لدى سترابون (XVIII, 3, 14) وأبيان (Lib. 130) في حديثهما عن قرطاجة ذكر هيكل لاسكليبيوس كان قائماً في بيرس، أي في وسط المدينة، في المكان الذي كانت تبتدىء المدينة عنده. وبعد سنين عديدة، على ما يروي ابوليوس (Flor. 18)، كان اسكولاب يحرس حصن قرطاجة التي وقعت تحت سلطة الرومان. وما من شك في ان هذا وذاك هما اشمون الذي كان معبده في قرطاجة، حسب قول ابيان، وكان أغنى المعابد وأشهرها. وعندما بنى هسدروبعل قرطاجة الجديدة، شيّد فيها أيضاً هيكلاً لأشمون نُصِبَ على الهضبة المشرفة على المدينة (Polyb. X, 10, 8). ولو أخذنا بعين الاعتبار ان الهياكل في الشرق الأوسط القديم لم تكن تنقل عادةً من مكانٍ الى آخر، لأمكن القول ان هياكل اشمون في كلتا المدينتين شيدها من بنى هاتين المدينتين. ويمكن تشبيه وضع معبد اشمون بوضع اسافيلا في بابل، او البارفينون في اثينا.

ويدل تحليل خرافات اشمون على انه كان آلهاً يموت وينبعث حيًّا، يرتبط بالموت ويشفي منه. وكان الاله الشافي في الشرق الأوسط يقوم دائماً بمثل هذه المهام. ولهذا السبب بالذات كان حيوانه الحيّة التي كانت تستخدم للدلادة على التجدد والحياة الجديدة، حسب قول ب. دو مينيليو دي بويّسون. ولكونه سيد الحياة والموت، فقد احتل اشمون مركز الصدارة في العبادة القرطاجية، وربما في مجمل العبادة الفينيقية. وقد وجدت شواهد عن هذه العبادة في اسبانيا أيضاً، الأمر الذي لا يتناقض ووجود ملقارت الاله المحلي

الحامي للفينيقيين الأسبان، والمرتبط مباشرةً بالمتروبول، والقائم بمهام قائد الاستعمار. ويتحدث الكتاب بالتفصيل عن الشواهد التي تؤكد على وجود عبادات آلهة اخرى في اسبانيا، ومع ذلك لا بدَّ من ابداء ملاحظة واحدة. فقد ورد في الكتاب ان صورة المعبد على النقد المالقي الذي يحمل أيضاً كلمة ŠMŠ تدل على عبادة بعل ـــ همّون، والصحيح انها تدل على عبادة الاله الشمسي شيميش الذي أكّد علم اسماء العلم (Onomastique) على عبادته في الجزء الغربي من العالم الفينيقي.

وكان للفينيقيين الذين استوطنوا اسبانيا أثر كبير على السكان المحليين في شبه جزيرة البيرينه. ويمكن ابراز اربعة مراحل في العلاقات المتبادلة بين المستعمرين والسكان الأصليين. **المرحلة الأولى** وتشمل تقريباً الفترة الممتدة من القرن الثاني عشر وحتى القرن التاسع ق.م.، كانت خلالها العلاقات المتبادلة بين العالمين ما تزال ضعيفة، ولكنها كانت تتقوى بعض الشيء مع الزمن. فبعد ان اقتصرت في البداية على مقايضة الفضة « بالسلع البحرية الخفيفة »، تعززت تدريجياً وساهمت في التطور السريع لجنوب غربي اسبانيا بالمقارنة مع سائر مناطق شبه جزيرة البيرينه. وبنتيجة ذلك ظهرت الدولة الترتيسية التي استمرت من القرن الثامن وحتى مطلع القرن الخامس ق.م.، وفي **المرحلة الثانية** تكثفت العلاقات بين الفينيقيين والأسبان. وازدهرت الحضارة الترتيسية التي حملت طابعاً استشراقياً اتحادياً. وتمتد **المرحلة الثالثة** من القرن الخامس حتى القرن الثالث ق.م. وقد اتسعت خلالها رقعة تأثير الفينيقيين لتشمل مناطق اوسع، انما على نحوٍ اضعف. واذا كان التأثير الفينيقي قد حدّد سابقاً الى مدى بعيد مجمل طابع الحضارة الترتيسية، فانه اقتصر على بعض عناصر هذه الحضارة الايبيرية من القرن الخامس وحتى القرن الثالث ق.م. وتبادلت عناصر الحضارة الشرقية والمحلية مواقعها، فانتقلت الثانية الى المركز الأول، وتراجعت الأولى لتحتل موقعاً ثانوياً. ويرجَّح ان يكون هذا الأمر مرتبطاً بالتغيرات السياسية والاجتماعية التي شهدتها اسبانيا، والتي تدنى فيها المستوى الاجتماعي العام بعد تفكك الدولة الترتيسية، وقضي على الأرستقراطية الترتيسية التي كانت في حينه « المتقبل » الأساسي للتأثير

الفينيقي في مجال الحضارة. وتمتد **المرحلة الرابعة** من القرن الثاني ق.م. حتى القرن الأول م.، عندما وجد الفينيقيون والأسبان انفسهم تحت سلطة روما، وقد أدّى ذلك الى ذوبان كلتا الحضارتين (الفينيقية الأسبانية والأيبيرية) في الحضارة الرومانية.

تلك كانت المواقف التي اردت لفت انتباه القراء اللبنانيين اليها قبل بدئهم بقراءة هذا الكتاب.

وفي ختام هذه المقدمة اودّ الاشارة الى ان آثار نشاط الفينيقيين في اسبانيا لم يقضَ عليها نهائياً حتى بعد هيمنة الرومان. وقد دخلت بعض عناصر الحضارة الفينيقية، كعبادة هرقليس ـــ ملقارت القادسي التي ظلت تؤدى على الطريقة الفينيقية حتى انتصار المسيحية، كجزءٍ اساسي في حياة منطقة البحر المتوسط الرومانية. ففي القرن الثالث ق.م.، عصر الأزمة الخانقة على الصعد الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والايديولوجية، لجأ الأسبان الجنوبيون مجدداً الى العبادات الفينيقية الدموية. ولم يقضِ انتصار المسيحية فوراً ونهائياً على تلك المعتقدات. فحتى القرن الثامن عشر الميلادي استمر سكان مدينة اشبيلية الاسبانية يحتفلون بالعيد الفينيقي « ادونيس »، من خلال الاحتفال بعيد القديستين جوستا وروفينا. ولعل أوضح اثرٍ على الحضور الفينيقي في اسبانيا المعاصرة هو المدن التي بناها الصوريون والقرطاجيون في غابر الزمان، والتي ما زال بعضها يقوم بدور مهم حتى الآن، كقادس (قادير ـــ غادس) ومالاغا (مالقه) وقرطجنة (قرطحدشت ـــ قرطاجة الجديدة). وهناك من يعتقد أيضاً (رغم استحالة برهنة ذلك في الوقت الحاضر) ان اسم البلاد بالذات ـــ اسبانيا ـــ هو كذلك فينيقي المصدر.

واليوم، في عصر السرعة الهائلة والمسافات المختزلة، لم تعد اسبانيا بعيدةً كثيراً عن لبنان. لكن هذين البلدين كانا في العصور القديمة على الطرفين المتقابلين للمسكونة المعروفة آنذاك. وكانت الطريق من صور الى قادس طويلةً، قاسيةً، وخطرة. ومن حق اللبنانيين اليوم الاعتزاز باجدادهم الذين لم يهابوا تلك المسافات الشاسعة والأخطار البالغة، فمخروا عباب البحر

المتوسط التى لا حدَّ لها، حتى انهم خرجوا الى مياه المحيط المجهولة، واستقروا في جنوب شبه جزيرة البيرينه وعلى الجزر القريبة منه، وشيّدوا هناك حضارةً مهمةً ومميزة، وادوا قسطهم في تطوير الحضارة الاسبانية.

ويغبطني كل الغبطة ان ارى كتابي « الحضارة الفينيقية في اسبانيا » وقد اختير للتعريف بهذا الجزء من الحضارة الفينيقية، ويحدوني الأمل بأن يكون اصداره حلقةً جديدةً في سلسلة التعاون العلمي بين لبنان والاتحاد السوفياتي.

يولي تسيركين
١٩٨٦/١٠/١١

لفت نظر

المؤلف وضع المصادر والمراجع في المتن وليس في الحاشية، وعليه فالأرقام هي أرقام المصادر والمراجع المُثبَتَة في نهاية الكتاب، فالرَّقم «347» مثلاً الوارد في الصفحة الثانية من المدْخَل يمثِّل الكتاب المُعَنْوَنْ بِـ:

Tartessos y sus problemas, Barcelona, 1969.

وهكذا...

مدخل

كانت العلاقات بين **الشرق والغرب** وما زالت،موضع اهتمام المؤرخين وعلماء الآثار واللغويين ومؤرخي الفن. ويصعب الوقوع على دولة اوروبية توثقت علاقاتها بالشرق مثل اسبانيا الواقعة على الطرف الغربي من تلك القارة. فعن هذا البلد بالذات قال المستشرق السوفياتي الشهير أ.ي. كراتشكوفسكي؛ « في اسبانيا يضرب لنا الماضي مثلاً واضحاً عن هشاشة الحدود بين الشرق والغرب، عند التطرق الى تطور الثقافة العالمية » [21a، ص. 470]. فخلال الثلاثة آلاف سنة الأخيرة، انتشرت، في حقبتين من الزمن، حضارة شرقية نموذجية على شبه جزيرة البيرينه، تجلببت بجلباب من ملامح خاصة. وقد حصل ذلك للمرة الأولى في العصور القديمة، حين استوطن الفينيقيون في الجنوب والجنوب الشرقي الاسباني، وللمرة الثانية حين أصبح شبه الجزيرة مسرحاً لتطور الحضارة العربية الرائعة أبان القرون الوسطى. وما يعنينا هنا هو الحقبة الأولى.

لقد قامت في المستعمرات الفينيقية في اسبانيا حضارة اعتبرت فرعاً من الحضارة الفينيقية الشرقية، وكان لها أثر كبير على تطور الحضارة الأوروبية، ولا سيما الاسبانية القديمة. ويستحيل علينا فهم تطور الفن والكتابة في اسبانيا القديمة اذا نحن اغفلنا اسهام الفينيقيين في هذا التطور. اما طقوس العبادة عند الفينيقيين الاسبان،فقد كانت في اساس ديانة العالم القديم. وكانت ثقافتهم المعتَبرة جزءاً من الثقافة الفينيقية،على صلة وثيقة بالحضارة الأم. وفي الوقت

عينه كان نصيب الشرق من علاقاته بالغرب وفيراً على الصعيدين المادي والروحي. وترتدي دراسة هذا الموضوع أهمية كبيرة،إن لناحية الثقافة الفينيقية العامة الفريدة،أو لناحية العلاقات الثقافية بين الشرق والغرب.

وقد امدّتنا المدوّنات الوصفية لقدماء الكتّاب،والمكتشفات الأثرية،والنقوش، بما يمكّننا من التعرّف الى مختلف أوجه الحضارة الفينيقية في اسبانيا: فنًّا، وكتابةً،وديناً،وحياةً يومية اقتصادية وملاحة. ويبدو ان أهم الاكتشافات هي تلك التي وقع عليها علماء الآثار جنوبي شبه جزيرة البيرينه بدءاً من نهاية الخمسينات. ولقد أثارت تلك الاكتشافات مجدداً اهتمام الباحثين في شؤون الحضارة الاسبانية ــ الفينيقية،أو في شؤون دولة الترتيسيين (Tartessos) جنوبي اسبانيا، التي ما زال العديد من جوانبها غامضاً والتي كانت قائمة في النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد. وقد خُصص المؤتمر الخامس لعلوم ما قبل التاريخ والتاريخ البدائي في شبه جزيرة البيرينه، الذي انعقد عام ١٩٦٨، لدراسة هذه الدولة [347]. وصدر في السنة نفسها أيضاًكتاب خ.م. بلاسكيس بعنوان « ترتيس »، الذي ركّز على دراسة هذه الدولة أساساً، وتناول في جزءٍ منه الاستعمار الفينيقي [84]. وقبل ذلك بسنة، صدر كتاب « جذور اسبانيا » المؤلف من مجموعة مقالات، تضم في ما تضم دراسات تتعلق بموضوعنا [306]. وتجدر الاشارة الى كتاب ب. سينتاس « دليل علم العاديّات البونية »،الذي صدر الجزء الأول منه عام ١٩٧٠ [115]. وقد اختُصرت مجموعة نتائج الأبحاث العلمية السابقة في الجزء المخصص لتلك الحقبة في كتاب أ. مونتينغرو دوكي « تاريخ اسبانية »، الصادر عام ١٩٦٧ [261].

ولا مندوحة من القول،انه بعد دراسة أ. غارسيا اي بليدو التي نشرت عام ١٩٤٢ [173]، لم يتصدَّ أي بحث لدراسة مجمل تاريخ وثقافة الفينيقيين الاسبان ــ منذ اقامة الاتصالات الأولى بين فينيقية واسبانية وحتى زوال هذه الاتصالات بعد سيطرة الرومان. وسنفيد من الاكتشافات اللاحقة لضبط وتطوير، وأحياناً تبديل ونقض استنتاجات العالم الاسباني.

وقد ركّزت المدرسة التاريخية السوفياتية الأسس النظرية لمسألة الاستعمار الفينيقي في اسبانيا وتاريخ المستعمرات الفينيقية من خلال اعمال د.د. بيترس [24]، أ.ف. ميشولين [23] وي.ش. شيفمان [33]. لكن هذه المسائل عُولجت من الوجهة التاريخية البحتة، لا من الناحية الثقافية؛ اضافةً الى ان جميع هذه الأبحاث اجريت قبل حدوث الاكتشافات الأثرية الأخيرة. وأثارت هذه المسائل لاحقاً اهتمام ف.أ. كوزلوفسكايا،فكرّست اطروحة الدكتوراه لدراسة ترتيس [19]، وأفادت من غزارة المعلومات التي حصل عليها علماء الآثار الاسبان والألمان خلال الستينات. لكن اهتمامها بالاستعمار الفينيقي بقي في حدود علاقته بترتيس، ولم يتخطاها الى قضايا الثقافة الفينيقية الاسبانية في النصف الثاني من الألف الأول قبل الميلاد وأثر الرومان على المدن الفينيقية.

لقد حاولنا في عملنا هذا القيام بعمل تأريخي يتناول أساساً تاريخ ثقافة الفينيقيين الاسبان على امتداد الحقبة التي برزت فيها، وهي حقبة تمتد زمنياً من القرن الثاني عشر ق.م. حتى القرن الأول ميلادي.

والجدير بالذكر ان الاستعمار الفينيقي في اسبانية انطلق مباشرةً من فينيقية، كما انطلق أيضاً من قرطاجة، المستعمرة الصورية في افريقيا. ويهيب بنا هذا الواقع التفريق داخل الثقافة الأسبانية ــ الفينيقية بين تيّارين: أحدهما اسباني ــ فينيقي، والآخر اسباني ــ قرطاجي (او اسباني ــ بوني).

وينقسم تاريخ المدن الفينيقية في اسبانيا وثقافتها الى عهدين: عهد كانت فيه تلك المدن مستقلةً،أو تابعةً للمتروبول،أو لقريبة الدم قرطاجة، وعهد آخر كانت فيه منضويةً في الدولة الرومانية. ومثل هذا التقسيم يفرضه تركيب البحث المقترح. ففي الفصل الأول نعالج تاريخ الفينيقيين الأسبان حتى خضوعهم لروما، ونخصص الفصول الأربعة اللاحقة لبعض جوانب الثقافة الاسبانية ــ الفينيقية: الحياة اليومية، الدين، الفن، الكتابة. ونعالج في الفصل السادس قضايا الحضارة الفينيقية زمن اسبانية الرومانية حتى تاريخ انقراضها. ونتناول في فصلٍ أخير سِيَر بعض أبناء قادس الفينيقية الذين لعبوا دوراً مهماً في حياة روما الثقافية. وسندأب في جميع الفصول، ما عدا الأخير، على استقصاء أثر الفينيقيين على السكان المحليين لشبه جزيرة البيرينه.

وبديهي ان المؤلف لا يدّعي التوصل الى ايجاد حلول لجميع القضايا المتعلقة بالمسائل التي أثارها. ففي الكثير من الحالات تتعلق القيود بطبيعة المصادر. فالآثار التاريخية والأدبية التي اقامها الفينيقيون الأسبان لم تحفظ. لذلك،فان مصادرنا الاخبارية اليونانية ــ الرومانية، لم تأبه بالفينيقيين الأسبان الاّ حين كانوا على علاقة باليونان وروما. وانه وان كان للنقوش الفينيقية التي عثر عليها في اسبانيا أهمية في دراسة تاريخ الكتابة الفينيقية، الا انها لم توفر لنا الا القليل عن التاريخ السياسي والاقتصادي وسائر نواحي الثقافة. وتعتبر الأنصاب الأثرية فائقة الأهمية،ويتزايد العثور على اعدادٍ منها، وهي، نظراً لطابعها، تذخر بالكثير من المعاني.

ويجدر القول بايجاز،ان التنقيب عن الآثار في اسبانية يسير على نحو مطّرد، وانه لا يجوز اسقاط احتمال اكتشافات جديدة قد تغير شرحنا لهذه او تلك من المسائل.

الفصل الأول

الاستعمار الفينيقي لأسبانيا

اشتهرت فينيقية منذ القدم بتجّارها وبحّارتها. ففي الألف الثاني قبل الميلاد كان الأسطول الفينيقي على درجة رفيعة من التطور. فمخر بحارته منطقة بحر ايجه [34، ص. 13-14؛ 43، ص. 336-337؛ 312، ص. 126-138]، ويرجح أن تكون « سفنهم المتينة » كما كانت تعرف، وهي على ما يبدو سفن اوغاريت [312، ص. 132]، قد طافت مناطق غربية أبعد. ويؤكد ذلك تمثال من البرونز وجد صدفةً في البحر عند شواطىء سيسيليا، يشبه طرازه التماثيل التي وُجدت في اوغاريت [345، ص. 269].

وقد أدى انتقال الشعوب، بما فيهم الداريون وشعوب البحر، الى فناء دولة اليونان الآخية والدولة الخاتونية، وضعف مصر، وانحطاطٍ مؤقت للدولة الأشورية، وساهم من جهة أخرى في ازدهار الدول الصغيرة في سوريا وفلسطين وفينيقية [45، ص. 35]. واندثرت في الواقع اوغاريت في ذلك الوقت، وقام في الجزء الجنوبي من فينيقية قوم عرفوا بالفيليستيميين أتوا من عسقلان وهدموا صيدون (Iust. XVIII, 3, 5)، التي اعيد بناؤها فيما بعد. ويرجح البعض أحياناً،أن تكون صور قد هُدمت أيضاً نتيجة هجوم الفيليستيميين، على حد ما يقول تروغ ــ يوستين عن بناء هذه المدينة على يد الصيدونيين، الذين هربوا من الهجوم العسقلاني (نفس المرجع)، وبما ان

صور كانت قد تأسست بلا ريب في الألف الثاني، وربما في الألف الثالث قبل الميلاد، فان الحديث غير مطروح عن اقامة هذه المدينة، بل عن اعادة بنائها بعد هجوم شعوب البحر [45، ص. 32، 36، 39، 141، عمود 360؛ 142، عمود 1883].

ويبدو جلياً اذاً، ان رواية تروغ تعود الى التقليد الصيدوني، كما يشهد على ذلك ذكر صيدون كأقدم مدن فينيقية (Iust., XVIII, 3, 4). وكان لهذا التقليد أثره في اسطورة احدى العملات الصيدونية، التي دعيت المدينة فيها « ام قرطاجة وهيبّون وكيتي وصور » [216، عمود 2217]. وقد تحدّث كتّاب قدامى عن الأصل الصوري لمدينة قرطاجة، لذلك لا نرى ضرورةً في التوقف عند هذا الأمر، ومن المؤكد أيضاً ان صور كانت قائمة تاريخياً قبل الفترة التي تحدّث عنها تروغ. وهكذا، فأن جلّ ما هو أمامنا محاولة من مدينة مزاحمة لاثبات مزاعم أقدميتها [33، ص. 8؛ 222، ص. 16-17][1]. واذا كان انتقال قسم من الصيدونيين الى صور قد حصل بعد هجوم الفيليستيميين، فأن ذلك لا بدَّ من أن يؤدي الى تقوية صور، لا الى ادخال المدينة في فلك الدولة الصيدونية، كما يدّعي اولبرايت [45، ص. 36]. وما كان نشاط الفيليستيميين والتشكريين الذين استوطنوا فلسطين ليعيق نشاط الصوريين.

ولعل الفيليستيميين وضعوا نصب اعينهم احتلال فلسطين، ولا سيما الطرق التجارية المحاذية لنهر الأردن، لكننا لا نملك معلومات عن نشاطهم البحري [357، ص. 491]. أما قرصنة التشكريين فقد استطاعت بشق النفس، قطع الطرق البحرية التي كانت تسلكها السفن الصورية. وما رواه السفير المصري اون — امون يجيز لنا القول بعظمة التشكريين البحرية، لأن الحاكم التوراتي احجم عن اتخاذ أية تدابير ضدهم حين عرقلوا إبحار رسول الفرعون [21، 2، 62-74]. الاّ اننا نرجح رأي إ. ش. شيفمان الذي اعتبر هذا الاحجام دليل عدم رغبة، لا عدم قدرة في اتخاذ التدابير [33، ص. 20]. والواقع ان

---

(١) اساطير مماثلة وجدت في صور (Strabo, XVI, 2, 22)، ومن المحتمل في التوراة (Eus. praep. ev. 1, 10, 19).

القرصنة ميزة من ميزات العالم القديم: فقد تحدث هوميروس عن القراصنة، وقال بمحاربة بومباي والقيصر لهم. وقد سلك الفينيقيون أنفسهم هذا المسلك (Thuc. 1, 8). ولا نكير ان القراصنة شكلوا مصدر ازعاج، لكنهم لم يقفوا أبداً عائقاً منيعاً في وجه التجارة البحرية والفتوحات.

لقد أدى التعاظم المؤقت لسلطة الدولة الأشورية، المرتبطة بجهود « تغلت فلاصر الأول » في أواخر القرن الثاني عشر قبل الميلاد، الى شن الحملة الأشورية على الغرب، لكن النقوش التي خلّدت انتصار ذلك الحاكم الأشوري، وتحدثت عن الغنائم التي حصل عليها من بيبلوس وصيدون وأرواد، لم تذكر شيئاً عن صور. ولم يكن ذلك صدفة [142، عمود 1884]: فصور تحاشت على ما يبدو مصير جاراتها في الشمال. وتجدر الاشارة أيضاً الى انه في القرن الثاني عشر قبل الميلاد، تضاءلت تبعية صور البحرية لصور البرّية بالنسبة لمياه الشرب، لظهور نبع ماءٍ صالح للشرب على الجزيرة [45، ص. 34].

ولا نرى مما تقدم، أية عوائق تحول دون ارتقاء صور الى القرن الثاني عشر قبل الميلاد، القرن الذي بدأ فيه الفتح الفينيقي لاسبانيا استناداً الى اخبار الكتّاب القدامى، وكانت صور بالذات المدينة المتروبولية الفينيقية. وقد توغل البحارة والتجار والفاتحون الصوريون بعيداً في الغرب، حتى منفذ البحر المتوسط على المحيط الأطلسي، المكان الذي يعرف اليوم بمضيق جبل طارق، وسرعان ما تجاوزوه الى المحيط مشيّدين مستوطنات لهم على الشاطئين الاسباني والافريقي، على حدٍ سواء.

لقد اشار قدماء الكتّاب الى جنوب اسبانيا باسم « ترتيسّيدا » (Tartessida). ففيه قامت الدولة الترتيسية حيث مدينة ترتيس (Tartess). ويرد في التوراة اكثر من مرة ذكر بلاد الترشيش والسفن الترشيشية. وقد توصل غيزينيوس في القرن التاسع عشر، الى القول بأن ترتيس اليونانية هي نفسها ترشيش التوراتية [196، ص. 1315]. وقد يرفض العلم الحديث هذا القول، لذلك من الضروري التوقف عنده.

تجدر الاشارة بادئ ذي بدء، الى عدم صحة الافتراض القائل بأن موقع

ترشيش هو على مقربة من فينيقية، وبخاصة انها هي نفسها « ترس » الكيليكية[٢].
لقد اطلق الساميون (بمن فيهم الفينيقيون والأكاديون) على هذه المدينة اسم ترز (Trz)، وعُرفت في النقوش الأكادية باسم تَرزي (Tarzi) [33، ص. 17].
ولا بدّ من لفت الانتباه الى رواية الكتاب المقدس عن مغامرات يونا الذي دعاه الأله يهوا للتبشير في نينوى بفناء هذه المدينة، فما كان من يونا المذعور الاّ الهرب الى يافا حيث ركب سفينةً مبحرةً الى ترشيش (Ion. I, 3). وقد تعود احداث هذه الرواية الى القرن الثامن قبل الميلاد، فترة حياة نبي دعي بهذا الاسم، غير ان هذا الكتاب لا بدَّ من أن يكون قد كتب بعد القرن السادس بعد الميلاد [125، ص. 968؛ 144، ص. 444-445]. ولا تبدو صورة يهوا في هذا الكتاب من التوراة صورة اله قبيلي أو وطني، بل صورة ربٍ لجميع الناس والحيوانات [324، ص. 131]. وبالتالي، فهو لن يهرب لعند جيرانه، بل الى اطراف العالم، وهذا ما كانت تعنيه اسبانية بالنسبة للكاتب الفلسطيني لاكيليكيا. ومهمة هي نقوش ملك الأشوريين اسرحدّون التي تؤكد بأن « ملوك وسط البحر من يا — دا — نا — نا (Ia-da-na-na)، بلاد يا — من (أي اليمن) (Ia-man)، حتى بلاد تر — سي — سي (Tar-si-si) خضعت عند أقدامه [128، ص. 36، 46]. ويصعب الا نوافق « أ. دورم » الذي فسّر هذا النص قائلاً بأن المقصود فيه الجهتان المقابلتان للبحر المتوسط: قبرص واسبانيا الجنوبية [المرجع نفسه]. ولا ريبة بأن تر — سي — سي هي نفسها ترشيش (Taršiš).

ولا بدَّ من التنبّه الى ان دك معالم ترشيش في مطلع القرن الخامس قبل الميلاد (موضوع بحثنا لاحقاً)،واختفاءها من الجغرافية السياسية للعالم القديم في النصف الثاني من الألف الأول قبل الميلاد، قد أدّيا الى التباس وقع فيه بعض الكتّاب الشرقيين ومترجمي التوراة الذين أتوا لاحقاً. من هنا الاشارة في سفر الأخبار الثاني من التوراة (II Par. 20, 36-37) الى ما بناه الملك

(٢) يصادف مثل هذا التطابق في الازمنة القديمة عند يوسف فلافيوس (Ant. IX, 10, 2)، وحالياً عند ب. بوش — هيمير [92، ص. 167].

يوشافاط على البحر الأحمر من سفنٍ للابحار الى ترشيش. ومن هنا أيضاً المحاولات المتعددة لاستبدال كلمة ترشيش، التي اصبحت غير معروفة، بكلمة قرطجنّة المألوفة أو افريقية، أو بكل بساطة « البحر »، كما ظهرت مراتٍ عدّة في « سبتواغينت » و« ترغوم » أو الترجمة اللاتينية، أو أيضاً « تارس » [196، ص. 1315].

وفي الوقت الذي اصبح فيه مصطلح ترشيش غير مفهومٍ في الشرق، بقي استعماله شائعاً عند الفينيقيين في الغرب. فكلمة « تارسيون » (Ταρσήϊον) استُعملت في الترجمة اليونانية للمعاهدة الرومانية ــ القرطاجية (Pol. III, 24, 2, 4)، زد على ذلك، ما يلاحظ في هذا النص من علاقة وثيقة بين هذه التسمية ومدينة ماستيا الاسبانية. ويذكر بوليبيوس (III, 33, 9) في حديثه عن التدابير التي اتخذها هنيبعل قبل زحفه على ايطاليا، ان ترسيتا (Θερσῖται) كان في عداد الأسبان الذين نقلوا الى افريقيا.

ويرد احياناً ان ترشيش ليست اسماً حقيقياً، بل علامة اسمية. فالمؤرخ و. ف. أولبرايت يرى في هذه الكلمة اشتقاقاً ملموساً (Tactile) من فعل rašaš (كَسَرَ)، ويترجمها بكلمة « منجم »، أو « مصهر »، معتبراً ان هذه التسمية تطلق على أي ارضٍ غنيةٍ بالخامات [42، ص. 21-22؛ 319، ص. 33-34]. بعد ذلك، بدأ المستسيم (Sémitologue) الأميركي يميل الى الاعتقاد بأن الفينيقيين كانوا يقصدون بترشيش جزيرة سردينيا [43، ص. 361، ملاحظة 103]. ويفترض البعض أيضاً، ان هذه التسمية تطلق على أي بلد غربي بعيد يتميّز بثرواته الضخمة، كما هي الحال بالنسبة لألدورادو عند اسبان القرن السادس عشر [115، ص. 276؛ 157، ص. 419؛ 200، ص. 311، 316-317، 320-321]. الاّ ان هذه المماحكات تبدو غايةً في التصنع.

ومن المحتمل أن يكون ذكر ترشيش قد ورد لأول مرة في النقش الفينيقي (Cis I, 144)، هذا النقش الذي وُجدَ على أرض نورا القديمة في سردينيا، والعائد الى القرن التاسع قبل الميلاد [281، ص. 147؛ 126، ص. 326]. وقد فسّر العديد من الباحثين (لا كلهم) كلمة « بترشش » (btršš)، الواردة في السطر

الأول من هذا النقش، بما معناه « في ترشيش » أو « من ترشيش » [33، ص. 53؛ 284، ص. 459]. وقد حافظ بافسانيوس (X, 17, 5) على تقليد ينسب بناء مدينة نورا الى الايبيريين الذين قادهم نوراك ابن اريفيا، ابنة هرهيون، وهرمس. ويلتصق اسم هريون عند اليونانيين عادةً بترتيس؛ وهذا ما قام به ستيسيخور (Strabo III, 2, 1). كذلك يربط ستيسيخور جزيرة اريفيا بترتيس [322، ص. 41]. وهذه الأسطورة بالذات رواها سولين (IV,1) حين قال بوضوح ان نوراك وصل الى سردينيا « من ترتيس في اسبانيا ». وهكذا، اذا سلّمنا بذكر ترشيش في السطر الأول من النقش السرديني، تصبح علاقة هذه المنطقة بجنوب اسبانيا امراً محتماً، اما تطابق هذا المكان مع سردينيا فهو أمر غير معقول [284، ص. 460]. واذا أخذنا بعين الاعتبار، ما سبق شرحه يصبح من الواجب الاعتراف بتطابق ترشيش وترتيس.

وقد عاشت في جنوب اسبانيا، في النصف الثاني من الألف الأول قبل الميلاد، وفي القرون الأولى بعد الميلاد، قبائل التورديتانيين والتوردوليين (Strabo III, 1, 6; Ptol. II, 4, 4; 9, 10) التي استوطنت المناطق التي كانت تشكل سابقاً نواة الدولة الترتيسية التي سكنها الترتيسيون، أي وادي بيتيس، الذي كانت تقع عند مصبه، حسب سترابون (III, 2, 11) وبافسانيوس (VI, 19, 4)، مدينة ترتيس. ويُذكر ان ذلك النهر كان يدعى في غابر الزمان نهر ترتيس (Strabo III, 2, 11; Av. or. mar 225). ويمكن اعتبار التورديتانيين (وربما التوردوليين) اخلافاً للترتيسيين. وقد احتفظ ارتيميدور (Steph. Byz. V. τουρδητανία) باحدى طرق تسمية القبيلة، الأمر الأقرب الى التسمية السابقة: التورتيتانيين. وفي أيام كاتون، وفي مكان ما من هذه المنطقة، كانت تقع مدينة تورت (FHA III, P. 189). وتتيح هذه الوفرة في الأسماء المتشابهة من أصل تورت (turt)، تارت (tart)، وتارس (tars)، الافتراض بأن الأصل الفينيقي واليوناني — الروماني لأسم هذه المنطقة يعود الى تعبير محلي، وبأن كلمة ترشيش هي مصطلح فينيقي لتسمية جنوب اسبانيا.

وفي جنوبي اسبانيا قامت الدولة الترتيسية أيام الاستعمار الفينيقي. وتاريخ قيام هذه الدولة غير معروف بدقّة، الاّ انه من المعلوم بأن الحضارة الأرغارية

التي سبقت دولة الترتيسيين كانت في أوجها ما بين عامي ١٧٠٠ و ١٢٠٠ ق.م. [94، ص. 49؛ 293، ص. 178]. ولا يُعقل أن تكون ترتيس وريثة مباشرة للأرغار، فالمركز الرئيسي للثقافة الأرغارية كان يقع جنوبي شرقي اسبانيا، حيث المستوطنة التي أعطت اسمها لتلك الحضارة، في حين ان مركز الحضارة الترتيسية كان في الجنوب الغربي، في المجرى الأسفل لنهر بيتيس. وكانت تلك المنطقة آنذاك، تحت السلطة القوية للثقافة الأرغارية، الاّ ان شبكة المستوطنات الأرغارية فيها كانت غير كثيفة، اذ اقتصرت اساساً على مناطق المناجم، وقلّ ما كانت تمس سكان الأندلس المحليين [94، ص. 51]. وقد تكوّنت السلالة الترتيسية على ما يبدو، في نهاية العصر البرونزي بنتيجة تمازج الأندلسيين مع الايبيريين، اخلاف القبائل حاملة الثقافة الأرغارية [293، ص. 179-180].

وقد غطّت الدولة الترتيسية مساحةً شاسعةً بين نهري « أَنَاس » (Av. or. mar. 223) و« تيودور » (Av. or. mar. 462). ولعل المنطقة الواقعة ما بين مصب نهر أَنَاس وشاطىء المحيط، كانت داخلة ضمن نطاق هذه الدولة، انطلاقاً مما وُجِدَ فيها من نقوش ترتيسية على الصخور [322، ص. 148]. ولم يشغل الترتيسيون انفسهم سوى جزءٍ صغير نسبياً من هذه المساحة، اما القسم الباقي فقد سكنته قبائل أخرى (F. Gr. Hist. I, Herodor., fr. 2A; Av. or. mar. 223, 225,422,450, ...)، كان للترتيسيين مراكز على اراضيها. فمدينة ماينابورا ــ مايناكا، على حد قول هيكاتاي (F. Gr. Hist. I, Hee., fr. 42)، أُقيمت على اراضي الماستيانيين، اما الجزيرة المقابلة لهذه المدينة فكانت تحت حكم الترتيسيين (Av. or. mar. 428). وسيطر الترتيسيون على معظم اجزاء الشاطئ الجنوبي الشرقي، حيث عاش الماستيانيون (Av. or. mar. 199). ويحتمل أن تكون الأراضي الحدودية عند نهر تيودور، بما فيها مدينة هيرنا، ملكاً للترتيسيين (Av. or. mar. 462-463). ولعل كل هذا ينتهي بنا الى استنتاجٍ مفاده ان الدولة الترتيسية كانت على شكل اتحاد فدرالي بين القبائل، في ظل سلطة القبيلة الترتيسية الحاكمة. وكانت تقوم على اراضي القبائل المحكومة قواعد عسكرية (مستعمرات؟) تابعة للترتيسيين.

ولم يبقَ من الشواهد التي تتحدث عن العلاقات الاجتماعية في ترتيسيا سوى القليل، ومع ذلك فان هذه الشواهد الباقية معبّرة للغاية. ويقول ديودور (V, 36, 3) بأن افراداً كانوا يستثمرن المناجم الغنية في جنوب اسبانيا قبل مجيء الرومان [٣](οἱ ἰδιῶται). وهؤلاء الافراد كانوا فقط من التورديتانيين الذين تحدث عنهم سترابون (III, 2, 9) عند تطرقه الى الثروات المعدنية في هذه المنطقة. وهؤلاء التورديتانيون هم سُلاّن (جمع سليل) الترتيسيين. ويُرجَّح بأن قسماً من المناجم في ترتيسيا على الأقل، كان بادارة افراد (ليس ما يوضح تملّكها أو الأذن باستعمالها). كذلك هي الحال بالنسبة للتعدين المنزلي الخاص،الذي دلّت عليه عمليات التنقيب في سيرّو ــ سالومون [79، ص. 13]. فقد وُجدت على هضبة المَكالون اباريق عليها وسوم ونقوش (graffiti) [172، ص. 136-139] تشهد على وجود الملكية الخاصة (وقد نفّذ الوسم، على ما يبدو، فاخوريون، وظهرت على النقوش خدوشٌ نتيجة الاستعمال). ويمثّل احد هذه الوسوم فارساً لاجماً حصانه. وتشبه اشكال معالجة الحصان، حسب قول عالم الآثار، الأشكال المرسومة على صفائح العاج الكارومونية (نسبة الى مدينة كارمونا)، التي ينبغي أن تعود، كما سنرى لاحقاً، الى القرن السابع قبل الميلاد. وفي الطبقة نفسها وجدت خوابٍ مشابهة لتلك التي وجدت في امبوريون، تحمل تاريخ الربع الأخير من القرن السادس قبل الميلاد [172، ص. 139]. وبالتالي، فان مجموع ما اكتشف في « المَكالون » يعود الى فترة وجود الدولة الترتيسية المستقلة.

ويمكننا الحكم، بنتيجة الحفريات في منطقة كارمونا، بتفاوت المجتمع الترتيسي. وتشهد المرافق، التي شيّدت متقاربةً بعضها من بعض في نفس الوقت، على الفرق في الوضعين الاجتماعي والمادي بين اصحابها. واليك مثلاً، ما كانت عليه المدافن على هضبة بينّاكارون: ركام مرتفع يخفي ضريحاً

---

(٣) تصادف هذه الاشارة في مقطع يصف الثروات المنجمية في تورديتانيا (Diod. V, 36, 1-3) ويردده سترابون (III, 2, 9) مستنداً الى پوسيدونيوس. لذلك من الممكن ايضاً ذكر پوسيدونيوس كمرجع مهم حول استثمار الأفراد للمناجم، خاصةً وانه قد زار تلك الأماكن.

تحت الأرض عمقه ٠,٩٥ م، جدرانه مطيّنة ومطلية، بالقـرب منـه عـدة تكديسات قليلة الارتفاع، حرقت تحتها جثث الموتى بطريقةٍ جدًّ بدائية [88، ص. 238-245]. وفي بويرتو ــ خوديو وعلى مسافة يسيرة، تقع مدافن اناسٍ ادنى رتبة في السلم الاجتماعي ،كانوا يعملون في مقالع الحجارة [88، ص. 246]. وقد لوحظت مثل هذه التباينات في اماكن عدة من تلك المنطقة [88، ص. 149-152، 256-258، 285-290]. وجميع تلك المدافن تعود الى القرن السابع قبل الميلاد [75، ص. 23-24].

وتدلّ الكنوز التي عُثِر عليها في اراضي تارتيسيا على غنى الأشراف المحليين. وقد اكتُشف احدها على هضبة الكارنبولو وهو يعود الى القرن السادس قبل الميلاد، ويضم واحداً وعشرين مصاغاً ذهبياً وزنها الاجمالي ٢٩٥٠ غراماً، مـن بينهـا قلادتـان وسواران و١٦ لوحـة مستطيلـة [238، ص. 38-49]. وعُثِر في ايڤورا، على مقربةٍ من مصب نهر بيتيس القديم [71، ص. 50-57]، على سبعٍ واربعين قطعة ذهبية، بينها سوار واقراط وخاتـم وغيرها، تعود الى فترة أقدم. وقد وُجِدَ في كِلا الكنزين عقود ذهبية باذخة، تنم بجلاء عن غنى اصحابها لدى مقارنتها بالخرز الذي اكتُشِفَ في احد المدافن بالقرب من كارمونا. فقد كان ذلك الخرز عبارةً عن ثلاث محارات وحجرٍ صغير اسود،وقطعةٍ من نيب خنزيرٍ برّي،وحلزون نحاسي،وخرزة اسطوانية [88، ص. 240].

وتتمّم المعلومات الأثرية القصّة المأثورة التي حفظها يوستين (XLIV, 4, 1-14) والتي تتحدث عن القياصرة الترتيسيين غرغوريس وغابيس. وقد تمّ تحديد الأصل التورديتاني المحلي لتلك القصة [322، ص. 130-131].

ونقرأ عن نشاط غابيس ما يلي: « حظَّر على الشعب اعمال الرق،ووزّع العامة (Plebs) على سبع مدن » (Iust. XLIV, 4, 13). وتتمتع كلمة «Plebs» في اللاتينية بعدة معاني [215، عمود 74-75]، لذلك نرى من الواجب والحالة هذه، تحديد معناها.

تتكرّر كلمة Plebs عند يوستين عشر مرات، وذلك في المراجع التالية: II، 7، 4 ــ تشريع سولون؛ V، 35، 6 ــ ظلم الأربعماية في أثينا؛ XVI، 4، 1-20 ــ تثبيت استبداد كليارخ في هيراكليس البنطية (تستعمل هذه الكلمة في هذا المرجع ست مرات)؛ XXI، 4، 3 ــ محاولة حنّون للاستيلاء على السلطة في قرطاج؛ XXII، 2، 2 ــ انقلاب اغافوكل في سيراكوزا. ويقابل كلمة «Plebs» في جميع هذه الحالات كلمة «Senatus»، اما في المراجع الموازية فالكلمات اليونانية المقابلة هي πενηται (Plut. solo XIV, 1) δημος (Solo 5 (14), 1)، ὄχλος (Thye. VIII, 99, 11). ويدل « رواق هيراقليس التجاري » على فقر الـ «Plebs»، نظراً لمطالبته (أي الـ «Plebs») بالغاء الديون واعادة تقسيم ارض الأثرياء، لكنه يشكل في الوقت نفسه جزءاً من الجماعة المدنية، طالما ان تَخَاصمه هو مع مجلس الشيوخ (Senatus) ــ « الخصومات المدنية » (Civiles discordiae)، وبصفته مشاركاً في المجلس الذي يتمتع بصلاحية تقليد القائد السلطة المطلقة. وتنطوي الرواية عن احداث سيراكوزا على شيء من التنافر، لاننا نجد فيها ذكراً لوجود « اناس شديدي الثراء وعريضي الشهرة » وسط العامة، في حين ان Plebs هنا يواجه Senatus، الذي يقصد به في جميع الأحوال، الارستقراطية. ومن الواجب التذكير بأن الحديث يدور دائماً عن دول تحكمها اقلية، كأثينا قبل سولون وظلم الأربعماية، هيراكليس قبل كليارخ، سيراكوزا قبل اغافوكل، قرطاجة. وتتمتع كلمة Plebs، على ما يبدو، في « رواق ترتيس التجاري » بمثل ما كانت تعنيه في الحالات السابقة الذكر.

اما فيما يتعلق بكلمة populus، فانها تتكرر اكثر بكثير، ولها معانٍ اكثر. وقد يعني هذا المصطلح الشعب كلّه، عندما يكون مرادفاً لكلمة gens، natio (مثلاً، I, 2, 3)؛ والدولة (III, 2, 4) والشعب الحاكم، كالفرس في دولة الاخمينيين (X, 3, 5)، والشعب المقابل للأشراف، أي انه يصبح مرادفاً لكلمة Plebs (III, 2, 9؛ III, 3, 1؛ XVI, 4, 1-20). ويستعمل يوستين هذه الكلمة في « رواق ترتيس التجاري » مرةً أخرى، في غير المجال الذي يهمنا هنا (XLIV, 4, 11): اعطى غابيس القوانين الى شعب البرابرة. اذن، الحديث يتناول

هنا جميع سكان ترتيس. وقلّما يكون استعمال الكلمة نفسها في المقطع الواحد مختلفاً عن بعضه، كذلك فأن تواجد كلا المصطلحين في نفس الجملة يدل على انهما يحملان مدلولاً مختلفاً. وأغلب الظن ان Plebs — جزء من populus، اما Populus فيضم العامة والارستقراطية. وما زال الوصول الى تحديد دقيق لمحتوى هذين المفهومين بعيد المنال حتى الآن، لكن وجود الارستقراطية والعامة بحد ذاته في المجتمع الترتيسي، وهو أمر تؤكده المعلومات الأثرية، يدل على التفاوت الاجتماعي الأكيد بين سكان الدولة الترتيسية [19، ص. 12][٤].

وتبدو التعليمات التي اصدرها غابيس لتحرير الشعب من « أعمال الرق » (servilia ministeria) غايةً في الأهمية. ولعل المقصود بهذه « الأعمال » هو الأعمال اليدوية، وفي هذه الحال نجد تماثلاً مع تشريع ليكورغ (بعيداً عن مدى صحّة هذا التشريع)، الذي حسب ما يقول بلوتاريوس (Solo 22,2) خلّص المواطنين من هذا العمل. الاّ ان التطور الكبير الذي شهدته الأعمال الحرفية في ترتيسيا يناقض هذا الافتراض. وقد يكون من الواجب البحث عن الحل في مستندٍ من دورا — اورويوس، حيث نقع أيضاً على تعبير « أعمال الرق » (δουλικαὶ χρεῖαι): ان شخصاً يدعى بارلاس بدل دفعه فائدة عن دينه، قام « بأعمال الرق » لصالح دائنه، منفذاً كل ما كان يأمره به، ودون أن يبتعد عنه لنهارٍ أو لليلٍ واحد [151، 20]. وهكذا فان المديون كان بالفعل في موضع العبد. وأغلب الظن، ان يكون الكاتب الروماني قد استعمل التعبير نفسه للدلالة على مثل هذه الحالة (نظراً لعثوره على شيء مشابه لذلك في مرجعه التورديتاني). ويكون المقصود بمنع « اعمال الرق » في هذه الحالة، انه حظّر اعتباراً من ذلك التاريخ استعباد الترتيسيين، الشعب الحاكم في الدولة [261، ص. 273]. وهكذا يبدو طبيعياً الافتراض القائل بأن منفذي هذه الأعمال كانوا من الرقيق.

---

(٤) يبدو لنا غير صحيح الافتراض القائل بأن كلمة شعب في هذه الجملة تقابلها كلمة عامة، وبالتالي فان ما تعتبره ف.أ. كوزلوفسكايا [19، ص. 12] من ترادف بين كلمة « شعب » وارستقراطية هو غير صحيح أيضاً.

وقد عثر د. بونسور اثناء الحفريات في منطقة كارمونا على بقايا بيت سكني، وُجدت بالقرب منه تجاويف فيها حطام يشهد على وجود اكواخ. كما عثر ل. سيريه عند البستيتيين (اخلاف المستيين ـ سكان القسم الشرقي من الدولة الترتيسية) على آثار مثل هذه الأكواخ والى جانبها حفر مملؤة بفضلات المطبخ [88، ص. 292]. وعلى ما يبدو كان سكان هذه الأكواخ من العبيد الذين كان يملكهم صاحب البيت. اما في المنزل نفسه، فقد عُثر على خزفيات شبيهة بتلك التي وجدت في المدفن الكبير المجاور كروس ـ ديل ـ نغرو [212، ص. 84]، الأمر الذي يسمح بتأريخ المنزل وجواره في الفترة الواقعة ما بين القرنين السابع والخامس قبل الميلاد [75، ص. 25]. وكنّا قد تحدثنا عن المدافن التي اكتشفت في بويرتو ـ خوديو والتي كان اصحابها يعملون في مقالع الحجارة المجاورة. فقد كانت كل موجودات هذه المدافن مؤلفة من بضع قطعٍ من الخزف الخشن. ويحتمل أن يكون هؤلاء العمال من العبيد، كمايحتمل أن يكون الذين دفنوا في المنطقة الشمالية من مقابر توتوغا وتوي، حيث عثر على حفرٍ بسيطة قليلة العمق تحتوي على رماد، من العبيد أيضاً [99، ص. 237؛ 293، ص. 220].

وتجدر الاشارة الى النقش اللاتيني الذي يحمل تاريخ العام ١٨٩ قبل الميلاد،والذي ينطوي على قرار ليوتسي اميل بابلو، الذي بموجبه حرّر القائد الروماني العبيد الهستنسيين (Servei Hastensium) الذين كانوا في قلعة لاسكوت، وثبّت حقهم في تملّك المدينة والحقول (CIL II, 5041). وكانت هاستا، حسب ما ذكر سترابون (III, 2, 5)، احدى اقدم مدن تورديتانيا. وقد اثبت ت. مومزن بأن تلك المدينة كانت المقر القديم للحاكم المحلي [260، ص. 265]. ويعتبرها البعض احياناً ترتيس الغامضة [290، ص. 106-107]، لا سيما ان ذلك جرى في مطلع الاحتلال الروماني. ويدل كل هذا على الطابع المحلي للرق. ويمكن تفسير تعبير Servei Hastensium بطريقتين: أولاهما امكانية امتلاك كل الجماعة الهستنسية لهؤلاء العبيد [23، ص. 220]، والثانية امتلاكهم من قبل بعض المواطنين؛ وفي هذه الحالة، يبدو ان العبيد اجتمعوا في القلعة واستولوا عليها أثر انتفاضة. ونحن من ناحيتنا نميل

الى الأخذ بالاحتمال الثاني. فلو ان العبيد الذين اجتمعوا في لاسكوت كانوا يمتلكون الأرض والمدينة، لما كان القائد الروماني بحاجةٍ لتثبيت ملكيتهم بوثيقة خاصة. وهناك مظهر مشابه ورد في اتفاق الرومان مع ڤيريات،وينص على اعطاء اللوزيتانيين كل الأراضي التي كانوا قد احتلوها لحين توقيع الاتفاق (App. Hisp. 69). ويحتمل أن تكون وثيقة القائد الروماني مكافأةً لانتفاضهم ضد الأسياد الذين قاوموا السلطة الرومانية [22، ص. 346-348]. وأغلب الظن، ان ارساء مبدأ الرق في توردیتانیا یعود الى عهد وجود الدولة الترتيسية.

اما فيما يتعلق بالقوانين، فهناك دلائل واضحة على وجودها في دولة الترتيسيين. وتنسب الأسطورة التورديتانية الى القيصر غابيس، من بين ما تنسب اليه من مآثر، قيامه بادخال القوانين (Iust. XLIV, 4, 11). ويؤكد سترابون (III, 1, 6) وجود القوانين القديمة عند التورديتانيين في العصر الروماني، يضاف الى ذلك انه كان لهذه القوانين، حسب اقواله، صيغها العروضية. وقد اختار أ. شولتن أمثلةً تدل على ان هذا الشكل من القوانين ليس امراً نادراً، لكن جميع هذه القوانين قديمة [322، ص. 146]. ويلتبس الأمر على القارىء لتحديد القوانين في مخطوطات سترابون: هل هي تتألف من ستة آلاف بيت من الشعر (ἑξακισχιλίων ἐπῶν)، ام ان عمرها ستة آلاف سنة (ἑξακισχιλίων ἐτῶν). فاذا اعتمدنا الطريقة الثانية نرى بلا شك ان القوانين هي تراث العهد الترتيسي، وما الرقم المضخّم الى ستة آلاف سنة الاّ دلالة على قدمها. غير اننا لو اعتمدنا الطريقة الأولى،لرأينا ان الصيغة العروضية (Forme métrique) هي بحدّ ذاتها دليل على قدم التشريع. ويبدو ان بين هذه القوانين نص يمنع الشاهد من الشهادة في المحكمة ضد من هو أكبر منه سنًّا (F. Gr. Hist., IIA, Nikolaos von Damaskos, fr. 103a)، الأمر الذي يدل على احتفاظ المجتمع الترتيسي برواسب من النظام القبلي. ويحتمل ان يكون هناك قانون آخر يمنع على الشعب « اعمال الرق ».

وتفيدنا الأخبار المتداولة عن الملكين غرغوريس وغابيس عن وجود تقسيم مناطقي في الدولة الترتيسية (توزيع « العامة » على سبع مدن، علماً ان هذا التقسيم ليس الوحيد) وعن توريث للسلطة (Iust. XLIV, 14).

انطلاقاً من كل ما سبق، يمكننا تأكيد وجود مجتمع طبقي في ترتيسيا، والقول بأن ترتيس كانت دولة.

ويُستدل من التقليد القديم والتوراتي ان ترشيش — ترتيس — كانت على درجةٍ من الثراء. وبفضل علاقات هذه البلاد مع مملكة يهوذا ايام سليمان، « اصبحت الفضّة في اورشليم بكثرة الحجارة » (I Reg. X, 27) و« اعتبرت بدون قيمة في عهد سليمان » (I Reg. X, 31). واعتبر ستيسيخور (Strabo III, 2, 1) مجرى نهر ترتيس « ناقلاً للفضة »، وقد جاء في اقوال اناكريونت (Strabo III, 2, 14) — ان ترتيس رمز للثراء، تماماً كما قرن امالفيا رمز للخصب. ويقول هيرودوت (IV, 152) ان السموسيين الذين حلّوا في ترتيس حملوا معهم كمية كبيرة من البضائع لقاء مبلغ، لم يسمع بمثله، قدره ٦٠ وزنة (Talent). وانتشرت اسطورة عن الفينيقيين لاحقاً، تقول بأنهم حصلوا على كميات كبيرة من الفضة مقابل زيت الزيتون وغيره من السلع البحرية الصغيرة، بحيث انهم غطّوا مراسي سفنهم بالفضة (Ps.-Arist. de mirab. ausc. 135). وقد قام الفينيقيون، وفق هذه الأسطورة التي نقلها ديودور (V, 35, 4)، باستبدال رصاص المرساة بالفضة. ويذكر المؤرخ الصقلّي هذا العمل أيضاً وكأنه عادة متأصّلة.

كانت الثروة الأساسية في ترتيس مكوّنة من المعادن، وبخاصة من الفضة (Strabo III, 2, 9; Diod. V, 36, 1-3; Ez. XXVII, 12, IReg. 21, 27)، الى جانب وجود الذهب (Steph. Byz. V. Ἴβυλλα; Strabo III, 2, 3; Ps. - Sc. 166). اما القصدير، أحد أهم معادن العهد القديم، فقد وجد كذلك في توردیتانیا، على حد ما يذكر بوسيدونيوس (in Strabo III, 2, 9). ويذكر كتّاب آخرون (Av. or. mar. 296; Ps.-Sc. 163-166; Eust. ad Dion. 337) ان نهراً كان يحمل القصدير الى ترتيس. ويُقال اليوم ان منابع نهر بيتيس كانت تمر بالفعل بمكمن للقصدير 4، ص. 120]. غير ان هذا المعدن لم يكن يكفي حاجة الدولة الترتيسية، فكان يتم الحصول عليه عن طريق التجارة مع البلاد المجاورة.

وتشير بعض المعلومات الى وجود ثلاث طرق بريّة تنطلق من ترتيس اتجاهات مختلفة. ويحدد اڤيان (Avien) اثنتين منها: تتطلب المسافة

الفاصلة بين مصب نهر تاغا وشاطىء الترتيسيين،مسير خمسة أيام على الأقدام (Av. or. mar. 170-180)، وأربعة أيام من ترتيس حتى ماييناكا (Av. or. mar. 180-182). اما الطريق الثالثة، فتدل عليه لقايا اباريق برونزية (وابريق زجاجي مماثل) عائدة الى القرنين السابع والسادس قبل الميلاد. وقد عُثِر على هذه المصنوعات في منطقة ضيقة داخل شبه الجزيرة تمتد من اقليم الترتيسيين باتجاه الشمال، علماًان هذه الطريق تطابق في الكثير من مواصفاتها الطريق الرومانية [186، ص. 59-61؛ 189، ص. 59]. ويحتمل أن يكون التجار الجنوبيون قد بلغوا القسم الشمالي الغربي من شبه جزيرة البيرينه، حيث مناجم القصدير الغنية. ففي منتصف هذه الطريق، في المنطقة الواقعة ما بين تاغا ودُوزيس، جبال غنية بالمعادن (Strabo III, 2, 3). وقد اكتشفت منذ فترة قريبة في هذه المنطقة،مناجم القصدير القديمة [46، ص. 207]، كما عُثِر بالقرب من أليسيدا على كنزٍ يعود الى حوالي القرنين السابع والسادس قبل الميلاد [73، ص. 6؛ 256، ص. 96-124]. ومن هنا، على ما يبدو، كان الترتيسيون يحصلون على المعادن، ومن ضمنها القصدير.

وتخطّت التجارة الترتيسية حدود شبه جزيرة البيرينه بكثير. ونظراً لوجود ترتيس في مكان مناسب، على الحدود بين البحر المتوسط والمحيط الأطلسي، فقد كانت همزة وصل بين البلاد المتوسطية واوروبا الأطلسية. ولعل دفائن المصنوعات البرونزية التي اكتشفت في ويلڤا، والعائدة لأواسط القرن الثامن قبل الميلاد [90، ص. 395-396]. هي الدليل على اتساع التجارة الترتيسية. فقد وجدت فيها سيوف معروفة جيداً في بريطانيا وبلاد الغال ومنطقة البحر المتوسط، وأبازيم (Fibules) صقلية وقبرصية ـــ فلسطينية الشكل، وخناجر شبيهة بتلك التي وجدت في جنوب انكلترا واسكتلندا وتعود لنفس القرن، وفؤوس مماثلة لتلك التي عثر عليها على هضبة سا ـــ إيدّا في سردينيا [46، ص. 201-202؛ 91، ص. 372؛ 209، ص. 100؛ 281، ص. 147][٥]. ويدل

(٥) سنرى لاحقاً انه كانت توجد في مكان اولڤا الحديثة مستوطنة فينيقية، على ما يبدو. ولعل الكنز الذي عثر عليه في خليج هذه المدينة بيّنة على التجارة الفينيقية وليس الترتيسية.

انتشار الفؤوس الاسبانية في بريطانيا وبلاد الغال، وانتشار القدور البريطانية في اسبانيا، على تجارة الترتيسيين مع شمال غربي اوروبا [209، ص. 114]. وقد عُثِر في قبرص وحوض بحر ايجيه واسبانيا وايرلندا على تروس دائرية حفر عليها حرف V [46، ص. 201-202]. ويقول افْيان عن انتشار تجارة الترتيسيين ناحية الشمال (Av. or. mar. 113-114) : « كانت التجارة حتى حدود استرمنيدا احدى تقاليد الترتيسيين ». اما استرمنيدا، وفق افْيان، فهي على ما يبدو مقاطعة بريتانيا. وبما ان منيديين كانوا بحّارة مهرة (Av. or. mar 100-107)، فمن المحتمل أن يكون الترتيسيون قد وصلوا حتى استرمنيداء التي كانت حلقة وصلٍ بين ترتيساً وبريطانيا، على غرار ترتيسيا التي كانت تصل بين شمال غرب اوروبا والبحر المتوسط [322، ص. 119].

ولقد كانت لترتيسيا علاقة تجارية مع شمال غربي افريقياء ويبدو ان قسماً من الفخّار الذي وجد على جزيرة موغادور، عند الشواطىء الأطلسية المعروفة اليوم بالمغرب، نقله الترتيسيون الى هناك [359، ص. 18-19]. ولعل العلاقات بين ترتيسيا وافريقيا، قد انعكست في الحكاية التي رواها سليوستيوس (Iug XVIII, 5-10) : تاجر المغاربة (وبشكل ادق، الميديان والأرمن، الذين أدى تخالطهم الى ظهور المغاربة) مع اسبانيا التي يفصلها عنهم المضيق، فظهرت عندهم المدن؛ في حين تأخر تطور الفارسيين الذين سكنوا قبالة المحيط وجنوب المغاربة، بسبب بعدهم عن اسبانيا (حسب قول سليوستويس، اصبح الفرس الذين اختلطوا بالغيتوليين، اجداداً للنوميديين). وكان مصدر معلومات المؤرخ الروماني على حد قوله، الأفريون، أي، على الأرجح، الفينيقيون الذين سكنوا افريقيا. وفي كل الأحوال، يؤكد التقليد الأفريقي الذي لا لبس فيه، على أهمية العلاقات بين الأفارقة وشبه جزيرة البيرينه.

تلك كانت حالة البلاد التي اقام فيها الفينيقيون مستعمراتهم.

وتعود أول معالم خطّية عن علاقات فينيقيا وفلسطين بترتيس الى القرن العاشر قبل الميلاد، ايام مملكة سليمان في اورشليم واحيرام في صور. ويتحدث سفر الملوك، الأصحاح الأول (X, 22)، عن امتلاك سليمان « سفينة ترشيشية

في البحر مع سفينة احيرام، تأتي مرةً كل ثلاث سنوات؛ وتنقل سفينة ترشيش الذهب،والفضة،والعاج والقرود... ». ويعود نص سفر الملوك الذي وصلنا الى منتصف القرن السادس قبل الميلاد. بَيْدَ ان هذا التحرير هو الثاني. اما الأول فيعود الى اواخر القرن السابع،أو أوائل القرن السادس قبل الميلاد [89، ص. 1610؛ 324، ص. 93]. والأهم من ذلك، ان المرجع الذي استندت اليه كان كتب ملوك اسرائيل ويهوذا، التي يرجع اليها المؤلف اكثر من مرة؛ اما حديثه عن أيام سليمان فيعتمد على كتاب أعمال سليمان (I Reg. XI, 4) الذي وضع بعد انقضاء فترة على وفاة هذا الملك [324، ص. 94].

وقد بيّن جيزينيوس [196، ص. 1316] ان عبارة « سفينة ترشيشية » كان يقصد بها في البدء،السفن التي كانت تبحر الى ترشيش،واصبحت تطلق فيما بعد على كل السفن التي تمخر عباب البحار. ويبدو ان هذه العبارة ظلّت محافظة على معناها في القرن العاشر قبل الميلاد. وما ابحار سفينة سليمان الترشيشية الى اسبانيا البعيدة،مع سفينة ملك صور،الا دليل واضح على الدور الفعّال الذي كانت تقوم به صور في مجال التجارة مع ترشيش. ومن مجمل ما هو معروف عن صور في تلك الفترة،يمكننا القول على وجه التحديد: ان صور لعبت الدور الأول في العلاقات مع جنوبي اسبانيا، وسُمِح لملك اورشليم بالمشاركة في التجارة الاسبانية،فقط بصفة شريك اصغر، وكصديقٍ وحليفٍ لاحيرام.

ويُفترض ان يكون الفينيقيون قد وطئوا اراضي ترتيس في وقت سابق لبنائهم مستوطناتهم هناك. وهذا ما تشهد عليه رواية ديودوروس (V, 35, 3-5) الذي يروي ان الفينيقيين كانوا يبادلون سلعهم بالفضة التي نقلوها لاحقا الى اليونان وآسيا وغيرها من الدول، حاصلين بذلك على ربحٍ وفير. وقد مارسوا تلك التجارة لفترة طويلة، قاموا بعدها ببناء مستوطناتهم العديدة في صقلية، والجزر القريبة منها، وليبيا، وسردينيا، وايبيريا أي اسبانيا. ويصف ديودوروس الأسبان المتعاملين مع التجار الفينيقيين بالسُذّج لعدم درايتهم بفائدة الفضة. ويعتبر مثل هذا الوصف صحيحاً،اذا اعدناه فقط الى الأزمنة التي

سبقت ظهور الدولة الترتيسية [33، ص. 22-23]. ويشكّل توافر المصنوعات الشرقية الطابع في القسم الجنوبي ــ الشرقي من شبه جزيرة البيرينه، كالخرز الخزفي المصري، والأختام الاسطوانية السورية، وشظايا بيض النعام، والأصنام المصنوعة من عظام فرس النهر (التي يجب عدم خلطها بالامشاط المنقوشة، المصنوعة في منطقة كارمونا)، دليلاً مادياً على العلاقات الفينيقية ــ الأسبانية في الألف الثاني قبل الميلاد [115، ص. 271-274؛ 261، ص. 308].

وترجع بداية الاستعمار الفينيقي في اسبانيا،حسب التقليد القديم،الى اواخر الألف الثاني قبل الميلاد. وتعتبر المدينة المسماة باللاتينية قادس،اقدم المستوطنات الفينيقية وأهمها في تلك البلاد. وقد دعاها الفينيقيون قادير، أي التحصين. وقد تناول كلٌ من ديودوروس وسترابون وفيلّي باتركولي وبومبونيوس ميلا ظروف وزمان بناء هذه المدينة. ويروي ديودوروس (V, 20) ان الفينيقيين الذين كانوا يمخرون عباب البحار منذ القدم بهدف التجارة، اقاموا العديد من المستوطنات في ليبيا والقسم الغربي من اوروبا، وخرجوا الى ما وراء المضيق،وأقاموا عند ضفافه مدينة قادس التي بنوا فيها هيكلاً فخماً لهرقل، الى جانب معالم أخرى.

ويقول سترابون (III, 5, 5)،الذي يستند الى اقوال أهل قادس،ان وسيط الوحي (Orale) أمر الصوريين باقامة مستوطنة عند ابواب المضيق (التي كانت تسمى معالم هرقل أو الهرقليات). وقد منيت حملتاهم الأوليان بالفشل، لأن نتائج تقديم القرابين كانت غير موفقة. وكان يجب انتظار المرة الثالثة ليتم بناء الهيكل في الجزيرة، والمدينة في غربيها.

ومن خلال ما نجده من تطابق في وصف اسبانيا في أعمال ديودوروس وسترابون، يمكننا الافتراض ان مصدر معلومات كلا المؤرخين عن تلك البلاد هو واحد. ورغم تسمية سترابون عدداً كبيراً من الكتّاب اليونانيين الذين كتبوا عن اسبانيا، نراه يستشهد غالباً بپوسيدونيوس، وبخاصة في تلك الأماكن التي يرددها ديودوروس حرفياً، كالأخبار عن القصدير الأسباني وطرق استخراجه مثلاً (Diod. V, 38, 5; Strabo III, 2, 9). وفي هذه الحالة أيضاً، يبدو

ان المصدر المباشر لمعلومات كلا المؤرخين كان پوسيدونيوس الذي زار اسبانيا، ومدينة قادس ضمناً. لذلك لا يستغرب ان يكون سترابون وديودوروس قد اطّلعا منه على ظروف قيام المدينة،بما فيها الرواية حول وسيط الوحي (الكاهن) والمحاولات الفاشلة التي سبقت بناء المدينة.

مبدئياً، لا يثير وصف ظروف نشوء قادس ملابسات تذكر. فقد لعب وسطاء الوحي في العصور القديمة دوراً مهماً في عملية الأستعمار. وتلك كانت حال كاهن معبد « دلف » في اليونان. فمن خلال المعلومات التي كان يستقيها من كل حدب وصوب، كان معبد دلف يوجّه جحافل المستعمرين [297، ص. 45-49][٦]. ويرى الباحثون بحق،في رواية سترابون حول المحاولة الثلاثية لبناء المدينة، انعكاساً للصراع بين الفينيقيين المستعمرين والترتيسيين، الذين نجحوا لفترة من الوقت في اعاقة بناء مستوطنة فينيقية [33، ص. 24-25؛ 322، ص. 34-35]، خاصةً وان الفينيقيين استقرّوا لاحقاً في كلا المكانين اللذين نزلا فيهما الى البرّ (مدينة سيكسي،والمستوطنة التي كانت قائمة مكان ما يعرف اليوم بمدينة ويلڤا)، الأمر الذي يجعلها بعيدة عن الصدفة.

ويؤرخ فيلي باتركولي (Vellei Paterculli)،وميلا (Mela) تأسيس قادس على الشكل التالي: يذكر الأول بأنه في العام الثمانين على سقوط طروادة، اقام الأسطول الصوري، الأقوى في البحر، مدينةً في آخر الدنيا، في اسبانيا، على جزيرة يلفّها المحيط، هي مدينة قادس (Vel. Pat. I, 2). اما ميلا (III, 46) فيشير الى وجود مدينة قادس الغنيّة على جزيرة يفصلها عن القارة مضيق ضيّق، ويقوم على الطرف الآخر من هذه الجزيرة معبد لهرقل يعود تأسيسه الى أيام حرب طروادة.

وقد دوّن ميلا، المولود في اسبانيا بالقرب من قادس، اخبار التقليد المحلي. وتتيح لنا طريقة ايلائه الاهتمام للمعبد بشكل اساسي، القول بأن الكهنة القادسيين كانوا مصدر معلوماته [23، ص. 224؛ 33، ص. 22]. لكن الأمر يبدو اكثر صعوبة بالنسبة لتحديد مصادر فيلي باتركولي [15، ص. 40].

---

(٦) بالطبع هذا لا يلغي الأسباب الأخرى الأهم الكامنة وراء بناء المستعمرات في هذه المناطق أو تلك.

يخصّص باتركولي الفصل الثاني من كتابه الأول « التاريخ الروماني »،الذي يشير فيه الى نشوء قادس، لتاريخ اليونان الأسطوري على نحو اساسي: عودة الهرقليين واطاحتهم بأولاد اورست، مقتل كودر في المعركة مع السبارطيين، وبالتالي، تبدل السلطة القيصرية في أثينا، بناء البيلوپونيسيين لمدينة ميجارا، ليصل الى بناء الأسطول الصوري لمدينة قادس في ذلك الوقت (in ea tempestate)، والى بناء اوتيكا في افريقيا بعد عدة سنوات.

ويعود المؤلف بعد ذلك الى الأحداث اليونانية ــ مصير ابناء اورست الذين استقروا بعد سنوات من التشرّد في ضواحي جزيرة ليسبوس. ويتحدث لاحقاً عن التاريخ اليوناني، يقطّعه بحواشٍ مختصرة عن اشوريا وميديا وبناء أليسار، التي يسمّيها البعض ديدون، مدينة قرطاجة. ويبدو ان المصدر الأساسي للقسم اليوناني الأول من مؤلف باتركولي،هو المؤلفات الملحمية الهلّينية والأسطورية التخطيطية، وهذا ما يؤكده ذكر الحاكمين الأشوريين الأسطوريين نين وسميراميس.

مع ذلك، يثير التعاطي مع المقطع الذي يهمنا مصاعب عدة. فقد أورد المؤرخ ان مؤسسي قادس هم الصوريون الذي كان اسطولهم الأقوى. لكننا، من ناحية أخرى، نرى الشعر اليوناني، وشعر هوميروس مثلاً، يعتبر صيدون بالتقليد،أهم مدن فينيقيا. وفي هذا المجال تبدو ملاحظة سترابون (XVI, 2, 22) قيّمة، فهو يرى انه بالرغم من تغنّي الشعراء بصيدون (لا يذكر هوميروس شيئاً عن صور)، فان الجاليات التي أُرسلت الى ليبيا وايبيريا، وحتى الى الناحية الأخرى من « الأعمدة »، تتغنى بصور اكثر. ولا ريب ان المستوطنة الفينيقية من الناحية الأخرى من الأعمدة،كانت قادس. ونشعر من خلال اقوال باتركولي، التي تعظّم قوة الصوريين البحرية، بتغنّي القادسيين بصور. ويبدو لنا في نهاية المطاف،ان معلومات المؤرخ الروماني تعود الى مصادر قادسية. ويحتمل، كما يرى هيوبنر، ان يكون تيميوس، الوسيط الذي أخذ عنه فيلي باتركولي [217، عمود 446-447][٧].

(٧) يحتمل ان تكون جذور الرواية عن تأسيس أوتيكا في الأزمنة القديمة عائدةً الى مراجع فينيقية عن طريق تيميوس [360، عمود 1875-1876].

وهكذا نرى بأن التقليد المحلي هو ما يعتمد عليه في تأريخ بناء قادس، الأمر الذي يوجب التساءل عن مدى صحته.

وللعلم الحديث وجهتا نظر متناقضتان حول صحة هذا التأريخ ، فبعض الباحثين لا يركنون الى التواريخ التقليدية [23، ص.224، 24، ص. 133؛ 45، ص. 39-42؛ 63، ص. 123-124؛ 92، ص. 167؛ 104، ص. 49-53؛ 345، ص. 268]،والبعض الآخر يركنون اليها [33، ص. 19-22؛ 141، عمود 364؛ 142، عمود 1883؛ 182، ص. 330-331](٨). وتتلخص حجج معارضي قِدَم قادس في انعدام الشواهد الأثرية عن تاريخها التقليدي، وفي الوضع السياسي غير الملائم لصور في منطقة شرق البحر المتوسط خلال القرنين الثاني عشر والحادي عشر قبل الميلاد. ورداً على الحجة الثانية، يمكن التذكير فقط بما سبق ذكره عن امكانية تفوّق صور في ذلك الوقت، اما الرد على انعدام الشواهد الأثرية فهو رد غير حاسم،لأنه لا يمكن البت بنتائج التنقيبات سلفاً. فلفترة قريبة خلت كان جُعَلْ (Scarabée) پساميتيح الأول،العائد للنصف الثاني من القرن السابع قبل الميلاد، يعتبر اقدم شاهد على الوجود الفينيقي في شبه جزيرة ايبيريا [180، ص. 326-327]، اما الآن فقد كُشف عن عاديات تعود الى القرن التاسع قبل الميلاد [84، ص. 43-44]. ولا بدَّ من الاشارة الى عدم توفر امكانية التنقيب المنتظم عن قادس، لأن كاديس الحديثة والكبيرة قد شيدت على انقاض قادس القديمة. وهكذا فانه ليست لدينا أية أسس للشك بالتأريخ التقليدي المرتكز على الأساطير المحلية، القائل بتأسيس قادس في القرن الثاني عشر قبل الميلاد، و« المرتبط » باحداث حرب طروادة. ومن الممكن أن يكون قد أوحى المؤرخون الفينيقيون بدور اليونان القدماء،الى الكتّاب القدامى. فميناندر الآفي مثلاً، الذي استخدم مصادر فينيقية (Ios. contra App. 1, 18)، يشير الى وصول مينيلاي الى فينيقيا بعد سقوط طروادة (in Clem. Alex. Strom, 1, P. 140, 8).

---

(٨) يعتبر أ. هيوبنر [217، عمود 447] وأ. جودين [230، ص، 216] ان التواريخ التقليدية وان كانت اسطورية، فهي مقبولة بمجملها.

وتجدر الملاحظة الى انه بالرغم من ان اخبار ميلا وباتركولي تذكر نفس التأريخ ـــ القرن الثاني عشر ـــ فانها تختلف حول فترات تاريخية ادق. يحدد ميلا تأسيس المدينة في زمن حرب طروادة (أي حوالي عام ١١٨٤ قبل الميلاد، وفق المعلومات التقليدية)، في حين يؤرخ فيلي باتركولي ذلك بعد ثمانين سنة من تلك الحرب (أي حوالي عام ١١٠٤). ويبدو ان ما اورده سترابون حول بناء الفينيقيين لمدنٍ وراء معالم هرقل، وفي أواسط الساحل الليبي « بعد فترة وجيزة من حرب طروادة » (Strabo 1, 2, 3)، يتفق وتأريخ باتركولي. ومع ذلك، فاللافت هو ان سترابون وباتركولي كلاهما يتحدثان عن بناء المدينة بالذات، في حين ان اقوال ميلا تتعلق ببناء هيكل ملقارت. اما فيما يتعلق بالمدينة فان المؤلف يذكر موقعها الجغرافي فقط، متغاضياً عن تأسيسها. ولعل الهيكل المقام على الجزيرة قد شيّد عند الساحل الترتيسي قبل بضع عشرة سنة من انشاء المدينة؟ ونلاحظ ما هو مشابه في قرطاجة، حيث بني معبد تينّيت قبل اكثر من مئة عام من بناء المدينة نفسها [33، ص. 42]. ولعل مثل هذه المعابد كانت قواعد ارتكاز فريدة ومعالم يُسترشد بها في التجارة البحرية، توحي بالحماية الالهية، وبالتالي، بنوعٍ من الأمان، ولو وهمياً، للتجار المسافرين [33، ص. 42؛ 69، ص. 76-77]. وفي الواقع، تذكر رواية سترابون حول تأسيس قادس، ان المدينة والهيكل بنيا في وقت واحد اثر الحملة الصورية الثالثة. وغني عن القول ان الفينيقيين زاروا اسبانيا قبل بنائهم للمستعمرات بوقت طويل. فسترابون يختصر ذلك بثلاث رحلات. ولعل مسألة تأسيس قادس تضع امامنا اتصال حدثين مختلفين في التوقيت: بناء الهيكل، وقيام المدينة.

بعد قادس، بنى الصوريون على ساحل اسبانيا الجنوبي مستعمرات اخرى: مالاغا (او كما يسمّيها البعض ملقّة)، سيكسي، ابديرا [33، ص. 25-26]. وقد اظهرت الحفريات وجود غيرها من المستعمرات والمحطات التجارية على الساحل الأسباني وبجواره، ما تزال مجهولة الأسماء [261، ص. 312-322؛ 270، ص. 1-14؛ 277، ص. 476-493؛ 279؛ 280، ص. 226-237]، ويصعب تحديد زمن نشوئها. وقد أظهرت الأبحاث التي اجريت في مدافن

« لاوريت » التي دفن فيها سكان سيكسي القديمة، ان هذه المدينة كانت قائمة في القرن السادس قبل الميلاد على أبعد تقدير [285]. وهناك مستوطنة فينيقية صغيرة كانت قائمة مكان بلدة توسكانوس الحديثة قبل اواسط القرن الثامن قبل الميلاد [279، ص. 121-123]. من ناحية أخرى، دلّت الحفريات في ويلفا (تقريباً في نفس المكان الذي نزلت اليه البعثة الصورية الثانية حسب اقوال سترابون) على وجود مستوطنة فينيقية، كانت قائمة بدون شك في القرن الثامن، وربما في القرن التاسع قبل الميلاد [195، ص. 335؛ 316، ص. 155].

وهكذا، ظهر في اسبانيا في القرن الثاني عشر قبل الميلاد وبعده (لكن ليس بعد القرن الثامن)، عدد من المستوطنات الفينيقية.

وتنوعت طبيعة العلاقات التي قامت بين الفينيقيين والترتيسيين. وبدهي القول ان الحركة التجارية كانت ناشطة بينهم، وان للحضارة الفينيقية أثراً كبيراً على حضارة جنوب اسبانيا، وهو ما سنفصله لاحقاً. ولا مجال هنا من ناحية أخرى لذكر الحروب التي شنّها الترتيسيون على القادمين من الشرق. وقد ابتدأ هذا الصراع في فترة قيام قادس، في القرن الثاني عشر قبل الميلاد، كما تشير الى ذلك المحاولات المتعددة لتأسيس المدينة. ويدلنا على هذا الصراع اسم المستعمرة الفينيقية الأساسية في اسبانيا: قادير — « تحصين ». ولعل المستوطنة القائمة على الجهة المطلّة على البحر المتوسط في جنوب اسبانيا — سيكسي — حملت اسماً مشابهاً، أي حائط تحصين [331، ص. 22-23؛ 333، ص. 498]. ويشير اشعيا الى احداثٍ أقدم، سانداً قوله الى معلومات تعود الى أواخر القرن الثامن قبل الميلاد [324، ص. 99-100]: « سيري على ارضك يا ابنة ترشيش، مامن قيودٍ بعد الآن » (Ies. XXIII, 10). ولهذا النص تفسيرات عدة، فشولتن (A. Schulten) يرى بأن كلمات النبي تدل على تحرير ترتيس من سلطة الفينيقيين [322، ص. 42]. ويعتبر المؤرخ الروسي شيفمن ان ترتيس لم تفقد يوماً استقلالها رغم اقتطاع جزء من اراضيها، وانها كانت مضطرة لتحمّل الحصار الفينيقي لفترةٍ من الوقت، وهو الأمر الذي اشار اليه اشعيا [33، ص. 21، 50]. ولا توجد حتى الآن

أية اسس لترجيح أي من وجهتي النظر على الأخرى، لكن الواضح ان كلا التفسيرين يدل على ان كلمات الكاتب التوراتي تشهد على الصراع بين الترتيسيين والفينيقيين.

ونقع عند ماكروبيوس (saturn. I, 20, 12) على اسطورة عن مهاجمة نيرون قيصر « اسبانية القريبة » (La proche Espagne) لقادس. فقد برهن أ. شولتن الذي درس هذه الرواية، على نحو لا يقبل الشك، ان اسبانية القريبة السابقة الذكر، ليست Hispania Citerior الرومانية، بل ἡ πλησιόχωρος Ἰβηρία اليونانية (ايبيريا المجاورة)، وهي التسمية التي التبست على ماكروبيوس او على مصدر معلوماته المباشر [322، ص. 38]. وتنطوي هذه الأسطورة الفينيقة المصدر [33، ص. 50] على نواة تاريخية، هي المعركة البحرية بين الترتيسيين والقادسيين.

وما زال مجهولاً مسار هذا الصراع الذي كانت الحرب فيه سجالاً (نجد عند اشعيا اشارة عن انتصار الترتيسيين، بينما الغلبة عند ماكروبيوس — للفينيقيين)، لكن احداً من المتنازعين لم يكن ليحقق انتصاراً فاصلاً. فكما حافظت ترتيس على استقلالها حتى مطلع القرن الخامس قبل الميلاد، كذلك حافظت المستوطنات الفينيقية في جنوب شبه جزيرة البيرينه على وجودها.

ومن بين المدن الفينيقية في الغرب، تميزت في القرن السابع قبل الميلاد مدينة قرطاجة، التي جمعت تحت سلطتها، على ما يبدو، سائر المستوطنات الفينيقية في شمال افريقيا. ويذكر ديودوروس (V, 16, 2-3) ان القرطاجيين انشأوا، بعد ١٦٠ سنة من بناء مدينتهم، مستوطنة على جزيرة بيتيوسا (ايبيس الحالية) بنوا عليها مدينة قابس. ولما كان بناء قرطاجة عام ٨٢٥ قبل الميلاد، فأن قابس قد ظهرت عام ٦٦٥ ق.م. [33، ص. 43، 63][٩]. وتؤكد نتائج

(٩) ظهرت منذ فترة وجيزة مقولة بأن قابس بنيت خلال الاعوام ٥٧٥ — ٥٧٠ ق.م. [105، ص. 178]. لكنه لا يمكن الاخذ بوجهة النظر هذه ولو لسبب واحد، وهو ان هذه السنوات تتفق وفترة الحكم الفوكي، الفترة التي كان القرطاجيون فيها غير قادرين على النزول في جزر البليار (Diod. VII, 13).

عمليات التنقيب صحة قول ديودوروس: فقد وجدت تماثيل بونية (قرطاجية) عريقة في القدم من ايسلا ــ بلان على هذه الجزيرة، تعود لأواسط القرن السابع ق.م. [180، ص. 340]. وهكذا ظهرت مستوطنة جديدة على الساحل الاسباني لم يقم ببنائها الفينيقيون الشرقيون ــ الصوريون، بل القرطاجيون الغربيون. وسنتحدث لاحقاً عن الدور الكبير الذي ستلعبه قرطاجة في شبه جزيرة البيرينه بالذات.

واجه الفينيقيون الأسبان في اواخر القرن السابع ومطلع القرن السادس منافسين جدد هم اليونانيون. فقد أدّت رحلة السموسي كولاي (Her, IV, 152) في أواخر القرن السابع ق.م. [25، ص. 116-119][10] الى قيام علاقات بين اليونانيين والترتيسيين، ومن ثم الى قيام مستوطنات يونانية (وبشكل ادق، لشعوب البحر) على اراضي ترتيسيا وبجوارها. وكانت ماساليا اكبر وأهم مستوطنة لشعوب البحر في الغرب، وقد اسست حوالي عام ٦٠٠ ق.م. في بلاد الغال الجنوبية. ورأى الترتيسيون في اليونانيين حلفاء في حربهم الطويلة مع الفينيقيين، وهذا ما يفسّر الاستقبال الطيّب الذي لاقى به القيصر الترتيسي،ارغنتونيوس،شعوب البحر، طبقاً لأقوال هيرودوت (I, 163). وكانت الاتصالات تتم بين ترتيسيا واليونان عبر جزر البليار [103، ص.13-19؛ 178، ص. 69-78؛ 322، ص. 51]، التي كانت تقوم فيها آنئذٍ مستعمرة قابس القرطاجية. وتحوّل الصراع على السيطرة على الجزء الغربي من منطقة البحر المتوسط وعلى الطريق الى ترتيس وثروات هذه الأخيرة،الى عداء محكم بين الفينيقيين وشعوب البحر، وصل الى وضع يشبه الحرب بين اقوى مستعمرات فوكيا وصور، اي ماساليا وقرطاجة. وكانت هذه الحرب احدى الحروب الامبريالية التي، كما أشار لينين، جرت قبل الامبريالية، وبشكل خاص في العصور القديمة، بسبب الخلاف على مناطق النفوذ وعلى اقتسام الغنائم [راجع 2، ص. 364].

---

(١٠)حول الرحلات البحرية التي زُعم بان اهل رودوس قاموا بها ولم تبرهن راجع: [31، ص. 86-92].

وقد وصلتنا اولى المعلومات عن هذه الحرب عبر فوكيديد (I, 13) الذي ضمّن الجزء الأخير من حديثه عن اكبر القوى البحرية عند اليونانيين على امتداد تاريخهم القديم بعد حرب طروادة،جملةً عن الفوكيين (شعوب البحر) قال فيها: « انتصرت شعوب البحر، التي استوطنت ماساليا، على القرطاجيين في معارك بحرية ». وما يسترعي الانتباه في هذه الجملة هو استعمال الكاتب لتحديد الفوكيين كلمات Participium praesentis οἰκίζοντες (وليس Participium aoristi οἰκίσαντες)»[11] مما يدل على ان الحوادث التي يشير اليها جرت في فترة بناء ماساليا. ويحاول البعض غالباً،نسب هذه الحوادث الى زمنٍ اكثر تأخراً، الى النصف الثاني من القرن السادس،وحتى الى القرن الخامس ق.م.،وذلك هو رأي بوش ــ خيميرا الذي يعتبر ان ماساليا لم تكن في مطلع القرن السادس بعد ذا أهمية في اسبانية،وان الماساليين لم يمخروا عباب تلك المياه، حيث كان من الممكن ان يقيموا علاقات مع القرطاجيين [92، ص. 197]. لكنما يجب النظر الى حرب الماساليين مع القرطاجيين من منظار الصراع العام لشعوب البحر، ومن المعروف ان هؤلاء لم يزوروا اسبانية فحسب، بل يجب ان يكونوا قد اتصلوا بالقرطاجيين الذين استقروا في بيتيوسا، وبالفينيقيين الذين استوطنوا شبه جزيرة البيرينه. ويعتبر العالم الكَتَلوني بأن معنى اسم الفاعل οἰκίζοντες ليس تقويمياً بل جنسياً، ومع ذلك فقد كان من الأنسب استعمال اسم الفاعل οἰκίσαντες. فاستعمال فوكيديد اسم الفاعل الحاضر « المؤسسون »، « القاطنون » قد يكون له معنى تقويمي فقط.

مع ذلك،لا يجوز الاكتفاء بهذا فقط، فالقول عن علاقة انتصارات الفوكيين البحرية بتأسيس ماسالية، أي في مطلع القرن السادس ق.م.، يناقض للوهلة الأولى قرينة كلام فوكيديد،التي بناءً عليها تعود الانتصارات الفوكية على القرطاجيين الى فترة لا تتخطى عهد القيصر كير. لكنه من الواجب،تذكر تقليدين تاريخيين حول زمن بناء ماسالية: الأول يثبّته علم الآثار، ويراوح بين حدود القرن السابع والقرن السادس أو مطلع القرن السادس ق.م.

(١١) لوحظ هذا الأمر منذ زمن بعيد [240، ص. 11؛ 322، ص. 76، ملاحظة رقم 3].

Ps.-1c. 211-214; Eus. Chron. p. 92-93, Schoene; Liv. V, 34, 7, 8; Iust. XLIII, 3, 1; FHG II, Aristot. fr. 138,239)، والثاني ــ في الأربعينات من القرن السادس، ايام كير (FHG II, Aristot. fr. 13; Isocr. Archidam. 84; Timag. y Amm. Marc. XV, 9, 7, Paus. X, 8, 6). والتقليد الثاني، وقد كان قائماً على ما يبدو في القرن الخامس ق.م.، اعتبره فوكيديد صحيحاً. ولا بدَّ من الاشارة هنا الى جهل هذا الكاتب، أو تجاهله، القرائن التي تتحدث عن ارتقاء ايونا (Iona) ورحلتها البحرية قبل الغزو الفارسي. وأغلب الظن، هو ان فوكيديد علم بانتصار الفوكيين في فترة بناء ماسالية، فربط هذا الخبر بالتأريخ الذي أخذ به حول بناء المدينة. لكن التأريخ المغلوط لا يمكن ان يحول دون الأخذ بصحة الأحداث وعلاقتها بظهور ماسالية.

وتؤيد خبر فوكيديد المعلومات التي اوردها پافسانيوس (X, 8, 6) والقائلة باستيلاء الماساليين على الأراضي التي حكموها، لأن اسطولهم كان أقوى من اسطول القرطاجيين. ويتحدث الكاتب نفسه لاحقاً (X, 18, 6) عن نصب ابولون في « دلف » الذي اقامه الماساليون على شرف النصر الذي حققوه على القرطاجيين في البحر.

أخيراً، هاكَ ما نقله يوستين (Iustin) (XLIII, 5, 2): « وكانوا يقهرون غالباً جيش القرطاجيين، عندما بدأت الحرب بسبب الاستيلاء على مراكب الصيد (الماساليون ــ المؤلف)، ويهبون المغلوبين السلام ». وترتدي هذه الملاحظة أهمية كبيرة، لا سيما وان مصدرها، ومصدر مجمل « الرواق التجاري الماسّالي » الذي وضعه تروج ــ يوستن، هو التقليد الماسّالي [30، ص. 148-150]. ورغم قِصَر هذه الملاحظة، وهو أمر يؤسف له، يمكن الوصول من خلالها الى بعض الاستنتاجات: منها ان الاستيلاء على مراكب الصيد كان سبباً للحرب. ولا يشير الكاتب الى هوية المستولي، وبالتالي، المتسبب بالحرب. غير انه من الواجب الاشارة الى ان القرينة بمجملها جاءت لمصلحة الماساليين. لذلك يجب القول بأن الجهة المذنبة هي اعداؤهم، أي القرطاجيون. وبما ان ساحل غاليا (Gaule) الجنوبي لم يكن داخلاً في مجال النشاط القرطاجي ــ الفينيقي، فهذا يعني ان النزاع قد جرى في مكان

ما، عند جزر البليار مثلاً. وبالرغم من ذكر يوستين للصراع مع القرطاجيين مرةً واحدةً، فانه لا يمكن اعتبار هذا الخبر حصيلة روايات عن عدة حروب، بل حصيلة حرب واحدة فقط، هي تلك التي تسبب بها الاستيلاء على مراكب الصيد. وهذا واضح من استعمال كلمة bellum، أي حرب، بصيغة المفرد.

ويصعب تحديد زمن وقوع هذه الحرب، كما ان الأزمنة اللاحقة لم تذكر شيئاً عن حرب الماساليين المظفّرة. وبالرغم من انتصارهم على القرطاجيين في مطلع القرن الخامس ق.م. فقد أدّت تلك الحرب الى احتفاظهم بجزءٍ فقط من منطقة النفوذ في اسبانيا، مقابل خسارتهم لجزءٍ آخر. ولا يمكن اعتبار هذا الأمر مُبرِّراً لادعائه بأنهم « كانوا يهبون المغلوبين السلام ». ويبدو الأمر اكثر احتمالاً بأن هذه الحرب تعود الى فترة مبكرة من قيام ماسّاليا، وهي نفس الحرب أو جزء من سلسلة الحروب التي تحدث عنها فوكيديد وپافسانيوس. ويجب التنبّه الى توافق واحد: فوكيديد يستعمل صيغة الفصل غير المنتهية imperfectum (ἐνίκων)، مشدّداً على انتصارات الماساليين المتعددة؛ ويكتب يوستين بان الماساليين « كانوا يقهرون غالباً » (Saepe fuderunt) جيش القرطاجيين. مما يدل على شراسة الصراع التي لم تحسم نتيجته في معركة واحدة.

ويشهد يوستين بان الماساليين وهبوا السلام للقرطاجيين المهزومين نتيجة الحرب المظفّرة. وأغلب الظن ان نتيجة تلك الحرب كانت اقرار الحكم الفوكي الذي يذكره ديودوروس (VII, 13). ولم يتمكن الفوكيون من طرد القرطاجيين من قابس التي بقيت لفترة طويلة في يد الفينيقيين، لكنهم استطاعوا على ما يبدو تعطيل هذا الموقع الاستراتيجي بالنسبة لقرطاجة. بالمقابل، لم يتمكن القرطاجيون، رغم سيطرتهم على قابس، من قطع اتصالات الفوكيين باسبانيا عبر جزر البليار. فهل كان هناك ممر حرّ بجانب قابس تؤمنه معاهدة سلام؟ هذا أمر غير معروف، لكنه من الواضح بأن اليونانيين كانوا أقوياء بما فيه الكفاية لجعل القرطاجيين يفكرون ملياً قبل الاقدام على اعاقتهم. وفي ظل سيطرة شعوب البحر على اليمّ كان لا بد للفينيقيين من التأقلم

مع تمركز اعدائهم في اسبانيا، على شاطىء ترتيسيا حيث ظهرت ماينا كا الفوكية بين مالاغا وسيكسي. ولعل التفسير الوحيد الذي يمكن اعطاؤه حول بناء اليونانيين ميناء مينيسفاي، بين قادس وترتيس، هو ضعف الفينيقيين، بمن فيهم الفينيقيون الأسبان. وتسمح الدلائل الأخيرة الاستنتاج بأن القرطاجيين لم يشاركوا لوحدهم في الصراع، بل كان الى جانبهم الصوريون الذين استوطنوا اسبانيا، رغم عدم ذكر المراجع شيئاً عن ذلك.

لم يدم الحكم الفوكي سوى ٤٤ سنة (Diod. VII, 13)، فقد كان من الطبيعي الاّ يتمكن من البقاء بعد سقوط فوكيا نفسها في أيدي الفرس (Her. I, 163-164) حوالي عام ٥٤٠ ق.م. وقد استوطن الفوكيون الهاربون الى الغرب في ماساليا وفي ألآليا الواقعة في كورسيكا (Her I, 164-166, Strabo VI, 1, 1). ويبدو ان ألآليا هذه كانت فيما مضى محطةً وسيطة على الطريق من ايونيا الى غاليا، وتمكّنت بفضل موقعها من أن تصبح مركزاً تجارياً وسياسياً مهماً في المنطقة الغربية من البحر المتوسط، الأمر الذي حدّد مصالح الأتروريين (Étrusques)، وأدّى الى نزاع بين الأتروريين والفوكيين، والى عقد حلفٍ بين القرطاجيين والأتروريين [13، ص. 523]. وقد اسفرت المعركة التي جرت في الآليا، حوالي عام ٥٣٥ ق.م.، عن طرد الفوكيين من كورسيكا (Her. I, 166; Diod. V, 13, 4).

كان محور الحرب، في أواخر القرن السادس ومطلع القرن الخامس ق.م.، جنوبي وجنوبي شرقي اسبانيا وفي المضيق عند معالم هرقل. ويشهد الاتفاق الروماني القرطاجي الأول، الموقّع عام ٥٠٨ أو ٥٠٩ ق.م.(١٢)، على امتداد النفوذ القرطاجي الى الجزء الغربي من البحر المتوسط (Pol. III, 22). ومن ناحية أخرى، اقام الماساليون حلفاً مع الترتيسيين (Iust. XLIII, 5, 3)، وشنّوا، كما يبدو، هجوماً حاسماً على المدن الفينيقية، وفي مقدمتها مدينة قادس [92، ص. 169-197؛ 93، ص. 315]. وقد شكّل الهجوم خطراً كبيراً على القادسيين بحيث انهم لم يستطيعوا درأه منفردين، فاضطرّوا لطلب النجده من القرطاجيين (Iust. XLIV, 5, 1-3).

(١٢) يعترف معظم الباحثين اليوم بصحة تأريخ يوليبيوس [13، ص. 524؛ 33، ص. 74؛ 61، ص. 86؛ 105، ص. 344-346، وغيرهم].

بَيْدَ ان تغلغل القرطاجيين في اسبانيا كان يمثّل تهديداً لاحتكار القادسيين تجارة المعادن [33، ص. 67]. لذلك يحتمل أن يكون القادسيون قد صدّوا الهجمة الترتيسية بقواهم الذاتية واقفلوا أبواب مدينتهم بوجه القرطاجيين الذين هبّوا لنجدتهم. لكن هؤلاء لم يسمحوا بهذا الانقلاب في الموقف، فاتخذوا من دعوة القادسيين لهم ذريعةً للتدخل في شؤون شبه جزيرة البيرينه واقتحموا المدينة التي دعتهم لنجدتها (Vitruv. X, 13, 1-2; Ath. Pol.9).

ويجد الباحث صعوبةً في تأريخ هذا الحدث على نحو دقيق، لكننا سنحاول على وجه التقريب تحديد زمان نفاذ القرطاجيين الى اسبانيا. ولهذا رأينا ان نلجأ الى ما تبقى من مقتطفات للكاتب غيكاتايوس. فهذا الكاتب يفرّق بوضوح بين المستيين،وترتيس وترتيسيا. فهو يسمي أليبيرغا مدينة ترتيس (F. Gr. Hist. I, Hecat. fr. 38). ولعله صاحب النبذة التي حافظ عليها اسطفان البيزنطي دون أن يذكر اسم مؤلفها، والتي تذكر إيبيلاً كمدينة من البلاد الترتيسية Steph. Byz. V'Ἴβυλλα. وتبدو ترتيس هنا وكأنها تتزعم سائر المدن. في الوقت نفسه،يعرّف غيكاتايوس مدن ماينابورا وسيكس ومولبدينا كمدن مستيّة (fr. 42-44)[١٣]. ويوضح عند ذكره المستيّين بأن ذلك « الشعب القاطن بالقرب من معالم هرقل... دعي نسبة الى مدينة مستيا » (fr. 41). اما علاقة المستيّين بالترتيسيين فلم يتحدث عنها أحد، لكننا نعلم في الوقت عينه ان المستيّن كانوا تحت سلطة الترتيسيين (F.Gr. Hist. I, Herodor., fr. 2A; Av. or. mar. 422, 450, 452). ويبدو انه عندما وضع غيكاتايوس كتابه « وصف الأرض » كان المستيّون قد انفصلوا عن الدولة الترتيسية.

وتؤكد المعطيات الأثرية الافتراض القائل بتفكك الدولة الترتيسية. ففي جنوبي وجنوبي شرقي شبه جزيرة البيرينه، هُدِّمت جميع النصب التذكارية التي يبدو انها كانت قائمة فوق المدافن، واستعمل قسم منها في القبور التي بُنيت لاحقاً [50، ص. 19؛ 121، ص. 36]. وتعود تلك القبور التي

---

(١٣)المقصود هنا هو ان هذه المدن تقع على ارض المستّين، نظراً لان سيكس، اي سيكسي، فينيقية بلا شك.

استعملت في بنائها اجزاء التماثيل المحطّمة، على حد زعم كواردرادو دياس، الى القرن الرابع ق.م. وعلى هذا الزعم يستنتج عالم الآثار الاسباني بأن عملية التهديم تمّت في القرن الخامس [212، ص. 36]، غير انه من المحتمل ان تكون الفترة الفاصلة بين تدمير التماثيل واعادة استعمالها ثانيةً أطول من ذلك. ويُرجع بوش ـــ هيمبر إتلاف تمثال مصري الطراز، عُثر عليه في باريا ويمثّل رأساً بشرياً، الى اواخر القرن السادس ق. م.، كذلك يعتبر م. استريوك ان قسماً على الأقل من مدافن هذه المنطقة دُمِّر في القرن السادس [50، ص. 183-184؛ 93، ص. 317-318].

ونجد احد التأكيدات غير المباشرة لتفكك الدولة الترتيسية في مقطعٍ من قصيدة لسيلسيوس ايتاليك بعنوان « البونية »، مع ان هذه القصيدة تصف الأحداث التي جرت في مطلع الحرب البونية الثانية وأثناءها. فخلال تعداده ممتلكات « احفاد ارغنتون » برئاسة فوريك وآرافريك، يعدّد الشاعر المدن الواقعة فقط في منطقة التورديتانيين اخلاف الترتيسيين، مضيفاً اليها مدينة كستولون التابعة لمنطقة البستيتّيين (III, 391-405).

وثمة تأكيد آخر غير مباشر عن اختلاف مصائر ترتيسيا الشرقية والغربية، يكمن في وفرة الخزف اليوناني، ابتداءً من القرن السادس ق.م.، في أرض المستيين ـــ البستيتيين، وانعدامه تقريباً في الأندلس السفلية، في منطقة الترتيسيين ـــ التورديين [74، ص. 106].

هل كان للترتيسيين القدرة، بعد تفكّك دولتهم، على مهاجمة قادس، خصوصاً في ذلك الظرف الخطير الذي طلب فيه القادسيون مساعدة القرطاجيين؟ خلاف ذلك يبدو اقرب الى الواقع: فقد كان انكسار الترتيسيين وظهور القرطاجيين على شبه جزيرة البيرينه دافعاً لسقوط المستيّين. ولما كان غيكاتايوس قد وضع كتابه ما بين عام ٥١٦ وعام ٥٠٠ ق.م. [224، عمود 2670-2671]، وجب تأريخ اول نفاذ للقرطاجيين الى شبه الجزيرة قبل عام ٥٠٠ ق.م. لكن بما ان ترتيس كانت في ذلك الوقت زعيمة المدن الأخرى، فهذا يعني بأنها لم تكن بعد تحت سيطرة القرطاجيين.

وقد حاصر البونيون المضيق اثر احتلالهم لقادس. ويتبيّن هذا بوضوح من خلال قصيدة بيندار، الذي تحدث فيها أربع مرات عن معالم هرقل كحدود للعالم (Ol. III, 43-44, Nem. III, 10-23; Nem, IV, 69; Istm. III, 29-31). ويتسم بأهمية خاصة مقطع القصيدة النيمية الثالثة،الذي يقول فيه بيندار بأنه « يستحيل بعد الآن » التوجه وراء معالم هرقل في « البحر الصعب المنال ». وتدل عبارة « يستحيل بعد الآن » على ان الكاتب عرف انه كان بالامكان في السابق التوجه وراء معالم هرقل [321، ص. 181][١٤]. ولعل هذه القصيدة كتبت عام ٤٧٤ ق.م.، اما أبكر القصائد الأخرى التي تهمنا (وهما الأولمبية الثالثة والايستمية الثالثة) ففي عام ٤٧٦ ق.م. [60، ص. 408]. ولا بدَّ من الاشارة هنا،الى ان بيندار وضع هذه المؤلفات خلال فترة اقامته في صقلية، او فور عودته منها [60، ص. 118، 129]، أي ان الشاعر كان ملماً الماماً جيداً بالوضع الذي كان قائماً في الغرب.

ويُذكر ان الاترويين عبروا المضيق الى المحيط في الفترة نفسها. ويروي ديودوروس (V, 20, 4)ان الاترووريين حاولوا بناء مستوطنة على احدى الجزر المحيطية، وان القرطاجيين ضيّقوا عليهم. وترتكز هذه الرواية الى احدى الحوادث التاريخية التي يصعب تأريخها بدقة. بَيْدَ ان المهم هو حدوث ذلك في أيام الحكم الاتروي على حد قول ديودوروس، وبالتالي، فان محاولة الاتروويين الفاشلة للاستقرار على جزيرة محيطية لم تكن ممكنة الحدوث الا عام ٤٧٤ ق.م. [13، ص. 523-524].

ومشهورة كذلك حادثة سفينة الفارسي ساتَسب، الذي ارسله الملك كسرى في رحلة بحرية حول افريقيا. ويورد هيرودوت (IV, 43) الذي يستشهد برواية القرطاجيين، ان ساتسب خشي طول الرحلة بعد ابحاره وراء معالم هرقل، فرجع متذرعاً بقلة عمق المياه. وهكذا، بقيت سفينة الوجيه الفارسي السفينة الوحيدة غير القرطاجية،التي اجتازت المضيق قبل النصف الثاني من القرن الرابع ق.م.

---

(١٤) عن الرحلات البحرية اليونانية في المحيط راجع [29، ص. 119-128].

ويعود تاريخ رحلة ساتسب الى فترة حكم كسرى، أي بعد عام ٤٨٥ ق.م. اما القول بأن البعثة لم تنطلق الاّ حوالي عام ٤٧٠، في « أيام سادها السلم نسبياً» بالنسبة للفرس [40، ص. 158]، فزعم لا اساس له، لأن مرحلة « من السلام سادت كذلك خلال الأعوام ٤٨٥ ـــ ٤٨٢، قبل محاولة كسرى الأولى الهجوم على اليونان. ولعل موافقة الملك على اعطاء ساتسب سفينة وارساله في رحلة بعيدة حول افريقيا،تعود الى ما قبل عهد سالامين وميكالي.

هكذا، وفي الفترة التي سبقت العام ٤٧٤ ق.م. وصل الاترووريون الى احدى الجزر في الميحط؛ وما بين عامي ٤٨٥ و٤٨٢ ق.م. تخطى ساتسب على سفينته اعمدة هرقل؛ وقد حاصر القرطاجيون المضيق حتى العام ٤٧٦ ق.م.، الأمر الذي جعل القيام بهذه الأسفار مهمة شبه مستحيلة. وانطلاقاً من هذه الحقائق يمكن القول ان الحصار ضرب ما بين عام ٤٨٥ و٤٧٦ ق.م. ويبدو انه لم يكن بعد لدى القرطاجيين القوة الكافية لاغلاق المضيق إثر استيلائهم على قادس، فقد كان امامهم حوالي ربع قرن تقريباً للتمكن من القيام بذلك. ويمكننا التأكيد على نحو غير مباشر ان الحصار ضرب في القرن الخامس ق.م. من خلال الكتاب الذي وضعه عن الرحلات البحرية هارون اللامبساكي، الذي عاش في مطلع ذلك القرن في مملكة داريوس، استناداً الى اقوال سويدا (V. Χαρων)، ووصفه البحر وراء اعمدة هرقل.

وقد اخضع القرطاجيون، على ما يبدو، ما تبقى من الدولة الترتيسية، إما قبل ضربهم الحصار، او إثره. وتدل تلك الحوادث على ان عملية بناء الدولة القرطاجية كانت قد انجزت [33، ص. 76].

وما سقط في أيدي القرطاجيين كان الجزء الغربي فقط من ترتيسيا، لكن الجزء الشرقي لم يكن تحت حكمهم،وقد بقي في منطقة النفوذ اليوناني. ولعل من المفيد اجراء مقارنةٍ بين مقطعين من قصيدة افيان (Avien). فخلال حديثه عن ترتيس يكتب الشاعر بأن هذه المدينة، التي كانت كبيرةً وغنيةً في غابر الزمان، هي « الآن فقيرة، صغيرة، مهجورة، واطلال مهدمة » (.Or

(mar. 170-173. اما ماييناكا فيذكرها وكأنها قائمة، مشيراً الى موقعها في مكان اعلى من الجزيرة المكرّسة لكوكب الليل (Or. mar. 413). ولعل ماييناكا الفوكية كانت ما زالت قائمة في الوقت الذي دُمّرت فيه ترتيس.

ويومذاك كانت الحرب ما زالت مشتعلة بين الفينيقيين والفوكيين. ومن مجمل احداث الفترة التي تلت الصراع حول قادس، لم تُذكر الا المعركة البحرية في ارتيميسيا فقط، وهي معركة يتحدث عنها سوسيل اللاكيديموني في احد مقاطع مؤلفه الذي عُثِر عليه عام ١٩٠٣ مكتوباًعلى ورق البردى.

ويبدأ هذا المقطع بالكلمات التالية: « يقول الماساليون، الذين رووا احداث المعركة التي وقعت في ارتيميسيا، ان هرقليد الميلاسّي الأصل هو الذي كسبها ». ويتحدث فيما بعد عن ذكاء هرقليد الذي استعمل اسلوباً مميزاً، هو الاختراق، وقد تمكن بفضله اليونانيون من احراز النصر. وهيراقليد هذا هو من المدينة الكاريّة ميلاسّا، ويفهم من كلام هيرودوت (V, 121) انه كان قائد الكاريين ابّان الانتفاضة الأيونية ضد الفُرس. ويطلق سويدا (V. Σκυλαξ) على هرقليد لقب ملك الميلاسيّين، لكن ذكره في مجال الحديث عن الماسّاليين اعتبر امراً جديداً. وليس في « انتقال » هرقليد الى الغرب امر غريب، فنحن نعلم بأن قائداً آخر للانتفاضة هو الفوكي ديونيسيوس، ظهر أيضاً في الغرب بعد ان هزم وراح يمارس القرصنة في مياه صقلية، ناهباً السفن القرطاجية والأترورية (Her. VI, 17). ولو ان المعركة نشبت في شرق حوض البحر المتوسط لا في غربه، كما يتصور البعض احياناً [177، ص. 147]، لكان من المستغرب الا يأتي هيرودوت على ذكر نشاط هرقيلد الذي كان قائداً للأسطول في بحر ايجه، حسب قول سوسيل، خاصةً وان هيرودوت معروف برصده كل تحركات الفرس الحربية،ولا سيما دور الكاريين فيها [213، ص. 394-395]. وما يجدر ذكره من ناحية أخرى، هو ان سوسيل كان احد مؤرخي هنيبعل (Nep. Hennib. 13, 3). فأغلب الظن ان هذا المقطع استطراد في الماضي، وصف فيه الكاتب مآثر هنيبعل. علماً ا الماسّاليين لم يشاركوا، على حدِّ علمنا في أية حروب مع الفرس، الاّ ان الصدامات تعددت بين

الماسّاليين والقرطاجيين، لذلك فان الاستنتاج الصحيح الوحيد هو ان هذه المعركة انحصرت بشواطيء شبه جزيرة البيرينه،حيث اقام ارتيميسيوس (Strabo III, 4, 6)[١٥].

ويُستفاد من ذكر هرقليد، احد قادة الانتفاضة الأيونية، لتأريخ المعركة. ففي حين يعيدها بوش ـــ هيمبير الى الفترة الواقعة ما بين عامي ٤٩٣ و٤٩٠ ق.م. [93، ص. 321]، يتهيأ لنا انها حصلت بعد ذلك بقليل. اولاً، لأنه كان على هرقليد ان يبرهن عن قدراته قبل أن يضعه الماسّاليون على رأس اسطولهم. ثانياً، ان هزيمة القرطاجيين في ارتيميسيا لم تحل دون محاصرتهم للمضيق؛ لذلك يبدو وقوع المعركة بعد الحصار البحري اشد احتمالاً [209، ص. 87]. في الحالة المعاكسة كانت موافقة الماساليين على الحصار لا معنى لها ما دام قد انتصروا. وبما ان الحصار كان قائماً ما بين عامي ٤٨٥ و٤٨٦ ق.م. فان المعركة جرت، على ما يبدو، بعد عام ٤٨٥ ق.م.

هكذا، ونتيجة للمعركة في ارتيميسيا، منع اليونانيـون انتقـال السيطـرة القرطاجية الى الجزء الشرقي من الدولة الترتيسية السابقة. لكن القرطاجيين حصلوا على موافقة الماساليين على محاصرة المضيق. لذلك، يحتمل ان يكون هذا الأمر قد تمَّ بناءً لاتفاق سلمي بين قرطاجة وماسّاليا. وقد وصلتنا اشارة غير مباشرة عن احد الشروط التي بموجبها كان يسمح للسفن غير القرطاجية بالابحار في منطقة اعمدة هرقل. ووفقاً لما جاء عند ايكتيمون، الذي كتب حوالي عام ٤٤٠ ق.م. يقول [323، ص. 53]، يمكن للسفينة الغريبة أن تقترب من احدى الجزر القريبة من المضيق شرط ان تفرغ حمولتها قبل ذلك على جزيرة القمر، أي الجزيرة الواقعـة قبالـة ماينـاكـا (Av. or. mar. 366-369). ولعل هذا الشرط كان وارداً في المعاهدة القرطاجية ـــ الماسالية، وتحول مع الوقت، على ما يبدو، الى تحريم ديني، اذ يقول افْيان (or. mar. 361)، على حد ما ذكر ايكتيمون، بان البقاء على الجزر بالقرب من المضيق اكثر من اللازم،كان يعتبر نوعاً من الكفر.

(١٥) ذلك هو رأي بوش ـــ هيمبر بوجه خاص [93، ص. 320-321]. لكنه من غير الصحيح، كما يبدو لنا، ربط هذه المعركة بما يذكره فوكيديد وپافسانيوس ويوستين، كما يفعل العالم الكاتالوني.

وأثر تلك الأحداث، ظهر على شبه جزيرة البيرينه نوع من التوازن بين الفينيقيين برئاسة قرطاجة، والفوكيين برئاسة ماسّاليا. وبقي جنوب شرق اسبانيا في دائرة النفوذ اليوناني، الا انه لم يكن مغلقاً كلياً امام القرطاجيين. ويعثر المرء في هذه المنطقة على مواد فينيقية الى جانب اليونانية. ففي اواخر القرن السادس، او مطلع القرن الخامس ق.م.، ظهرت في هذه المنطقة اوعية طقسية قرطاجية واسعة ومسطحة، عرفت باسم المجامر. ويقع الباحث على مثلها اليوم في احدى مدن الموتى، الى جانب خزف يوناني يعود الى القرنين الخامس والرابع ق.م. [93، ص. 315، 119، ص. 64-78]. ولم يكتفِ القرطاجيون بالتجارة مع جنوب شرق اسبانيا، بل طمحوا الى الاستقرار فيها. ففي القرنين الخامس والرابع ق.م. ظهرت محطة تجارية قرطاجية في مدينة باريا على الساحل الجنوبي الشرقي من شبه جزيرة البيرينه. ولم تكن باريا هذه مستوطنة فينيقية صرفة؛ ففيها كان يعيش القرطاجيون والأيبيريون، انما كلٌّ في حيِّه. ونقع في مدينة الموتى العائدة لهذه المستوطنة على مقابر قرطاجية وأخرى ايبيرية، المُثير فيها احتواء الايبيرية منها على مصنوعات قرطاجية وخزف يوناني [50، ص. 186-187؛ 180، ص. 355؛ 180-a، ص. 531]. ويُستدل من القرينة الأخيرة على ان القرطاجيين لم يُحكِموا سلطتهم على باريا.

ويظهر علم الآثار انخفاض كمية الخزف اليوناني ابتداءً من اواسط القرن الرابع ق.م. [358، ص. 119]، وازدياد الاستيراد القرطاجي. وتعود المباخر البونية، المصنوعة على شكل رأس امرأة، وكذلك قطع الطين النضيج (Terre cuite) التي وجدت في مدافن مدينة ليفانت الاسبانية، الى القرن [illegible] والثالث ق.م. [53، صص 72-74، 80-81]. ويمكن اعتبار منتصف القرن الرابع ق.م. زمن انتشار السلطة القرطاجية على هذه المنطقة، اما الشاهد على هذه السلطة فهو المعاهدة الثانية الرومانية ــ القرطاجية الموقعة عام ٣٤٨ ق.م.

ويشير هذا الاتفاق الى Μαστια Ταρσηιον على انها النقطة التي تحدّد الملاحة الرومانية. لكن من الصعب فهم مزاوجة هاتين الكلمتين اللتين تردان مرتين: الأولى في المقدمة، التي وطّأ بها پوليبيوس لنص المعاهدة (III, 24,

(2)، حيث تقع في صيغة nominative، والثانية، في النص نفسه حيث استعملت بحالة الجر بالاضافة genetivus (III, 24, 4).

الحالة الأولى تستثني امكانية فهم هذه البنية اللفظية على انها ماستيا الترسية. ونعلم في الوقت نفسه،ان ماستيا كانت تقع في وقت من الأوقات في ترتيسيا (Ar. or. mar. 453). ويقترح أ. ميلتسر مخرجاً لذلك عن طريق استبدال Ταρσήϊον بـ Ταρσηίων [257، ص. 520]. ويبدو القيام بهذا الاستبدال مستحيلاً، لأن اسطفان البيزنطي يتحدث عن (Steph. Byz. v. Ταρσήϊον) Ταρσήϊον، أي ان هذه التسمية استعملت على هذا الشكل بالذات في الأزمنة القديمة. ويعتبر التفسير الذي اقترحه فيكرت [368، ص. 358] التفسير المقبول اكثر من سواه. فقد رأى ان پوليبيوس أخطأ في فهم عبارة Mastiam Tarseiom في النص اللاتيني للمعاهدة، معتبراً اياها « مفعولين به » Accusativ'a، في الوقت الذي تشكل فيه كلمة Tarseiom في الواقع،شكلاً قديماً للاضافة الجماعية Tarseiorum = genetivus pluralis.

واذا تركنا جانباً طريقة فهم هذه البنية اللفظية، يبدو جلياً للقارىء ان الحديث يتعلق باسبانيا. ويفترض ان يكون موقع ماستيا مكان قرطاجة الجديدة التي تعرف اليوم بقرطجنّة [64، ص. 299-300]. ويعزّز هذا القول، بطريقة غير مباشرة، اللقايا التي عُثِر عليها في لوس ــ نياتوس حيث كان يوجد، قليلاً الى الشرق من قرطجنّة، ميناء ايبيري صغير، كانت له، على ضوء اللقايا الخزفية العديدة التي وجدت فيه، علاقات تجارية وطيدة مع اليونانيين، خلال الفترة الممتدة من القرن الخامس حتى القرن الثالث ق.م. واذا كانت ماستيا تقع مكان قرطجنة، فان لوس ــ نياتوس كانت أبعد نقطة جنوبية في المنطقة الفوكية. وقد كانت لوس ــ نياتوس تشكل المسلك الشمالي السهل الى منطقة المناجم سيرّا ــ قرطجنّة، اما المسلك الجنوبي الملائم فكان قرطجنة [130، ص. 77-83].

وحتى عام ٣٤٨ ق.م.،كان كل الجنوب وقسم كبير من المنطقة الجنوبية الشرقية من اسبانيا تحت حكم القرطاجيين (الأمر مؤكد على الأقل بالنسبة

للساحل). وكانت قد دُمّرت ماييناكا التي كانت تقع ضمن المنطقة القرطاجية (Strabo III, 4, 2).

ويبدو ان القرطاجيين يومذاك نشروا مستوطناتهم على الساحل الأسباني على نطاق واسع. وينوّه بسيدو ــ سكيلاك (كاتب انتحل اسم سكيلاك ــ المترجم) بوجود متاجر قرطاجية في منطقة أعمدة هرقل، كما يتحدث أڤيان عن المستوطنين القرطاج في تلك المنطقة (or. mar. 375-376). وانطلاقاً من هذه المعطيات يبرز سؤال عن الليبيين الفينيقيين الذين ذكرهم افيان (or. mar. 421) وبسيدو ــ سكيم (196-198). ففي المكان نفسه تقريباً، اسكن بتولوميوس الأفارقة المعروفين بالبونيين (II, 4, 6)، والذين دعاهم أپيان (Hisp. 56) بالفينيقيين الأفارقة. ويعتبرهم أ. شولتن إما مستعمرين فينيقيين من افريقيا، وإما فينيقيين نزلوا وسط الشعوب المحلية [318، عمود 2033]. ويرى أ. بلانكو فريخيرو في مستوطنات الليبيين الفينيقيين (او الفينيقيين البدائيين) مدناً مختلطة عاش فيها الفينيقيون والأيبيريون، على مثال مدينة باريا [77، ص. 188].

وتجدر الاشارة بادئ بدء الى ان الامر قد لا يكون متعلقاً بالمستوطنين الفينيقيين أو القرطاجيين. فبسيدو ــ سكيمن يقول بأن الليبيين الفينيقيين انتزعوا المستوطنة من قرطاجة. ولم يكن للّيبيين الفينيقيين ذكر في اسبانيا فحسب، بل في افريقيا أيضاً (Diod. XX; Plin V, 24)، حيث استوطنوا المنطقة الممتدة من سرت حتى ساحل الأطلسي [160، عمود 202]. وعُثِر في جنوب شبه جزيرة البيرينه على نقود تحمل مصطلحات مكتوبة بالخط الليبي الفينيقي الشديد الشبه بالكتابة المسكوكية لشمال افريقيا، والذي يؤلف معها فرعين « للكتابة الليبية » [226، ص. 142-148؛ 353، ص. 309، ملاحظة 97]. لذلك يمكن الافتراض بأن يكون الفينيقيون الليبيون قد أتوا من افريقيا، حيث كانوا يشكلون مزيجاً بشرياً مكوّناً من السكان المحليين والمتحدرين من المستعمرين الفينيقيين [33، ص. 97]. ويحتمل أن يكون القرطاجيون هم الذين نقلوهم وأسكنوهم، وذلك بغية احكام سيطرتهم على قبائل الساحل المحلية. ويبدو لاحقاً ان الفينيقيين الليبيين الذين عاشوا على الساحل الاسباني اختلطوا بدورهم

بسكان الجوار، مكوّنين بذلك مجموعةً أثنية مختلطة جديدة ــ البلاستوفينيقيون، أو البلاستوبونيون . بَيْدَ ان قصائد بسيدو ــ سكيمن وأفيان الجغرافية تنطوي على ذكر الفينيقيين الليبيين ويعود تاريخ تلك القصائد الى الفترة ما قبل الرومانية، في حين عاش الباستولوفينيقيون والبلاستوبونيون في مقاطعة رومانية.

ويحتمل أن يكون الفينيقيون قد استوطنوا العديد من مدن توردينانيا والمناطق المجاورة، حسب قول سترابون (III, 2, 13)، وذلك قبل انتشار السلطة القرطاجية على المناطق الداخلية لجنوب اسبانيا، أي ترتيسيا السابقة. وقد كتب عالم الجغرافية اليوناني بأن التورديتانيين « خضعوا لسلطة الفينيقيين لدرجة ان هؤلاء ما زالوا حتى الآن يستوطنون العديد من المدن التورديتانية والأماكن المجاورة » ولا يبدو محتملاً أن يكون قد حصل ذلك خلال فترة قصيرة نسبياً من قيام الدولة البركيدية.

فكيف كان اذاً، وضع المدن الفينيقية في اسبانيا داخل الدولة القرطاجية؟ للاجابة على هذا السؤال تجدر العودة الى عهد الاستعمار. ان كل ما نعرف عن تجارة صور والاستعمار الصوري ما وراء البحار، يرتبط بنشاط الملوك. فالتوراة تتحدث عن سفن الملك احيرام بالذات، التي كانت تبحر الى اوفير وترشيش (I Reg. X, 11, 22). والأمر هنا ليس بصدفة، لأن التجارة الخارجية الخاصة كانت مستحيلة فعلياً في تلك الظروف. فكان من المحتمل أن يقوم بها الملوك، او أن تكون تحت حمايتهم، أي ان يلعب التجار دور ممثلين للحكام [38، ص. 12-13]. ومن المعروف ان حكومة صور كانت صاحبة المبادرة بارسال الشباب الى الساحل الافريقي، وتشييد مدينة اوتيكا هناك (Iust. VXIII, 4, 2). ويُعزى الى ايتوبعل ملك صور تأسيس مدينة بوتريس (البترون حالياً) وعوزا في افريقيا (Ios. Ant. VIII, 13, 2). وقد شكلت المستوطنات التي ظهرت بهذه الطريقة جزءاً من الدولة الصورية في الأقطار البعيدة. فقرطاجة القبرصية كان يرئسها نائب لملك صور (KAI 16)؛ اما محاولة اوتيكا التخلي عن دفع الأتاوة للمدينة الأم، فقد دفعت الملك احيرام لتوجيه حملة تأديبية اليها (Ios.

Ant. VIII, 5, 3). ولا شك ان المدن الفينيقية في اسبانية كانت في الموقع نفسه. ولم يكن من الصدفة بشيء أن يذكر أشعيا ترشيش والسفن الترشيشية عند تنبوئه لصور بمختلف النكبات (Ies. XXIII). لقد كان من الممكن عامةً تسمية الفينيقيين الأسبان بالصوريين، نظراً لدخولهم ضمن تركيب الدولة الصوريّة. لكن العلاقة السياسية المباشرة للمستوطنات بالوطن الأم انقطعت، على ما يبدو، نتيجة التضعضع الكبير الذي عانت منه صور خلال حروبها المتواصلة، والخاسرة بشكل عام، مع الدولة الأشورية [227، ص. 31]. وأغلب الظن ان الفينيقيين الأسبان ظلوا يُعرفون بالـ « صوريين »[١٦]. واذا أخذنا هذا التفسير بعين الاعتبار، يصبح بالامكان الافتراض بأن الصوريين، الذين جاءت على ذكرهم المعاهدة الرومانية ــ القرطاجية الثانية، هم الفينيقيون الأسبان[١٧]. وقد ذكروا هناك الى جانب القرطاجيين انفسهم، والأوتيكيين وحلفائهم (Polyb. III, 24, 3). وبالتالي، فان مدنهم، مثل اوتيكا، كانت تحتل مركزاً مميزاً بين المدن الخاضعة لقرطاجة، وتتمتع رسمياً بنفس الحقوق التي تتمتع بها عاصمة الدولة القرطاجية[١٨]. ويؤكد هذا الأمر، ما ذكره ليفي عن ان القائد القرطاجي ماغون، اطلق على نفسه في نهاية الحرب البونية لقب « حليف وصديق » قادس (Liv. XXVIII, 37, 1). بَيْدَ ان هذا الوضع الرسمي لم يحل دون خضوع القادسيين، وسكان بقية المدن الفينيقية في اسبانية، لقرطاجة خضوعاً سياسياً فعلياً.

اما فيما يتعلق بالايبيريين الذين كانوا خاضعين لقرطاجة، فاننا نجهل وضعهم في الدولة كلّياً تقريباً. ويمكن القول فقط بأن القرطاجيين حافظوا على النظام القبائلي القديم. وخلافاً لليبيين، كان الأيبيريون يخدمون في الجيش القرطاجي كمرتزقة لا كمجنّدين اجباريين (Diod. XIII, 54, 1)، كما كان يحق لهم، كالفينيقيين الليبيين، الاقتران بقرطاجيات. ومن المعروف ان هسدروبعل وهنيبعل

---

(١٦) لم تحل التسمية العامة دون التسمية الخاصة لسكان كل مدينة، كما تدل على ذلك مصطلحات العملة: مواطنو: قادس، مواطنو سيكسي [331، ص. 19؛ 362، ص. 291].

(١٧) صاحب هذا الرأي هو بلانكو فريخيرو [77، ص. 193].

(١٨) عن وضع اوتيكا في الدولة القرطاجية راجع: [33، ص. 97].

اقترنا بينات ملوك اسبان (Diod. XXV, 12; Liv XXIV, 41, 6). من الواضح ان المصلحة السياسية كانت في اساس عمليات الاقتران هذه، لكن من المؤكد انها لم تكن لتعقد لو لم يكن لها تعليل قانوني. ويُرجح أن يكون القرطاجيون قد مارسوا على الايبيريين سيطرة عليا من نوع الحماية، دون التدخل في شؤونهم الداخلية إلا عند الحاجة. ولو أخذنا بعين الاعتبار ان المعادن في اسبانيا كانت تبهر القدماء، من يونان وفينيقيين ورومان، لأصبح من السهل التصور بأن القرطاجيين قاموا باستثمار الثروات المنجمية في شبه الجزيرة.

يؤكد يوليبيوس (I, 10, 5) على سلطة قرطاجة في اسبانيا في مطلع الحرب البونية الأولى. غير ان هملقار اضطر عام ٢٣٧ ق.م. لبدء اعادة السيطرة على اسبانيا. وفي وقتٍ من الأوقات، خلال الفترة الفاصلة بين هذين الحدثين، انهارت السلطة القرطاجية في شبه جزيرة البيرينه ولم يبقَ الى جانب قرطاجة سوى المدن الفينيقية القديمة، وعلى رأسها قادس، التي بدأ هملقار بمساعدتها، أعماله الحربية ضد الأيبيريين (Diod. XXV, 10). ولعل العداء القديم بين القادسيين وسكان الجوار هو الذي كان وراء محافظة القادسيين على ولائهم لقرطاجة.

ولم تؤدِ حملات هملقار الى اعادة السيطرة القرطاجية على جنوب، وجنوب شرق اسبانيا فحسب، بل الى توسيع دائرتها. وبعد وفاة هملقار، تابع صهره هسدروبعل وابنه البكر هنيبعل،ما كان قد بدأه. ولن نتوقف عند الأحداث العسكرية والديبلوماسية الأسبانية المتعلقة بنشاط البركيديين نظراً لتطرّق العديد من المؤرخين اليها، بمن فيهم العلماء السوفيات [23، ص. 271-292؛ 41، ص. 28-42، 93-144]، لكننا سنشير فقط الى بناء المدن الجديدة: أكرا ـ ليفكا (هملقار) (Diod. XVV, 10) وقرطاجة الجديدة (هسدروبعل) (Pol. II, 13) — وهي مدن كانت قائمة على الساحل الشرقي لشبه جزيرة البيرينه. ولم تكن دولة البركيديين الأسبانية قويةً وطويلة الأجل. فقَبل عام ٢٠٦ ق.م.، ونتيجة الحرب البونية الثانية، قضي على السيطرة القرطاجية في اسبانيا قضاءً تاماً. ولم تستطع قابس، التي كانت مستعمرةً قرطاجية وكانت تعتبر استمراراً لقرطاجة، التزام

الحياد في العمليات الحربية. فكان لا بدَّ لقرطاجة التي خسرت جميع ممتلكاتها خارج افريقيا من أن تتخلّى عن هذه المدينة للرومان، فدخلت كسائر المدن الفينيقية الأسبانية في نطاق الدولة الرومانية [251، ص. 134-136]. وبذلك بدأ عهد جديد من تاريخ اسبانيا الفينيقية.

الفصل الثاني

الحياة اليومية والاقتصادية

عالجنا في الفصل الأول مسألة المدن الفينيقية في اسبانيا،وتاريخها السياسي الخارجي حتى الاحتلال الروماني. وسنتحدث في هذا الفصل عن طبيعة الحياة في هذه المدن، وعن المظهر الخارجي لسكانها، وعن ماهيّة المدينة بحدٍّ ذاتها.

كان الفينيقيون قصيري القامة نسبياً، فمتوسط طول الرجل منهم كان ١,٦٣ م، والمرأة ١,٥٧ [314، ص. 93]. ويمكن الحكم على المظهر الخارجي للرجل من خلال الرسم المحفور على الغطاء الرخامي لناووس بشري اكتشف عام ١٨٨٧ في مدينة الأموات القادسية پونتادي لاڤاكا. وجه مستطيل مع شعر أجعد أو شعر مستعار، حاجبان ناتئان، عينان واسعتان غير متساويتين، أنف مستقيم طويل، لحية جعداء يتدلى فوقها شاربان طويلان. يرتدي الرجل جلباباً واسعاً لا ثنيات فيه، طويلاً حتى الأرساغ (العرقوب)؛ وينتعل صنادل رُسمت سيورها بين الأصابع، اما الصنادل نفسها فقد رُسمت بالألوان [174، ص. 145-147؛ 235، ص. 28-29]. وبقي لون الجلباب وقماشه مجهولين. واشتهر سهل بيتيس، على حد قول سترابون (III, 2, 6)، بالاغنام ذات الصوف الممتاز وبالاقمشة المصنوعة من هذا الصوف، لذلك يغلب الظن بأن تكون الألبسة القادسية صوفية. وتجدر الاشارة الى ان الناووس الذي تحدثنا عنه كان فيما مضى متعدد الألوان، لكن لم يبقَ من زخرفه الآن سوى آثار كُشف

عنها في بعض الأماكن بواسطة مصباح كوارتز [235، ص. 27-28]. ويحتمل ان تكون تلك الألوان قد استعملت لاظهار لون الجلباب وتوشيته. وتشهد الرسوم الحائطية المصرية على ان الفينيقيين فضّلوا عامة الملابس الزاهية المطرّزة المتعددة الألوان [177، ص. 241-242]. ويعتقد ان يكون القادسي المدفون في الناووس الرخامي قد ألبس لباساً زاهياً.

ونستدل من التماثيل الخزفية التي وُجدت في مدافن مدينة قابس، پويغ — ديس — مولينس، على شكل الفينيقيات الخارجي. نساء في جلابيب لا ثنيات لها ولا خصر، تنتهي عند بطّات السيقان، يزيّنها تطريز على شكل ازهار واقنعة — وقد وضعن على رؤوسهن شالاتٍ مطرّزة بالأزهار، تتدلى اطرافها وفق الزيّ المصري فوق الكتفين؛ وينتعلن صنادل [174، ص. 152 ورسوم 138-139]. وقد تزينت الفينيقيات بحلى عديدة: اقراط، اعراف، وقلائد؛ لم تُلاحظ على التماثيل فحسب، لكنها وجدت كذلك بكميّات كبيرة في مدافن القادسيات والقابسيات. وحتى في مقبرة المرأة الفقيرة، كتلك التي اكتشفت بالقرب من قادس حوالي عام ١٩٢٥، نجد اقراطاً ذهبية [180، ص. 397-414، 427-437].

وتقوم اليوم مكان المدن الفينيقية الأساسية في اسبانيا المدن الحديثة: قادس، مالاغا و قرطجنة، مما يجعل الحفريات المنتظمة فيها مستحيلة فعلياً. اما على صعيد الوصف الأدبي، فلم يصلنا سوى الرواية التي وضعها پوليبيوس عن قرطاجة الجديدة (X, 8, 2؛ 11,4 ;1-12 ,10)، وهي مدينة بُنيت بعد قادس بحوالي ٩٠٠ سنة، وفي ظروف مختلفة. غير ان الفترة الأخيرة التي تميزت بحفريات مكثفة عن مستوطنات فينيقية صغيرة في جنوب شبه جزيرة البيرينه، امدّتنا بمعلومات وفيرة حول اسلوب عيش الفينيقيين في اسبانيا. والى ذلك يجب اضافة ما يمكن الحصول عليه من معطيات عن طريق مقارنة هذه المدن بمدن المتروبول وشمال افريقيا.

ولعل من الأنسب ان نباشر التحليل « على نحو معكوس ». فسترابون، وخلال تحدّثه عن الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة، يقابل ماييناكا اليونانية بمالاغا

الفينيقية، مؤكداً احتفاظ اطلال الأولى بطابع المدنية الهلّينية، بينما طابع مالاغا الخارجي فينيقي. ويمكن الآن تصوّر المظهر الخارجي للمدينة اليونانية ولو بشكل عام. فابتداءً من القرن الخامس قبل الميلاد، وابتداءً من القرن السادس ق.م. على ما يبدو في المستعمرات، اتخذت المدن الهلّينية تخطيطاً منظماً: شوارع طوليّة متوازية تقطعها شوارع عرضية، متوازية كذلك، بزوايا قائمة، أو شوارع شعاعية تنطلق من وسط المدينة. وكانت المدن عبارةً عن بيوت مشيّدة من طابقٍ واحد او طابقين، وفي وسطها او على تلّةٍ فوقها، على الأكروبول، كانت ترتفع الهياكل الرخامية والمباني العامة [7، ص. 11-12؛ 9، الجزء الثاني، الكتاب الأول، ص. 193-211؛ 17، ص. 154-157؛ 25، ص. 137-149]. وعلى هذا النحو كان تخطيط امبريون، المستعمرة الفوكية على الساحل الشمالي ــ الشرقي لشبه جزيرة البيرينه [178، جزء ٢، ص 32]. ولم تتميّز المدن الفينيقية، على ما يبدو، بمثل هذه الملامح.

ونعلم اليوم ما سبق الاستعمار الفينيقي لاسبانيا من علاقات. ونعلم أيضاً، ان مالاغا ومدناً فينيقية اخرى بنيت في تلك البلاد بعد بناء قادس. كما نعلم بالتالي، ان الفينيقيين كانوا على دراية تامة بالمكان الذي استوطنوه، ولم يأتِ انتقاؤهم لتلك المنطقة على نحو عشوائي.

كانت قادس تقع على جزيرة صغيرة، يفصلها عن اليابسة مضيق وجده المؤرخ ميلا لشدة ضيقه شبيهاً بنهر، واحتلت المدينة نفسها مساحةً صغيرة على الجهة الغربية من الجزيرة، وأقيم في الجهة الشرقية منها معبد ملقارت ــ هرقل القادسي (Starbo III, 5, 3؛ Mela III, 46؛ Pli. IV, 119). وقد اختير موقع المدينة على الجزيرة بالذات لهدفين اثنين: أولهما، حماية المستعمرين من هجمات السكان المحليين، وثانيهما، تمكين المدينة من استخدام مرفأين في آن واحد، كما كانت الحال في المتروبول [كانت صور تقع على جزيرة]، وفي عددٍ من المستوطنات الفينيقية في الغرب [116، ص. 228؛ 296، ص. 18]. وقد جعلها نبع ماء صالح للشرب، مستقلةً عن اليابسة (Strabo III, 5, 7).

اما المحطة التجارية التي كشفت عنها الحفريات، في المنطقة التي تقوم

عليها حالياً مدينة ويلقا، الى الغرب من أعمدة هرقل، فقد تمتعت بمرفأين، بسبب وقوعها على رأس ناجمٍ عن تلاقي نهري اوديال (ODIEL) وريّوتينتو (Rio Tinto) [316]. وعلى مصب انهارٍ صغيرة، كانت تقع مالاغا وأبديرا ومستوطنات فينيقية أخرى عُثِر عليها نتيجة عمليات التنقيب التي اجريت في السنوات الأخيرة، وهي ما زالت مجهولة التسمية [227، 278، 279]. وبفضل هذا الموقع كان باستطاعة السكان تعاطي التجارة البحرية، وصيد السمك، واقامة اتصالات مع المناطق الداخلية من البلاد بطريقةٍ سهلةٍ نسبياً.

أما المدن التي بناها البركيديون خلال الأعوام ٣٠ — ٢٠ من القرن الثالث ق.م.، فقد كانت قليلة الاتصال بالمناطق الأسبانية الداخلية، لأن البركيديين، على ما يبدو، اهتموا بحصانة الموقع وسهولة استعماله كمرفأ، الأمر الذي خلق ظروفاً لصيد السمك والتجارة والاتصال بالعاصمة. فمدينة أكرا ــ ليفكا، مثلاً، كانت تقع على مرتفع عند البحر يُشاهد عن بعد، ان من اليابسة أو من البحر [320، عمود 216]. وكانت قرطاجة الجديدة تقع في عمق الخليج، واعتبرت افضل مرفأ على الساحل الجنوبي الشرقي آنذاك، زد على ذلك تسترّها وراء جزر صغيرة تفصل فيما بينها ممرات ضيقة، تحميها من الرياح ومن هجوم السفن المعادية. وكانت هناك بحيرة صغيرة تجاور المدينة وتتصل بالخليج بقناةٍ اصطناعية، بحيث كانت المدينة اشبه بشبه جزيرة يجمعها باليابسة فقط برزخ ضيّق عرضه مرحلتان، أي أقل من اربعة امتار. وكانت تحيط بقرطاجة تلال من جميع الجهات، باستثناء الجهة الجنوبية المواجهة للبحر (Pol. X, 8, 2; 10, 2-11). ولعل تلك المرتفعات شكلت حصناً طبيعياً للمدينة، وان لم تستطع حمايتها من الرومان.

وكانت المدن الفينيقية في اسبانيا، على ما يبدو، محاطةً بأسوار. ويتحدث بوليبيوس عن اسوار قرطاجة الجديدة (X, 11-15) في روايته عن احتلال الرومان لتلك المدينة. وقد اتاحت أعمال التنقيب عن مستوطنة توسكانوس الى تتبع التغيّرات التي طرأت على تحصينات تلك المستوطنة. وقد كانت في البدء محاطةً بخندق، وراءه ربما سور عالٍ. وقد ردم لاحقاً هذا الخندق

وارتفع فوقه تحصين من قطع غليظة من الطين الصفحي. ومن ثم فكّك هذا التحصين وبني مكانه سور من الحجارة المقصّبة المربعة المدعمة بردم ترابي [278، ص. 86؛ 280، ص. 228-229]. ولم تتوافر حتى الآن أية معلوماتٍ عن تحصينات المدن الفينيقية الأسبانية الأخرى، انما يمكن القول انها كانت محصّنة مثل المدينة الأم ــ صور. وتكشف لنا الرسوم على بوابة الملك الأشوري سلمانصّر الثالث (منتصف القرن التاسع ق.م.) عن ان صور كانت محاطة بسور له أبراج فيها تضاريس، رغم وجودها على جزيرة [55، ص. 37 ورسم 157[a]].

الى جانب ذلك، اظهرت الحفريات على مصب نهر فيليس ميزةً مهمةً أخرى. فعلى هضاب سيرّوديل بينيون، الى الغرب من توسكانوس، وسيرّو ديل ألاكرون، الى الشمال الغربي منها، وُجدت مراكز كانت مأهولة لفترة وجيزة وكانت تستخدم، على ما يبدو، « كقلاع » فريدةٍ من نوعها،خارج الأسوار المحصّنة للمستوطنة.

ووُجدت في ألاركون بقايا سور، كان ملبّساً من الخارج بحجارة مربعة منحوتة بلا اتقان، اما جوفه فكان معبئاً بالأحجار الصغيرة. ولعل تلك « القلاع » استخدمت كمأوى لسكان المستعمرة في حال سقوطها في أيدي الأعداء [278، ص. 93-94؛ 279، ص. 7؛ 280، ص. 233-234].

ويتساءل المرء هل كان هذا الوضع ميزة مستوطنة توسكانوس؟ ونتذكر هنا روايات فيتروفيوس وأفينايوس بوليوركيت عن اقتحام قادس. فكلا الكاتبين يشيران الى انه كان يتعين على القرطاجيين في بداية الحصار، وقبل مهاجمة المدينة نفسها، ان يستولوا على الحصن. ولعل المقصود بذلك « قلعة هيرونت »، التي يحددها اڤيان (or. mar. 263, 304) بانها في منتصف الطريق بين قادس وترتيس. ويبدو هذا الحصن شبيهاً بتلك الحصون التي كانت تحمي توسكانوس. ولعل مثل هذه المهمات كانت تقع على عاتق المستوطنات الفينيقية الصغيرة الى الشمال الشرقي والشمال الغربي من مالاغا: سيرّو ــ دوبلاس، سيرّو ــ دي ــ تورتوغا وكوطينار [270]. ويتضح لنا الهدف من

مثل هذه النقاط المتقدمة متى اطلعنا على الصراع ما بين الفينيقيين والترتيسيين، وهو ما تحدثنا عنه في الفصل الأول.

وما زالت مخططات المدن التي بناها الصوريون في اسبانيا مجهولة، لكننا نعلم الملامح العامة لقرطاجة الجديدة بفضل ما رواه پوليبيوس (X, 10, 7-11; X, 15, 7; 16, 1). من المعروف ان الجزء الداخلي من المدينة كان في منخفض، وكانت ترتفع حوله، ما عدا الجهة المواجهة للبحر، هضاب شيدت عليها الهياكل. وقد بني على احداها قصر هسدروبعل. ويشير پوليبيوس الى قلعة قرطاجة الجديدة، الشبيهة بالأكروبول الذي كان قائماً في بيرسا القرطاجية. ولم تكن المدينة تخلو من ساحات. لكن هل كان هذا واقع المدن الأكثر قدماً؟ ما زالت الاجابة على مثل هذا السؤال صعبة حتى الآن.

لا نعلم شيئاً عن شوارع وبيوت قادس، وغيرها من المدن الأسبانية الفينيقية الكبيرة. وجُلّ ما يمكن القيام به هو الحكم عليها بطريقة التماثل. ويذكر سترابون (XVI, 2, 23) ان بيوت صور متعددة الطبقات وأعلى من الأبنيـة الرومانية. ويذكر أبيان وجود بيوت في قرطاجة مكوّنة من ست طبقات (Lyb. 128). وقد عُثِر في هذه المدينة على قرط ذهبي يُمثِّل شكل بيتٍ متعدد الطبقات، سقفه مسطّح وزواياه قائمة، نوافذه مربعة تقريباً وخالٍ من أية زخرفة [113، ص. 51 ورسم 11']. وكانت شوارع قرطاجة ضيقة لدرجة انه اثناء حرب الشوارع التي دارت عام ١٤٦ ق.م. مدَّ الرومان ألواحاً خشبية بين البيوت التي تفصلها هذه الشوارع، وحاربوا عليها كما لو كانت جسوراً (App. Lyb. 128). ولو أخذنا بعين الاعتبار مساحة قادس وعدد سكانها، وهي التي كانت في القرن الأول ق.م.، حسب قول سترابون (III, 5, 3)، الثانية بعد روما، لتأكد لنا وجود منازل شاهقة وشوارع ضيقة فيها على غرار روما. وهكذا يتضح لنا تشبيه سترابون المظهر الخارجي للمدن الفينيقية بالمدن اليونانية.

ففي المستوطنات الصغيرة، مثال تلك التي نقّب عنها الأثريون عند مصاب نهري فيليس والغارّويو، كانت البيوت مختلفة. فقد اكتشفوا هناك منشآت

صغيرة نسبياً، ولم تكن المساحة الداخلية لأحد بيوت توسكانوس تتجاوز ٦ امتار مربعة أو أكثر بقليل. ولم يلاحظ في هذا البيت أي أثر للحيطان الداخلية. وكان المدخل في منتصف الجهة الشمالية الشرقية تقريباً، وقد استُدلَّ عليه من العتبة. وعُثِر الى جانب هذا البيت أيضاً على منازل أكبر مساحة. فالمنزل (أ) والمبنى التابع له (ب) بلغ طوله حوالي ٨ امتار، ولم يكشف عنه كلياً. وقد بني المنزل (أ) والمبنى التابع له (ب) بنفس الطريقة. وتميز المبنى (ج) عن غيره بمقاييسه (وبهندسة بنائه أيضاً التي سنتحدث عنها لاحقاً). ولم يبقَ من هذا المبنى سوى الجهة الشرقية، اما الغربية فقد هدّمت كليّاً. واستكشف من القسم المتبقي ١٥ متراً طولاً، وتبيّن بأنه كان مؤلفاً من طبقتين، ارتفاع الطبقة السفلى حوالي ٢,٧ م. وقُسِّم الطابق العلوي الى ثلاث غرفٍ بجدران متوازية فُتحت فيها أبواب. وكانت الطبقتان متصلتين بسلّم داخلي. ويعتبر علماء الآثار العاملون في توسكانوس ان هذا المبنى لم يكن سكنياً، بل اجتماعياً ــ مكان اجتماعات او مستودع ــ، ولكن لا يمكن استبعاد فكرة كونه منزلاً لأحد الأغنياء. ومع انه كان في المستوطنة شوارع، إلاَّ انها لم تكن مستقيمة. وقد كانت الأبنية (أ) و(ب) و(ج) متلاصقة من الشمال الى الجنوب (مع بعض الانحراف)، اما (د)، (هـ)، (و) فقد تلاحقت من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي. وتلاصقت البيوت بعضها ببعض، وكان في الفجوات احياناً سلالم تصل مختلف المستويات في تلك المستوطنة القائمة على سفح مرتفع [278، ص. 80-85؛ 280، ص. 230-232]. ولعل مثل تلك السلالم كانت موجودة في مالاغا الواقعة على تلة.

ولا يعرف ما اذا كانت توجد في اسبانيا بيوت افخم، كتلك التي اكتشفت في افريقيا، في مدينة كليبي القديمة، حيث البيوت مكوّنة من عدة غرف وحمام وفناءين مع صفٍ من الأعمدة [106، ص. 48]. جُلَّ ما يمكن قوله الآن هو انه لم يعثر حتى اليوم على ابنية مماثلة. ويبدو ان تاج العمود الأيوني الأولي الذي وُجِد صدفةً في البحر بالقرب من قادس، لا يعود الى بيتٍ سكني، وانما الى هيكل [292، ص.58-70]. ومع ذلك ينبغي ان لا نستبعد امكانية امتلاك التجار الأغنياء واصحاب السفن في قادس،وغيرها من

المدن الفينيقية الأسبانية، بيوتاً فخمة شبيهة بذلك البيت الفينيقي المرسوم على النقش البارز في قصر الملك الأشوري سارغون الثاني، قرب بحيرةٍ أو نهر، بين تلال تكسوها الأشجار، منزل صغير له سقف مسنّن يدعمه عمودان مكلّلان بتاجين من الطراز الأيوني الأولي [58، عمود 304 ورسم 306]. ولما كانت اعمال التنقيب عن المستوطنات الفينيقية الأسبانية لم تبدأ الا منذ فترة قصيرة، لذلك يتوقع الحصول على معلومات جديدة عن أبنية هذه المستوطنات وترتيبها الداخلي.

وقد اتاحت حفريات السنوات الأخيرة التعرف الى تقنية البناء عند الفينيقيين الأسبان. فالمواد الأساسية التي استخدموها في البناء كانت الحصى النهري، والترافرتين، والطين الصفحي والصلصال. وكانت اساسات البناء من احجار كبيرة غليظة، اعرض قليلاً من الجدران. وكانت احياناً صفّاً حجارة، يملأ ما بينهما بالدبش. القسم السفلي منها، وهو ما زال قائماً حتى الآن، عريض بما فيه الكفاية (من ٣٥ حتى ٧٠ سنتم) ومرصوف بحجارة غير مهندمة مثبّتة، على ما يبدو، بمحلولٍ من الطين؛ اما زوايا الجدران فقد صنعت من احجار مصقولة. ولعل الجزء العلوي منها مبني من الآجر الخام الذي تلاحظ بقاياه احياناً بجوار الجدران. وكانت الفراغات بين الأحجار تعبّأ احياناً بالطين والحصى [278، ص. 80-85؛ 279، ص. 28-29؛ 280، ص. 231]. وقد استخدمت تقنية مماثلة في المستعمرات الفينيقية في الغرب (نورا، قرطاجة)، كذلك في المتروبول، وكما هي الحال مثلاً في ساريبت، حيث كان معظم الحائط مكوّناً من احجار صغيرة غير مهندمة، والفراغات فيه معبأة بالطين. وكانت تتخلل مثل هذه الأقسام اعمدة أو أضلاع من أحجار مهندمة، لا سيما في الزوايا [304، ص. 19-20]. وهكذا، يمكن القول ان الفينيقيين حملوا معهم من موطنهم تقنيّة للبناء. غير انه لا يلاحظ في ساريبت، كما يبدو، استعمال الآجر الخام. ولا بدَّ من الملاحظة هنا ان أبنية توسكانوس العائدة الى الطورين الأول والثاني من وجود المستوطنة (القرن الثامن ق.م.) كانت اضخم، وجدرانها كانت مبنيّة فقط من الحجارة المثبتة بمحلول من الطين. وتميّزت الأبنية المشادة لاحقاً برقّة جدرانها التي استعمل في بنائها الآجر

الخام [278، ص. 85][1]. وقد استعملت هذه المادة عادةً الى جانب الحجر في المستوطنات الايبيرية [162، ص. 175؛ 169، ص. 203]. ولكن هل كان استعمال الآجر الخام ميزة الفينيقيين الأسبان (خلافاً لسكان فينيقيا الاسيوية) الذين اقتبسوه عن السكان المحليين؟

وكان سور مستوطنة توسكانوس المتأخرة العهد،مبنياً بشكل آخر، على نحو اكثر متانةً. فاستعملت فيه الأحجار المربعة المنحوتة التي هيلَ وراءها الردم الترابي. وقُصِّبت وجوه الأحجار على نحوٍ احتفظت فيه بنتوأت غير متوازية، يتضح انها تُركت عمداً. ويبدو ان القصد من هذه النتوأت كان الامساك بطبقة الملاط التي كانت تغطي الجهة الخارجية من السور. ورصفت مداميك الحجارة على نحوٍ لا تتطابق فيه خطوط الالتحام، الأمر الذي يزيد السور متانةً لا ريب فيها. وقد اكتشفت اسوار مشابهة في فلسطين وسامرّاء [278، ص. 86 وملاحظة 12، جدول 24a]. هل هذا يعني ان الفينيقيين الأسبان اتّبعوا تقاليد المتروبول في بناء القلاع؟ ويلاحظ في سور « حصن » ألاركون، كما في توسكانوس، ان الأساسات وحدها كانت مبنية من الحجر المقطوع، في حين بنيت اجزاء السور العليا من الآجر الخام، على غرار ما حصل في المستوطنات التورديتانية [278، ص. 93-94؛ 280، ص. 234]. ولعل الأمر هنا شبيه بما كان عليه الوضع في المستوطنة نفسها. فقد كان « الحصن »، الذي بني بعد بناء المستوطنة الأساسية، مدعَّماً بلا ريب بسورٍ استعملت في بنائه الأساليب المحلية.

ولا يعرف الاّ القليل عن الترتيب الداخلي للمساكن الفينيقية وأثاثها. وكانت البيوت التي اكتشفت في توسكانوس متنوعة: بيوت من طابق واحد وأخرى متعدّدة الطبقات، مثل المبنى (ج)، اذا كان حقاً مخصصاً للسكن. ولا يستبعد وجود فواصل خشبية داخل البيوت المكونة من غرفة واحدة، وان لم يبقَ

---

(١) انطلاقاً من هذا، يعتبر علماء الآثار انه من السابق لأوانه القيام باستنتاجات حول تاريخ البناء. ومما يؤكد هذا التحفظ، اكتشاف تمَّ عام ١٩٧١ لبيوت اقدم من التي ذُكرت، وقد كانت مبنية من الاجر الخام [280، ص. 231].

أي اثر منها. اما المباني المتعددة الطبقات فلا يعرف أي شيء عن ترتيبها.

وكانت البيوت الفينيقية تضاء في ساعات الظلام،بمصابيح فخارية شبيهة بالفناجين المسطحة،ولها عنق أو عنقان يُدخل فيهما الفتيل، ويتراوح قطر تلك المصابيح ما بين ١٢ و١٤ سنتيمتراً. عُثِر على مثلها في فينيقيا،وفي قبرص،وفي العديد من المستوطنات الفينيقية،وفي مدن الموتى في الجزء الغربي من البحر المتوسط وافريقيا، ويمكن اعتبارها مصنوعات فينيقية نموذجية. وفي الوقت الذي شاع فيه انتشار المصباح « المزدوج العنق » في الغرب، كان قنديل العنق الواحد مفضلاً في الشرق. ولم تعثر البعثة الأثرية في ساريبت على مصابيح مزدوجة العنق الاّ منذ فترة وجيزة، ويحتمل أن تكون تلك المصابيح قد نقلت من الغرب [231، ص. 93-106؛ 279، ص. 100-104؛ 304، ص. 18-19]. وتجدر الاشارة الى ان التحديد الدقيق لمصدر المصباح « المزدوج العنق » يتطلب دقةً في البحث ومتابعةً في أعمال التنقيب. وقد وُجدت في اسبانيا، بخلاف افريقيا، وفي فترة انتشار المصابيح المزدوجة العنق، مصابيح العنق الواحد كتلك التي كانت شائعةً في المتروبول. ومن أواني المائدة التي عثر عليها هناك،الأطباق المسطحة، والقصاع المكشوفة الثلاثية القوائم، والدوارق التي لها تويج على شكل نبتة الفطر،أو على شكل ثلاثة من أوراق الشجر [278، ص. 91؛ 279، ص. 82-95؛ 280، صج 232].

وقد رُمز الى المدينة عند الفينيقيين الأسبان بالمصطلح التالي Cm، وهو ما يعني « شعب » وفق المعنى الأساسي، و« جماعة » حسب النقوش البونية [33، ص. 65][٢]. وتَطابق الاشارة المقصود بها المدينة والشعب الذي يقطنها، يفترض في الشعب ان يكون هو السلطة العليا في هذه المدينة، ولو شكلياً. اما كيفية توليه هذه السلطة، فذلك امر ما زال مجهولاً. ولم يعرف من الحكام القادسيين الا القضاة (Suffètes) (كم كان عددهم؟ لا

---

(٢) أبدي رأي منذ فترة يقول بأن Cm في المدن البونية لا تعني جماعة مدنية، بل « عامة الشعب » مقابل المواطنين [313، ص. 290-293]. وفي قادس، كانت هذه الكلمة تعني جميع المواطنين، كما يدل على ذلك النقش على الخاتم [334، ص. 251-256].

نعلم، لكن يحتمل أن يكون عددهم اثنين، كما في قرطاجة) ووزير المالية (Questeur)، على حد ما أطلق عليه باللاتينية المؤرخ الروماني (Liv. XXVIII, 37, 2). ما كانت مهامهم؟ هذا امر يمكن افتراضه فقط. ويبدو ان المسائل المصيرية المتعلقة بحياة الشعب كانت منوطة بهؤلاء القضاة، لأن القائد القرطاجي ماغون أجرى محادثاته معهم بالذات بغية ادخال قواته الى قادس (Liv. XXIII, 37, 2). ويعتبر المؤرخ ان من الضروري القاء ضوء للقراء على عهد اغسطس، فقد كان للقضاة أعلى سلطة عند البونيين، في حين لم يكن ينطوي القانون الدولي الروماني على منصب مماثل. وفيما يتعلق بمنصب وزير المالية، يستعمل المؤرخ مصطلحاً لاتينياً دون أن يفسره. ويبدو ان هذه الوظيفة تناولت كما في روما، المحافظة على بيت المال.

وكان يقوم بالمراقبة العامة في المستعمرات القرطاجية مندوب قرطاجي، كان يحمل لقب « ذلك المسؤول، المقيم بين الجماعة » [33، ص. 65-66].

وتقتصر المعلومات التي وصلتنا عن تركيب الجماعة المدنية،على قرطاجة الجديدة. فخلال وصف پوليبيوس (X, 16; 1; 17, 6-9) وليڤيوس (XXVI, 47, 1-3) لسقوط هذه المدينة ومصير سكانها،يشيران الى وجود حرفيين ومستوطنين، عدا المواطنين الجنود والعبيد. وبما ان قرطاجة الجديدة بنيت مكان ماستيا الأسبانية على ما يبدو، لذلك يفترض بأن يكون « المستوطنون » من اولئك الأسبان الذين تابعوا العيش في المدينة القرطاجية.

ويختلف الباحثون المعاصرون حول وضع الحرفيين. فشيفمن يعتبرهم « عمالاً » نصف احرار مرتبطين بافراد من المجتمع، لكنهم يتمتعون بوضع مدني [35، ص. 156-157]. اما سيستون فيفترض بأن هؤلاء كانوا من « العامة »، اي من القرطاجيين، لكن غير اولئك الذين يقومون باعمال جسدية، وذلك لأن الانتماء الى الطبقات المختلفة كان مرهوناً بنوع النشاط، كما يفترض [313، ص. 291]. ويقسم س.ف. بوندي سكان افريقيا القرطاجية الى مجموعتين: الليبيين المحرومين من الحقوق المدنية يدفعون الضرائب حيث ما وجدوا، والفينيقيين الذين يتمتعون بجميع حقوقهم المدنية في أي مكان

[87، ص. 661]. ولو عمّمنا استنتاجه هذا على الممتلكات الأسبانية لقرطاجة، لكان من الممكن اعتبار الحرفيين اسباناً، نظراً لعدم تمتعهم بجميع حقوق المواطنية.

ويبدو من الصعب اعطاء رأي مرضٍ بهذا الطرح في الوقت الحاضر، نظراً لضآلة المواد المتوافرة. الاّ ان ليڤيوس يشير، في مطلع الفصل الذي يتحدث فيه عن مصير سكان قرطاجة، الى القاء الرومان القبض على حوالي عشرة آلاف شخص من الذكور الأحرار، ثم يذكر بأنه أُعيدت الى المواطنين ممتلكاتهم، اما الحرفيون فحوّلوا الى عبيد للشعب الروماني ووُعدوا باعطائهم حريتهم بعد الحرب اذا ما تفانوا في العمل. وهذا يعني انهم كانوا اناساً احراراً، لكنهم يختلفون عن المواطنين. مع ذلك يصعب التأكيد على هذا الرأي، اذ ان المؤرخ يعود بعد قليل ليذكر العبيد في المقطع نفسه. لذلك لا يمكن استبعاد الفكرة القائلة بأن الحرفيين كانوا عبيداً أو اناساً قريبين من وضع العبيد.

ولا شك في ان العبيد عاشوا في المدن الفينيقية الأسبانية. فقد ورد ذكرهم في قرطاجة الجديدة (Liv. XXVI, 47, 3)؛ كما أتت نقوش اكتشفت في قادس، تعود الى العصر الروماني، على ذكر جَوارٍ لفينوس [228، رقم 35، 34، وص. 303]. وبما ان فينوس الرومانية ليست الاّ عشتروت الفينيقية القديمة، فانه من الممكن التأكيد على وجود جواري هيكل في هذه المدينة ابّان الفترة التي سبقت الاحتلال الروماني. وما اوردناه هو مجمل ما توفر لدينا من معلومات عن التنظيم السياسي والمدني للمدن الفينيقية الأسبانية.

اما المعلومات المتوفرة عن اهتمامات الفينيقيين الأسبان فكانت أوفر. لنعالج اولاً المسألة المعقدة المتعلقة بوجود، أو عدم وجود، الزراعة عندهم. فقد كانت الزراعة، كما هو معروف، القطاع الأساسي في اقتصاد العالم القديم. وكانت هناك شعوب مهنتها الأساسية هي التجارة، كالفينيقيين مثلاً [انظر 1، الجزء الأول، ص. 167-168]. وكانت تحصل على المنتجات الزراعية من خلال التجارة. ومع ذلك، فنحن نعلم ان الزراعة كانت قائمة في صور [33، ص. 9].

بالنسبة للمستعمرات الصورية في اسبانيا، يعطينا وصف سترابون لمدينة قادس مثلاً (III, 5, 3)، صورةً تنفي امكانية الزراعة عند القادسيين. فممتلكاتهم كانت ضيقة، لدرجة انهم كانوا يعقدون اجتماعاتهم في استا المجاورة، كما يشير الجغرافي الى ذلك في مكان آخر (III, 2, 2). ان كل ما ذكرنا يعود الى العهد الروماني. ولكن قبل ذلك التاريخ أيضاً، كانت اراضي القادسيين محدودة جداً، فقد تجمعت مدافنهم خلال الفترة الممتدة من القرن الخامس حتى القرن الثالث ق.م.، عند اسوار المدينة [180، ص. 413]. غير انهم كانوا يمتلكون على اليابسة قبل الاحتلال القرطاجي، كما سبق وأشرنا، « حصناً » بين قادس وترتيس (لعله القلعة نفسها التي دمّرها القرطاجيون على حد قول ڤيتروڤيوس واڤينايوس). وكانت « حصون » مالاغا، اذا صحَّ افتراضنا، على مسافةٍ كبيرة من المدينة (بين ٤ و٣٦ كلم) [270، ص. 1، 11]. وعلى مسافة أدنى، هي أقل من كيلومتر واحد من توسكانوس، كان لهذه المستوطنات نقاط متقدمة، لكن مدافنها كانت وراء تلك النقاط، أي ان ممتلكات مستوطنة صغيرة كتوسكانوس كانت كبيرة بما فيه الكفاية. وعلى الضفاف المختلفة لمجرى نهر الغارّوبو، كانت تمتد المستوطنة الفينيقية مورّو — دي مسكيتيليا ومقابرها المسماة ترايامار [278]. ويدلّ كل هذا على تملّك المدن الفينيقية الأسبانية اراضٍ يمكن استخدامها للزراعة. يضاف الى ذلك، ما عثر عليه المنقبون في توسكانوس من اعدادٍ كبيرة لعظام العجول والأبقار، بينها العديد من الرؤوس المسنّة، مما يدل على استخدامها للجر، لا للحصول على الحليب واللحم فقط [329، ص. 112-113]. وتتيح هذه المعطيات الافتراض بأن الزراعة لعبت دوراً في اقتصاد الفينيقيين الأسبان، حتى ولو كان تحديد قيمة هذا الدور وطابعه ما زال صعباً تبيّنه حتى الآن. وعلى أية حال، يبدو ان الزراعة تلاشت بعد الاحتلال القرطاجي وتقليص ممتلكات المدن.

ولو التفتنا ناحية المستعمرات القرطاجية، الى قابس قبل سواها، للاحظنا اتساع اراضي هذه المدينة، وذلك انطلاقاً مما عثر عليه من بقايا المدينة، كالمنارة، ومدينة الموتى، اللتين اكتشفتا ليس في جنوب بيتيوسا فقط، في منطقة قابس بالذات، بل وفي شمال غرب الجزيرة أيضاً [180، ص.

426-425]. ولعل الجزيرة كلها كانت تحت السلطة القرطاجية. ويشير ميلا (III, 125). خلال حديثه عنها، الى انها لم تكن خصبة حين كانت تزرع حبوباً، لكنها كانت أكثر عطاءً في زراعاتٍ أخرى. وتتضح تلك « الزراعات الأخرى » من خلال رواية ديودوروس (V, 16) الذي أشار الى العنب، وألمح الى قلة كميته، والى الزيتون، وكيفية تطعيم الأشجار البرية منه. ويستعمل المؤرخ صيغة Perfectum اللاتينية ἐμπεφυτευμένας، مما يدل على استخدام عملية التطعيم في أيام ديودوروس، أو في أيام تيمايوس، وهو المرجع الذي يستند اليه [220، عمود 1903]، تماماً كما كان يحصل قبل ذلك بكثير، أي في العصر القرطاجي.

كذلك يتحدث ديودوروس عن الصوف الناعم، الذي اشتهرت به قابس (Ebusus). فقد أعتنى سكان المستوطنات الصورية الصغيرة بتربية الحيوانات، ولا سيما الغنم والماعز في جنوبي شبه جزيرة البيرينه، ونستند في قولنا هذا على ما عُثِر عليه من عظام لهذه الحيوانات في توسكانوس [329، ص. 111 - 112]. ولعل الاهتمام بتربية المواشي كان عند الفينيقيين الأسبان اكبر من الاهتمام بالزراعة.

وكان صيد السمك، وتصنيع منتجاته، ميلاً شائعاً لدى الفينيقيين الأسبان. ويتحدث سترابون عن غنى البحر عند شواطىء اسبانيا الجنوبية (III, 2, 7)، ولا يألو جهداً لذكر وفرة الرخويات، والحيوانات البحرية والأسماك. فقد استثمر الفينيقيون كل تلك الثروات ولم يكتفوا بها، بل أبحر القادسيون، وحتى الفقراء منهم، حسب قول سترابون ذاته (III, 3, 4)، بمحاذاة السواحل الموريتانية حتى نهر ليكس لصيد السمك على متن سفنهم الصغيرة المعروفة « بالأحصنة »، نظراً لزخرف مقدمتها الذي يشبه شكل رأس حصان، وقد تكون جزيرة موغادور، عند الساحل الغربي للمغرب الحالي، احدى أبعد المحطات الجنوبية للصيادين القادسيين. ويذكر بسيدو — ارسطوطاليس رحلات صيادي الأسماك القادسيين البحرية البعيدة (والرحلة البعيدة كناية عن اربعة أيام من الملاحة تحت ريحٍ مؤاتية) (de mirab. ausc. 136). اما

پلينوس (IX, 68; XV, 68) فيتحدث عن غنى قابس بالسمك. وينوّه سترابون (III, 4, 6) بصيد سكان قرطاجة الجديدة لسمك الاسقمري، مضيفاً بأنه بسبب ذلك سمّيت الجزيرة الواقعة بالقرب من المدينة اسقمرارية (Scombrarie). وتشهد نقوش النقود، بالرغم من انها تعود لأيام الرومان ،على أهمية صيد السمك في اقتصاد المدن الفينيقية الأسبانية .فقد كانت كل المدن الفينيقية في اسبانيا الجنوبية تسكّ عملات تحمل رسوم التونة،أو الدلافين [363، الجزء الأول، ص. 52؛ الجزء الثالث، ص. 8-19].

وقد احيا صيد السمك صناعةً مهمةً في الاقتصاد الفينيقي الأسباني عاشت طويلاً، وتلك الصناعة المدعوة هاروما،هي عبارة عن تحضير متبّل سمكي خاص. وتعود وصفات تحضير هذا المتبّل،وبقايا ما عثر عليه من مشاغل صنعه،الى ايام الرومان، ولدينا دلائل على استهلاك اليونانيين في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد للهاروما القادسية والسيكسية وغيرها من المنتجات السمكية في هذه المدن [149، ص. 297-298؛ 180، ص. 386، ملاحظة 21-26]. وتتيح لنا اخبار الكتّاب القدامى والحفريات،تصوّر عملية تحضير مثل تلك المعلبات. كان السمك ينظّف، ويقطّع الكبير منه على بلاطة حجرية عريضة عند جدار خزان كبيرة، بني عند شاطىء البحر. وكانت النفايات منه ترمى بعدئذ على أرض الخزان المنحنية لتغور في البحر. وكان القسم المفيد منه (غالباً، وخاصةً في اسبانيا، كانت اجواف السمك تستعمل فقط) يلقى في احواض مجاورة اصغر قياساً (حوالي ٣ م × ٢ م)، مليئةً بالماء المالح. بعد ذلك يوضع السمك النصف المُصنّع في قدور فخارية مفتوحة لمدة شهرين، ويُرشّح بعدئذٍ ليرسل في أوعية صغيرة خاصة، او جرار، او خوابي، الى اليونان وايطاليا [180، ص. 383-385؛ 250، ص. 1459؛ 371، عمود 841-844]. ففي اثينا،ايام هيبوليت وارسطوفان،كانت السلع السمكية الأسبانية تعتبر منتجات « عالمية المستوى » [149، ص. 298].

وتدل بقايا الرخويات الأرجوانية التي عُثر عليها، خاصة بالقرب من باريا، على استخراج الفينيقيين الأسبان للصباغ الأرجواني [180، ص. 396]. وما من شك في انهم اتوا بهذه الصناعة من المتروبول، حيث كانت قد انتشرت

ابتداءً من الألف الثاني قبل الميلاد [214، ص. 247]. ومن المؤكد ان استخراج الصباغ الأرجواني في اسبانيا،كان يتم على نطاق اضيق مما كان عليه في فينيقيا، وخاصةً في صور.

إزاء الأهمية الكبيرة لصيد السمك،والتجارة البحرية التي سنتحدث عنها لاحقاً، كان لا بدَّ من تزايد الاهتمام ببناء السفن عند سكان قادس وقابس وأبناء قبائلهما. ومما لا شك فيه ان وفرة الصنوبر في پيتيوس (Plin III, 76; Diod V, 16) ساهمت في توطيد هذه الصناعة.

ويتحدث سترابون (II, 3, 4) عن نوعين من السفن القادسية: كبيرة، يجهّزها التجار، و« احصنة » صغيرة، يمتلكها الفقراء الذين يزاولون مهنة صيد السمك. ولعل سفن القادسيين الكبيرة كانت شبيهةً بسفن المتروبول « الترشيشية »، علماً بأن تلك السفن كانت كبيرةً بعض الشيء وتحتوي في داخلها على غرفٍ لاقامة المسافرين، وربما لاستجمام الطاقم. ومن ميزات تلك السفن، تصميمها بشكل يسهل فيه رمي جزءٍ من الحمولة في البحر لتخفيف وزن السفينة في حال تعرّضها لعاصفة (Ion. 1, 5).

من ناحيةٍ أخرى، ساعدت بقايا السفينة اليونانية العائدة للقرن الثالث ق.م.، والتي عُثِر عليها عام ١٩٧١ قبالة سواحل صقلية، في التعرّف على تكوين سفينة تجارية فينيقية كبيرة، بلغ طولها ٢٥ متراً وعرضها حوالي ٣,٥ امتار عند خط العوم. وقد صنعت من خشب الصنوبر، أو القيقب، أو الأرز، وصفّحت من الداخل بألواحٍ من الرصاص، ويتقوّس صالبها (Quille) بشكل عمودي تقريباً ليتحوّل الى حاملةٍ للمسافرين (Etambot). وتُنصب اشرعتها على عارضةٍ خاصة. وكانت تحمّل بالصابورة (Lest) بعد فرش قعرها بورق الزيتون،أو ورق اشجار الفاكهة،لتخفيف أثر اصطدام حجارة الصابورة به [169، ص. 28-31]. اخيراً، تتيح الرسوم على النقوش الأشورية،وغيرها من الصُوَرْ،رؤية الشكل الخارجي لمثل هذه السفن. ويعتقد ج. كونتينو ان السفينة المرسومة على الحائط الجانبي للناووس الرخامي الصيدوني، كانت « ترشيشية » ،هيكل مدوّر، مؤخرة ترتفع عالياً على شكل رقبة تمٍّ، مقدمة

تنتهي بقمرة المراقب ويرتفع في وسطها صارٍ عالٍ يحمل شراعاً مستطيلاً، في المقدمة ـــ صارٍ صغير عليه شراع صغيرة مستطيل لمساعدة الدفّة، وهذه الأخيرة هي عبارة عن مجاذيف [116، ص. 234-235]. ويبدو ان السفينة التي عُثِر عليها بالقرب من صقلية كانت من هذا النوع بالذات. ويدعوها سترابون (II, 3, 4) « الكبيرة » و«المدوَّرة»، كما يبدو ذلك من روايته عن رحلة اودوكس الكنيدي البحرية. غير ان هذه السفن الكبيرة كانت متباينة وقد حدّد الجغرافي اليوناني (في المرجع نفسه) وجهة استعمالها: فبعضها للملاحة في أعالي البحار، والبعض الآخر لدراسة الأرض. ومما يؤسف له اننا لم نتمكن حتى الآن من التحدث على نحوٍ أدق عن هذا النوع من السفن القادسية.

اما فيما يتعلق « بالأحصنة » التي كان ينيها القادسيون الفقراء، فقد كانت المتروبول بلا شك مصدر هذا النوع من السفن. ونلاحظ رسوماً لسفنٍ بنفس التزيين على أبواب سلامَنَصّر الثالث (القرن التاسع ق.م.) وعلى حائط قصر سرحون الثاني فقط. وقد رُسمت على اسطوانة ذهبية من أليسيدا سفينة مماثلة، زُيّنت مقدمتها ومؤخرتها برأسي حصان. والملفت هو ان هذا النوع من السفن كان ينفرد به في الغرب الصيّادون الفقراء فقط، اما في الشرق فقد تحوّلت الى « يخوت » تسلية استخدمها الملوك الأشوريون للصيد.وتجدر الملاحظة ان هذا النوع من « الأحصنة » انقرض، على ما يبدو، في النصف الثاني من الألف الأول ق.م. في المتروبول، الاّ ان استخدامه في قادس استمرّ حتى أيام سترابون [57، ص. 227-228؛ 58، عمود 304 ورسم 306].

الى جانب السفن « الكبيرة » و« الأحصنة » بنيت في قادس سفن حربية « طويلة »، اطلق عليها سترابون (II, 3, 4) تسمية خاصة، كان لها حافة حيزومٍ حادة، وسطح خفيف، وجوانب عُلِّقت عليها تروس. وكان لمثل تلك السفن صارٍ واحد يُنشر عليه شراع مربّع، وتُحرِّك اساساً بواسطة صفّين من المجاذيف يتراوح عددها بين ٥٠ و٦٠ مجاذفاً [57، ص. 226-227]. وكانت تبنى في قادس أيضاً زوارق قَطْرٍ تشبه على حدٍّ تعبير سترابون (II, 3, 4) مراكب القراصنة.

واحتلت صناعة الخزف مركزاً مرموقاً في مهن المدن الفينيقية الأسبانية. وتجدر الاشارة قبل كل شيء الى ما كان يسمى بالخزف الأحمر الذي استرعى انتباه الباحثين في الفترة الأخيرة. وكان هذا الخزف عبارة عن أوانٍ غُطيت بعد الشيّ (Cuite) بطلاء احمر لمّاع، كان يكسو سطحها بكامله، أو سطحها الداخلي، اذا كان الأمر يتعلق بالصحون والقصاع، وينتشر حتى خارجها فقط في قسمها العلوي القريب الى حافتها. وكان هذا الطلاء مالساً غير متين [345، ص. 264-265]. وتنتمي الى هذا النوع من الخزف جميع الأدوات الاعتيادية من صحون، وقصاع، وكؤوس، وقدور، وأباريق، وقناديل. وقد عثر على شظايا كثيرة من مثل هذه الأواني تقريباً في جميع المستوطنات الفينيقية جنوبي اسبانيا وشمالي غربي افريقيا [231، ص. 77-116؛ 77-116؛ 278، ص. 91، 94، 279، ص. 82-104؛ 280، ص. 232؛ 316، ص. 147-149]. وتشير الكمية الكبيرة من القطع الخزفية، التي استعملت اساساً في المطابخ، الى صنع الخزف الأحمر في امكنة استعماله، أي في المستعمرات الفينيقية جنوبي اسبانيا [278، ص. 91]. ويجب البحث عن مصدر نماذج هذه الأواني في الشرق، في فينيقيا وقبرص، حيث كانت معروفةً في مطلع العصر الحديدي، أي في أواخر الألف الثاني قبل الميلاد [231، ص. 119-120؛ 345، ص. 266]. وفي الوقت عينه يجب الاشارة الى انه في قرطاجة مثلاً، بطل استعمال الخزف الأحمر حوالي العام ٦٠٠ ق.م.، في حين ظلَّ يصنع في شبه جزيرة البيرينه وشمالي غربي افريقيا حتى القرن الثاني، وربما حتى القرن الأول ق.م.، ولم يبطل كلياً الاَّ تحت ضغط مزاحمة المنتجات الايطالية، بعد الاحتلال الروماني [108، ص. 63؛ 345، ص. 266]. وتجدر الاشارة أيضاً الى انه لم يعثر حتى الآن على أي آنية من الخزف الأحمر في جزيرة بيتيوس. بالمقابل، نجد هنا اقنعة خزفية كانت شائعة في قرطاجة [106، ص. 111-112؛ 108 ص. 63؛ 174، ص. 147-155]. مما يؤكد من جديد ان الخزف الأحمر كان احدى الصناعات التي تميزت بها المستعمرات الصورية في اسبانيا، لا قرطاجة، التي كانت تصنع فيها وفي مستعمراتها اقنعة فخارية غريبة بدورها عن اسبانيا الجنوبية. ويشير هذا الأمر الى الطرق المختلفة التي سلكتها صناعة الخزف للوصول الى المستعمرات الفينيقية في وسط وغربي البحر المتوسط.

ويبدو ان الصوريين والمستعمرين القرطاجيين على حدٍّ سواء قاموا بصنع الخوابي. وتعود أقدم الخوابي التي عثر عليها في انحاءٍ مختلفة من اسبانيا وافريقيا، بما فيها كارامبولو وباريا ومقابر مدن سيكسي وقابس، الى القرنين السابع والسادس ق.م. وهي عبارة عن اواني غير كبيرة (طولها من ٥٠ الى ٦٠ سنتم،وقطرها من ٣٠ الى ٤٥ سنتم)؛ وعلى خلاف الخوابي اليونانية، فهي بدون عنق، ولها فقط تويج بسيط يتراوح قطره ما بين ١١٥ و١٣٠ ملم، متصل مباشرةً بعنق يتحول بحدّة الى الجذع. ويتميّز هذا الجذع بشكله المتعرّج: في البداية مقعّر ومن ثم منتفخ، الأمر الذي يجعل الوعاء شبيهاً بالكيس. والقعر مستدير، واحياناً نصف كروي. وهذه الأوعية المستوية بشكل غير كامل، هي رمادية ضاربة الى الزرقة من الداخل، وصفراء باهتة،أو لها لون الطوب عندما تكون مطليّة من الخارج [68، ص. 58؛ 231، ص. 126 ورسم 25]. والأوعية العائدة الى فترة أقرب (القرنان السادس والخامس ق.م.) هي شديدة الشبه بالسابقة: عنقها مائل اكثر وشكلها اطول، وابعادها اكبر على ما يبدو، كما انها مشوية شواءً أفضل. وتميز المقابض (العروتين) كلا النوعين، فهي مدوّرة أو على شكل حدوة دائرية المقطع. ويلتحم الطرف العلوي لهذه المقابض بنقطة التصاق العنق بالجذع، اما الطرف السفلي فيلتحم بالنقطة الأكثر تقعّراً في الجذع. ويتراوح قطر المقابض في الأوعية القديمة ما بين ١٢ و٢٥ ملم، اما في الأوعية الأقل قدماً،فما بين ٢٠ و٣٢ ملم [68، ص. 57-58؛ 231، ص. 126؛ 340، ص. 128-133]. ولا ريب في ان هذا النوع من الخزف الفينيقي الأسباني يتحدّر من المصنوعات الشرق اوسطية (ما يسمى بالأباريق الكنعانية) التي تصادف في السامرة،وتعود الى الألف الثاني والألف الأول ق.م.، وفي اماكن مختلفة من فينيقيا وسوريا وقبرص [68، ص. 59؛ 231، ص. 132]. وينسب كلا النوعين الى ما يسمى بالنموذج « أ » من الخوابي « الأيبيرو — بونية ».

ويعتبر موضوع صناعة الخوابي من النموذج « ب » العائدة الى القرنين الرابع والثالث مثار جدلٍ طويل. فقد تميّزت هذه الأواني برقبة قصيرة (٦ — ٨ ملم) وببدنٍ ضيق وطويل،مستقيم الجوانب أو قليل التقعّر، وبقعرٍ

مخروطي على صورة مغزال [340، ص. 135]. وقد عُثِرَ على أوانٍ مشابهة في پيتيوس، ووُجد العديد منها مؤخراً في اسبانيا الشمالية الشرقية وفي القسم الغربي من الساحل المتوسطي لبلاد الغال، أي في مناطق التجارة الخارجية. لذلك يذهب الظن الى ان الفينيقيين لم يكن لهم يد في صنع تلك الخوابي، بل اليونانيين من سكان المستوطنة التجارية امپوريون، الذين استوعبوا التقنية القرطاجية الى حدٍّ ما [340، ص. 134]. وعلى أي حال، ما زال حلُّ هذه المسألة سابقاً لأوانه.

والى جانب الخوابي، صنع الفينيقيون الأسبان انواعاً أخرى من المنتجات الفخارية، من بينها الأواني المزخرفة المتعددة الألوان، التي سنتحدث عنها في الفصل المخصص للفن والمهن الفنية.

وفتنت اسبانيا الجنوبية الفينيقيين، واليونانيين من بعدهم، بمعادنها، ولا سيما القصدير والفضة والنحاس. لذلك كان وجود اماكن لمعالجة المعادن في المدن الفينيقية الأسبانية امراً طبيعياً. وهذا ما اكّدته الحفريات التي اجريت في توسكانوس، حيث وُجدت بقايا من خَبَثْ المعادن (Scorie)، وقساطل فخارية علقت بها آثار المعدن، وظهرت عليها دلائل احتراق قوي [278، ص. 92]، مما يدل على علاقتها بصناعة التعدين المحلية. وصنع الفينيقيون الأسبان أدوات مختلفة من المعدن، من بينها تحف فنية، كالأباريق البرونزية و« المجامر ». وكانوا يحصلون على المعادن الخالصة، أو الخام من الترتيسيين.

لقد كانت التجارة مع ترتيس سبباً اساسياً في بناء قادس وغيرها من المدن الفينيقية جنوبي اسبانيا [261، ص. 306]. وقد انتشر الخزف الأحمر في جميع انحاء اسبانيا الجنوبية، والجنوبية الشرقية [345، ص. 265-266، والخارطة على ص. 261]. وفي أماكن مختلفة من جنوبي اسبانيا، وُجدت خوابي فينيقية كانت ما تزال تحتوي في حينه على سوائل معينة. وتجدر الاشارة الى الرواج الكبير الذي كانت تلاقيه حتى أبسط الأواني الفينيقية. وتعتبر مهمةً في هذا المجال الحفريات التي اجريت في المستوطنة الواقعة على تلة سيّرو ــ سالومون، في اعالي نهر ريو ــ تينتو. وتؤكد الكمية

الكبيرة من الفخار المحلي الليّن،على كون تلك المستوطنة ترتيسية لا فينيقية. وقد عُثر في الوقت نفسه،على العديد من الأواني الفينيقية الى جانب قطع الخوابي، ولا سيما قطع المصابيح « المزدوجة القرن »،والأباريق التي تميّز وجودها بأهمية خاصة [79، ص. 15-38]. ويتحدث ديودوروس (V, 35, 6) وبسيدو — ارسطو (de mirab. ausc. 135) عن تجارة بيع زيت الزيتون، الأمر الذي يجعلنا نتساءل عن امكانية نقله في تلك الخوابي التي كثيراً ما عُثِرَ على حطام منها في اسبانيا.

ونشر الفينيقيون أيضاً، تحفاً وصناعات يدوية فينة مختلفة: مجوهرات، صفائح، علباً وامشاطاً من العاج، تماثيل صغيرة، وأدوات عباده كالمحاريب والتمائم [85، ص. 48-57؛ 180، ص. 378، 467-490]. واذا ما اشرنا على الخارطة الى الأماكن التي عثر فيها على تلك المصنوعات الفينيقية، حصلنا على شكلٍ قريبٍ جداً من خريطة الدولة الترتيسية. واذا ما عُثر على أدوات فينيقية خارج اراضي ترتيسيا، فانها تصادف في اماكن كانت على صلة بترتيس، كأليسيدا وقصر — دو — سال. وما من شكٍ في ان المتعامل الأساسي، ولعله الوحيد، مع الفينيقيين الأسبان في شبه جزيرة البيرينه،حتى أواخر القرن السادس ق.م.، كان ترتيس.

ولم تصل الى ترتيسيا المصنوعات الواردة من قادس وغيرها من المدن الفينيقية جنوبي اسبانيا وحسب، بل تلك الواردة من الشرق أيضاً. وكان العديد من سلع ترتيسيا شرقي المنشأ، يصلها من فينيقيا أو قبرص [86، 749-750]. وعُثِر في اسبانيا الجنوبية أيضاً،على منتجات مصرية، كانت تصلها بدون شك، عبر المدن الفينيقية الأسبانية. عن هذه الطريق اذاً وصل جزء من الخزف اليوناني الى الأسبان، ويستدل على ذلك من حطام الخابية اليونانية، الفينيقية الخطوط، التي عُثِر عليها قبالة ابديرا [181، ص. 626].

ولم تنقطع التجارة الفينيقية مع اسبانيا الجنوبية، والجنوبية الشرقية، حتى بعد زوال ترتيس. وتعود الى القرون الخامس — الثالث ق.م. بقايا من المصنوعات الفينيقية، بينها خزف أحمر،وتحف فنية في مدن الأموات الايبيرية

ومستوطنات شبه جزيرة البيرينه [85، ص. 60-62؛ 99، صص 244-255؛ 180، صص 467-490؛ 345، ص. 265].

وهكذا، فان الفينيقيين كانوا يبيعون الاسبان مصنوعاتهم والمنتجات الشرق متوسطية. وكانوا يشترون في ترتيسيا المعادن بشكل اساسي، ولا سيما الفضة والقصدير، وكذلك الذهب، وان بكمياتٍ أقل، ولا يخلو من اساس القول ان « السفينة الترشيشية » كانت تنقل الى فلسطين الذهب والفضة قبل كل شيء (I Reg. X, 22)، اما الأساطير التي رواها ديودوروس (V, 35, 4) وبسيدو — ارسطو (de miral. ausc. 135)، فتدور كما نذكر على المراسي الفضية، أو المطلية بطبقة من الفضة في السفن الفينيقية العائدة من اسبانيا. وكان موقع المستوطنات الفينيقية في أماكن ملائمة لرسوّ السفن الشرقية، فهي اما على مصب انهر تتيح التوغل الى مناطق المناجم في شبه الجزيرة، او الى الأماكن التي يمكن فيها الحصول على المعدن. ولم تكن المكانة المهمة التي احتلتها قادس من قبيل الصدفة، بل ارتبطت بموقعها القريب من مصب نهر بيتيس، وبارتباطها على ما يبدو، ارتباطاً مباشراً بترتيس بالذات. ويجدر الانتباه الى موقع المستوطنة الفينيقية غير المعروفة سابقاً، عند تلاقي نهري اوديال وريّو تينتو (مكان مدينة ويلفا الحالية)، التي كانت مرتبطةً ارتباطاً واضحاً بقرى التعدين في سهل ريو — تينتو [79، ملاحظة في نهاية الكتاب؛ 316، ص. 155-156][3]. ويفسّر البحث عن المعدن وجود بضائع التجارة الفينيقية في اعالي سهل بيتيس والمنطقة المجاورة بعد فناء ترتيس، فقد كانت تلك المنطقة في ذلك الوقت، احد أهم مراكز استخراج المعادن [75، ص. 35-36].

ونتساءل: هل جهّز الفينيقيون الأسبان بعثاتٍ الى المنابع الغنية بالمعادن في الشمال، في هاليسيا وبريتانيا، أيام قيام الدولة الترتيسية؟ اننا نجهل الاجابة

(٣) ظهرت حديثاً فكرة تقول: ألم تكن هذه المستوطنة بالذات مدينة ترتيس المجهولة الموقع؟ [195، ص. 355-360].

على هذا التساؤل لعدم توافر اخبار عن مثل تلك البعثات. ما نعلمه من أخبار هو فقط،عن تجارة الترتيسيين في تلك المناطق،وعن النزاع بين الترتيسيين والفينيقيين. ومما لا شك فيه،هو ان احد أسباب هذا الصراع كان سعي الترتيسيين لحماية طرقهم التجارية من المنافسة الفينيقية. وليس مجرد كلام في الهواء القول ان الرحلة اليونانية في المحيط باتجاه الشمال أدّت الى برودة في العلاقات الفوكية ـــ الترتيسية [29، ص. 123]. ويتضح ان مثل تلك البعثات نُظمت بعد انقراض الدولة الترتيسية، ويتطرق اڤيان الى ذلك (or. mar. 114-116)، فيروي احاديث عن رحلات متعددة الى استريمنيداء قام بها القرطاجيون والشعب الذي كان يعيش عند أعمدة هرقل، ويقابل بينها وبين رحلات الترتيسيين. اما الشعب الذي كان يعيش عند أعمدة هرقل فواضح ان المقصود به هم القادسيون الذي مخروا عباب اليم حتى الكسيتيريد (الى جهة سواحل هاليسيا بلا ريب) في مطلع العهد الروماني. كما ورد ذلك عند سترابون (III, 5, 11). والأقراط والحلق والقلائد والأطواق المستعملة للشعر على الطراز الفينيقي والتي عثر عليها في عددٍ من مستوطنات شمالي غربي شبه جزيرة البيرينه، الى جانب نقوش فينيقية تعود للقرن الثالث ق.م. تشكل تأكيداً لتلك الرحلات [85، ص. 66].

وبعد تقويض الدولة الترتيسية وإحكام السيطرة على قادس، حاول القرطاجيون وضع يدهم على التجارة الأطلسية. ولعل هذا السبب كان، كما يتراءى لنا، وراء بعثة هيميلكون التي انطلقت من قرطاجة الى الميحط ،اتجاه الشمال (412-415، 382-389 و Av. or. mar. 114-129؛ Plin. II, 169). لذلك نعتقد ان تأريخ هذه البعثة يعود الى الفترة التي تلت مباشرةً اقتحام قادس وتدمير ترتيس، اي الى النصف الأول من القرن الخامس ق.م.(٤). وحتى لو سلمنا جدلاً بأن القرطاجيين حاولوا ابعاد القادسيين عن مزاحمتهم على التجارة الشمالية، فاننا نرى انهم لم يوفقوا في ذلك.

---

(٤) ما زال تاريخ هذه البعثة موضع نقاش. بعض الباحثين يؤرخها في النصف الثاني من القرن السادس ق.م. [33، ص. 94؛ 40، ص. 126؛ 358، ص. 154].

بدأت التجارة القرطاجية والقابسية بالازدهار في شبه البيرنيه بعد التجارة القادسية. وليس من أثرٍ للأستيراد القرطاجي حتى أواخر القرن السادس ق. م؛ وجلّ ما يمكن ملاحظته تماثيل صغيرة غير دقيقة، من الطين النضيج (Terre cuite)، عُثِر عليها قبالة كرمونا في مدافن القرن السادس [85، ص. 58-59]، انما يحتمل ان تكون وصلت الى هناك لا عن طريق قرطاجة، بل من خلال فينيقيّي الجنوب الاسباني: وتشهد الأقراط التي عثر عليها في اوتيكا، وهي شديدة الشبه بالاقراط القادسية، على علاقات قادس بالدولة القرطاجية.

وابتداءً من القرن الخامس ق. م. بدأت تظهر على ساحل اسبانيا الشرقي دلائل أولى للاستيراد، او التأثير القابسي، كانت عبارة عن تماثيل صغيرة من الطين النضيج [293، ص. 270]. وفي القرنين الرابع والثالث ق. م. اتسع انتشار المباخر القرطاجية التي لها شكل رأس امرأة [53، ص. 72-74]. وعُثر في بعض القرى الإسبانية في هذه المنطقة على بقايا خوابي بونية تحمل مقابضها وسماً فينيقياً. والى الشمال من إيبر، وفي الامبوريون اليوناني ضمناً، يقع المرء على نقود وقطع من الخزف القرطاجي [85، ص. 62-64]. وإذا كان ميدان التجارة القادسية قد تطابق اساساً مع اراضي الدولة الترتيسية فان منطقة نفوذ التجّار القرطاجيين انبسطت نحو الساحل الشرقي والجنوبي الشرقي لشبه جزيرة البيرنيه وامتدّت على شكل ألسنة في عمق شبه الجزيرة، وصولاً الى ميسيتا، وحتى الى البلاد التي تعرف اليوم بالبرتغال.

وكانت مدن جنوبي اسبانيا الفينيقية على صلة وثيقة بشمالي — غربي افريقيا، حيث بنى الفينيقيون مستعمرة ليكس التي شُيِّد فيها معبد هرقل، اي ملقارت، وكان ذلك المعبد اقدم من معبد قادس (Plin. XIX, 63). ولو اخذنا بعين الاعتبار المحاولات الفاشلة لتأسيس مستعمرة في قلب اسبانيا، او عند ساحلها، لأمكن الاعتقاد ان بناء ليكس كان مرتبطاً بمحاولات الصوريين توطيد اقدامهم عند اعمدة هرقل، واقامة رأس جسر للتجارة مع ترتيس [33، ص. 23]. وتتميَّز منطقة ليكس بالذات بانه عثر فيها على أقدم دليل على الوجود الشرقي في المنطقة المعروفة اليوم باسم المغرب. وكان ذلك الدليل

جُعَل (Scarabée) مصري يحمل اسم امينهوتيب الثالث، وقد نفّذ بعد مرور سنوات عديدة على وفاة الفرعون، في القرن العاشر ق. م. [106، ص. 172]. ولعلّ ذلك الجُعل وصل صدفةً الى هناك، اما أقدم الشواهد الأثرية في تلك المدينة، فلا تعود الى أبعد من القرن السابع ق. م. [115 ص.247-248]. وكما هي الحال بالنسبة لقادس، لا يمكن القول ان هذه اللقية وحدها كافية لدحض التأريخ التقليدي. ولعل ليكس فقدت اهميتها بعد بناء قادس، لكن المؤكد ان العلاقات بين هاتين المدينتين اللتين بنتهما المتروبول لهدف واحد، كانت دائماً متينة. وعلى غرار المدن الفينيقية الأسبانية، عُثِر في ليكس وجوارها على خزفٍ احمر، تميّز بصنعه الحرفيون الفينيقيون في اطراف غربي البحر المتوسط [231، ص. 118; 333 ص. 267].

واليوم، يعتبر انتشار الخزف الاحمر الذي سرعان ما اختفى في قرطاجة، كما رأينا، واستمرّ لفترة طويلة في قادس والمدن القريبة منها، افضل دليل على العلاقات بين المستوطنات الفينيقية والأراضي المحيطة بها. ويدل وجود هذا الخزف على علاقة وثيقة بين اسبانيا الجنوبية والأراضي الافريقية الواقعة الى الجهة المقابلة من المضيق. وقد اظهرت الحفريات في مدن الأموات في منطقة تنغيس (طنجة الحالية) التأثير الكبير الذي تركه الفينيقيون الاسبان على السكان المحليين، خاصةً فيما يتعلق بالخزف الاحمر الذي يلاحظ في جميع تلك المقابر العائدة الى الفترة الواقعة ما بين القرن الثامن (او السابع) والقرن الخامس ق. م.، والتي كان اوجها في القرن السادس ق. م. [300، ص. 17-24; 301 ص. 105-130; 163-164; 166-168]. وعدا الخزف وجدت هناك حلى شبيهة بتلك التي عثر عليها في اسبانيا [301، ص. 140-155]. وكانت جميع تلك المصنوعات من نتاج التجارة الفينيقية الاسبانية. وقامت لاحقاً بعض المدن الافريقية الشمالية، كباناس مثلاً، بتطوير صناعة الخزف الخاصة بها، والشبيهة بأواني جنوبي شبه جزيرة البيرينه [249، ص. 117-122].

وتعتبر رهغون، الجزيرة الصغيرة الواقعة قبالة مدينة وهران غربي الجزائر، أبعد نقطة شرقية على الساحل الأفريقي يمكن فيها ملاحظة العلاقة مع جنوبي اسبانيا. ففي مدافنها العائدة الى الفترة الواقعة ما بين القرن السابع والقرن

الخامس ق. م. ،عُثِر على خزف قادسي المصدر [301، ص. 108 ;345 ص. 258].

وكان صيادو الاسماك والتجار القادسيون يجوبون البحر قبالة شواطىء افريقيا الغربية. وقد اقام الفينيقيون عند الخليج الواقع جنوبي ليكس، والذي يحمل اسم امبوريك المعبّر (التجاري، باليونانية)، عدداً من المستوطنات التجارية (Strabo XVII; 3,2). اما ابعد نقطة الى الجنوب لوحظت فيها آثار الوجود الفينيقي، فهي جزيرة موغادور التي عُثِر فيها على اوعية من الخزف الاحمر تتحدّر بشكل واضح من جنوب اسبانيا، وهي اوعية قاتمة اللون (خوابٍ، صحون كبيرة ترتكز، على ثلاثة قوائم، أباريق صغيرة شبه كرويّة، الخ) كتلك التي تلاحظ في جميع المستوطنات الفينيقية المتوسطية وفي اتروريا، واغلب الظن انها تتحدر من فينيقيا او قبرص. كذلك وُجدت فيها قطع من الخزف الملوّن تحمل زخرفة هندسية على شكل خطوط متوازية او دوائر متراكزة، كتلك التي كانت تصنع في المدن الفينيقية الاسبانية وفي مشاغل المتروبول. وقد عثر على بعض القطع التي تحمل نقوشاً اثرية فينيقية، الأمر الذي ينفي كل الشكوك حول منشأ المحطات في موغادور. وتعود احدث تلك الأدوات الى القرن السابع ق. م. وتشير بقايا المسكن (ارضيات طينية وحجرية، ومواقد) وادوات العبادة (اجراس طقسية وغيرها) التي عثر عليها على تلك الجزيرة،الى وجود مستوطنة فينيقية على موغادور [231].

ويصف هيرودوت (IV; 196) اساليب التجارة القرطاجية مع قبائل الساحل الافريقي المطل على المحيط، بقوله ان القرطاجيين كانوا يُنزلون بضائعهم ويبسطونهم على الشاطىء ليعودوا بعد ذلك الى سفنهم ويضرموا الدخان. فيأتي عندئذٍ السكان المحليون ويضعون الذهب الى جانب البضائع التي كان يأخذها القرطاجيون تاركين البضائع. واذا كانت كمية الذهب قليلة، كان التجار البونيون يعودون الى سفنهم دون مسّها وينتظرون الى ان تصبح مساويةً لسعر بضائعهم. وعندئذٍ فقط كان المشاركن في هذه العملية التجارية يتبادلون الذهب والبضائع. ويبدو ان الفينيقيين الأسبان لجأوا الى تلك الطريقة

التجارية، البدائية نسبياً. ووفق ما رواه هيرودوت، يعتبر الذهب السلعة الاساسية التي كان يعرضها سكان شاطىء افريقيا الغربي. ويعتقد البعض ان ذلك الذهب كان من غينيا [108، ص. 92]. وبما ان « السفينة الترشيشية » كانت تنقل ايضاً العاج والطواويس والقرود الى الشرق (I Reg. X, 22)، يستنتج بالتالي، انها كانت تنقل كل ذلك من افريقيا.

وعُثِر في موغادور ايضاً على خزف يوناني مكوّن،على نحو اساسي،من بقايا خوابٍ ايّونية وأتيكية تعود للنصف الثاني من القرن السابع ق. م. [231، ص. 59-359;64 ص. 1-8]. ويدل انعدام البضائع الكمالية، من أوانٍ مختلفة الأغراض، على ان مادة التبادل الأساسية لم تكن الخزف،بل البضائع التي كانت في الخوابي. والكمية القليلة نسبياً،من قطع الخوابي الفخارية تحمل على الاعتقاد بان اليونانيين لم يصلوا الى موغادور،وبأن بضائعهم كانت تنقل عبر الوسطاء. من ناحية اخرى، ان عدم وجود مثل هذه الأواني في قرطاجة وتوافرها في اسبانيا، يجعلنا نعتقد بأن اولئك الوسطاء كانوا من الفينيقيين الأسبان [359، ص. 16]، أو لعلهم الترتيسيون أيضاً. وظهرت لاحقاً، آثار الاستيراد اليوناني الى الشمال من موغادور، في باناس (القرنين السابع والسادس ق. م.)، وكوتيس وليكس (ابتداءً من القرن الخامس ق. م.). وابتداءً من القرن السادس ق. م.،بدأ يظهر في شمال المغرب خزف هلّيني مزخرف [359 ص. 15]. وفي القرن التالي، اي القرن الخامس، عُثِر في جنوبي اسبانيا والمغرب على منتجات اتيكية مزخرفة باللون الأحمر (منتوجات لا اثر لها البتة في قرطاجة) الأمر الذي يتيح التحدث مجدداً عن تلك الوساطة القادسية [359، ص. 23].

وابتداءً من القرن السادس ق. م. بدأت تظهر في بعض الأماكن من شمالي غربي أفريقيا، وفي باناس بشكل خاص، منتجات تدل على العلاقة مع قرطاجة، ــ أوانٍ « بحافّة »،واوعية بمقبضين كتلك التي كانت تصادف في العاصمة البونية خلال الفترة نفسها [249 ص. 130 ;138]. اما في تينغس وكواس،فقد بدأت المنتجات القرطاجية تظهر فيها ابتداءً من أواخر القرن الخامس ق.

م. [301، ص. 169-181]. وقبل ذلك بقليل، اي حوالي عام ٥٠٠ ق. م، غادر الفينيقيون موغادور [108، ص. 92، 95]. وقام القرطاجيون بالتالي، ابتداءً من القرنين السادس والخامس بتنحية الفينيقيين الاسبان عن افريقيا. ورغم استمرار العلاقات الأسبانية الافريقية، شهد النفوذ القادسي تقلصاً كبيراً، وكان على قادس ان تتقبَّل المنافسة مع قرطاجة. ويبدو لنا ان هذا الامر كان متصلاً باحتلال القرطاجيين لقادس. واخضاع قرطاجة لقادس من جهة، والحكم الذاتي النسبي الذي ساوى رسمياً بين الفينيقيين الأسبان وسكان قرطاجة من جهة أخرى، يفسّران كما يبدو الوضع في شمالي غربي افريقيا. ولعل هدف رحلة البحار القرطاجي حنّون، التي قام بها حوالي عام ٤٧٥ ق. م. [269، ص. XXII]، كان وضع اليد على التجارة مع افريقيا الاطلسية.

ويحتمل ان تكون علاقات الفينيقيين الاسبان مع المتروبول قد استمرت فترة طويلة. فعبر قادس وغيرها من المدن الفينيقية في جنوبي اسبانيا الواقعة على شبه جزيرة البيرنيه، كانت تنقل منتجات الصناعة الفينيقية الشرقية والتحف الفنية. فحين ندرك وجود المستوطنات الفينيقية على أراضي ترتيس، ابتداءً من أواخر الألف الثاني ق. م.، يصبح بامكاننا القول ان « السفن الترتيسية » التي كانت تؤمن الاتصال بين الغرب والشرق كانت تصل الى صور ويافا من هذه المستعمرات بالذات. وهذه السفن، كما نعلم، كانت تنقل الى اسيا الفضة والقصدير الاسبانيين، والذهب الأفريقي، والعاج الذي كان يقدَّر عالياً في الشرق الأوسط، والعاباً لبلاطات الملوك والأمراء من قرود وطواويس. وكان هناك العديد من الأشياء القيّمة التي تنقل من الغرب. ويذكر واضع **كتاب الملوك الأول** (X; 27; X; 31)، ان التجارة مع ترشيش جعلت « الفضة في أورشليم شبيهة بالحجر » ايام سليمان. ورغم المبالغة في هذا القول، الا انه ينطوي على اشارة واضحة الى الكميات الكبيرة من الفضة الاسبانية التي كانت تصل مملكة يهوذا.

لقد كان القرن العاشر ق. م. — زمن حكم احيرام الصوري وسليمان الأورشليمي — الفترة الذهبية لازدهار صور. ومع ذلك فقد تابعت العلاقات

بين اسبانيا والشرق تطورها في القرون اللاحقة. وتشير الشواهد الأثرية الى ضخامة التجارة بين اسبانيا والشرق خلال القرنين الثامن والسابع ق. م. ويحتمل ان تكون تلك العلاقات قد ضعفت في أواخر القرن الثامن ق. م. نتيجة تطور الأحداث التي جاءت نتائجها غير ملائمةٍ للفينيقيين، إن في صقلية (الصراع مع اليونانيين)،او في المتروبول (الحرب مع الدولة الأشورية)، لكنها تعززت من جديد في القرن السابع ق. م. [95، ص. 470]. وفي مطلع القرن السادس ق. م. أكّد هذه العلاقات كتاب حزقيال (XXVII; 12) الذي اعطى صورةً معبِّرةً عن التجارة الصورية، وسمّى ترشيش من ضمن المدن المتعاملة مع صنور. ومن سلع هذا البلد الغربي،هناك اشارة الى المعادن التالية: الفضة، الحديد، الرصاص والقصدير. اما اخر شهادة روائية عن العلاقات المباشرة بين المشرق المتوسطي وشبه جزيرة البيرنه، فنراها في كتاب يونا (I, 3). وتشير الشواهد الفينيقية الاسبانية الفنية، التي سوف نتحدث عنها في الفصل الرابع، الى استمرار العلاقات مع المتروبول في النصف الثاني من الألف الأول ق. م.، وما زال من الصعب التحدث عن مدى متانتها.

وقد وُجدت في اسبانيا كميات من المنتجات المصرية. ففي مدافن « لوريت »، حيث وجد سكان سيكسي مأواهم الأخير، عُثِر على أوانٍ من الرخام الشفاف (Albâtre)،كانت تستعمل كمرامد (جمع مِرَمدة ـــ Urne)، حملت اسماء فراعنة السلالة الثانية عشرة ـــ اسركون الثاني، شيشونك الثاني وتكلوت الثاني، الذين حكموا في القرن الثاني ق. م. وقد وجدت مرامد مماثلة في نهر باربات،وفي مدفن علي مقربةٍ من كارمونا [285، ص. 52-51]. ويعود الجُعَل الذي ذكرناه سابقاً الى القرن السابع ق. م.، ويحمل اسم بساميتيح الأول، وقد عثر عليه في « القصر دو ـــ سال »،كذلك تعود الى نفس الفترة اللوحة التذكارية البرونزية التي تصوّر تقديم الذبيحة على الطريقة المصرية، وهي لوحة عثر عليها في ضواحي مالاغا [180، ص. 327-326؛ 347، ص. 164]. ووجدت أيضاً آثار مصرية (تمائم وتماثيل برونزية وطينية) في قادس وقابس والمدافن التابعة لهما [115، ص. 273-272; 180; ص. 266-263 413-400; 439-427].ولعل من الصعب الأجابة على من يسأل عن

وجود علاقات مباشرة بين مصر واسبانيا، لكنه من المعروف حتى الآن عدم وجود شواهد على مثل تلك العلاقات، تعود الى ما قبل العهد الروماني.

ونعرف في الوقت نفسه ان علاقات ثقافية وسياسية وتجارية قامت بين مصر وفينيقيا. لكن تأثير مصر السياسي على فينيقيا ضعف في الألف الأول ق. م.،فندرت الآثار التي تحمل اسماء الفراعنة، باستثناء تلك التماثيل الصغيرة التي حملت اسماء حكام السلالة الثانية عشرة، بمن فيهم اسركون الثاني [109، ص. 38-41 ;309 ص. 15]. وفي هذا، كما يبدو، دلالة على ان اواني الرخام الشفاف (او المرمر) التي حملت اسماء فراعنة هذه السلالة كانت تنقل الى اسبانيا من فينيقيا، وليس مباشرة من مصر [242، ص. 13].

ويبدو ان التحف الفنيّة المتحدرة من مناطق سوريا الداخلية وشمال ما بين النهرين،كانت تتسرّب الى اسبانيا عبر المرافىء الفينيقية [86، ص. 749].

وكانت العلاقات بين المدن الفينيقية الأسبانية وفينيقيا الشرقية،تتم مباشرةً، او عبر قبرص. ويبدو ان على هذه الجزيرة بالذات ظهرت لأول مرة تقنية انتاج الخزف الاحمر الذي أعجب به الفينيقيون الاسبان [86; ص. 749 ;345 ص. 266]، ويُلاحظ المرء اوجه شبه عديدة بين المنتجات الفنيّة الفينيقية الاسبانية والقبرصية. وعُثِر في الحفريات الأثرية في شبه جزيرة البيرنيه على منتجات قبرصية صرفة، مثل الابزيمات (Fibules) « المرفقية » الملتوية في كنز ويلڤا، والتماثيل التي هي على شكل طيور في قادس وسهل بيتيس الأوسط [233 ص.80]. وتُذكر ترشيش في ما يسمّى بجدول الشعوب في سفر التكوين (X; 4) الى جانب أليشا وكيتيم اللتين كان يقصد بهما جزيرة واحدة هي قبرص [3، ص. 166، ملاحظة 31 ;128 ص. 44 ;47]. ويعلن اشعيا (XXIII; 1) في نبؤته عن مصير صور، ان خبر تهديم هذه المدينة سيصل الى « السفن الترشيشية » من الأرض الكيتية، مما يؤكد القول بأن قبرص كانت حلقة ضرورية تصل اسبانيا الجنوبية بالمشرق المتوسطي.

وكانت المدن الفينيقية الاسبانية تقيم علاقاتٍ تجارية مع اليونان. ويشير ديودوروس (V; 35; 5) الى ان الفينيقيين نقلوا الفضة من اسبانيا الى اليونان

واسيا وغيرها من الشعوب. ويبدو انه من خلال الفينيقيين تمَّ نقل البرونز الى سيكيّون حيث استعمل، على حد قول پافسانيوس (IV; 19; 1-3)، في انجاز خزانة الطاغية السيكيوني ميرون في الاوليمب في اواسط القرن السابع ق. م. وبات معلوم ان المنتجات اليونانية كانت تصل الى شعوب جنوب اسبانيا وشمال غرب افريقيا عبر الفينيقيين. وابتداءً من القرن الخامس ق. م. اخذت تلاقي بعض انواع المنتجات الاسبانية رواجاً كبيراً في اثينا على الأقل. وتدل الحفريات في توسكانوس وتراپامار وفي مدافن « لاوريت » وفي اماكن مختلفة من المغرب على ان المدن اليونانية المتعاملة مع الفينيقيين الاسبان كانت قرنثية واثينا ومدن ايونيا وردوس. بَيْدَ ان اوثق العلاقات التجارية كانت قائمة على ما يبدو مع اثينا وقرنثية [279، ص. 116-117; 278 ص. 91 ;285 ص. 63-65; 359 ص. 16].

وانتشرت في الغرب في القرنين الخامس والسادس ق. م. تلك الأوعية الحمراء المزخرفة المطلية بالورنيش الاسود. ويدل اكتشاف العديد من تلك الاوعية في صقلية على ان هذه الجزيرة كانت، على الأرجح، وسيطاً بين الفينيقيين الغربيين واليونان البلقانية [359; ص. 23 ;24]. وفي القرن الخامس ق. م. اختفى الخزف اليوناني عملياً من مدافن المعوزين في قرطاجة واوتيكا [108 ص. 87 ;111، ص. 25-28 ;112، ص. 144-146]. وكان الوضع على عكس ذلك تماماً في اسبانيا ومدافنها وشمال افريقيا، بما فيها الأراضي الواقعة تحت حكم قرطاجة، اذ ان نقل المنتجات الهلّينية، وخاصةً الأتيكية، لم ينقطع حتى الربع الأخير من القرن الرابع ق. م. [48; ص. 184-186، 359، ص. 12-16].

وقد لا يكون ممكناً تفسير هذه الوقائع كشاهدٍ على استقلال اسبانيا والمغرب عن قرطاجة في القرنين الخامس والرابع، انما نعرف ان السلطة القرطاجية توطدت على المستوطنات الفينيقية على جانبي المضيق عند اعمدة هرقل. وتجدر الاشارة الى وجود مستوردات يونانية في پيتيوس، حيث موقع قابس القرطاجية، وفي سردينيا، وكيركوانا كذلك [48 ص. 185-186]، وتقع هذه الأخيرة على مقربة من قرطاجة بالذات. وهكذا، نرى انه ينبغي التحدث

عن استقلال اقتصادي نسبي للمدن الفينيقية الاسبانية، شبيه بالاستقلال السياسي الذي تحدثنا عنه في الفصل الأول..

لقد اتينا منذ قليل على ذكر قابس الواقعة في پيتيوس. فقد بدت، هذه المدينة وكأنها كانت « جزيرةً جسراً » تؤمن لليونانيين الإتصال بترسيس [103، ص. 13-19]. لذلك لا نستغرب عدم بقائها بعيدة عن التجارة مع العالم اليوناني. فقد عثر في المدافن القابسية پونغ ــ ديس ــ مولينس على قماقم للعطور صنعت في نفكراتيس (نفكراتيس ــ مستعمرة يونانية في دلتا النيل ــ المترجم) لعلها وصلت الى هناك عبر التجار الفوكيين [178 الجزء الثاني، ص. 191]. وكانت الأواني الهلّينية والقناديل متوافرة فيها اكثر من مثيلاتها القرطاجية والمحلية [180؛ ص. 436-437]. واللافت هو عدم ذكر قابس في المعاهدات الرومانية ــ القرطاجية كمنطقة محرّمة على التجارة الرومانية (وبالتالي على اية تجارة غير قرطاجية). ألم تكن « نافذة على العالم » فريدة من نوعها، ومكاناً يتصل فيه القرطاجيون بجيرانهم ومنافسيهم؟

وهكذا، كان الفينيقيون الاسبان تجاراً وسطاء يسوّقون في اسبانيا وشمال غرب افريقيا، منتجات شرق البحر المتوسط، الى جانب سلعهم الخاصة.

وإزاء ضخامة التجارة في المدن الفينيقية الاسبانية، كان يبدو وكأن العملات المعدنية كانت في طريقها الى الظهور. بيد ان ذلك لم يحصل، ولم يبدأ سك العملة عند الفينيقيين الاّ في مرحلة متأخرة. وتعود الى النصف الثاني من القرن الخامس ق. م. اولى العملات التي سُكّت في صور والتي تحمل صورة دلفين ينطلق فوق خط مثلث من الأمواج، وصَدفةً ارجوانية [54، ص. 25؛ 265، ص. 52]. وفي القرنين الخامس والرابع كانت قد وضعت في قرطاجة قيد التداول، عملات أُصدرت في ليليبيا الصقلّية على الطراز الأتيكي، ولم تنشأ دار قرطاجية للسك الاّ في حدود القرنين الرابع والثالث ق. م. [106، ص. 182]. اما المدن الفينيقية الأسبانية فلم تبدأ اصدار عملتها الاّ في وقت لاحق. والدراخمات القادسية الأولى المتنوعة، المصنوعة وفق المواصفات البونية ــ اليونانية والمنتشرة في قرطاجة، تعود الى اواسط القرن

الثالث ق. م. او الى نصفه الثاني، اي الى تلك الفترة التي كانت تقوم خلالها دولة البركيديين في شبه جزيرة البيرنيه. وحملت تلك العملات التي يتراوح وزنها ما بين ٠,١و٠,٤ غرام صورة رأس ملقارت، حامي المدينة، او التونة كشعار للعظمة البحرية. والى جانب القطع الفضية، كانت تُتداول في قادس قطع برونزية اكثر ثقلاً، لكنها اقل قيمةً، يبلغ وزنها ٤,٥ غرام [362، ص. 209-306 ;363 الجزء الأول، ص. 51-54]. وظهرت في الفترة نفسها قطع نقدية فضيّة في سيكسي [155، ص. 322]. والى تلك الفترة ايضاً يعود بدء السك في قابس [363، الجزء الأول، ص. 60-62]. الى جانب ذلك، ظهرت في شبه جزيرة البيرينه نقود لا كتابة عليها تحمل صورة رأس حصان ونخلة (شبيهة بالنقود القرطاجية)، يعتقد الباحثون انها صدرت في باريا، كما ظهرت مصنوعات دور السك الأيبيرية ذات الكتابة الفينيقية. وانحصر نطاق انتشار تلك النقود بسواحل اسبانيا الجنوبية والشرقية [66، ص. 56-57].

ولعل الدور الاساسي الذي لعبته السمسرة في تجارة المدن الفينيقية الاسبانية كان وراء تأخر ظهور النقود المعدنية. وقد اشار كارل ماركس الى ان الشعوب التجارية في العصور القديمة (معتبراً الفينيقيين عن حق من بينها) « لعبت دور النقود (الوسيط) » في عملية التبادل بين الشعوب المنتجة [1؛ الجزء الثاني، ص. 372]. وكان الفينيقيون يفضلون التبادل المباشر لسلعة بسلعة. ومع دخول البركيديين الأرض الأسبانية، توثقت صلة الفينيقيين الأسبان بقرطاجة اكثر من السابق، وغدا استقلالها السياسي والأقتصادي محدوداً. وفقدت قادس ومدن اخرى قدرتها على اجراء تبادل واسع بين الغرب والشرق، واستُبدلت التجارة التوسعية بالتجارة الوفيرة المردود، الأمر الذي ادّى الى ظهور النقود. ويبقى هذا الاحتمال بطبيعة الحال مجرد فرضية.

وأدّت العلاقات بين الفينيقيين الاسبان وغيرهم من الشعوب،الى تأثير متبادل. وظهر ذلك بوضوح في اسبانيا بالذات. فقد اشرنا مثلاً، الى التأثير المحلي على فن البناء عند المستوطنين الفينيقيين. ومن ناحيته، أثّر الفن المعماري على نظيره المحلي: فاستبدلت البيوت الدائرية والبيضوية في غاليرا المصنوعة

من الاجر الطري، ببيوت مبنية على اساس حجري [317، ص. 31]، شديدة الشبه بالمنازل التي اكتشفت في توسكانوس. واكدّت دراسات عدة اهمية الخزف الفينيقي في عملية تطوير صناعة الخزف الأيبيرية [288، ص. 60-90؛ 289، ص. 2-11؛ 317، ص. 31-33]. وقد شكلت « المجامر » الفينيقية نموذجاً أصلياً لأوعية برونزية مماثلة عند قبائل الجنوب الشرقي المحلية [;119ص. 78-79]. وكان للفينيقيين تأثير كبير على تطوير التعدين والميتالورجيا في ترتيسيا. وهكذا، استعمل سكان بلدة سيرّو ـــ سالومون تقنية « شبيهة » بتلك التي كانت بحوذة المعدّنين وعمال المناجم في الشرق الأوسط في القرن العاشر ق. م.،ولا سيما تقنية الصنابير الخزفية، المنشورية او التي على شكل قرن، والتي كانت تستخدم لتغذية المواقد المحفورة في الأرض بالهواء. وكانت المواد الخام تُكسَّر على سنادين من الغرانيت، شبيهة بالاحجار التي وجدت في أراباب. ولم تلاحظ مثل هذه السنادين في سيرّو ـــ سالومون فحسب، بل لوحظت في جميع انحاء هذه المنطقة التعدينية [79، ص. 12-15; 17-18].

وكان يمكن للاتصالات بين المستعمرين والسكان المحليين ان تتم كذلك داخل المستعَمرات الفينيقية. فقد اظهرت الحفريات في توسكانوس وموزّو ـــ دي ـــ ميسكيتيليا آثاراً تدل على اقامة السكان المحليين هناك، هي عبارة عن خزف محلي ليّن [278، ص. 105 ;317 ص. 115-116]. غير ان تحديد طبيعة تلك الاتصالات ما زال غير ممكنٍ.

وكان للتعرف على الغرب الأقصى اهميته الكبرى بالنسبة للشرق. فالسلع الأسبانية والأفريقية كانت ضرورية جداً لاقتصاد فينيقيا وجيرانها. وليس صدفة ان تكون ترشيش وصور على اتصال وثيق في نبوّة اشعيا (XXIII, 1: 5: 10).

وكان لا بد للمعلومات عن البلاد الغربية البعيدة من ان توسّع تصوّرات الشرق عن العالم. فترشيش كانت تعتبر في الجغرافيا التوراتية ابعد نقطة غربية، النقطة التي اعتبرها كتاب يونا كآخر الكون.

ولعل هذه المعلومات التي حصل عليها مؤلفو التوراة هي نتيجة تعرّفهم

المباشر على اسبانيا او نتيجة عمل الفينيقيين، وهذا يبدو اكثر احتمالاً. ويعتقد البعض ان هناك خريطة فينيقية استعملت في عملية تعداد الشعوب في **سفر التكوين** (X) [198، عمود 530]. وقد تميّز البابليون بتعريفهم المحيط، فهو ينساب حول الأرض ذات الشكل الدائري المكتمل، حسب تصوراتهم [39، ص. 68]. وكان هذا الاعتقاد نفسه سائداً عند اليونانيين الهوميروسيين، كما يبدو ذلك مثلاً، من خلال وصف ترس أخيل (II, XVIII, 606-607). ولكن هل استمدَّ البابليون واليونانيون هذه التصورات من الفينيقيين، ام انها ظهرت فجأةً،كما يحدث ذلك عند اي شعب يعيش عند شواطىء البحر [39، ص. 64]؟ على اي حال، تجدر الملاحظة بان كلمة « محيط » (Océan) ليست يونانية ولا حتى هندوأوروبية [168، ص. 1145]. ومن الأفتراضات عن مصدر هذه الكلمة، هناك ظن بأنه فينيقي [199، عمود 2309-2310]. ويربط ديودوروس (V,20,1) تسميته البحر الخارجي « محيطاً » باسفار الفينيقيين.

ومع ان المحيط، برأي هوميروس (ورأيه هذا اعتمده اليونانيون، حتى في الأزمنة اللاحقة)، ينساب حول الأرض، فقد ربط الهلينيون المحيط اساساً بالغرب. وكان على « اوديسّيه » ان يعبره ليصل الى عالم الأموات (Od. X, 504,...) الذي ينحصر عادةً بمنطقة غروب الشمس. وفي مكان ما من البلاد التي يهبُّ فيها النسيم آتياً من المحيط، تربض حقول الأليزيه (V; 561-569). ويعتقد البعض ان هذه التسمية ارتبطت باسم الآله الفينيقي إيل [39، ص. 70-71]. هنا بالذات، بالقرب من حدود الأرض، عند باب المحيط، تقع جزر غسيودّا السعيدة (Op. et dies 167-173). وفي المحيط او وراء المحيط، حسب العقيدة الغسيودية في أصل الآلهة وتحدرهم (Théogonie)، تنحصر بلاد الغسبيريد والغورغون الهريساور والغريون (215-216; 274-294). ثم، أليس ممكناً الافتراض بأن المعلومات حول البلاد الغربية التي يجهلها اليونانيون، الخطرة حيناً، والسعيدة حيناً آخر، كانت وراء تغذية خيال الهلينيين الميتولوجي؟ واذا كان الأمر كذلك، فأن مثل هذه المعلومات، رغم شدة غموضها، كان باستطاعة الفينيقيين فقط، بمن فيهم فينيقيو الغرب، ان ينقلوها الى اليونان ايام هوميروس. ومن غير المجدي ان نحاول على غرار

البعض، مقابلة هذه الأماكن او تلك من مغامرات اوديسّيه، او مساكن شخصيات غيسيود الاسطورية، بنقاط محدّدة في ايطاليا او اسبانيا او اي منطقة اخرى من العالم الغربي [مثلاً، 131، ص. 38-41 ;259]. فنحن إزاء جغرافيا خرافية صرفة قد لا تنطوي على اي تطابق مع الواقع. لكن التصورات الخرافية لا تظهر الاّ على اساس واقعي. ولعل الرحلات البحرية التي قام بها الفينيقيون، والفينيقيون الأسبان، في المحيط، الذي لم يعثروا فيه على شاطىء مقابل لا بداية له ولا نهاية، هي التي اثارت فكرة النهر المنساب في ذاته الذي يقع وراءه عالم الأموات، فنقل اليونانيون الى هذا المحيط مسرح احداث اساطيرهم. والى جانب ذلك، تتمحور الأساطير اليونانية التي يظهر فيها المحيط موزعاً على نحو غير متساوٍ حول دائرة المسكونة، مائلاً الى جهة الغرب.

وهكذا، فان علاقات العالم الفينيقي الغربي بالشرقي المتوسطي لم تساهم في تطوير الأقتصاد فحسب، بل ساهمت في تطوير ثقافة الشرق الى حدٍ معين. ويبدو هذا الأثر واضحاً في اتساع الافق الجغرافي لشعوب شرقي البحر الأبيض المتوسط، رغم ان التعبير عن هذا الاتساع جاء على نحوٍ ديني — ميتولوجي.

هكذا كانت الحياة اليومية والأقتصادية في المدن الفينيقية في اسبانيا. وقد شابهت في العديد من جوانبها الحياة في مدن فينيقيا، وتميزت عنها بجوانب عديدة اخرى. ويصح القول نفسه على الدين والفن والكتابة عند الفينيقيين الاسبان(٥).

---

(٥) اظهرت الحفريات اللاحقة وجود بيوت سكنية متعددة الغرف إن في توسكانوس، او في المستوطنة المكتشفة حديثاً — تشورّيراس [246 a، ص. 135؛ 316 a ص. 182-183].

ويرى احدهم ان الذين عملوا في مناجم سيرّورسالومون وبجوارها لم يكونوا ترتيسيين، بل فينيقيين [123، ص. 22]، بيد ان الرأي لم يؤكد حتى الآن.

الفصل الثالث

الدين

لعب الدين في حياة الفينيقيين، كما في حياة جميع شعوب العصور القديمة، دوراً مهماً. وقد اتاح لنا اكتشاف النصوص الدينية والميتولوجية العائدة الى القرنين الرابع عشر والثالث عشر ق. م. في اوغاريت، تكوين تصوّر عن ديانة ذلك الزمان [138، ص. 355-368; 145 ص. 76-91; 344 ص. 30-33]. ومما يؤسف له، انه لم تصلنا نصوص مماثلة من مراكز اخرى وفترات سابقة. وجُلّ ما وصلنا عدد ضئيل نسبياً من النقوش، ومقتطفات اساطير فينيقية دوّنها كتّاب قدماء، وكذلك رسوم مسكوكاتٍ، وآثار فنية قليلة. ويعتبر التطابق بين الآلهة الفينيقية واليونانية ــ الرومانية امراً مسلماً به عرفاً، فهو من جهةٍ يسهّل معرفة هذا الاله الفينيقي او ذاك، ومن جهةٍ اخرى، يغلق بوجهنا احياناً معرفة ما اذا كان الحديث يُدور عن شخصية فينيقية ا يونانية صرفة، أ عن عبادة رومانية. لذلك، ما من مجال من مجالات تاريخ الثقافة الفينيقية ينطوي على التباسات وفرضيات تعادل ما ينطوي عليه تاريخ الديانة الفينيقية أواخر الألف الثاني ــ الألف الأول ق. م.

ومن الطبيعي ان نُعنى بدراسة الآلهة الفينيقية التي أشير الى عبادتها في اسبانيا، وخاصة تلك النواحي من العبادة المشار اليها هنا.

ومن بين اركان البنتيون الفينيقي المشهورين والمعتبرين لدى الفينيقيين الأسبان، يجدر بنا قبل كل شيء ذكل ملقارت، الأله الصوري الرئيسي الواسع الشعبية في اواسط المستعمرين ولدى الشعوب القديمة قبل ذلك، وقد مزجت تلك الشعوب بينه وبين هرقل،او هرقليس. وقد كان هيكله في قادس احد أشهر المعابد المقدسة في العصور القديمة، وقد انتشر صيته في جميع أنحاء منطقة البحر المتوسط منذ ظهوره في أواخر الألف الثاني ق. م.،كما أوضحنا سابقاً، واستمرَّ قائماً حتى نهاية الوثنية. وتعود آخر المعلومات المتوفرة عن هذا المعبد الى أواخر القرن الرابع ق. م. ولن نعالج في بحثنا هذا جميع المسائل المتعلقة بعبادة ملقارت، لان ما يهمنا منها هو ما يتصل مباشرة بعبادة هذا الأله في اسبانيا، رغم عدم الاختلاف الكبير في طبيعة هذه الديانة عند الفينيقيين الشرقين والغربيين. وسنحاول حلَّ المسألة المتعلقة بكيفية تصوّر الفينيقيين الأسبان لله بالاستناد الى تحليل الاساطير التي كانت شائعةً في قادس،وغيرها من المدن الفينيقية الأسبانية.

يصف سيليوس ايتاليك (III; 32-44) بوابات هرقليون قادس والرسوم المحفورة عليها. ويشير د. فان برخم (D. van Berchem) بحق الى ان معبد قادس كان ذائع الصيت في القرن الأول ق. م.،ايام سيليوس، لدرجة ان شاعراً مثله سمح لنفسه القيام بادعاءات خيالية [69، ص. 83]. لنتأمل اذاً تلك الرسوم.

تذكر القصيدة ان « اعمال ألْكِيد » كانت مرسومة على بوابات المعبد، يلي ذلك تعداد مختصر لها: الهيدرا الليرنية، الاسد المنتقم (يسمّيه راسمه الكليوني)؛ البواب الستيغي، اي كلب كيربر الجهنمي، الجياد الفراكية، الخنزير البرّي الأريمانغي، الأيل النحاسي الأرجل (الأيل الكيريني)، الأنتيبوس المجندل، السنتور، ثور اشيلوي ذو الرأس البشري (التيار الاكرناني)،وأخيراً وَقْدُ البطل على أتنا ، حيث « يحمل اللهب النفس الأ بيّة الى النجوم ».

وليست المآثر الأثنتا عشرة التقليدية هي التي تلفت النظر، بل تلك المجموعة المتنافسة المكوِّنة « لسيرةٍ » من عشر حلقات، بما فيها الموت في المحرقة.

زد على ذلك، انه الى جانب المآثر الست المذكورة في المجموعة الاثنتي عشرية التقليدية، هناك اربع مآثر، وهي وان كانت معروفة في الأدب القديم، فانها لم تدخل هذه اللائحة. ويعتبر أ. غارسيا اي بيلّيدو ان الرسوم على بوابات المعبد القادسي رسمت قبل فَهْرَسَةْ المآثر التي اجريت حسب رأيه في حدود القرنين السادس والخامس ق. م.، وبالتالي، فانها تعكس الطابع الهلّيني للمعبد في القرن السادس ق. م. [188، ص. 104-105]. غير ان مسألة اصل حلقة مآثر هرقل الاثنتي عشرة تبقى بعيدةً عن الحل. واذا كان م. نيلسون يُرجع ظهور تلك الرسوم الى العصر الميكاني [276، ص. 197 ,224]، فأن ف. برومّر يعتبر ان هذا الفهرس وُضِعَ فقط في العصر الهليني [97، ص. X]. على أية حال، فقد كان هوميروس (Od. XI, 623-626; II. VIII, 363-369) وهسيود (Theog - 275, 287-294, 310, 313-315 327-333) على اطلاع على بعضٍ من هذه المآثر.

ولا نجد بين مآثر هرقل القادسي اثراً لسرقة التفاح من حارسات التفاح الذهبي (Hesperides)، ولأطلنط الذي يدعّم السماء، ولمنازلة هيريون. وتعتبر هذه الأساطير عريقةً في القدم، اذ ان هسيود أتى على ذكرها، اما قصة سرقة التفاح من الحارسات فيعقل انها كانت معروفة في اليونان الميكانية [10، ص. 63، ملاحظة 110]. ولا بدَّ من الأشارة هنا، الى ان جميع هذه الاحداث انحصرت عامةً، حسب الميتولوجيا اليونانية في الغرب الأقصى، اي في منطقة نفوذ قادس. والمهم بشكل خاص هو عدم ذكر منازلة هيريون هناك. ويتحدث هسيود عن هذه المنازلة محدداً مكانها على جزيرة اريفيا. وربط ستيسيهور (Strabo III, 2, 11) بين هيريون وترتيس. اما ايفور وفيليستيد (Plin. IV, 22) فيعتبران جزيرة اريفيا هي نفسها جزيرة قادس. ولكان الامر مستغرباً لو ان الكهنة القادسيين اهملوا، عند اختيارهم النموذج اليوناني لتزيين معبدهم، الاساطير المرتبطة بالبيئة المحلية، وربما بمدينتهم بالذات. وفي الوقت نفسه أثبت في سياق مشاهدة « سيرة » البطل على البوابات القادسية، مشهد وفاته، وهو موضوع نادراً ما عالجته الفنون الجميلة اليونانية [97، ص. 147]. اما في قادس، كما سنرى لاحقاً، فكان هناك رهبة واجلال لجنازة ملقارت

وقيامته اللاحقة.وانطلاقاً من كل ما بيّنا يمكن القول،بأن ما رُسِمَ على بوابات معبد هرقل في قادس لم يكن بطلاً هلّينياً، بل الهاً فينيقياً. بالتأكيد، لا يجوز ان نستثني على نحو قاطع تأثير الميتولوجيا اليونانية. لكن القيّمين اختاروا في هذا السياق تلك المواضيع الشبيهة بمواضيع مآثر ملقارت وآلامه (دون الألتفات الى احتمال وجود لائحة مقدسة بالمآثر الاثنتي عشرة ام لا).

ومن بين مآثر ملقارت، الصراع مع الهيدرا الليرنية،وهو صراع جعله الشاعر في المرتبة الأولى (وبشكل ادق، فقد عُرضت الهيدرا مجندلةً وقد قُطِع رأسها). وكان موضوع صراع الأبطال مع الأفاعي الأسطورية واسع الانتشار في ميتولوجيا اليونان، كما في الشرق. ونجد في آثار ما بين النهرين صورة معركة لبطل، منفرد او بصحبة رفيقه، يصارع افعى خماسية الرؤوس او تنيناً سباعي الرؤوس تنطلق من ظهره ستة ألسنة من اللهب [225، ص. 174-175؛ 245 ص. 40-41، رسم ١ وجدول I; II]. ويصارع جيلغاميش الشومري افعى مختبئة في جذور شجرة صفصاف ضخمة زرعتها الآلهة ابنانا [5، ص. 76-77]. وفي التوراة ذكر لصراع الله مع أفعى ليفيافان الرهيبة (14، LXXIV، Ps؛ 1، XXVII، Ies). كذلك تتحدث قصيدة اوغاريت عن الأله بعل الذي هزم تنّين لتن (Ltn) حامل الشر، السلطان السباعي الرؤوس (38-39، D، VAB؛ 1-2، I، AB *I). ونعثر على هذا الموضوع في اساطير شعوب أخرى [10، ص. 27]. وهكذا تبدو خرافة صراع الأله،او البطل مع التنين او الأفعى،او ما شابههما،امراً ليس بنادرٍ، فهي خرافة شائعة ايضاً في الميتولوجيا الكنعانية، لذلك كان من الطبيعي ان ينسب الى ملقارت الصوري انتصار شبيه بذلك الذي أحرزه بعل الاوغاريتي.

اما فيما يتعلق بمأثرة ملقارت الثانية، وهي مقاتلة الأسد، فان هذا الموضوع عولج ايضاً معالجة مسهبة في اساطير الشعوب المختلفة. ومثل هذه المآتي تنسب الى انكيد (II, III, 28-32)، وال جيلغاميش نفسه (IX, I, 14-18)[1] في

---

(١) وفقاً لتفسير وترجمة أ.م. دياكونوف لهذه القصيدة [11].

« ملحمة عن جيلغاميش ». وفي هذا المجال يمكننا ذكر شمشوم التوراتي الشهير (Iud. XIV, 6). ولا تنطوي الرواية التي تحكى عن بعل على وصفٍ لمثل هذه المعركة، لكن ممتلكات آله الموت « موت »، عدو بعل، تدعى دائماً حقل أسود « ماميتو » (I* AB, VI, 7). والمقصود بالاسد هنا، على ما يبدو، مخلوق عدو لبعل. وتحمل كأسان فضيّان، عثر عليهما في قبرص في كيتيا الفينيقية، رسماً يمثّل شخصاً ملتحياً يقاتل اسداً، وشخصاً أمرد يقاتل عنقاء مغرب (حيوان خرافي نصفه نسر والنصف الآخر اسد). ويظهر المقاتل على احدى الكأسين بالزيّ المصري، اما على الكأس الآخر فبزيّ ما بين النهرين، الأمر الذي يميّز الفينيقي. ونتعرف في البطل الملتحي الى ملقارت، اما مرافقه، فغالباً ما يكون اشمون [59، ص. 296-298 والجدولان VII و VIII]. وعلى اسطوانة من العاج وجدت في جنوب اسبانيا قبالة كارمونا، نرى رسماً لمحارب يقاتل اسداً بمساعدة عنقاء مغرب [75، ص. 13]. وبما ان كيتيا كانت لفترة طويلة تحت سيطرة صور، وبما ان صانع الاسطوانة الكارمونية فينيقي اسباني على الأرجح، يمكننا اعتبار هذين الأثرين دليلاً مباشراً على الاسطورة الصورية عن مقاتلة الاسد. كذلك يؤكد الأثر الذي عثر عليه في كارمونا ان هذه الاسطورة كانت شائعة الانتشار في اسبانيا.

ومأثرة الاله الثالثة المرسومة على البوابات، كانت الانتصار على الكلب الجهنمي كيربر. ولم نجد حتى الآن ما يمكّننا من عقد مقارنات دقيقة في الادب الشرقي، غير ان موضوع اقامة الآلهة او البطل في عالم تحت الأرض، وصراعه مع كائنات هذا العالم، موضوع مألوف في كل مكان. ويَعْبُرُ جيلغاميش عبر بحر الموت الى مسكن اوتنابيشتي الأبدي (11، 12، IV، IX). وما من شك في ان الالهين **تموز وأدونيس،** اللذين ماتا ثم بُعثا، أقاما في عالم تحت الأرض. ويمكن ان يقال الشيء نفسه عن الأله بعل. « موت » أفنى هذا الاله، لكنه عاد فانبعث. بعد ذلك تتحدث الرواية عن صراع **بعل وموت** الذي تتدخل فيه آلهة الشمس **شاباش،** وتكره **موتاً** على الخضوع (I AB, VI, 16-32). وتظهر في مشهد صراع هرقل مع كيربر، على حد قول سيليوس ايتاليك، امرأة سليطة (mégère) خائفة من السلاسل.

ونتساءل الا يمكن ان يكون الكاتب الروماني او مرجعه، قد اعتبر شخص آلهة الشمس امرأةً سليطةً؟ لقد صُوِّر كيربر القديم دائماً على شكل كلب له احياناً، عدة رؤوس وعدة اجسام [146، عمود 272 ,276]. ونرى على احدى الكؤوس الكيتية رسم رجلٍ ملتحٍ، تعرفنا فيه على ملقارت، يحمل كلباً على كتفيه [59، جدول VIII].

ومن بين مآثر ملقارت الاخرى رسم لصراعه مع العملاق انتييوس. وموضوع الصراع مع العمالقة معروض على نطاق واسع في الشرق. فهناك مقتل هومبابا الرهيب على يد جيلغاميش وأنكيد (« ملحمة عن جيلغاميش » V)، وانتصار الفتى داود على المارد غولياف (I sam XVIII, 40-51). ويمكن ايجاد مقارنة بين انتصارات ملقارت الاخرى وسواها. كان أخيلوس (Acheloos) يصوّر في العصر الهليني على شكل ثور له رأس انسان [367، عمود 216]. وكان يجب أن يظهر على بوابات المعبد شيء مماثل. وفي الفن الشرقي صورَ مماثلة معروفة. فعلى مقدمة القيثار مثلاً، الذي عثر عليه في المدفن الملكي في اورا، صورة لشخص يقاتل ثورين بوجهين انسانيين [28، ص. 121 والرسم على ص. 125]. هرقل القادسي يعارك خنزيراً برياً. وكان المصريون يروون روايات عن صراع **غور** مع **سيت**، الذي هو على شكل ذكر خنزير اسود [296، ص. 68-69]. ولا يستغرب ايضاً ظهور الأيل بين الشخصيات المرتبطة بملقارت. فالأيل كانت على ارتباط بعبادة هذا الأله، نظراً لتغذيتها المولود الألهي، كما يبدو ذلك من خلال النقش الصوري الذي يمثل مشهد ولادة هذا الأله [327، ص. 23-24 وجدول II، رسم 1]. ورغم عدم تمتع المواضيع الاخرى بمثيلات لها محدّدة حتى الآن، فأن ما اوردناه يعتبر كافياً للتأكيد على ان مآثر ملقارت هي من ضمن نطاق التصوّرات الميتولوجية الشرقية القديمة.

والآن، ما معنى المشاهد المرسومة على بوابات معبد هرقل في قادس؟

يعتبر كيربر والهيدرا الليرنية والاسد النيمي، في الميتولوجيا اليونانية (عند هسيود)، ابناء اكيدنا وتيفون (Theog. 306-332) — الغيلان المرتبطة بالقوى

الجهنمية الرهيبة. ومثل هذه الافكار لا بدّ ان تكون ظهرت عند الفينيقيين. ففي عالم الفينيقيين كانت الافاعي ترمز الى التيار المائي الذي يتفجر من الأرض [59، ص. 325-339]. وكان الكلب وفق تصورات العديد من الشعوب، مرتبطاً بالموت كرمزٍ لروح الميت [146، عمود 274]. ويبدو ان صراع ملقارت مع الهيدرا والأسد وكيربر كان يمثل بشكل ميتولوجي الصراع مع المظاهر الثلاثة للقوى الجهنمية: المياه المتدفقة من الأرض، الوحوش التي تعيش تحت الأرض (مُمثلةً بالاسد) والولائد الرهيبة لمملكة ما تحت الأرض. وتعود مآثر ملقارت الثلاثة التالية في الواقع الى نفس البواعث. فالاحصنة ترتبط بعالم الآخرة عند اليونانيين والأترورين وفي كل منطقة البحر المتوسط [20، ص. 52-65; 81، ص.67]؛ الأيل رمز المياه [61، ص. 112-113]، ويمثل الخنزير البري القوى البرّية. وأخيراً، نلاحظ الجوهر نفسه عند أعداء ملقارت الثلاثة الباقين: المارد، السنتور (بشكل ادق، مخلوقات اعتبرها الكاتب الروماني سنتورات)، الثور البشري الرأس. وفي ملحمة ما بين النهرين لا ينفصل العملاق هومبابا عن الأرز النابت في الارض (« ملحمة عن جيلغاميش» V). ويمثل الثور عند العديد من الشعوب التيار المائي المتدفق. ويحتمل أن تكون « السنتورات »، تلك المخلوقات الشبيهة بالأحصنة، مرتبطة مثل هذه الأخيرة بعالم الموت.

وهكذا، يبدو ان الصور على بوابات معبد هرقل في قادس،هي مواضيع متشابهة تتردّد ثلاث مرات حول صراع الأله مع الولائد القائمة للقوى الجهنمية. وتكرار القول مرات ثلاث له اهمية كبيرة كما هو معلوم في فولكلور الشعور المختلفة، فكأنه يؤكّد ويوطّد الأهمية الخاصة للحادثة. واغلب الظن ان التكرار المثلث للفكرة الواحدة عند عرض مآثر ملقارت، كان يهدف الى التشديد والتأكيد على أهمية « أعماله ».

ويفترض ان تنسب مثل هذه الأساطير الى الاله المرتبط بالشمس. فانتصارات ملقارت تذكّر بمآثر جيلغاميش، وجزئياً بمآثر شمشوم. والطابع الشمسي لهؤلاء الابطال امر لا ريب فيه. وتؤكد اسطورة هجوم الملك الترتيسي على

قادس، وهي اسطورة رواها ماكروبيوس (Saturn- I, 20, 12)، الناحية الشمسية من عبادة ملقارت. وقد جاء في تلك الأسطورة ان السفن الملكية أُحرقت باشعة شبيهة بالاشعة الشمسية، وان الأُسود كانت تظهر على مقدمات السفن القادسية. وطبيعي ان نتوقع خلاص قادس على يد الأله حامي المدينة، على غرار ملقارت، خاصةً وان هدف الهجوم المباشر كان، حسب ماكروبيوس، احتلال معبد هرقل بالذات، وقد أدرج ماكروبيوس هذه الرواية في مقطع تحدث فيه عن هرقل. وكان الأسد كما رأينا للتوّ، حيواناً مرتبطاً بالأساطير التي تتناول ملقارت. ولما كنا قد تحدثنا في الفصل الأول عن المنشأ الفينيقي لهذه الاسطورة، وعن انها تعكس الصراع بين القادسيين والترتيسين، فأن ظهورها اذاً يعود الى منتصف الألف الأول ق. م. وليس قبل.

المشهد الأخير من المشاهد الموجودة على بوابات المعبد القادسي هو موت الاله وقيامته. ونجد في قصيدة نون « ديونيسياكا » (XL, 358) اشارةً الى قضاء هرقل على الشيخوخة بالنار وتقبّله الشباب من النار. ومن الثابت حالياً ان المصدر الاساسي الذي اخذ عنه الشاعر كان الاسطورة المحلية الصورية [140، ص. 128-151]. وقد عُرِض على البوابات المشهد الذي يمثل « اللهب الذي يحمل الروح الى النجوم ». ولعل هناك رسماً يمثل شخص البطل وهو يتصاعد من اللهب. ولو ربطنا هذا المشهد بكلمات نون لاصبح بامكاننا الافتراض بأنه يمثل تصاعد الأله المتجدد من النار. وما نعرفه من مراجع اخرى، ان موت ملقارت (وقيامته على ما يبدو) كان على درجة عالية من التقدير في قادس. وهكذا يروي سلوستيوس (Iug- 18, 3)، مستنداً الى الأفريين، اي الفينيقيين الافارقة، موت هرقل في اسبانيا. وكانت مقبرة هذا الاله تقع، طبقاً لرواية ميلا (III, 46)، في المعبد القادسي. وهكذا نرانا امام تمثال الأله الميت والمنبعث، الشبيه بأدونيس الجبلي او بتمّوز ما بين النهرين،او اوزيريس المصري، الأله الذي يمثل الطبيعة المائتة والمنبعثة. ويبرز في هذه الحلقة من الأساطير الجانب الزراعي من عبادة ملقارت، وهو الجانب الذي حافظ عليه المستعمرون الصوريون في اسبانيا ايضاً.

وكان من غير المعقول ان لا يكتسب ملقارت في قادس، المركز البحري الكبير، صفات الأله البحري. ويمكننا في الواقع تناول هذا الجانب فقط، لأن رأس الأله غالباً ما كان يظهر على قطع العملة القادسية،مزداناً برسوم التونة والدلافين [363، الجزء الأول، ص. 52-53 الجزء الثالث، ص. 8]. ولعل بروز صور هذا الاله على مقدمات السفن القادسية، في الاسطورة التي تتحدث عن هجوم فيرون، يعكس، ولو بشكل جزئي، الجانب البحري من عبادته. وكانت تحرق اثناء الاحتفال بالعيد الذي كان يقام على شرف ملقارت في قادس، وهو ما سنتحدث عنه لاحقاً، فزّاعة (Epouvantail) على شكل انسان تمتطي ظهر مارد البحر [165، ص. 133]، الأمر الذي يفسّر بانه ارتباط بعبادة آله البحر.

ويعتبر اسم ملقارت عادةً تحويراً لملك قارت (Malek quart) ومعناه « ملك المدينة »، وصور هي المدينة المقصودة [303، عمود 293]. والاهداء (Dédicace) الذي عثر عليه في مالطه،والمحرر بلغتين (الفينيقية واليونانية) الى هذا الاله، يسمّي ملقارت « حاكم تير » ــ بعل صور (KAI 47). وهكذا نجدنا امام واحدٍ من البعول المحلية ــ « حاكم » التي نعرف العديد منها في البنيتون الفينيقي، كبعل صيدون (« حاكم صيدا ») او بعلة جبيل (« حاكمة بيبلوس »). وكان الفينيقيون يجسّدون في شخصياتهم كل ما هو قيّم وعزيز في هذه المدينة، أو القبيلة، أو الفئة الاجتماعية [244، ص. 24]. وبمثل هذا الطابع كان على ملقارت ان يتميّز في قادس. وكان على القادسيين،وغيرهم من المستعمرين،ان يولوا اهتماماً خاصاً بالأله كحاكم وكزعيم للاستيطان. وليس من باب الصدفة ان تكون اسطورة موته في اسبانيا على علاقةٍ بحملته البعيدة المدى (Sallust Iug 18, 2-3). وفي الجزء اليوناني من النقش المالطي ذاته توازي كلمة « ارشيغيت » لقب « بعل ». وارشيغيت، زعيم ، ومثل هذا النعت يناسب الاله حامي الحملات البعيدة وقواعد المستعمرات. وهو يماثل في هذا الدور دور ابولون في الميتولوجية اليونانية (Thuc. VI, 3, Pind. Pyth V, 60-61 حيث أُطلق على هذا الاله اسم ارشيغيت في سياق الحديث عن تأسيس ناكسوس في المرة الأولى، وكيرينا في المرة الثانية). وقد ذهب ايليا

اريستيد (Or. 27,5) حدَّ التمييز بين مهام أبولّون كمنقذ ومهامه كزعيم. ففي الحالة الأولى يظهر كمرسِلٍ للآخرين لبناء مدن جديدة، اما في الثانيـة، فكمسؤول مباشر [247، ص. 69-70]. وهكذا عرف ملقارت فـي الغـرب كزعيم للاستعمار. ويبدو ان التشديد على هذاالدور بلغ اوجه في قادس، المدينة التي بُنيت حسب رأي سترابون (III, 5,5) بأمرٍ من وسيط الوحي (الكاهن). وكان مصدر هذه الرواية، كما روى عالم الجغرافيا نفسه، الرواية القادسية. ويبدو انه كانت هناك اسطورة عن بناء قادس أُسند فيها لكاهن ملقارت دور مهم.

امتدت شهرة معبد ملقارت في قادس الى جميع ارجاء العالم القديم. فكان يزوره العديد من الحجّاج، وتناوله الكتاب القدامى في مؤلفاتهم، لكن احداً منهم لم يعطِ وصفاً دقيقاً للمعبد الشهير. ومع ذلك، يمكننا اعطاء وصفٍ لهذا المعبد من خلال ما ذكره بعض الكتّاب، ومن خلال المقارنة بسائر معابد العالم الفينيقي وبهيكل يهوا في اورشليم الذي بناه المهندس المعماري الصوري حيرام، وكذلك من خلال صور هذا المعبد على قطع النقود القادسية(٢).

كان موقع المعبد الى الجهة الشرقية من الجزيرة، في حين كان موقع المدينة في الجهة الغربية، وقد فصلت بينهما مسافة ١٢ ميلاً (Strabo III, 5, 3). واغلب الظن ان اساس المعبد القديم كان فناءً مكشوفاً، في عمقه مذبح [188، ص. 100-101]. ولعله كان في المقدمة بهو نصف مغلق بلغ طوله عرض الفناء الأساسي، كما كانت الحال في اوغاريت [138، ص. 382] او بيت شعنا [244، ص. 37] او اورشليم (I Reg. VI, 3). واذا كان هيكل اورشليم مبنياً من الحجر وسطحه مغطى بألواح من خشب الأرز، جُلبت من جبال لبنان (I Reg. VI, 7-9)، فيحتمل ان يكون المعبد في قادس قد بُني بالطريقة نفسها. فحسب قول سيليوس ايتاليك (III, 17-20)، كانت

---

(٢) بعض الابحاث الحديثة التي قام بها أ. غارسيا اي بيلّيرو [188] ود. فان برخم [69، ص. 80-87] كُرّست لدراسة هذا المعبد.

تُرى في المعبد في القرن الثالث ق. م. عوارض خشبية وكأنها لم تبدَّل منذ بناء المعبد. من هنا؛ يضيف الشاعر، ساد الاعتقاد بأن الأله موجود في المعبد ليطرد عنه الشيخوخة. ويبدو ان الصيانة المتقنة للبناء الأصلي لعبت دوراً مهماً في العبادة القادسية. ونتذكر هنا ما لحائط المبكى المتبقي من هيكل سليمان من قداسة مميزة في الديانة اليهودية.

كان مدخل المعبد، كما سبق واشرنا، يفضي الى بوابات رسمت عليها عشر مراحل من « حياة » ملقارت. وهناك بالذات كان يقوم عمودان عرفا باسم **اعمدة هرقل** الشهيرة. وبلغ ارتفاع الواحد منهما، حسب قول سترابون (III, 5,5)، ثمانية اذرع، اي حوالي اربعة امتار، وقد صنعا من البرونز وغطيّا بنقوش تشير الى تكاليف بناء المعبد .ويأتي فيلوسترات على ذكر هذه الأعمدة (Apoll. V, 5)، لكنه يصفها بشكل مغاير، فهي ألكترومية (مزيج من ذهب وفضة)، طولها ذراع واحد (٠،٤٦م) وعليها نقش غير مفهوم لا تشبه حروفه الرموز المصرية ولا الهندية. وقد لا تكون هذه الأعمدة على اية حال صغيرةً الى هذا الحد، كما يبقى القول انها كانت من البرونز،اكثر احتمالاً بكثير. ونفضّل على الرواية النثرية التي اوردها عالم الجغرافيا (يبدو ان سترابون استند الى ما ذكره بوسيدونيوس الذي زار هذا الهيكل) السيرة الرومنطيقية التي ذكرها ساحر من تيّان. غير انه من الصعب التصوّر بأن ما نقش على الاعمدة كان شهادةً على التكاليف. وقد وردت الاشارة الى النقوش عند كلا الكاتبين، اي ان هذا التفصيل يجب ان يكون حقيقياً، خصوصاً وان الكاتبين اختلفا في تقييم المراجع الاخرى. ويبدو انها كانت نقوشاً نذرية التدوين (Votifs)، قديمة لدرجة اصبح فهمها مستحيلاً. ويصعب تحديد موقع هذه الاعمدة من خلال اخبار سترابون وفيلوسترات، اما في اورشليم فقد نصبت في مدخل المعبد وليس في داخله (I Reg. VII, 21). كذلك يبدو انها نصبت في قادس بالقرب من المعبد، عند بواباته.

وكانت عبادة الاحجار او الاعمدة الحجرية منتشرةً عند الفينيقيين [205، ص. 371-373]. ولعلهم كانوا يرون في تلك الاعمدة دعاماتٍ للسماء [134،

ص. 171]. لكن هذا لم يكن مبدئياً، سوى من رواسب التيميّة (Fetichisme)، فمثل هذه التِيَمْ تصادف في جميع المعابد الفينيقية. غير ان الاعمدة تبقى الاكثر ارتباطاً بعبادة ملقارت. فقد كان يرتفع في معبد هذا الأله، حسب قول هيرودوت (II, 44)، عمودان: واحد من ذهب، والآخر من زمرّد. وفي هيكل اورشليم المبنّي على النمط الصوري كان يوجد ايضاً عمودان (I Reg. VII, 18-22, 41).وتجدر الاشارة الى ان ملقارت خُصِّص بعمودين بالذات. ولم يكن من قبيل الصدفة ان تُشاد في مالطا على شرف القائد الصوري مسلتان (Stèles) تحملان نقوشاً يونانية ـــ فينيقية مماثلة (KAI 47). وكان البحّارة الصوريون، خلال نقلهم عبادة الههم الى المغرب، يحدّدون بمثل هذه الاعمدة ـــ النُصُبْ (Bétyles) الأماكن ذات الأهمية المميزة بالنسبة لأسفارهم من رؤوس، وجزر، وخلجان ملائمة. وهكذا عُثِر على نصب مماثل في جزيرة موغادور [231، ص. 52][٣].

ولم ترفع في اسبانيا مثل هذه الاعمدة في هيكل قادس فقط، لا بل يحتمل ان تكون الصخرتان القائمتان على جانبي المضيق الذي يصل البحر المتوسط بالمحيط الأطلسي قد اعتمدتا كنصبٍ ايضاً. ولعل ظهور اسم الأله في الأماكن القريبة منهما كان وراء الألتباس في تحديد مكان الاعمدة الحقيقية التي تحدث عنها سترابون (III, 5,5). واليونانيون الذين تعرفوا الى تلك الأماكن اطلقوا على تلك الصخور في البدء إما اسم اله البحر الجبار اغيون ـــ برياراي (Ael. Var. hist. V, 3; Hes. V. βριαρεω στῆλαι)، او اسم كرون [321ص. 178 ;355، عمود 833-834]. واغلب الظن ان تلك الاعمدة لم تحصل على تسميتها التي يعرفها بها الجميع، الاّ بعد ان اصبح ملقارت وهرقل الّهاً واحداً، هذا دون ان تكون مرتبطة في تلك الفترة بنهاية العالم [134، ص. 172].

---

(٣) يعتقد غوميس تابانيرا بأن اعمدة ملقارت كانت اشارة الى حجب السديم، تحويل السديم المجهول الى فضاء مسكون [200، ص. 316-317ملاحظة 17]. لكن مثل هذا التفكير الفلسفي يبدو لنا بعيداً عن ان يكون مميزاً لفينيقيي اواخر الالف الثاني ـــ مطلع الألف الأول ق.م.

ولم يعثر داخل الهيكل، كما يشير سيليوس ايتاليك (III, 30, 31) وفيلوسترات (V, 5)، على اية رسوم للأله نفسه، وانما عثر بدل ذلك على مذابح نصبت فيه لملقارت، وهي التي يشير اليها سيليوس ايتاليك (III, 14, 29) ويتحدث عنها فيلوسترات (V, 5) على نحو اكثر تفصيلاً. ففي الهيكل مذبحان مصنوعان من البرونز، يحافظ الكهنة فيهما على اللهب الذي لا ينطفيء. ومع ازدياد عدد الحجاج والعبّاد من اليونانيين والرومان ومن سكان المناطق التابعة للسيادة الهلينية والرومانية، ظهر لاحقاً المذبح الحجري الثالث (ربما رخامي) الذي نُقشت عليه مشاهد مآثر هرقل الاثنتي عشرة. اما تمثال هرقل فقد ظهر حكماً بعد ذلك بفترة. وقد حملت النقود الرومانية ايام ادريان صورة هذا التمثال مصحوبةً بنقش .Herc. Gadit، الأمر الذي يؤكد هوية هذا التمثال [188، ص. 113].

وفي رواية فيلوسترات المنسوبة الى أيام نيرون، اشارة الى قرينة تقول بأن هذا التمثال لم يكن هناك. ويحتمل ان يكون قد ظهر في معبد هرقل في قادس ايام ترايان او ادريان المتحدرين من جنوب اسبانياء والمتطلعين الى تقارب اكبر بين ملقارت الأسباني الجنوبي الوطني، وهرقليس (هرقل) الروماني التقليدي.

واحتوى الهيكل على رموز اخرى ترتبط بعبادة ملقارت، منها شجرة زيتون ذهبية تحمل ثمارا زمردية وكأنها مهداة لبيغماليون (Phil. Apoll. V, 5). وترتبط شجرة الزيتون، كما هو معروف، ارتباطاً مباشراً بعبادة ملقارت. ويُفهم من قول ميلا (III, 46) ان مقبرة هذا الأله كانت في الهيكل. وكان في معبد قادس مذابح ورسوم لآلهة اخرين، ولمفاهيم مجرّدة كالشيخوخة والفقر والفن والسنة والشهر وغيرها، وكان فيه تماثيل لبعض الرجال العظام، من بينها تمثال للاسكندر المكدوني وللامبراطور قيصر، وقد وقف هذا الأخير امام الأول متأسفاً لعدم قيامه بأي عمل عظيم، في حين أخضع الاسكندر العالم عندما كان في سنّه (Suet. Iul. 7,I). وكان في الهيكل حزام ذهبي، اعتُبِر تقدمةً من **تفكار تيلامونيد** الذي بلغ شواطىء المحيط (Phil. Apoll. V, 5).

وأغلب الظن ان تلك الأشياء عبارة عن نذور تراكمت في المعبد خلال قرون عديدة من وجوده. ولم تكن عادة النذور تلك غريبةً عن العالم الفينيقي، فمن المعروف مثلاً،ان هناك تمثالاً لغوراستارت كان معروضاً في معبد ملقارت في لابيت في قبرص (KAI 43, 7).

وكانت مساكن الكهنة التي اكتشفت في اوغاريت ملاصقةً لجدران المعبد [138، ص. 383]، وكانت هناك أيضاً غرف الى جانب جدران هيكل اورشليم (I Reg. VI; 5, 10). ويحتمل ان يكون مثل تلك المساكن قائماً في قادس، وان يكون قد عاش فيها الكهنة.

ويتحدث سيليوس ايتاليك عن المظهر الخارجي للكهنة القادسيين (111, 23-28). فيصفهم بانهم كانوا حليقي الرؤوس، ويرتدون ثياباً بيضاء من الكتان، يمشون حفاةً، ويرتدون اثناء تقديم الذبائح ثياباً احتفالية يزيّنها شريط عريض. وكانوا، على ما يبدو، يقطعون عهداً بعدم الزواج: وانهم كانوا « حليقي الرؤوس، حفاة الارجل، طاهري الفراش »، حسب ما يذكر الشاعر. وكانت النساء عامةً تمنعن من دخول المعبد (Sil. it. III, 22). ويحتمل ان يكون في داخل المعبد مكان ذو قداسة خاصة، هو قدس الأقداس، الشبيه بقدس الاقداس الأورشليمي (I Reg. VI, 5)، لم يكن يسمح بدخوله الاّ للكهنة، لانه لهم وحدهم فقط، حسب قول سيليوس ايتاليك (III, 21)، حق وشرف معرفة المعبد من الداخل. ولم يصلنا اي شيء عن كيفية تنظيم حياة مجموعة الكهنة في المعبد القادسي الا ما قاله بورفيريوس (de abst. I, 25) في القرن الثالث بعد الميلاد عن الكاهن الاعلى. وكان هناك كاهن اعلى لهرقل في صور الهلّينو — رومانية [188، ص. 132].ولا تتوافر لنا معلومات مماثلة عن العصر ما قبل الروماني، غير اننا نقع على ذكر لمنصب الكاهن الاعلى في النصوص الاوغاريتية [مثلاً، *55-*I AB, VI, 54]، مما يجعلنا نعتقد ان مثل هذا الشخص كان موجوداً في معبد ملقارت قبل الفترة الهلّينية.

وكان في عداد طاقم المعبد في اوغاريت، عدا الكهنة، اناس يحتمل ان يكونوا من المستبصرين او الانبياء [138، ص. 383]. ولا بدَّ ان مثل

اولئك الاشخاص كانوا موجودين في معبد هرقل في قادس الذي اشتهر بوسيط الوحي (Oracle). فقد زاره هنيبعل مثلاً، قبل حملته على ايطاليا (Liv. XXI, 21, 9)، كذلك يوليوس قيصر اثناء وجوده في اسبانيا البعيدة بصفة وزير للمالية (Questeur) (Suet. iul. 7). وكان هناك مفسّرون خاصّون يفسّرون احلام من كان يطلب تنبوءاً. وهذا ما حصل مع يوليوس قيصر الذي قدّر له المتنبؤون، حسب قول سفيتونيوس، السيطرة على العالم كله. وكان الكاهن الأعلى، كما يشير بورفيريوس (de abst. I, 25)، يتلقى في المنام الأوامر حول طريقة تقديم القرابين. ولم يكن هذا النوع من العرافة فريداً في العصور القديمة. فنحن نعلم مثلاً، اي دور كان لمنامات التنبوء في حياة اليونان [14، ص. 138-139].

وشدّد الكتّاب القدامى على ان طقوس معبد قادس كانت شرقية وفينيقية. وقد اشار الى ذلك ديودوروس (V, 20, 2)،وابيان (Hisp. 2)، واريان (Alex. II, 16, 4). وما زالت ماهية هذه الشعائر غير معروفة على نحو دقيق. وكان تقديم الذبائح يشكل الجزء الأساسي من عبادة الأله. ويقول بورفيريوس (de abst. I, 25) ان المذابح كانت تُروى يومياً بدم الاضاحي. وكان يفرض اثناء ذلك؛ كما يذكر سيليوس ايتاليك (III, 29)، اضرام النار في الشعلة التي تنطفىء على المذابح. وكان مقدّمو القرابين بخاصةٍ من البحارة العائدين من رحلاتهم البحرية الطويلة (Strabo III, 5, 5). كذلك كان من الممكن تقديم الذبيحة « غيابياً » . فبناء لأمرٍ من نيرون، قدّمت الذبائح في قادس احتفالاً بانتصاره الأولمبي (Phil. Apoll. V, 8). ومن المحتمل انه كانت تؤدّى اثناء تلك الاحتفالات، كما كان ذلك في المتروبول، رقصات طقسية وكان الكهنة يستدعون الأله (I Reg. XVIII, 26-28). وظل الحرص الشديد يسيطر في الهيكل ازاء معتنقي الديانات الأخرى، وهذا امر مميّز بالنسبة للديانات الشرقية الاخرى. وكان على البحارة الغرباء مغادرة معبد هرقل فور تأديتهم الصلاة، حسب قول اكتيمون (y Av. or. mar. 358-363)، لأن تأخرهم فيه كان يعتبر تدنيساً. وكان على الغرباء مغادرة المدينة اثناء الاحتفالات التي كانت تقام تمجيداً لملقارت (Paus. Ix, 4, 6).

كان عيد ملقارت الركيزة الاساسية في الممارسة الدينية، كما يبدو انه من اهم احتفالات المدينة التي كان يشرف عليها قاضي المدينة (Suffète) [158a، ص. 210]. واغلب الظن ان الاحتفال كان يتطور على شاكلة دراما طقسية رباعية الفصول، يبدأ فصلها الأول بحرق صورة الاله الجالس على ظهر مارد البحر (Hippocamp e)، وتلك الصورة شبيهة بالرسم المضروب على نقود مدينة صور. وكان المحتفلون يبكون اثناء ذلك، ولعلهم كانوا يجلدون او يضربون انفسهم بالمدى والحراب،على غرار ما كان يفعل عبدة ادونيس في بيبلوس (Luc. de dea syrα 6) وانبياء البعل الصوري، اي ملقارت، كما جاء في الرواية التوراتية عن مباراتهم مع ايليا (I Reg. XVIII, 28). وكانت تجري في الفصول التالية مراسم دفن الأله، ومن ثم زواجه المقدس من عشتروت، الذي يتم بعد توسط قاضي المدينة، واخيراً قيام الأله [165، ص. 113; 158a، ص. 202]. وكانت الاناشيد تُرتّل اثناء العيد على شرف ملقارت ووفاته وقيامته. والخبر الغريب الذي اورده فيلوسترات (Apoll V, 4)، والقائل ان القادسيين هم الوحيدون الذين انشدوا للموت، يبدو على علاقة بهذا الأمر.

ولم يكن معبد ملقارت في قادس مركزاً دينياً فحسب؛ بل كان بيتاً للمال ايضاً، مثل بارفينون اثينا، على ما يبدو. وقد نهب القائد القرطاجي ماغون هذا المعبد،في جملة ما نهب،عام ٢٠٦ ق. م.(Liv- XXVIII, 36,3)، كما نهبه عام ٤٩ ق. م. النائب الروماني ڤارّون (Caes. bel. civ. II, 18). ويعتقد أ. غارسيا اي بيليدو [188، ص. 127] ان الحصار الذي ضربه الملك الموريتاني حول قادس عام ٣٨ ق. م. كان للاستيلاء على ثروات المعبد القادسي (Proph. de abst. I, 25). ولو أعرنا اذناً صاغية للأساطير،لرأينا ان معبد هرقل كان قبل ذلك بقرون،عرضةً لهجمات الملك الترتيسي فيرون.

وتبقى قادس مركز عبادة ملقارت على شبه جزيرة البيرينه، غير ان هذه العبادة لم تقتصر على مدينة واحدة. وبما ان ملقارت كان آله مدينة صور، كان من الطبيعي ان تنتقل عبادته الى جميع المستعمرات الصورية. ولذلك نجد صور هرقليس ــ ملقارت على نقود سيكسي وابديرا [363، جزء III، ص. 16 ,19].

وواظب الفينيقيون الأسبان على عبادة آلهة اخرى من وطنهم الأم. نذكر من بينها الالهة عشتروت.

في البداية ،كانت عشتروت آلهة الخصب والقوى المبدعة في الطبيعة، ثم نقلت مهامها الى عالم الانسان فاصبحت آلهة الحب. وتدل على ذلك، التماثيل العديدة التي تصوّر هذه الألهة عاريةً، وتبرز مفاتنها الجنسية، وكذلك البغاء المحرّم الذي كان يعتبر احد اشكال عبادة الالهة. وبديهي ان ينظر الى الهة الطبيعة المولّدة كأم،أو زوجةٍ لملقارت، آله النبات المائت والمنبعث [59 ص. 205, 307، ص. 251، ملاحظة ٢، 158a، ص. 213]. واذا كنا نرى في عبادة ملقارت ناحية شمسية، فاننا نرى في عبادة عشتروت ناحية قمرية، ويتحدث لقيان عن ذلك (De dea Syra 4)، فيعلن تطابق عشتروت مع سيلينا، لكنه يضيف ان هذا التطابق هو في الواقع رأي شخصي. وعلى اي حال، لا بدَّ ان يكون الاعلان عن هذا الرأي نيتجةً لقرائن معينة. لكن هيروديان (V, 6, 4) كان اكثر دقةً حين قال ان الليبيين سمّوا الآلهـة اورانيـا (اي افروديت ــ اورانيا)، اما الفينيقيين فقد سموها عشتروارخا، معتبرينها القمر. ولا بدَّ ان عشتروارخا هي عشتروت [124، عمود 1778 ;327، ص. 23]. وتظهر هذه الالهة احياناً كمحاربة (Paus. III, 23, 1)، كما كان لها طابع بحري، يعتقد انها اكتسبته في صور. وقد ادّى هذا التعدد في وظائف الالهة الى تشبيهها بآلهة مختلفة من البنتيون اليوناني ــ الروماني. فقد طابق اليونانيون بين عشتروت وافروديت (Phil. Bill. y Evs. praep. ev. I, 10, 31). ويبدو هذا واضحاً من النقش المزدوج اللغة الذي عثر عليه في اثينا، والذي جاء فيه اسم افروديسيا ترجمـةً لأسم « عبدعشتـروت » الفينيقـي (KAI 54). وفـي قرطاجة، اعتبرت عشتروت في العهد الروماني مطابقةً ليونونا (.Aug. Quest in. Hept. 7,16)، ويحتمل ايضاً ان تكون على علاقة مع مينرفا ــ اثينا [192، ص. 13].

وكانت صور احد مراكز عبادة عشتروت (Ios. Ant. VIII, 5, 3). وقد نشر المستعمرون الصوريون عبادة هذه الآلهة في جميع انحـاء منطقـة البحـر المتوسط. ففي قبرص ومالطا وصقلية وسردينيا شواهد على شيوع هذه العبادة.

ويشهد النقش الذي اكتشف منذ فترة قريبة في مدينة بيرغا الاترورية والمثبت على اسطوانة ذهبية، على العبادة التوفيقية لعشتروت ــ اون [282، ص. 100-76 ,295]. وبطبيعة الحال كانت عبادة عشتروت منتشرة في اسبانيا أيضاً.

وتجدر الاشارة قبل كل شيء الى ان اقدم نقش فينيقي عُثر عليه في شبه جزيرة البيرينه كان نقشاً مهدى لعشتروت بالذات. وقد حُفِرَ هذا النقش على اسفل قاعدة تمثالٍ صغير للآلهة عارية، جاء فيه ان هذا التمثال مهدى لعشتروت من الاخوين بعلياتون وعبدو بعل، ابناء داميلك، كاهني وسيط الوحي (ICO Spa 16). وقد نشر خ. م. سولا ــ سوليه مضمون هذا النقش واعتبره عائداً الى القرن الثامن ق. م. [336، ص. 97-108]. ورغم اعتراض د. غاربيني، الذي يعتبره عائداً الى النصف الاول من القرن السادس ق. م. [171، ص. 3-4]، فقد اعتمد معظم علماء النقوش التأريخ الأول [127، ص. 333 ;207، ص. 149 ;310، ص. 145]. وقد عُثِر على هذا التمثال الصغير في تلة الكارومبولو قبالة اشبيلية (Seville)، في نفس المكان الذي عُثِر فيه على الكنز الشهير. فهل يعني هذا ان معبد عشتروت كان قائماً هناك؟ ام ان تلك التحفة الأثرية وصلت الى ذلك المكان من احدى مستعمرات الشاطىء الجنوبي الفينيقية؟ ما زالت الاجابة الدقيقة على تلك التساؤلات مستحيلة في الوقت الحاضر، لكن اكثر الافتراضات احتمالاً هو ان رحلة هذا التمثال قد انطلقت من قادس [127، ص. 339].

وقد شهد افيان (Avien) على عبادة عشتروت في ضواحي قادس، مسمياً عشتروت فينوس البحرية. ويقول (or.mar. 314-316) ان معبد الآلهة كان قائماً على جزيرة الى الغرب من المدينة، كما كُرِّست لها مغارة على ارض تلك الجزيرة. وقد عرفت معابد مماثلة في مغاور المتروبول، وبخاصةٍ في صيدون وصور [127، ص. 333-334]. ويعتبر هذا النوع اقدم انواع المعابد على ما يبدو، ويدفعنا وجوده بالقرب من قادس الى الحديث عن قِدم عبادة هذه الآلهة في اسبانيا. وينوّه افيان، من بين جميع مظاهر عشتروت، بمظهرها البحري، الأمر الذي يبدو طبيعياً في مدينة كقادس حيث يلعب البحر دوراً اساسياً في حياة السكان. والى هذا يبرز مظهر آخر هو الموهبة النبوية للآلهة.

ويذكر افيان (Or. mar. 317) وسيط وحي فينوس. وكان « كهنة وسيط الوحي » اخوة وقد أهدوا التمثال الصغير الى عشتروت دلالةً على سماعهم صوتها.

وفي منطقة صغيرة نسبياً من جنوب شبه جزيرة البيرينه، وبالقرب من اعمدة هرقل، يوجد عدد من الامكنة تحمل اسماً على صلة باسم هيرا ويونانا. ويشير سترابون (III, 5, 3) الى وجود جزيرة صغيرة في المضيق تحمل اسم هيرا. والى الغرب من قادس، عند مصب نهر بيتيس، كان مذبح ومعبد يونانا (Mela III, 4). ويسمّي ميلا (II, 96) الرأس الواقع الى الشرق من المدينة باسم رأس يونانا. ومن المحتمل ان يكون هو نفسه الرأس الواقع قبالة المضيق حيث كان معبد هيرا قائماً على حد قول بطليموس (II, 4, 5). ويذكر بلينيوس (IV, 120)، مستشهداً بالسكان الاصليين، ان الجزيرة التي كانت تقوم عليها مدينة قادس كانت تدعى يونونيا. وكانت هيرا — يونونا تقابل في العهد الروماني الآلهة تينّيت. غير ان القرطاجيين، كما نعلم، كانوا يطابقون بين يونونا وعشتروت. ونتساءل، اذاً بأي آلهة ترتبط اسماء الاماكن في الجنوب الاسباني؟ يذكر بلينوس ثلاثة اسماء للجزيرة القادسية. فقد اطلق عليها ايفور وفيليست اسم ايريفيا، وتيماي وسيلان اسم افروديسيا، اما « السكان المحليون » فقد دعوها يونونيا. ولا ريب في ان المقصود بالسكان المحليين في هذه الحالة، كان سكان الجزيرة، اي الفينيقيون القادسيون. ويونونا كانت مطابقةً لعشتروت، لذلك ليس من قبيل الصدفة ان تتوحّد اوني — يونونا الأترورية مع هذه الالهة بالذات، في العبادة التوفيقية. وفي الوقت نفسه، كان اليونانيون يطابقون بين افروديت وعشتروت، لا تينّيت التي غالباً ما سموها ارتيميدا. واخيراً، على حد قول افيان، كان بالقرب من قادس معبد وجزيرة فينوس — عشتروت. اما عن عبادة تينّيت في قادس، فلم يذكر الكتّاب القدامى اي شيء، مما يحملنا على الاعقاد بان المقصود بهيرا — يونونا في هذه الحالة هي عشتروت. ومن المحتمل ان تكون اسماء الاماكن الاخرى المماثلة في هذه المنطقة على صلة بهذه الآلهة.

وتوجد خارج حدود قادس شواهد على عبادة عشتروت في سيكسي، المدينة التي حملت نقودها في العهد الروماني رسماً لعشتروت على شكل مينرڤا [192، ص. 13]. وعلى الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة كان يقع رأس ڤينوس (Av. or. mar. 158) وسلسلة جبال ڤينوس (Av. or. mar. 437). وقبالة هذه السلسلة كان يقع معبد هذه الألهة. وتدل اشارة اڤيان الى كثرة السكان الفينيقيين الذين عاشوا في هذه المنطقة،على ان تلك الآلهة كانت فينيقية لا محلية،أو يونانية — رومانية (Or. mar. 440).

ونشر عام ١٩٦١ مضمون النقش المحفور على درع بيضوي الشكل لخاتم ذهبي ضخم عثر عليه قبل ذلك بثلاثين عاماً، يعود الى القرن الثاني ق. م. وينص النقش: « الى السيد الجبار ميلقاستارت وعبيده من شعب قادس » [334، ص. 251-256]. وقد عُثر على اسم هذا الأله للمرة الأولى في اسبانيا، لكنه كان معروفاً من خلال نقوش وجدت في اماكن اخرى من العالم الفينيقي: في ام العواميد ومسوبا بالقرب من صور، وفي قرطاجة وليپتيس العظيمة في افريقيا (مثلاً، KAI 19; 119).

ورغم وجود عدة نقوش في متناول الباحثين تحمل ذكراً لملقاستارت، فأن صغرها يحول دون تحديد ماهيته. لكنه من الواضح ان اسم هذا الاله مؤلف من كلمتين. وقد طرحت فكرة تقول بان هذا الاسم هو تحوير لأسم ملكة — عشترت، اي حاكمة عشترت [59، ص. 260]. غير ان النقش القادسي يؤكد بأن الحديث يدور عن شخص رجل [334، ص. 255-256]. ويعتقد كتّاب آخرون ان الكلمة الأولى هي اختزال لاسم ملقارت. ويجب فهم مجمل الأسم على الشكل التالي « ملقارت، زوج عشتروت » او « ملقارت، ابن عشتروت » [137، ص. 229 ;327، ص. 28]. لكن كل هذه التآويل تبقى مجرّد فرضيات.

وجميع النقوش التي تأتي على ذكر ملقاستارت حديثة نسبياً، وهي تعود الى العصر الهليني او الروماني. ولم يكن لمثل هذه الآلهة وجود في الألف الثاني ق. م. (على الأقل في النصوص التي وصلتنا)، لكن هناك وجوداً لآلهة

مزدوجة تحمل اسماءً مختلفة، وتبرز وكأنها مستقلة لكنها تقوم بمهمة واحدة وتؤثر سويةً. ومثل تلك التصورات كانت منتشرةً في فينيقيا وسوريا واسيا الصغرى وفلسطين [229، ص. 387-404]. ففي نقوش ملك المواويت ميشا (القرن التاسع ق. م.) نجد اقدم شاهد على توحيد آلهين في اله واحد هو: عشتار ــ كاموش (KAI, 181, 17). ومن المحتمل ان يكون تطوّر التصورات الميتولوجية وراء هذا الأمر، فعندما تكون جميع مهام الآلهة،او بعضها، متشابهة يُصار الى دمجها في آله واحد. ولعل مثل هذا الأمر قد حصل عند تكوين اسم ملقارستارت. فقد كان ملقارت وعشتروت يتمتعان ببعض المزايا المتشابهة، ولا سيما مزايا الآله البحري، مما سهّل ظهور العبادة التوفيقية لملقارستارت. ويدل انتشاره الواسع على ان ظهوره كان، على ما يبدو، في المتروبول. غير انه يتضح للباحث ان هذه العبادة تجذرت في قادس.

ومن العبادات المزدوجة الاخرى التي ظهرت في اسبانيا، عبادة رشف ــ ملقارت الذي يتحدث عنه نقش عُثِر عليه في پيتيوس وقد حُفِرَ على لوحةٍ برونزية تعود الى القرن الخامس ق. م. تقريباً: « الى السيد رشف ــ ملقارت هذا المعبد الذي وَعَدَ به اشادر بن اش... بن بارغاد بن اشمونغليس » (KAI 72A). وبما ان اللوحة استعملت لاحقاً مرة ثانية، لذلك لا يجوز التأكيد على ان معبد رشف ــ ملقارت كان قائماً في مكان العثور عليها، فمن الممكن ان تكون قد نقلت من مكان آخر. من ناحية اخرى، يستبعد ان تكون هذه اللوحة الصغيرة (ابعادها ٩٢×٤٦×٢ ملم) قيّمة لدرجة اوجبت نقلها من مكان بعيد لاستعمالها مرةً ثانية. واغلب الظن ان المعبد المذكور كان قائماً في مكان قريب وليس بالضرورة في مكان اللقيّة بالذات.

كان رشف اله الصاعقة والضوء السماوي، كما يدل على ذلك اسمه الذي يعني « اللهب، الصاعقة، الشرارة ». وكان آلهاً محارباً ايضاً. من هنا تطابقه عند اليونانيين مع ابولون واريس [192، ص. 11 ;205، ص. 327 ;330، ص. 351]. وقد كانت عبادته واسعة الانتشار، ويُعتقد انها وصلت الى الجزيرة الاسبانية من قرطاجة حيث نجد آثاراً لعبادة رشف ــ ابولون [205، ص. 327-329]. تجدر الأشارة الى عدم وجود مظاهر اخرى لعبادة هذا الأله

في اسبانيا، لكن البعض يعتقد بأنها كانت واسعة الانتشار في قابس. ويرى خ. م. سولا ـــ سوليه صورة رشف في تماثيل الطين النضيج التي عُثِرَ عليها في پيتيوس [330، ص. 355]. وتصوِّر هذه التماثيل الصغيرة رجالاً واقفين يحملون في احدى يديهم ثمرة او حيواناً، ويرفعون الاخرى في اشارة تبريك والكف منبسط الى الخارج [174، ص. 150]. وكون هذه التماثيل الهة، امر لا شك فيه. ونتساءل هل المعروض هنا رشف ام رشق ـــ ملقارت [174، ص. 150]، والأمر يبقى في دائرة الأفتراض.

واحدى أكثر العبادات انتشاراً في غرب العالم الفينيقي كانت عبادة بعل همّون الذي طابقه اليونانيون بكرون، وطابقه الرومان بزُحل. وكان الهاً شمسياً وحيوانه الثور الذي يصوّر احياناً وقرص الشمس بين قرونه. وكان الجزء الأساسي من عبادته تقديم الذبائح البشرية التي اتى على ذكرها الكتّاب القدامى اكثر من مرة، مثل ديودوروس (XX, 14) الذي روى عن تقديم اولاد قرطاجة له في ابادة جماعية،اثناء محاصرة اغافوكل للمدينة.

وانتقلت هذه العبادة الى اسبانيا. ويأتي سترابون (III, 5, 3) على ذكر معبد كرون، خلال وصفه لقادس. ويُشاهد شعار هذا الأله وهو دائرة شعاعية، على نقود مالاغا وسيكسي،والمدن الفينيقية الليبية بيلون وأسيدون، كما ترى على نقود هذه المدنية الأخيرة صورة ثور. ويحتمل ان يكون قد اقيم معبد لبعل همّون في مالاغا ايضاً، لان نقودها تحمل فوق صورة المعبد كلمة ŠMŠ (الشمس)، الأمر الذي يعتبر اشارة واضحة الى اله الشمس. وكان لبعل همّون تقديرٌ عالٍ في قرطاجة، وكان من الطبيعي ان ينتقل هذا التقدير الى المستعمرات القرطاجية في اسبانيا. وتحمل بعض نقود قابس صورة ثور [330، ص. 346]. وخلال وصفه لقرطاجة الجديدة والتلال المحيطة بها،ينوّه پوليبيوس (X, 10, 11) بتلّة كرون، ولعل معبداً كان ينتصب على تلك التلة. ويسمّي پلينوس (III, 19) الرأس الواقع بالقرب من قرطاجة الجديدة رأس زُحل (يعرف اليوم برأس بالوس). وبما ان هذا الرأس كان ضمن دائرة النفوذ البوني، فان بامكاننا القول ان زحل بلينوس كان بعل ـــ همّون الفينيقي. وعند ساحل اسبانيا الجنوبي الشرقي جزيرة كانت مكرّسة

لزُحل (Av. or. mar. 165) وصخرة (نفس المرجع، 215-216). بيد انه من الصعب التأكيد ما اذا كان وراء هذا الاسم اله فينيقي او اله محلّي.

ويرتبط بعل ــ همّون في قرطاجة عادةً بالالهة تينّيت، وهي الهة كان لها اعتبار مميز في هذه المدينة،وكانت تُشبّه بيونونا في العصر الروماني. انها الهة الخصب،وأم لكل حي،والّه قمري في آنٍ معاً [205، ص. 247-250، ص. 330، 344]. وتتفق في العديد من مهامها مع عشتروت. ورغم عدم اندماجها في الهة واحدة، ووجود آثار على عبادة القرطاجيين لكليهما في آن معاً، فأن كفّة تينيت كانت الراجحة في قرطاجة، الأمر الذي تفسّره احداث مميزة في تاريخها.

وفي اسبانيا، ظهرت عبادة تينيت في المستعمرات القرطاجية. ففي الكهف المعبد « اس ــ كويرام » في پيتيوس،وُجِد نقش على ظهر اللوحة البرونزية التي يحمل احد وجهيها اهداءً لرشف ــ ملقارت. وينطوي هذا النقش الذي يعود الى حوالي عام ١٨٠ ق. م. على ذكرٍ لسور بناه الكاهن « عبد اشمون » ابن ازربعل على نفقته الخاصة « للسيدة الجبارة تينّيت وهاغاد (KAI 72B). وترتبط عادةً الاهداءات للالهة تينّيت في قرطاجة بفصول بعل ــ همّون نفسها، اما في قابس فنرى توحيداً بين هذه الآلهة والاله هاغاد.

وقد تكون عبادة تينّيت منتشرةً في سائر المدن. فبعض نقود قادس وسيكسي وبيلون واسيدون تحمل الرمز نفسه الذي نجده على التماثيل في اس ــ كويرام: هلال مقلوب وفي الجزء المقعّر منه دائرة او نقطة [330، ص. 344]، علماً بأن أسيدون وبيلون كانتا من المدن الليبية الفينيقية. ولقد افترضنا سابقاً ان الفينيقيين الليبيين كانوا مهاجرين من افريقيا (يحتمل ان يكون القرطاجيون قد نقلوهم اليها)، وكانوا في الوقت نفسه سكاناً مختلطين، مكوَّنين من سلاّن السكان المحليين والمستعمرين الفينيقيين. واذا كان الأمر كذلك، فأن عبادة تينيّت لم تكن مستغربة في مدنهم .فقد نقلوا تلك العبادة من الجهة المقابلة من المضيق. اما فيما يتعلق بعبادة تلك الألهة في قادس وسيكسي، فهناك تفسيران: إما ان تكون تلك المدن قد اخذت تلك العبادة

عن قرطاجة، وإما ان تكون ظهرت فيها بشكل مستقل عن القرطاجيين. ولو صحَّ هذا التفسير الأخير لكان اعتبار مصدره فينيقياً شرقياً،اكثر الاحتمالات امكانيةً. ولم يكتشف حتى الآن ما يدل على عبادة تينّيت في المتروبول. الأمر الذي دعا البعض للاعتقاد بان القرطاجيين اقتبسوا هذه الالهة عن الليبيين [302، عمود 2179]. غير انه عُثر في سارِپت منذ فترةٍ قريبة على شعار تينّيت (مثلث، فوق رأسه خط مستقيم،ودائرة فوق هذا الخط) [304، ص. 21-22]. وتتيح لنا هذه القرينة الأعتقاد بأنه كان بامكان القادسيين والسيكسيين ان ينقلوا معهم من الشرق عبادة تينّيت. غير ان الافتراض الاكثر احتمالاً هو عدم وجود اية علاقة بين الرسوم على نقود هاتين المدينتين وتينّيت، وان هذه الرسوم هي دلالة على عبادة عشتروت المعروفة بطابعها القمري ايضاً، خاصةً وان اسماء المكان في تلك المنطقة تعود لهذه الآلهة بالذات، لا لمثيلاتها القرطاجية. ومن المشكوك فيه ان تعزى الى تينّيت صور الآلهة المسترسلة الضفائر والدائرة الشعاعية، كما يفعل بعض الباحثين [330، ص. 344].

وفي جنوبي شبه جزيرة الپيرينه شواهد عديدة على عبادة يونونا سيليستيس ايام الامبراطورية الرومانية، وكانت تستتر وراء هذه الآلهة تينّيت التي اتخذت الشكل الروماني [192، ص. 140-147]. غير ان ذلك ارتبط بالظروف الخاصة للعصر الروماني،وبعملية اضفاء الطابع الروماني على الاشياء،وهو امر لن نتطرق اليه هنا.

وكانت المباخر القرطاجية التي لها شكل رأس امرأة (تمثّل تينيّت على ما يبدو) منتشرةً خلال القرنين الرابع والثالث ق. م. على طول الساحل الجنوبي والجنوبي الشرقي في شبه جزيرة البيرينه [53، ص. 72-74; 80-81; 192، ص. 149]. بيد ان ذلك ليس دليلاً على عبادة الآلهة بقدر ما هو علامة من علائم التجارة القرطاجية.

وبالتالي، بوسعنا الافتراض فقط،دونما وثوق،من ان سكان شبه جزيرة البيرينه، ولا سيما سلاّن المستعمرين الصوريين، كانوا يعبدون تينيت المحبوبة جداً في قرطاجة.

ويرى المرء على نقود مالاغا صورة لأله يمسك بكماشات حداد [363، الجزء الثالث، ص. 27]. وهذا الأله هو بلا ريب الأله الفينيقي هوصُر، المماثل لهيفيست وفولكان (بركان). وقد كان مرتبطاً بالكوارث المائية (Plin. Bibl. y Eus. Praep. (ev I, 10, 11) لذلك كانت صوره تزيّن مقدمة السفن الفينيقية. وقد احتل هوصُر ـــ بركان على النقود المالاغية، المركز نفسه الذي احتله ملقارت ـــ هرقليس على المسكوكات القادسية. لذلك لا يستبعد ان يكون هذا الأله نصيراً لمالاغا « وآلهها الابوي » [192، ص. 10]، ويشير پوليبيوس (X, 10, 11) الى وجود معبد لهيفيست ـــ هوصر في قرطاجة الجديدة كذلك.

وفي اسبانيا ايضاً آثار عبادة آلهة فينيقية اخرى: اله النبات، والاله الشافي اشمون، والاله المجهول حتى الآن، اريش في قرطاجة الجديدة (Pol. X, 10, 8, Liv XXVI, 44, 6)، وآله الحظ هاغاد في قابس (KAI 72B) وبيس مانع المصائب والمقتبس عن المصريين. وتُصادف التماثيل الصغيرة التي تمثل هذا الأخير، بكثرة في مدافن قابس وباريا وقادس، كما نرى صورة هذا الأله على نقود قابس. وحتى ان هناك من يعتقد بان مدينة قابس ذاتها والجزيرة المعروفة حالياً باسم ايبيسا، حصلتا على اسميهما من الأله بيس [192، ص. 14-15 ,330، ص. 325-333].

ولا توجد بالطبع في الوقت الحاضر دلائل تؤكد وجود جميع شخصيات البنتيون الفينيقي في اسبانيا. فحتى الان مثلاً، لم تكتشف عبادات داغون وبعل شميم وموت وأنات وغيرهم من الالهة. واغلب الظن انه لم تصلنا بعد براهين مادية او كتابية عن وجود تلك العبادت. فعن عبادة هاغاد مثلاً، لم يكن يعرف اي شيء حتى قرأ المؤرخ الاسباني خ. م. سولا ـــ سوليه نقشاً فيه ذكر لهذا الأله مع تينّيت. وقد توفر لنا نجاحات علم الآثار الفينيقي ـــ الاسباني وعلم النقوش، شواهد جديدة تصف الديانة الفينيقية الاسبانية.

وقد عرف في اسبانيا نوعان من المعابد الشبيهة بتلك التي كانت قائمةً في المتروبول، النوع الأول، الهياكل العادية، والثاني، المعابد المغاور، وهي

الاقدم. وقد وصلنا ذكر معابد: ملقارت وعشتروت وبعل ــ همّون في قادس او بالقرب منها، وبعل همّون في مالاغا وفي قرطاجة الجديدة ربما، واشمون في عاصمة البركيديين ايضاً. المعابد المغاور ما زالت مرتبطة بالنساء من الآلهة فقط: عشتروت ــ قبالة قادس، وتينّيت ــ بالقرب من قادس. ولا نعرف عن الشكل الخارجي للمعبد الا القليل. والهيكل الوحيد الذي يمكن التحدث عنه بالتفصيل نوعاً ما،هو هيكل هرقل القادسي. اما الهياكل الرهبانية القديمة الطراز، كالتي نراها على نقد قادس ومالاغا، فتعود بالتأكيد الى العهد الروماني.

وقد تصوّر الفينيقيون الهتهم بشرية لا شكلية، كما يدل على ذلك ما عثر عليه من آثار فن النحت الفينيقي،التي سنتحدث عنها في الفصل التالي. ونرى في الوقت عينه بعض العبادات، كعبادة ملقارت مثلاً، لا تسمح بوضع تماثيل له في المعبد. ولم يكن هذا الأمر مميزاً عند من آمن من القادسيين بهذا الاله فقط، بل عند سكان المتروبول ايضاً. ويذكر كورسيوس روف (IV, 3, 22) ان تمثال ابولو في صور رُبط خلال محاصرة قوات الاسكندر لهذه المدينة الى مذبح هرقل (لا الى تمثاله).

وقد تعايشت التصورات البشرية اللاشكلية للأله مع بقايا التيميّة (Fétichisme) عندما كانت القوى الخارقة تُعبد بشكل احجار او اعمدة حجرية. فأعمدة ملقارت الشهيرة كانت تشكل على ما يبدو مثل هذه التيَم، كما ذكرنا.

ولم تكن الآلهة الفينيقية تسيّر العالم ومصائر الناس فحسب، بل كانت تتنبأ بهذه المصائر ايضاً. وفي اسبانيا كان وسطاء الوحي في هياكل ملقارت وعشتروت في قادس. ويذكر فيلون الجبيلي (y Eus. praep. ev. I, 10, 11) ان هوصر اهتم بالصيغ والتعاويذ والتنبؤات. لذلك يعتقد بأن في معبد هذا الأله في مالاغا كان يوجد وسيط للوحي.

كان المستبصرون في الألف الثاني ق. م. يشكلون جزءاً من مجموعة مستخدمي الهيكل في اوغاريت. اما عن الكهنة في المدن الفينيقية في اسبانيا

فلا نعرف سوى القليل القليل. ويعود هذا القليل بكامله تقريباً الى كهنة ملقارت في قادس. مرةً واحدةً فقط أبى أعرق نقش في اسبانيا على ذكر كهنة عشتروت. ويبدو ان كاهن تينّيت او هاغاد (او كلاهما) كان عبد أشمون من قابس. ويروي سيليوس ايتاليك ان الكهنة في المدن الفينيقية في اسبانيا كانوا يعيشون منفصلين عن سائر سكان المدينة ويشكلون فئةً مميزة. اما الطريقة التي كانت تتم بها اعادة تزويد هذه الفئة بالعنصر البشري، فأمر ما زال مجهولاً. ويمكن التأكيد فقط على استحالة انتقال المهام الكهنوتية بالوراثة، اذ ان الكهنة، على حد قول سيليوس، كانوا من غير المتزوجين. لكن هذا لم يحل بالطبع دون وجود اقارب ضمن اعضاء الفئة الكهنوتية، كالأخوة بعلياتون وعبدو بعل، كهنة وسيط وحي عشتروت.

وكان الكهنة يقومون بالخدمة المباشرة للأله، وكان تقديم الذبائح والاعياد يشكّل القسم الاساسي من تلك الخدمة. لكن ما اذهل الكتّاب القدامى بشكل خاص، كان اسلوب تقديم الذبائح البشرية الذي مارسه الفينيقيون. ويقول شيشرون (pro Balbo XIX, 43) ان يوليوس قيصر منع القادسيين عام ٦١ ق. م. من القيام بأي طقوس « بربرية ». ولو اخذنا التسامح في الدين عند الرومان بعين الاعتبار، لتبيّن لنا بان ما يجري كان عملية قتل طقسية للناس [192، ص. 6]. فخلال تقديم الضحية البشرية كان المحكوم يحرق حيًّا، وقد اطلق على تلك العبادة المريعة بالذات اسم « مُلك »، وهي التي أدّت لاحقاً الى تصوّر آله لم يكن موجوداً، دعي فيما بعد مولوخ، على حد ما يعتقد بعض الباحثين [192، ص. 3-4]. وتحدثت عن حالة مماثلة في قادس رسالة من ازينيوس پوليون، وقد حافظ عليها شيشرون (ad fam. X, 32, 3).

وقدمت الحيوانات كذلك قرابيناً للآلهة، لكننا نجهل نوعية تلك الحيوانات وطريقة تقديمها على الارض الاسبانية. ما نعلمه فقط، هو ان ملقارت كان يطلب تضريج المذابح بالدماء يومياً (Proph. de abst I, 25).

وما عرفناه فقط، من الاعياد الدينية التي كان يحتفل بها الفينيقيون الاسبان العيد الذي كان يقام على شرف ملقارت عند القادسيين (paus. IX, 46).

وشكّل التصور حول عالم الغيب ومصير الانسان فيه، اي عبادة الأموات، الجزء الأساسي من الاعتقادات الدينية. لكننا نأسف لعدم اطلاعنا الاطلاع الكافي على هذه الناحية من الديانة الفينيقية. فلعل الفينيقيين ظنوا ان للانسان روحين: نباتية وروحانية. الأولى تبقى في الجسم المدفون وتتطلب طعاماً وماء. من هنا نرى معظم موجودات المدافن الفينيقية مكوّنة من أواني طعام كانت تحتوي في حينها على المؤن الضرورية للحياة الآخرة. اما الثانية، الروحانية، فهي النَفس الذي يغيب عن الجسد لحظة الموت. وكان يصحب عملية الدفن نحيب المتوفي. واعتبر الهدؤ اكثر ما يحتاج اليه الميت في المقبرة. وليس من قبيل الصدفة ان تدعو نقوش النواويس الملكية في صيدون الى عدم ازعاج امكنة الراحة الاخيرة [138، ص. 385-386 ;263، ص. 113-114]. وكانت المدافن الفينيقية بمعظمها تحت الأرض، وكانت الأكثر قدماً عامةً، الاكثر عمقاً [205، ص. 428 ;286، ص. 17]. ولعل الخوف من الميت الذي يصبح روحاً شريرة، وراء هذا الأمر، او الرغبة في التأمين على الميت من السارقين او من الطوارىء الطبيعية. وكانت المقابر على مقربةٍ من المدن وعلى منحدرات الهضاب في الغالب، أما القديمة منها فكانت اكثر قرباً من المستوطنات [286، ص. 16].

ونعرف اليوم عدة مدافن قديمة وقبور منفردة فينيقية اسبانية. فمدافن قادس تقع عند اسوار المدينة، وتعود الى الفترة الواقعة بين القرنين الخامس والثالث ق. م، اما مدافنها الاكثر قدماً، فاغلب الظن انها تقع تحت منازل المدينة التي تطورت، والتي احتلت على ما نعتقد حيّزاً من الارض يماثل مساحة الساحة الحالية [180، ص. 397-415]. ومقابر سيكسي كانت تقع على هضبة يفصلها نهر عن المدينة [286، ص. 10]. وناووس « لاهوي » كان على هضبةٍ انفصلت نتيجة انخفاض التربة عن الهضبة المجاورة التي عثر فيها على آثار اولبا الفينيقية [316، ص. 125]. وكانت مدافن باريا تقع في شمال شرق المدينة [50، ص. 13]، أما مدافن القابسيين فكانت على الهضبة المجاورة المعروفة اليوم باسم بويغ — ديس — مولينس، على بعد حوالي ٢٠٠ متر من المدينة [180، ص. 427]. وهكذا نرى ان المدافن الأسبانية كانت تبنى

عادةً ،وفق القواعد العامة التي كان يتبعها الفينيقيون في المتروبول كما في المستعمرات (باستثناء قادس، الأمر الذي ربما يفسّره موقعها على جزيرة). ووفقاً لهذه القواعد ،كانت المقابر الفينيقية الصغيرة المكتشفة حديثاً، والتي ما زالت مجهولة التسمية .فعلى بعد خمسمائة متر من مستوطنة توسكانوس كانت تقع مدافن « حردين » التي يفصلها عن المستوطنة طريق، وعلى الضفاف المقابلة لنهر الغورّوبو كانت تقع مستوطنة مورّو — دي — ميسكيتيليا ومدافن « ترايامار » العائدة لها [278، ص. 94 والخريطة].

كانت عملية دفن الجثث اكثر طقوس الدفن الفينيقية انتشاراً. وقد اظهرت اعمال التنقيب في مدافن قادس وباريا وقابس العائدة الى ما بعد القرن الخامس ق. م. وجود مقابر دفنت فيها الجثث دفناً [180، ص. 397-415، 427-440، 451-454]. غير ان ما عثر عليه منذ فترة قريبة في مقابر تعود الى فترة أحدث، افسح في المجال امام معطيات جديدة. ففي مدافن « لاوريت » التي كشف عنها خلال عامي ١٩٦٢ — ١٩٦٣ والتي اوري الثرى فيها سكان سيكسي، اكتشفت مقابر ضمت بقايا احراق جثث موتى فقط، وعُثر على مقابر مماثلة في مدن الأموات « حردين » و« ترايامار » .ويبدو ان احراق الموتى استعمل ايضاً في ضريح « لا — هوي ». وتعود عمليات الدفن تلك الى القرن السابع ق. م. (وربما جزئياً الى القرن الثامن)، حتى ان جزءاً من قبور « حردين » يعود الى القرن الخامس ق. م. [278، ص. 94-104; 280، ص. 237 ,286، ص. 9-12; 316، ص. 125]. وهكذا نرى عملية الدفن شائعة في هذه الحقبة من الزمن عند الفينيقيين الاسبان، باستثناءٍ واحد يلفت الانتباه. في مدفن « ترايامار » ٤ طبقتان من القبور: طبقة قديمة تقع مباشرةً في قعر الناووس، عُثِر فيها على بقايا احراق الجثث، واخرى اكثر حداثةً، تحتوي على بقايا جثث مدفونة. وبما ان تاريخ هذا المدفن يعود، على ما يبدو، الى النصف الثاني من القرن السابع ق. م. [278، ص. 104]، يمكننا بالتالي الاستنتاج بأن دفن الجثث جرى في فترة قريبة من اواخر ذلك القرن.

وقبل البدء في محاولة تفسير هذه الوقائع، لا بدَّ من الأشارة الى ان احراق جثث الموتى لم يكن ميزة الفينيقيين الاسبان وحدهم. فقد استعمل

مثل ذلك الاسلوب في الدفن فينيقيون غربيون آخرون. ففي قرطاجة مثلاً، كان يلجأ الى الاحراق عند دفن الاشخاص الذين أوروا ثرى في ما يسمّى بهضبة يونونا في القرنين السابع والسادس ق. م. [14، ص 62 ;153، ص. 18-19 ;205، ص. 442]. ولوحظ الطقس نفسه في مدافن رجغون في الجزائر [345، ص. 258]. كذلك، احتوت جميع المدافن تقريباً في اقدم المقابر في موتيا على آثار احراق جثث الموتى [33، ص. 30 ;360، عمود 403-404]. اما فيما يتعلق بالفينيقيين الشرقيين، فلم يعثر حتى الآن، لا في المتروبول ولا في قبرص، على اية ادلة لاحراق جثث. غير ان جيران الفينيقيين كانوا يحرقون موتاهم احياناً، فبعد مصرع شاوول، كما تروي التوراة (I sam XXXI, 12-13)، احرقت جثته وجثث ابنائه ودفنت رفاته تحت شجرة سنديان. وتدل هذه الحادثة ان هذا الطقس كان مستعملاً عند الساميين جيران الفينيقيين.

وهكذا، فأن دفن الجثث في النصف الأول من الألف الأول ق. م. كان الطريقة الوحيدة المتّبعة في فينيقيا وقبرص واقصى شمال غرب افريقيا. وقد استعملت في قرطاجة الى جانب هذه الطريقة عملية احراق الجثث. وكان هذا النوع من الدفن واسع الانتشار في موتيا ورحغون والمستعمرات الفينيقية الاسبانية. وتعتبر المقارنة بين المقابر الاسبانية القديمة ومدافن موتيا مثيرةً للدهشة حقاً. وتشهد اقدم مدن الأموات على ان الأسلوب الأساسي للدفن المتبع هنا وهناك كان عملية احراق الجثث. وقد لُجيء الى الدفن لاحقاً، وظلّ الطقس الوحيد في موتيا حتى سقوط المدينة الفينيقية، وفي اسبانيا حتى تطبعها بطابع الرومنة.

وغالباً ما اعتبر وجود مقابر في مدن الاموات الفينيقية التي تحتوي على آثار احراق الجثث، شاهداً على الطابع السلالي المختلط للمستوطنة [33، ص. 30؛ 286، ص. 17]. واذا كان هذا الأمر يصحُّ بالنسبة لقرطاجة مثلاً، فأنه يبقى مثار شك بالنسبة لاسبانيا. ويفترض في هذه الحالة ان تكون مدن الاموات مختلطةً كذلك، الا انه لم يعثر على مثل تلك المدن حتى الآن (باستثناء ناووس « ترايامار » ٤). واغلب الظن ان الفينيقيين لجأوا الى احراق الجثث. ويحاول البعض تفسير الاختلاف في طرق الدفن انطلاقاً من الاختلاف في

الوضع الاجتماعي للموتى، فميزوا بين اغنياء يُحرقون، وفقراء يُدفنون [152، ص. 11، ملاحظة 32]. ومع ذلك،فقد عُثِر بين بقايا الجثث المدفونة في ناووس « ترايامار »٤ على بقايا قلادة ذهبية ثمينة،مما يدعو الى الاعتقاد بان المدفن قد نهب [278، ص. 103]. كذلك لا توحي المقابر القادسية بالفقر. وهناك رأي يقول بان دفن الجثث كان طريقة يُلجأ اليها في المستوطنات الحضرية السكان، اما الاحراق فكان يلجأ اليه البحارة في محطاتهم التي لا تتسع مساحتها لبناء مقابر [144، ص. 62-63]. غير ان العثور على مقابر بالقرب من قادس مباشرةً، وعلى جزيرة قادس بالذات، يشهد على وجود احتياطٍ محدودٍ من الأرض كان باستطاع القادسيين استعماله لبناء مدن الأموات، الأمر الذي لم يمنعهم من اللجوُ الى الدفن. ناهيك ان المستوطنات التي تمّ اكتشافها في جنوب شبه جزيرة البيرينه لا يمكن تسميتها محطاتٍ مؤقتة. وكل هذا يدفعنا للبحث عن تفسير آخر.

ونحن نرى انه من الواجب ان تأخذ بعين الاعتبار تأثير السكان المحليين لشبه الجزيرة على المستعمرين الشرقيين. فمن المعلوم،انه الى جانب سلاّن الصوريين في المستوطنات الفينيقية توسكانوس ومورّو ــ دي ــ ميسكيتيليا كان يعيش على ما يبدو ممثلو القبائل المحلية. ورغم استحالة تحديد طابع العلاقات بين هاتين المجموعتين من السكان في الوقت الحاضر، فأنه لا بدَّ من وجود تفاعل بينهما. فقد لجأ الايبيريون الى احراق الجثث فقط [252، ص. 333]. وهنا لا بدَّ من الأشارة الى وضع مماثل كان قائماً في موتيا الصقلّية، لكن مدافن رحغون كانت على صلة بالمجموعة الأسبانية للمدافن الفينيقية.

وتعطي اعمال التنقيب في مدينة الموتى « لاوريت »، التابعة لمدينة سيكسي، فكرةً عن المدافن الفينيقية القديمة خلال القرن الثامن والسابع والسادس ق. م. فقد عثر هناك على عشرين قبراً (منها ستة كانت مهدمة قبل ان يعثر عليها علماء الآثار). وهي عبارة عن آبار دائرية عميقة نسبياً (من مترين الى خمسة امتار) يتراوح قطرها بين ١,٥ م و٢,٥ م. وقد انطوت

بعض هذه القبور على تجويفٍ او تجويفين جانبيين، وضع فيهما وعاءان يحتويان على رماد الميت. ولم تحتوِ المدافن الاخرى على تجاويف، لكنها احتوت على وعاء رماد الميت الذي كان يوضع في قعر البئر، والى جانبه الموجودات التقليدية للمدفن: سراج فخاري، وصحن بدائي للغاية، وابريق فتحته العليا على شكل فطر. والى جانب هذه الحاجيات البسيطة من الفخار الفينيقي، امتعة مستوردة،بعضها قورنثي المصدر افسح في المجال امام تأريخ مدينة الاموات. كذلك،عثر على ثلاث بيضات نعام — اعتبرت اقدم مرة تظهر فيها مثل هذه الحاجيات في اسبانيا. وتعتبر المدافن فقيرة جداً وشبه خاليةٍ من المجوهرات، ويُلاحظ الأثريّ احياناً حلقةً فضية تحمل جُعَلاً يدور، وغلافاً فضياً للتميمة والجُعَل محاطاً باطار ذهبي. وفي احد الصحون عظام، يتضح انها بقايا الطعام المُعدّ للميت [285 ;286، ص. 10-12]. وهكذا يبدو ان مدينة الأموات هذه عادية، وانها معدة لدفن سكان سيكسي البسطاء، الأمر الذي يجعل هذه المُكتشفات كبيرة القدر.

ويبدو ان مدينة الأموات « حردين » التابعة لمستوطنة توسكانوس كانت اكثر ثراءً، رغم انه لم يصلنا من حاجياتها الا بعض البقايا. وتختلف المدافن هنا اختلافاً كبيراً عن بعضها البعض، وتتناسب، على ما يبدو، مع الوضعين الاقتصادي والاجتماعي للموتى. ومعظم المقابر عبارة عن حُفَرٍ بسيطة حُفِرت في الصخر النضيدي (Schisteux)، والى جانبها صناديق حجرية. ولوحظ وجود مدافن من طبقتين، عليا تحتوي على حفرةٍ واسعة، وسفلى فيها حفرة اقل اتساعاً. وهناك اخيراً نواويس فريدة من نوعها، صنع قعرها وغطاؤها وجوانبها من مربعات رملية كبيرة نسبياً، جمعت فيما بينها جمعاً محكماً [280، ص. 235].

وقد عثر على المقابر العائدة، على ما يبدو، الى الطبقة العليا من المستعمرين في « ترايامار » — مدينة الأموات التابعة لمستوطنة مورّو — دي — ميسكيتيليا، حيث توجد نواويس حجرية مؤلفة من عدة مداميك من المربعات المنحوتة، كان في قعرها أوعية للدفن،وحاجيات تشبه بمجملها تلك التي عثر عليها

في مدافن سيكسي: قناديل « ذو قرنين »، وصحون وأباريق. واحتوت هذه النواويس، بالاضافة الى ما ذكرنا، امتعةً اثمن، منها: خواتم، خرز، اقراط، اسطوانة ذهبية تزينها حبيبات، بقايا صندوقٍ من العاج وغيره. وتجدر الاشارة هنا الى التهدم الجزئي الذي اصاب تلك النواويس والى النهب الذي أتى على معظم محتوياتها قبل التنقيب عنها [278، ص. 98-104].

وهكذا يمكن القول انه تمَّ نبش مدافن ممثلي مختلف طبقات المجتمع الفينيقي الاسباني خلال فتراته المبكرة. ولعل الأغنياء والمشاهير دفنوا في مدافن اكثر فخامةً، مع حاجيات ثمينة، لذلك، من الصعب الموافقة على ما يقوله م. فانتار [153، ص. 19] عن عدم وجود علاقة بين حاجيات الميت ووضعه المادي في مدفنه، وعن كون الأمر رمزياً فقط. فقد كان في تلك المدافن رماد (باستثناء واحد فقط)، اما عملية الحرق فكانت تتم خارج المقبرة في مكانٍ معدٍّ لهذه الغاية، كما كانت الحال في مدينة الأموات « حردين ». وقد عُثِر هناك على دائرةٍ خاصة يبلغ قطرها حوالي عشرين متراً، كان يجري فيها احراق الجثث [278، ص. 94].

ولعل الفينيقيين الأسبان انتقلوا (أو بالأحرى عادوا) الى عادة دفن الجثث في حدود القرنين السادس — الخامس أو في مطلع القرن الخامس ق.م. ويُلاحظ الوضع نفسه في موتيا وقرطاجة [205، ص. 444؛ 372، عمود 405]. وقد اختفت في الواقع عادة احراق الجثث في هذه المدن قبل اسبانيا ، في قرطاجة في القرن السادس، اما في موتيا فكلا الطقسين مورسا طوال القرن السادس، بَيْدَ ان عدد الجثث المدفونة كان اكثر بكثير من الجثث المحروقة. وهكذا يبدو اننا ازاء ظاهرة شاذة تشمل مجمل العالم الفينيقي الغربي، رغم ان ظهورها في شبه جزيرة البيرينه جاء متأخراً بعض الوقت. ويعتقد ك. زيغلر ان احد اسباب تلك الظاهرة في موتيا قد يكون احتشاد السكان الفينيقيين في صقلية الغربية بعد ان طردهم اليونانيون من سائر اجزاء الجزيرة [372، عمود 405]. ويلاحظ في اسبانيا أيضاً الانتقال الى طريقة الدفن الأخرى خلال فترة التوسع اليوناني.

ومع تردّي الوضع السياسي الخارجي للفينيقيين الأسبان في اواخر القرن السادس ق.م.، وهو موضوع عالجناه في الفصل الأول، يحتمل أن تكون قد قامت ردّة فعل « وطنية »، شكلت العودة الى الأسلوب التقليدي في الدفن احد انعكاساتها (في صقلية، حيث ظهر اليونانيون قبل ذلك، كانت ردة الفعل هذه ابكر). كذلك قد يكون لتعزّز العنصر الفينيقي، بعد بناء دولة قرطاجة القوية، أثره في إحداث تغييرات في مراسم الدفن. وليس من قبيل الصدفة أن تجري تلك التغييرات بعد ضمّ جنوب اسبانيا الى الدولة القرطاجية. وعلى أية حال، تجدر الاشارة الى عدم اهمال الفينيقيين الأسبان لعملية دفن الجثث، إن في اسبانيا أو في صقلية، وفي الازمنة السابقة، كما يبدو من خلال ناووس « ترايامار » ٤ وما شابهه من المدافن في موتيا [33، ص. 30].

وخلال سنوات طويلة، بين عام ١٨٨٧ وعام ١٩٣٣، جرت عمليات التنقيب عن مدن الأموات القادسية. وقد عُثر خلال الفترة الأخيرة على مدافن قادسية جديدة، لكنها لم تأتِ بأي شيء جديد بالنسبة لما كان معلوماً سابقاً. ووجدت في مدن الأموات هذه مقابر فينيقية تقليدية عائدة الى الفترة الواقعة ما بين القرنين الخامس والثالث ق.م.، وهي عبارة عن صناديق حجرية مكسوة من الداخل، على ما يُظن، بملاطٍ أبيض، وقد وضعت في داخلها توابيت حجرية أو خشبية. ولم يعثر في الواقع حتى الآن، الاّ على ناووسٍ رخامي واحد شبيه بالانسان، لكنما كان يعثر غالباً على مسامير، واحياناً على بقايا من الخشب، الأمر الذي يشير الى وجود تابوتٍ خشبي فيما مضى. وتصادف غالباً في المدافن القادسية مجوهرات، كالخواتم الذهبية والأقراط والتمائم. ويُعثر أيضاً على سلاح حديدي وعظام أضاحي. والمميّز ان جميع المدافن معدّة لشخص واحد، بينما تلاحظ أحياناً في مدن الأموات الأكثر قدماً مدافن لشخصين، وحتى لثلاثة. وتجدر الاشارة أيضاً الى انه لم يعثر حتى الآن على بيض نعام، أو على تماثيل وأقنعة من الطين النضيج، في أية مقبرة قادسية. وهذا ما يميز مدينة الأموات القادسية عن مدافن قرطاجة ومستعمراتها في اسبانيا [180، ص. 397-415؛ 193، ص. 84؛ 194، ص. 44].

وتعتبر باريا من المستعمرات القرطاجية المعروفة جيداً في شبه جزيرة البيرينه، والتي تمَّ اكتشاف مدافنها على يد علماء الآثار. بعض هذه المدافن يعود الى القرن السادس ق.م.، اما اكثريتها الساحقة فتعود الى القرنين الخامس والرابع ق.م.،وقد دفن فيها ايبيريون وقرطاجيون على حدٍّ سواء. كانت المدافن القرطاجية في باريا قبالة قمة التلة وعلى مقربةٍ من المدينة. وتبدو على نحو حفرٍ مستطيلة فيها فجوة. وتشير بقايا المسامير الرصاصية فيها الى ان الميت كان يدفن في توابيت خشبية. وقد تفاوت السكان في يسرهم وانعكس هذا التفاوت واضحاً على المدافن. فقد كان في بعضها مجوهرات (اقراط، تمائم، اساور)، وقناديل فينيقية فخارية، وأشياء مستوردة: مصابيح رودوسية وأوانٍ غريبةٍ أخرى؛ وكان في بعضها الآخر، الأشد فقراً، امتعة عادية (قناديل، صحون، وما شابه ذلك) يقع الأثري عليها في المدافن المماثلة. وكان السكان المدقعين في الفقر يدفنون مع موتاهم آنية صغيرة فيها مواد عطرية فقط. وقد عثر في جميع المدافن القرطاجية في باريا على العديد من المزهريات المصنوعة من قشر بيض النعام، والمزينة تزييناً مختلفاً [50، ص 25-39؛ 184-186].

ومن نتائج اكتشاف الحفريات التي اجريت في مطلع هذا القرن اكتشاف مدينة الأموات بويغ ــ ديس ــ مولينس، وهي المدينة التي كان يدفن فيها القابسيون مواطنيهم. وقد حفرت تلك المدافن في سفح الهضبة، وكان فيها ممر ضيق يصل السطح بداخل المدفن؛ وكانت المدافن بحد ذاتها على عمقٍ يتراوح بين مترين وخمسة امتار (معظم المدافن غير عميقة: بين مترين وثلاثة امتار). وللمدافن شكل يكاد يكون مستطيلاً، صغير الأبعاد يتراوح طول كل جانبٍ منه بين ثلاثة واربعة امتار، كما تصادف مدافن اكبر. وقد جاءت أبعاد احد المدافن التي نبشت، على النحو التالي: ٣,٨٨ × ٧ × ٦,٥ × ٥,٥. وكان ارتفاع المدافن جميعها حوالي ٢,٥ م. ولم تكن تلك المدافن تختلف بتنظيمها عن المدافن القرطاجية بشيء. وبما ان معظم المقابر نُهب، لذلك يصعب التحدث بدقة عن محتوياتها. ومع ذلك فقد تمكن علماء الآثار من العثور على خزفيات واقراط وتمائم وشظايا بيض نعام وتماثيل

آلهة مصنوعة من الطين النضيج، أي الأشياء نفسها التي عثر عليها في مدافن قرطاجة. وبخلاف المدافن القادسية، فقد اكتشف في مدينة الأموات بويغ — ديس — مولينس مقابر جماعية، وعثر في بعض المدافن على ستة نواويس، وضعت جنباً الى جنب على طول حائط الحجرة. وكانت النواويس حجرية وغير مزيّنة. وتشير اكتشافات مدينة الموتى الى بدء استعمالها في القرن الخامس ق.م. وانتهائه — ايام الامبراطورية الرومانية [174، ص. 143-144؛ 180، ص. 427-437]. ولا بدَّ من الاشارة هنا الى ان المدافن الفينيقية كانت تُؤرخ عامةً بكتابة على نصب تذكاري، على غرار ما كان يحدث في قرطاجة، وهي عادة لم تكن غريبةً كلياً عن المستعمرين القرطاجيين في اسبانيا.

تتفق طريقة ممارسة الفينيقيين الأسبان للدفن مع تصوّراتهم للحياة الآخرة التي كان يشاركهم فيها مجمل العالم الفينيقي: اوانٍ للمائدة مع بقايا طعام احياناً، قناديل، حلى، وسلاح في بعض الأحيان،وجميع هذه الأمتعة ترافق الميت الى عالم الغيب. وللتماثيل الصغيرة والتمائم دور في حماية الميت من القوى الشريرة. وتتمتع مدن الموتى الاسبانية بخاصيات تميّزها عن سائر المدن الفينيقية،ان في الشرق،أو في المنطقة الوسطى من البحر المتوسط. وتشبه ضرائح قابس مدافن قرطاجة والمتروبول[٤]، لكنه لم يُعثر حتى الآن على مثيلات دقيقة للمدافن القادسية. وتكثر اوجه الشبه بين مدينة موتى سيكسي ومقبرة موتيا، غير ان مدافن سيكسي اكثر عمقاً. اما استعمال السيكسيين أواني الرخام الشفاف (المرمر) كأوعية للرماد فهو ميزة ما زالت حتى الآن فريدةً من نوعها عند الفينيقيين، وقد اكتشف مثلها فقط في فلسطين وسامراء، وقد حملت تلك الأواني اسم اوسوركون الثاني ذاته [285، ص. 51؛ 286، ص. 22].

وقد اتاحت لنا لقايا مدن الموتى في المستعمرات الصورية والقرطاجية تحديد بعض اوجه الاختلاف بينهما. ففي مدافن قابس البونية نقع على كميات

(٤) حول مدافن المتروبول، راجع: [254، ص. 1465].

كبيرة من التماثيل الفخارية كما هي الحال في مدن الموتى القرطاجية، لكن تماثيل كهذه لم تصادف حتى الآن،لا في مدافن قادس،ولا في المقابر الأكثر قدماً منها. فقد اكتشفت في قادس اكثر من ١٥٠ مقبرة دون ان يعثر في أي واحدة منها على تمثال مماثل، الأمر الذي يسقط عنصر الصدفة. ولم يلاحظ في مدافن المستعمرين الصوريين (باستثناء مدينة الأموات « لاوريت » في سيكسي) قشر بيض النعام الذي كان يستعمل كآنية لمدفن، في حين عثر على الكثير منها في باريا وقابس. والحق يقال، ان السيكسيين استخدموا مثل تلك الأواني،غير ان زخرفتها اختلفت بعض الشيء. واستعملت النواويس في قابس وفي قادس، لكنها كانت مختلفة ، فهي عند القابسيين بسيطة وغير مزخرفة ومصنوعة من الحجر الرملي، بينما هي عند القادسيين رخامية. اما الناووس القادسي المصنوع على شكل انسان فلم يعثر على مثيل له، لا في قابس ولا في قرطاجة. ويمكن القول عامةً ان المدافن القادسية كانت اغنى من مثيلاتها البارية (نسبةً الى باريا) والقابسية.

واذا ما استثنينا اساليب الدفن، فاننا لا نلاحظ أية تأثيرات للمفاهيم الدينية المحلية على عبادات سكان اسبانيا الفينيقيين. وان فهمنا لهذا الوضع يصبح ممكناً ان نحن أخذنا بعين الاعتبار عدم احاطتنا الشاملة بخصائص دين الفينيقيين الأسبان، والجهل شبه الكامل للمعلومات عن الدين المحلي والميتولوجيا في النصف الأول من الألف الأول ق.م.، ولا سيما جهل الدين الترتيسي.

وعلى ضوء ما عرضنا، لم تتوفر لنا حتى الآن امكانية تحديد تأثير المفاهيم الدينية والميتولوجية الفينيقية على مثيلاتها عند الترتيسيين والايبيريين على نحوٍ كافٍ ودقيق. وجل ما يتضح هو بعض جوانب هذا التأثير الذي ربما كان اكبر شأناً مما يظهر لنا الآن.

ويبدو ان آلهة الخصب ـــ الأم العظيمة ـــ التي تظهر صورها في فن النحت الأسباني،وفي فن الرسم على الأواني في المشرق الأسباني، كانت تحتل مكانةً رفيعةً في البنتيون الترتيسي – الايبيري. وما عُثر عليه في الدفائن والمدافن من تماثيل صغيرة شرقية (فينيقية،أو وصلتنا من خلال الفينيقيين)

كان يجب ان يمثل هذه الآلهة أيضاً. اما اوجه الشبه بين هذه التماثيل الصغيرة والتماثيل النماذج التي تمثّل عشتروت وتينّيت فأمر لا ريب فيه، والى هذه النماذج يجب ان ننسب تماثيل عشتروت البرونزية من كارامبولو، ومدينة الأموات توتوغا ومن كاستولون وغيرها من الأماكن. وتظهر على اواني الجنوب ـــ الشرقي هيئة امرأة مجنحة برفقة حمائم أو أحصنة. وتعتبر التماثيل البرونزية الثلاث المتشابهة التي اكتشفت في بيروكو (مقاطعة سلمنكا) عظيمة الأهمية. وتظهر الآلهة مع اربعة ازواج من الأجنحة وقد صوّرت بشكل بدائي جداً، يتضح انه عمل محلي (رغم ان صاحبه قد لا يكون من ضواحي سلمنكا، بل من منطقة جنوبية أبعد). يبقى أن نشير الى أوجه الشبه بين تسريحة الآلهة المجنحة وتسريحة هاتور المصرية، التي على رأسها وجسدها اقراص مشعّة، وتزيّن القرص الذي على ذلك الجسد زهرة لوطس. ولم تتمكن هذه المواضيع الشرقية من التوغل في عمق شبه جزيرة البيرينه الاّ مع الفينيقيين [80، ص. 15-22؛ 120، ص. 251؛ 201، ص. 398-399؛ 370، ص. 727-731].

وقد عثر في المدافن الأسبانية على كميات كبيرة من تمائم مختلفة، منها فينيقي ومنها ما هو تقليد عن الفينيقيين. ولهذه التمائم شكل قلب او لسان او قرص ملتصق بهلال. وقد اكتشفت تمائم لها اغطية على شكل رأس صقر. ومن المحتمل أنه كان للأختام معنى الحرز (لدرء المصائب)، من بينها مثلاً، الختم الذي عُثِر عليه في كنز أليسار ويحمل الرسوم التالية: « شجرة الحياة » وفوقها، بين عنقاءي مغرب (Griffon)، شجرة نخيل والى جانبها آلهان وصقر « هورا ». وقد اتخذ السكان المحليون هذا الختم الشرقي الصنع كتميمة (Amulette) [370، ص. 721-725].

وكان لا بدّ للفينيقيين من أن يؤثروا في الميتولوجيا الترتيسية. وفي ذلك يتحدث سترابون (III, 1, 6) عن القصائد المتناقلة والقصص التاريخية. وقد انطوت تلك الأعمال بمجملها على أساطير، كما تدل مثيلاتها على آداب الشعوب الأخرى. غير انه، وللأسف، لم يصلنا شيء تقريباً من الأدب الترتيسي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الميتولوجي الغني. القصة المتماسكة الوحيدة هي الأسطورة التي سبق ذكرها والتي تتحدث عن الملكين الترتيسيين غرغوريس وغابيس، وقد وصلتنا بشكل مختصر عن طريق يوستين (XLIV, 4, 1-14)، وقدمت لنا معلومات مهمة عن العلاقات الاجتماعية والسياسية في ترتيسيا. ولنوجّه انتباهنا الآن نحو الوجه الآخر لهذه الأسطورة. فهي تروي قصة رمي الطفل الصغير غابيس في البحر بعد عدة محاولات فاشلة لقتله، غير ان امواج البحر اعادت المهد الى الشاطىء. وقد عرض هذا الموضوع تكراراً في اساطير شعوب مختلفة، ويكفي ان نتذكر موسى، وسرحون القديم، وروملوس وريموس. لكن هناك تفصيلاً واحداً مهماً: بعد انقاذ الطفل الصغير على نحو عجائبي، ارضعته أيل آدم. بيد انه من المعلوم لدينا ان ايل ـــ آدم بالذات هي التي ارضعت ملقارت المولود حديثاً في المشهد المرسوم بالنقش البارز في صور، وأيل ادم،أو الأيل،معروضة أيضاً على بوابات معبد هرقل القادسي. ألم يكن ممكناً ان تكون هذه التطابقات شاهداً على تأثير دور ملقارت الميثولوجي على هذه أو تلك من تفاصيل صورة غابيس الترتيسي وما يتعلق به من اساطير شعرية؟

من الممكن أيضاً ملاحظة نتائج التأثير الفينيقي على معتقدات السكان المحليين الدينية، كموضوع « شجرة الحياة » في الزخرفة الخزفية الأسبانية الشرقية الذي ظهر باكراً عند الايبيريين وظل قائماً حتى عصر الامبراطورية الرومانية [201، ص. 400].

ورغم عجز هذه الوقائع عن اعطاء صورة شاملة فانها مع ذلك تشهد على التأثيرات الكبيرة لفكر الفينيقيين الديني والأسطوري على المعتقدات الدينية لسكان شبه جزيرة البيرينه الأصليين، وهو أمر ليس بمستغرب ازاء تعايش طويل من هذا النوع.

لقد رأينا من خلال بحثنا في ديانة الفينيقيين الأسبان عدم وجود اختلافات كبيرة بين معتقدات المستعمرين الصوريين الدينية ومواطنيهم في الشرق (باستثناء طريقة الدفن، ربما). ونرى من جانب آخر ان هذه الاختلافات كانت قائمة في النظام الديني للمستعمرين الصوريين والقرطاجيين (كعبادة

القرطاجيين لتينّيت مثلاً). لقد ارتبط الصوريون بالمنطقة الشرقية من البحر المتوسط، بينما ارتبط القرطاجيون بمتروبولهم في وسط المتوسط(٥).

(٥) اظهرت الحفريات اللاحقة وجود اوانٍ من قشر بيض النعام في مدافن مدينة الأموات حردين [316 a، ص. 191].

الفصل الرابع

الفن والصناعة اليدوية الفنية

لا بدّ قبل التحدّث عن الفن الاسباني الفينيقي، والصناعة اليدوية الفنّية، من تقديم بعض الملاحظات التمهيدية.

يعترف الباحثون اليوم،انهم ما زالوا قاصرين في معالجة تاريخ الفن الفينيقي في الألف الأول ق.م.، ولا سيما في نصفه الأول. والسبب الأساسي لهذا القصور هو النقص في المواد الفنية. ففي الوقت الذي قدّمت فيه حفريات جبيل واوغاريت تصوراً كاملاً عن الحضارة الفينقية المزدهرة في العصر البرونزي (الألف الثاني ق.م.)،نلاحظ ندرة في الحفريات التي يحتمل ان تقدم مواد وفيرة عن مطلع العصر الحديدي، اي اواخر الألف الثاني والنصف الأول من الألف لأول ق.م. وهكذا، لم يتم الكشف حتى الآن عن الطبقات الملائمة في المراكز الفينيقية المهمة مثل صور وصيدون. وتبقى الآمال معلقةً على ما قد تأتي به الأبحاث التي باشرها علماء الآثار الاميركيين في ساريبت عام ١٩٧٠ [304]. وبانتظار ظهور نتائج تلك الأبحاث تبقى المستعمرات الفينيقية والدول المجاورة لفينيقيا: اشور ، سوريا، فلسطين، اليونان، المصدر الأساسي لمعرفتنا بالآثار الفينيقية. ويعتبر اقتباس المواضيع والصور من خزانة الفن الغنية في مصر وبلاد ما بين النهرين طابعاً مميزاً للفن الفينيقي اشير اليه منذ أمد بعيد. غير انه لم يعرف الا منذ فترة وجيزة بأن الأمر لم

يكن مجرد محاكاة بسيطة، بل استعمالاً لمجموع المواضيع الغربية من اجل اهداف معينة، ولا سيما من اجل ايجاد حلول للتآليف الخاصة [56، ص. 56-57؛ 62، 58، عمود 301].

ورغم النقص الحاصل في دراسة تاريخ الفن الفينيقي (بما فيه مجال التأريخ) يمكننا استشفاف تيارين ظاهرين على الأقل: فينيقي صرف (يجب ان تنسب اليه أيضاً منتجات الحرفيين الفينيقيين الذين كانوا يعملون في قبرص وصقلية)، وقرطاجي، يسمّى عادةً بونياً [265، ص. 169-172]. وتبعاً لهذا التقسيم، ينبغي الفصل في أعمال الحرفيين الفينيقيين في اسبانيا بين ما صنع منها في المستعمرات الصورية وتلك التي صُنعت في المستعمرات القرطاجية.

ويرتبط الفن الفينيقي في جنوب اسبانيا ارتباطاً وثيقاً بعالم ترتيس الغني. واذا كانت جميع المصنوعات التي عثر عليها في جنوب شبه جزيرة البيرينه، والتي تحمل طابعاً شرقياً، اعتبرت فينيقية فيما مضى دون أي تحفظات، فقد ظهر في الستينات من هذا القرن رأي يقول بأن ترتيس هي مصدر العديد منها. وتقول فرضية أخرى بوجود مقاطعة « ترتيسية » كان لها طابع شرقي متوسطي. وقد اجريت أيضاً محاولة لفرز التحف الترتيسية عن مثيلاتها الفينيقية حقاً [187، ص. 128-145]. بيد ان وجهة النظر هذه لم تلقَ حتى الآن الدعم الكافي، فحاجيات كثيرة يصنّفها بعض الباحثين ترتيسية، في حين ينسبها البعض الآخر الى الفينيقيين كما في السابق[1]. ويستحيل في الوقت الحاضر اجراء فرز دقيق لما هو مصنوع في مشاغل قادس وملاغا وسيكسي وأبديرا، وبين ما انتجته ايادي فناني ترتيس. وسوف نتناول الأسلوبين معاً محاولين قدر المستطاع ابراز الملامح المحلية في بعض المنتجات.

وفي ختام هذا التمهيد لنا ملاحظة اخيرة تنبع من حقيقةٍ قوامها اننا لا نرى بين آثار الفن الفينيقي الأسباني التي وصلتنا اثراً لنتاج فن نحت الأنصاب والرسم. واذا كان غياب فن الرسم امراً لا يسترعي الدهشة نظراً لقلة ما

(١) يعتبر ب. فراير ــ شلومبورغ مثلاً، ان الادوات المصنوعة من العاج هي فينيقية غربية [167، ص. 105-111].

عثر عليه من أعمال التصوير القديمة، فان غياب فن نحت الأنصاب يتطلب تفسيراً. فهل الأمر عائد الى الصدفة في الاكتشافات، ام اننا امام ظاهرة خاصة بفن النحت الفينيقي؟

من ناحيةٍ أولى، نرى في ما وصلنا من مواد فينيقية في اسبانيا وفي المتروبول وفي عددٍ من المستعمرات، إما غياباً كلياً لآثار فن نحت الأنصاب، او وجود قليلٍ منها. والى ذلك اشار قدامى الكتاب على نحو واضح، كاشارتهم مثلاً، الى عدمِ وجود تمثال لملقارت في معبد قادس. وأغلب الظن انه لم يكن لله أيضاً، اي تشخيص في صور.

ومن ناحية أخرى، وصلتنا شواهد عن منحوتات لآلهة قرطاجة، كما اكتشفت في فينيقيا تماثيل ضخمة تعود الى مطلع الألف الثاني ق.م. [245، ص 2283، رسم 1297]. ويعود الى الألف الأول ق.م. جذع (Buste) اكتشف في ساريبت، هو البقية الباقية من تمثال اله أو ملك [254، ص. 1472-1473، رسم 893]. وعُثِر في قبرص على تمثال فينيقي ضخم لأله ينقضّ على أسد، ويعود تاريخه أيضاً الى الألف الأول ق.م. [58، عمود 306؛ 294، ص. 569، رسم 386]. وفي قرطاجة عثر علماء الآثار مؤخراً على قطعٍ من تمثالٍ لتينّيت كان على ما يبدو قائماً فيما مضى في معبد بيرسا [144، ص. 60 ورسم 6]. ورغم ان القطع التي وصلتنا من هذا التمثال هي ثلاث فقط، فان بالامكان اعادة ترميمه. وقد تبيّن على ضوء ما اعيد جمعه ان المنحوتة تمثال لامرأة تتربع على عرش زيّنت جوانبه بأشكال لكائنات خرافية لها جسم أسد، وأجنحة، ورأس امرأة وصدرها (ابو الهول — Sphinx). ونرى مثل هذ الزخرفة في عرش بعل — همّون في قرطاجة [163، ص. 132-133 ورسم 133]؛ وتُصَادف بكثرةٍ ايضاً في المتروبول: في بيبلوس، وصيدون، ومنطقة صور [326، ص. 51-52]. وقد عُثِر مؤخراً في اسبانيا أيضاً على زخارف شديدة الشبه، سيأتي الحديث عنها لاحقاً.

وحين تقارن عبادات ملقارت وعشتروت تجدر الاشارة، رغم الطابع الانساني للأله في العبادة الأولى، الى عدم استعمال الأنصاب الضخمة على

نحو شبه تام. ولم يعثر حتى الآن في اسبانيا، حيث كانت هذه العبادة رائجة، على أية تماثيل لهذا الاله؛ يوجد تشخيص واحد له فقط على مداخل معبده في قادس، ولعله منقوش أيضاً على اسطوانةٍ عاجية من كرمونا. اما تماثيل عشتروت فتصادف بكثرة. ويمكن ملاحظة مثل هذا الفرق أيضاً في فينيقيا وفي فلسطين وسوريا. ويظهر ان النحت الدائري في عبادة عشتروت كان يحتل مركزاً واضحاً. وهكذا يبدو لنا من الناحية المبدئية ان العثور على تماثيل ضخمة في اسبانيا أمر محتمل، غير ان ما توفر لدينا من معطيات حتى الآن،عن فن النحت الفينيقي الأسباني،ما زال ضئيلاً ويقتصر على أعمال بسيطة.

ويعتبر تمثال عشتروت الصغير الذي تحدثنا عنه كشاهد على العلاقات الفينيقية ــ الأسبانية، اقدم منحوتةٍ فينيقية تمَّ العثور عليها في شبه جزيرة البيرينه. وتؤكد الكتابة المنقوشة على قاعدتها مصدرها الفينيقي. وقد اكتشف هذا التمثال الصغير (ارتفاعه ١٧,٥ سنتم) على هضبة كارامبولو المشهورة بكنزها الذائع الصيت [78، ص. 27؛ 236، ص. 304 ورسم360a؛ 237، جدول C 20 و d].

ويعيد المظهر العام للتمثال الصغير الى الذاكرة بادئ بدء،فكرة النحت المصري، حيث يظهر الشخص عارياً، وقد جلس وأرجله متصلة وممدّة على نحوٍ متوازٍ، جذعه مستقيم، مع أدق التفاصيل واغفال تام للعضلات، قسمات وجهه مضبوطة بمجملها، تحييها فقط ايماءة الى طرف ابتسامة. كما يبدو الشعر المستعار على رأس عشتروت مصري المظهر.

ورغم التناسب الصحيح في التمثال عامة، تظهر في الوقت نفسه بعض التفاصيل التي لا تتلائم: رأس ضخم جداً، اذنان كبيرتان الى حد المغالاة، افخاذ طويلة، ولا ينطبق هذا الاختلال في التناسب على خصائص الفن المصري، لكنه يحمل طابع الذوق الفينيقي [78، ص. 27].

ورأس هذا التمثال، بشعره المصري المستعار المائل على الجبين، والشريط الذي يفصله عن الجبين، مع العينين المستطيلتين ذات الزوايا الخارجية المنحنية،

وطرف الابتسامة الخفيف في الشفتين، وتصميم الوجه الوديع، يذكّر بشكل مدهش، بالرأس الصغير المصنوع من العاج الذي عثر عليه في نمرود [56، ص. 147، 20b، رقم 186، جدول LIX]. ويعود هذا الرأس الى مجموعة ليارد من المصنوعات العاجية النمرودية التي صنعها النحاتون الفينيقيون في الربع الأخير من القرن الثامن ق.م.، وعلى أيّ حال قبل عام ٧٠٣ [56، ص. 135].

ونأسف لاستحالة تأريخ تمثال برونزي صغيرة آخر لعشتروت عثر عليه، اغلب الظن على مقربةٍ من توتوغا، وهو محفوظ في المجموعة الخاصة لرودريغيز اكوستا في غرانادا. ويمثل هذا التمثال العمّة واقفة، عارية كذلك، تطبق يديها على صدر عامر، وقد برزت ملامح الوجه غليظة وكأنما نُفّذت من دون اتقان، وجبلت القوالب الضخمة جبلاً هشاً؛ ولكن النحات اظهر بدقةٍ، تبعاً للذوق القديم، بعض التفاصيل. وسرعان ما تظهر قوة الاشكال المشدّد عليها، الى جانب الايماءة الطقسية، ماهية التمثال . انه تمثال آلهة الخصب [237، ص. 161، وجدول 20a, b].

وكثيراً ما نعثر على صور مماثلة لهذه الآلهة في الشرق. ويذكّر التمثال الصغير بالتماثيل البابلية المصنوعة من الطين النضيج في اواسط الألف الثاني، وبالتماثيل الفلسطينية في اواخر الألف الثاني ـــ مطلع الألف الأول ق.م. [237، ص. 161؛ 274، ص. 43-44، ورسم 31]. ويختلف طراز هذه الأخيرة في الواقع، على ضوء ما تتيح لنا النسخ المتوافرة الحكم عليه، ففي حين ان التماثيل الفلسطينية اكثر غلاظةً نراها في الوقت نفسه اقل سِمنةً واكثر هَيَفاً من تمثال توتوغا. وتعتبر هذه القطعة برأي أ. كوكان اقدم نموذج لفن النحت البرونزي في شبه جزيرة البيرينه، وقد صنعت قبل تمثال عشتروت الجالسة. ونظراً للنقص الحاصل في اعداد سلسلة تاريخية لأحداث الفن الأسباني ـــ الفينيقي والترتيسي، ما زال مستحيلاً تحديد أي هذه الأعمال هو الأقدم. وفي حين يدل المظهر الخارجي للتمثال الثاني انه اقدم، الاّ انه لا يمكن اعتبار هذا البرهان قاطعاً.

والأثر الثالث لمتقني فن النحت هو تمثال صغير من المرمر للآلهة نفسها، وهو عبارة عن صورة لعشتروت بشكل امرأة جالسة تمسك بكلتا يديها كأساً كبيرة على ركبتيها، وعلى رأسها وشاح مصري، وعلى جسدها رداء مخطّط او مكسّر بكمّين قصيرين الى ما فوق المرفق. وقد احيطت جوانب المقعد بعددٍ من كائنات السفنكس (ابو الهول) المجنّحة. ورغم الحالة المتوسطة للتمثال يمكن تبيّن ملامح وجهه. فالملامح الضخمة المرسومة رسماً خشناً، والأشكال العريضة تضفي العظمة على مجمل التمثال [174، ص. 147، ورسم 124]. ويجب ايلاء اهتمام خاص للسفنكسات التي كانت تزيّن، كما يتضح، عُروش الآلهة في التماثيل الضخمة. ولعل تمثال عشتروت المصنوع من المرمر هو نسخة عن التمثال الضخم المفقود. وهو يكشف تفاصيل مهمة في الوقت نفسه عن الغرض من ذلك التمثال: داخله أجوف، وفي الرأس المقطوع على نحو مسطح ثقب عريض كان يصبُّ فيه سائل معين كان ينساب بدوره عبر ثقبين صغيرين في الصدر الى الكأس. وبما ان التمثال يمثل الهة الخصب، فبديهي ان يكون السائل المقصود هو الحليب. لذلك يبدو محتملاً افتراض خ.م. بلاسكيس،بأن هذا التمثال الصغير كان في حقيقة الأمر وعاءً للزخرفة، لكنه استعمل مباشرةً من ضمن حاجيات الدفن [80، ص. 16، ملاحظة 1]. ويتناقض هذا الافتراض بطبيعة الحال مع الفكرة القائلة ان المصمم قام بتقليد او استنساخ احد النماذج الضخمة. وتصادف تماثيل مماثلة في قبرص وسولونتا، اما طراز التمثال نفسه فيرجع، برأي أ. كوكان، الى طراز تمثال ماري [236، ص. 304]. اما فيما يتعلق بتاريخ صنع التمثال الأسباني الصغير، فالبعض يرجعه الى القرن السابع ق.م. [80، ص. 16].

أخيراً تجدر الاشارة الى تمثال برونزي صغير (ارتفاعه ١٣ سنتم) عثر عليه في قادس بالذات، يُمثل رجلاً امرد يقف وقفة رصينة على رجليه المتوازيتين. يبدو واضحاً ان هذه الوقفة وذلك الرأس الحليق واليدين المكتوفتين على الصدر (يحتمل ان تكونا ممسكتين بشيء ما: عكّاز، برأي ب. سنتا) من الطراز المصري. غير ان القدمين العاريتين وملامح الوجه التي يكشف

عنها الجلباب الطويل الواصل الى منتصف الساقين، تبرز المصدر الفينيقي للتمثال. اضافةً الى ان الوجه مكسوّ بورقةٍ رقيقةٍ من الذهب كما كانت العادة في المشاغل الفينيقية في العهد البرونزي ومطلع العهد الحديدي. واذا كان افتراض ب. سنتا وجود عكّاز في يدي التمثال بعيداً عن الجسم، صحيحاً، فان هذا الأمر ما كان الاّ ليؤكد صنع الفينيقيين لهذا التمثال. ويصعب تحديد تاريخ الصنع نظراً لعدم وجود قرائن أثرية وتماثيل دقيقة مماثلة. على أيّ حال، فان ذلك لم يحصل قبل القرن الخامس ق.م.، كما ان بعض التفاصيل القديمة، ولا سيما وجود الورقة الذهبية على الوجه، تتيح ارجاع صنعه الى زمن أبكر [115، ص. 263-267؛ 208، ص. 204].

ولو اسقطنا من الحسبان الأعمال غير الدقيقة المكتشفة في قادس وكارمونا، والمصنوعة من الطين النضيج والتي وصلتنا بحالة سيئة، لأقتصر نتاج الفن الأسباني — الفنيقي والترتيسي في النصف الأول من الألف الأول ق.م. على هذين التمثالين الصغيرين.

وتشكل اعمال النحّاتين على العاج جزءاً كبيراً من الاكتشافات الأسبانية. ففي أواخر القرن التاسع عشر عَثَر ج. بونسور (G. Bonsor) على عددٍ كبيرٍ من الألواح كانت فيما مضى جوانب صناديق، وعلى اقساط وملاعق من العاج جميعها منقوشة. ومواضيع تلك النقوش تزيينية صرفة، منها الهندسي ومنها النباتي؛ وهي شيّقة، ولا سيما الألواح والأمشاط التي حفرت عليها صور الناس والحيوانات، الموحّدة في مشهد او في صفوف زخرفية.

ونرى على الألواح مشاهد منازلة: محارباً يقاتل أسداً، وعنقاء مغرب تساند يده؛ ثوراً يصارع اسدين؛ اسداً ينقض على غزال تدافع عنه عنقاء مغرب، ويتكرر هذا الموضوع على احد الألواح من كلا الجهتين؛ فارس يعدو لملاقاة عنقاء مغرب يقف وراءها غزال وقد أدار رأسه باتجاه العنقاء والفارس.

وتتشابه جميع هذه المصنوعات بالسمات الشكلية أيضاً. فكل مشهد محاط من جهاته الأربع باطار (لم يحفظ دائماً)، وفيه ثلاث شخصيات: المهاجم (اذا نظرنا الى المقاتل على ظهر الجواد كوحدة متكاملة)، هدف الهجوم

وموقعه عادةً في الوسط، اخيراً الشخصية الثالثة، تحتل الجزء الأيسر من اللوحة، وهي الأكثر سلبية. ومن الجهة اليمنى يميل الأسد المهاجم برأسه الى الوراء فاذا بالرؤوس الثلاثة تنظر الى جهة واحدة. وفي مشهد مهاجمة الفارس للعنقاء، يتجه رأسا الحصان والمقاتل نحو هدف الهجوم، الا ان اليد اليسرى الطويلة دونما تناسب ،والتي تحمل السوط ،وقد ارجعت الى الوراء، توحي بتركّز الحركة في الجانب الأيمن من المشهد. ويكوّن الخط المنكسر المرسوم ذهنياً عبر اشباح الشخصيات اطاراً زخرفياً صرفاً متكلفاً بعض الشيء، في حين يخفف الخط العلوي المستقيم، الذي يتطابق والنقط العليا لصور الحيوانات أو الأشخاص، من قوة الحركة،مثيراً شعوراً بالطمأنينة، الأمر الذي يتفق ومضمون المشهد.

ويتميّز الرسم بدقته وخطوطه المستقيمة وثباته. فالعفرة والريش والشعر مرسومة بخطوط مستقيمة متوازية. ويظهر الانسان إما من منظار جانبي، او على الطريقة المصرية: الرأس والأرجل جانبيان، اما الكتفان فمواجهةً. وينزع الفنان احياناً لنقل بعض التفاصيل كثنيات الجلباب، وتكوين أذن المحارب، وبعض عضلات الأسد مثلاً. ويقترن كل هذا بطريقة التخطيط والاصطلاح ،كما في صورة المقاتل المختلّة التناسب، والقياسات الاصطلاحية المتبادلة، ووضعيّات المشاركين في المشهد.

وثمّة نوع آخر من المصنوعات العاجية هو الأمشاط التي، خلافاً للألواح، لم يعثر عليها فقط في كارمونا، فالأمشاط التي تحمل نقشاً، عُثِر عليها خاصةً تحت اسوار مدينة اوسونا. وقد حُفِر على هذه الأمشاط كقاعدة عامة، مشهدان متشابهان نوعاً ما على كلا الجهتين. وتأخذ الرسمة شكل مستطيلٍ او شبه منحرف، ممطوط للغاية حيناً، ومحاط باطارٍ فارغٍ احياناً، لكنه مليء في الغالب بزخرفة متعرجة متموّجة او مجدولة. وتحتل صور الأشخاص مساحةً كبيرة، اما المنطقة الخالية المتبقية فقد يحاول الفنان ملأها برسم طائر،او برعم لوطس،او سُعيفة.

وتظهر على الامشاط، على شكل مستطيلات ممدودة او اشباه منحرف،

تآليف متعددة الاشخاص: مشاهد قتال وتعذيب حيوانات، حيوانات حقيقية او خيالية ترقد بهدوء، ونرى في احدى الوقائع شخصاً يلحق بحصان مجنح. وعلى الامشاط الصغيرة القياس صورة لشخص واحد(٢). وتظهر جميع الاشكال جانبياً (الاّ الانسان فهو يظهر بكتفيه مواجهةً على الطريقة المصرية) بشكل مختصر واصطلاحي. ويُعيد تشخيص العفرة والشعر والريش الى الذاكرة ما رأيناه على الألواح. كما يعمد الفنان في بعض الحالات الى اظهار الاضلاع والعضلات بواسطة خطوط اصطلاحية.

ويذكّرنا تركيب الصور على الامشاط من اوجه كثيرة، بتركيب الرسوم على جوانب الصناديق. فهي متزنة بمجملها، وان كان هذا الاتزان لا يبلغ حدَّ التناظر الاّ في النادر. ونقع على هذا التناظر مرةً واحدةً فقط، عند وضع ثلاثة غزلان في وسط الصورة بين اسدٍ وعنقاء مغرب. ونرى مرةً اخرى تركيباً شعارياً للوحة: سعيفة في الوسط، وظبيين على الجانبين، يلتفت كل منهما الى الناحية المقابلة، ووراء كل ظبي عنقاءي مغرب. ومع ذلك نجد هنا بعض التفاصيل التي تخلُّ بالتماثل. ويصادف احياناً، وان نادراً، تمثال تام، ظبيان متطابقان تماماً يربضان على جانبي السعيفة [173، رسم14].

ورغم تنوّع المشاهد التي انجزها حرفيو الحفر على العاج، فقد تميزت جميعها بوحدة الاسلوب، كما لاحظ ذلك أ. غارسيا اي بيليدو منذ أمد بعيد [180، ص. 486]. وتميّزت كذلك بالصورة الدقيقة، الأنيقة، المنسجمة، وبالتركيب المتشابه وبأساليب تصوير الحيوانات — جانبياً، اصطلاحياً، وسطحياً، مع عددٍ من التفاصيل قليلٍ نسبياً.

ولا ريب بان هذه المصنوعات ترتبط بمركزٍ واحدٍ. فما هي طبيعة هذا المركز؟ وهل تنتمي الرسوم على الامشاط والألواح الى الفن الفينيقي ام الترتيسي؟ على هذا السؤال لا يعطي الباحثون جواباً موحداً. فالبعض يعتبر هذه الرسوم اعمالاً شرقية صرفة [45، ص. 41-42, 265؛ ص. 265]، والبعض

---

(٢) توجد صورة شخص واحد فقط على مشطٍ فينيقي غربي مستطيل عُثِر عليه في ساموس [167، ص. 107].

الآخر يعتبرها غربية فينيقية، أُنجزت في قادس او في مدينة اسبانية اخرى [167، ص. 105-111]، وآخرون يعتبرونها محلية ترتيسية [75، ص. 14-35]. ويتيح لنا تأمل تلك المشاهد وتفاصيلها وطريقة تنفيذها، الاجابة على هذا السؤال على ما يبدو.

تجدر الاشارة قبل كل شيء الى عدم وجود مواضيع رُسمت على المنتجات الاسبانية ولم تعالج في الشرق. فالصراع مع الاسد مثلاً، هو احد اكثر المواضيع انتشاراً في الفن الشرقي. ونقع على اسود وغزلان وارانب برية وعنقاء مغرب في اعمال الحرفيين الشرقيين، ولا سيما الفينيقيون منهم. ونجد في قوام المقاتل الذي يصارع الاسد تشويهاً وشريطاً فاصلاً واحداً بين غطاء الرأس والجبين، مع ما نراه في تمثال عشتروت الفينيقي. وتذكّر تفاصيل عديدة، كالخوذة والثياب وسلاح المقاتل وطريقة ركوعه، بالنماذج الايجية. وتبدو الثياب يونانيةً بشكل واضح [265، ص. 264]. وتلاحظ التعبئة المتعرجة في الأطار المحيط بالصورة،على الأمشاط التي اكتشفت في معبد ارتيميدا ـــ اورفيا في سبارطة [45، ص. 360، ملاحظة99]. ولا بدَّ اخيراً من الاشارة الى الرسم التخطيطي المصري في تصوير الانسان، والى موضوع يحمل طابع بلاد ما بين النهرين « كشجرة الحياة » مثلاً. ويعتبر كل هذا جانباً مميزاً من الفن الفينيقي، وتندرج في السياق نفسه مصنوعات الحرفيين العاملين في قبرص، التي تمتزج فيها التأثيرات الشرقية بالأيجية.

وتقترب المنتجات الاسبانية من اعمال النحاتين الفينيقيين في الألف الثاني ق. م.،التي عثر عليها في « مجدّو ». وقد اكتشفت في هذه المدينة الفلسطينية صناديق وألواح وأمشاط، اي المنتجات نفسها التي عثر عليها في اسبانيا. وكان بين هذه الأعمال منحوتات. ونلمس في المشاهد المرسومة على هذه الحاجيات مبادىء واحدة في تصوير الناس والحيوانات، وصورة واحدة دقيقة ومنسجمة. اما اللوح الذي يحمل مشهد انتصار الملك فيتمتع بجمال مميز. فقد أحيطت ارضية اللوحة باطارٍ رقيق مستطيل. ومع ان في اللوح مشهدين مرسومين (الانتصار بحد ذاته والمأدبة الملكية)، الا انه يمكن اعتبارهما من

الناحية الفنية كلاً واحداً. ويلاحظ ان الحركة العامة تسير من اليمين الى اليسار، ولو كان في اللوح مركز بارز لَمَنَح الصورة شيئاً من التناظر. ولا تخلُ وجوه الملك والخادمين السائرين وراء العرش، الموجّهة الى الجهة المقابلة، بالحركة الاحادية الجانب بقدر ما تؤكد عليها. وتمتلىء الفسحة الخالية، وان بشكلٍ غير كامل، بقرصٍ مجنّح ونباتات عليها طابع التقليد في الاسلوب [139، رسم 49]. وخلاصة القول، اننا امام التأليف نفسه الذي نشاهده في عددٍ من اللوحات الأسبانية، وقد عُولجت رسوم الحيوانات بطريقة متشابهةٍ ايضاً. فالثور المرسوم على اللوح الذي عثر عليه في كارمونا مثلاً، يشبه حيواناً مماثلاً محفوراً على لوح عظمي في القرن الثالث ق. م (وهو ليس في الحقيقة من مجدّو، بل من مدينة فلسطينية اخرى — لهيش) [173، رسوم 7 ,44 ,46]. وهكذا يمكن الافتراض بأن الرسوم على الألواح والامشاط العاجية التي عثر عليها في شبه جزيرة البيرينه تعود الى الوسط الفينيقي، اما النماذج الاصلية فترجع الى الفن الفينيقي في العصر البرونزي.

مع ذلك، يوجد اختلاف بين النوعين ،فالصور الشرقية خلال القرون الرابع عشر — الثاني عشر ق. م. اكثر حيويةً من نظيراتها الاسبانية، كما ان النحّات الشرقي في تلك الحقبة كان يجمع مشهدين او اكثر معاً، الامر الذي لم يلاحظ حتى الآن في المنتجات البيرينية.

ولو قارنّا الامتعة الكارمونية بتلك التي عثر عليها في نمرود،والتي تعود الى القرنين الثامن والسابع ق. م. لبدا الفرق واضحاً. ورغم ان جميع مواضيع الاعمال الاسبانية،او معظمها،يتكرّر في الشرق، الاّ ان الأمر ليس كذلك بالنسبة للأعمال الشرقية في اسبانيا. فان اشد ما يذهل هو غياب مواضيع شعبية في السلاسل الاسيوية، كما في لوحات « امرأة على النافذة »، امرأة عارية، بقرة ترضع عجلها [75، ص. 22]. وتتميّز المصنوعات الاسبانية باطارٍ مستطيل يحيط بارضية الصورة. كما ان هناك اختلافاً في تقنية تنفيذ المشاهد بالذات. فخلافاً لاسلافهم من العصر البرونزي، لم يقم الحرفيون الفينيقيون في الألف الأول ق. م. بالحفر على الألواح، بل استعملوا النقش البارز.

ففي نمرود مثلاً، حفرت الألواح المخدوشة فقط وفق الاسلوب الاشوري، اما الفينيقية والسورية منها، فهي بارزة [167، ص. 110]. اما في اسبانيا فلم يعثر حتى الآن على اي نقش بارز في العاج. اخيراً، لا بدَّ من القول ان الاعمال الشرقية اختلفت بسرعة تغيّرها،وجمال شكلها،ودقّة صنعها وتفصيلها لشكل الانسان والحيوانات(٣).

وتدل اوجه الشبه والاختلاف هذه على ان الادوات المصنوعة من العاج التي عُثر عليها في شبه جزيرة البيرنه، تعود الى الوسط الفينيقي لكنها تحتل مركزاً مميزاً في حضارة شبه الجزيرة. مع ذلك هناك تساؤل فوري حول هوية صانعي هذه الحاجيات. الا يعقل ان يكون هؤلاء من الترتيسيين، وليس من الفينيقيين بوجه عام، كما يرى بعض الباحثين الاسبان.

وقد عرض أ. بلانكو اكثر الحجج تفصيلاً ودعماً للرأي القائل بالمصدر الترتيسي لا الفينيقي لهذه المصنوعات. وهي تتلخص في اوجه الشبه بين خوذة المقاتل على اللوح والخوذة اللوزيتية التي يصفها سترابون (III, 3, 6)، ناهيك ان الاسود على النماذج المكتشفة في مدينة الاموات كروز ــ ديل ــ نيغرو تشبه بتخطيطها الأسود الحجرية العائدة لعصر اكثر تأخراً [75، ص. 14 ;19 ;35]. الاّ ان تلك الخوذة لا تشبه الخوذ اللوزيتية فحسب، بل الايجية ايضاً، وهي الى جانب ملامحها الايجية والقبرصية تدفع بنا الى القول بتأثيرٍ اتٍ من شرق البحر المتوسط. ويرتبط الفن الايبيري من حيث منشأه بارتباطات عدة بالفن الفينيقي، بحيث ان تشابه المصنوعات الكارمونية الايبيرية الأكثر حداثةً،لا تثير الدهشة. اما تخطيطية بعض الاشكال فيمكن تفسيرها بالاختلاف في اسلوب الحرفيين،لا بالمصدر الأتني المختلف. فقد يكون ناقش بعض الألواح والامشاط ترتيسياً، انما يجب الافتراض هنا انه كان ملماً بالطريقة الفينيقية لدرجة غطت اظهار اصالته الترتيسية. لذلك يجب اعتبار المنحوتة ممثلة حقيقية للفن الاسباني الفينيقي وليس الترتيسي(٤).

---

(٣) عن منتجات نمرود راجع [56].

(٤) ويشهد على ذلك ايضاً تشابهها تقنيةً وتصميماً بالأمشاط التي عُثِر عليها في قرطاجة [114، ص. 64 ورسم 16، ص. 86-87، الرسوم الايضاحية 65، 69، 70].

ان تحديد مصدر المنحوتات العاجية يسمح بالانتقال الى دراسة مدلول الصور.

لنلقِ نظرةً على محتوى الرسوم: مقاتل ينازل اسداً وتساعده عنقاء مغرب، ثور تعضده عنقاء مغرب (او بدونها) يصارع اسداً او اسدين، اسد ينقض على غزال تحميه عنقاء مغرب، فارس يهاجم عنقاء مغرب تدافع عن غزال، اسد يقترب من غزلان تلتفت نحو عنقاء مغرب وكأنها تطلب منها الحماية، رجل يقتفي اثر حصان مجنّح. اذا تركنا جانباً المشهد الأخير غير الواضح المعنى، امكننا رؤية المواجهة الواضحة بين الشخصيات. فنحن ازاء مقاتل راجل برمحه وترسه، عنقاء مغرب، غزال، ثور، ارنب برّي من جهة، واسد وفارس من جهة اخرى. يصعب الاعتقاد بأن هذه العلاقات المتبادلة هي علاقات عرضية، وان ما يفسّرها هو الرغبة في تزيين المشهد وحسب.

وتحملنا بعض المشاهد على تذكر بعض الاساطير المتعلقة بملقارت. ويذكّرنا قتال الرمّاح الجاثي على ركبتيه للاسد، بصراع ملقارت وهذا الحيوان الوحشي، وهو ما تذكره قصيدة سيليوس ايتاليك. ويُستدل من هذه القصيدة ان احدى مآثر هذا الأله كان الصراع مع الجياد. الا يحتمل ان تكون صورة الفارس المنقضّ على الغزال والعنقاء تلميحاً الى اسطورة مماثلة،أو روايةً مختلفة للاسطورة نفسها؟ فبالوسط الاسطوري لملقارت يرتبط الأيل الذي يعتبر غزال الأمشاط الاسبانية مقابلاً له. ويرتبط الأيل كذلك بعبادة عشتروت. ونرى صورة غزالين او عنزتين على جانبي لوحة اوغاريتية عاجية تمثل الالهة نصف عارية، وهي لوحة تعود الى القرنين الرابع عشر والثالث عشر ق. م. [96، رسم 663، ص. 45]. وكان ملقارت مرتبطاً بعشتروت، كما نعلم. اما موضوع صراع الاسد والثور فقريب الى موضوع الفكر الشرقي، وبصورة خاصة الى الميتولوجيا الفينيقية التي تنطوي على ذكرٍ لصراع الآلهة ممثلين بهذين الحيوانين [56، ص. 72]. ففي اوغاريت مثلاً، كان الثور يجسّد بعلاً، اما الأسد فالاله موت. ويمكننا الافتراض بأن صراع الثور والأسد يعني نزالاً بين ملقارت وموت. ولهذا الاخير ملامح تربطه بالاله « سيت » المصري.ولا بد من الملاحظة بان الفارس المنحوت على احد الامشاط

شبيه بالانسان المصري، في حين تمتزج في هيئة الرمّاح الملامح المصرية والايجية. واذا صح افتراضنا، فمعنى ذلك اننا نرى على التحف العاجية التي صنعها الفينيقيون الاسبان مشاهد مرتبطة بسلسلة الاساطير عن ملقارت. ولو اخذنا بعين الاعتبار شعبية هذا الاله في المدن الفينيقية الاسبانية، ولا سيما في قادس، لبدا الأمر في منتهى البساطة.

تعتبر مسألة تأريخ المصنوعات مسألةً معقدةً للغاية بسبب غياب المعطيات الخارجية التي تمكننا من الحكم على تاريخها. اما موجودات المدافن التي عُثر فيها على ادوات معينة، فيمكن ان تعطينا تاريخاً تقريبياً فقط (terminus ante quem)،لان مصنوعات ثمينة من هذا النوع قد تكون خزنت طويلاً قبل وضعها في المدفن. زد على انه يجب ان نأخذ بعين الاعتبار زمن اقتنائها من قبل المالكين الترتيسيين، اصحاب المقابر التي عُثر فيها على هذه المصنوعات. من هنا يتضح السبب الكامن وراء تباين التواريخ. ويعتقد و. ف. اولبرايت، الذي يعتبر هذه الامتعة مجموعة وسيطة بين الاعمال التي عُثِر عليها في مجدو ونمرود، انها تعود الى الفترة الواقعة بين القرن العاشر والقرن الثامن ق. م. [43، ص. 347 ;45، ص. 41-42]. اما أ. غرسيا اي بيليدو فيؤرخها في القرن السابع او بعده [180، ص. 487]. ويرجعها س. موسكاتي [265، ص. 265] و د. هاردن [208، ص. 207] الى القرن السابع او السادس ق. م. ويعالج أ. بلانكو فريخيرو هذه المسألة بطريقة مختلفة، فيوزع كل الامتعة على ثلاث مجموعات، مؤرخاً الأولى تقريباً خلال الاعوام ٧٠٠ — ٦٥٠ ق. م. والثانية خلال الأعوام ٦٥٠ — ٦٠٠ ق. م. والثالثة خلال الأعوام ٦٠٠ — ٤٥٠ ق. م. معللاً هذا التقسيم بوجود اختلافات في بعض التفاصيل، كرسم عفرة الاسد مثلاً، ومحتويات المدافن، ومن خلال المقارنة باعمال حرفية فنية فينيقية اخرى [75، ص. 22-25]. ويستنتج العالم الاسباني تأريخ بداية هذه المصنوعات من افتراض ر. د. بارنيت القائل ان المهاجرين من المتروبول،الذين هربوا الى الغرب بعد سقوط صور وصيدون في ايدي الأشوريين في النصف الأول من القرن السابع ق. م.،هم الذين وضعوا اسس هذا النوع من الصناعة اليدوية الفنية في اسبانيا.

ولكن هذه التجزئة لا تجد تأكيداً لها في اسلوب الرسوم الذي يظهر وحدةً محدّدة في جميع الصور. اما بعض الاختلافات القائمة فتجد تفسيراً لها في الطرائق المختلفة بين عملٍ آخر (أنتجا في نفس الفترة) وفي اذواق الزبائن [167، ص. 109]. وما يهمنا خاصةً، هو ان الاسود المحفورة على الأمشاط التي عُثِر عليه في مدافن كروز — ديل — نغرو تشبه نظائرها على المصنوعات المماثلة التي عثر عليها في ساموس. ويرجع أ. بلانكو فريخيرو امشاط كروز — ديل — نيغرو الى المجموعة الثالثة المؤرخة طبقاً للقّايا السامو سية التي وجدت في بقايا بناء الصالة الجنوبية التي شيدت حوالي عام ٦٤٠/٦٣٠ ق. م.، وفي احدى آبار معبد ساموس التي يعود محتواها الى الفترة الواقعة ما بين عام ٧١٠ و٧٤٠ أو ٧٣٠ ق. م. من هنا يمكن اعتبار اواسط القرن السابع ق. م. التاريخ التقريبي (terminus ante quem) لجميع المصنوعات الاسبانية [167، ص. 109].

ويعتبر تحديد تأريخ انطلاقة هذه الصناعات امراً اكثر تعقيداً ويصعب اعتبار افتراض ر. د. بارنيت ومن تلاه من الكتّاب مدعّماً بالحجج والبراهين. فالاختلافات بين المصنوعات الفينيقية الغربية والشرقية كبيرة جداً. ولو كان اختلاف المصنوعات متعلقاً بنقل الورش الصورية والصيدونية الى اسبانيا، لكان من الصعب فهم التغيرات في التقنية، وجزئياً في موضوع المصنوعات، بدل العودة الى النماذج القديمة. وبالاضافة الى ذلك هناك حقيقة ثابتة، وهي ان اكثر الاعمال قدماً واكثرها بعداً عن النماذج الشرقية حسب رأي أ. بلانكو فريخيرو، قد انجزت قبل منتصف القرن السابع ق. م. وهذه الحقيقة الثابتة تجعل هذا الافتراض غير مقبول. وهكذا يستحيل اعتماد رأي و. ف. اولبرايت حول المصدر الشرقي الصرف للألواح والامشاط الكرمونية، وهو رأي يرتكز في العديد من جوانبه على هذا التاريخ. الاّ ان رأي المستشرق الاميركي حول الوضع الوسطي للمجموعة الأسبانية بين المجموعتين المجدّية والنمرودية يبدو صحيحاً على اساس المقارنة البيانية الواردة اعلاه.

ويحول عدد الامتعة الضئيل (وهو حوالي عشرين، مقابل عدة مئات في الشرق) دون استجلاء تطور الاسلوب، اما الترتيب الزمني النسبي الذي وضعه

أ. لانكو فريخيرو فيمكن اعتماده مع بعض التحفظات. وفي الوقت نفسه، وفيما يتعلق بالنقش على العاج بالذات، استمرت الصناعة اليدوية الفنّية الفينيقية شديدة المحافظة لفترة طويلة [369، ص. 110]، وليس هذا، على ما يبدو، سمة النحاتين الشرقيين فحسب، بل والغربيين ايضاً. لذلك يمكننا الافتراض انه بعد اقامة المستعمرات في اسبانيا سرعان ما ظهر حرفيو النقش على العاج، حاملين معهم التقليد الذي كان شائعاً آنذاك (خصوصاً الحفر، بدل النقش البارز) وحافظوا عليه لفترة طويلة. اما فيما يتعلق مباشرةً بتأريخ الامتعة التي وجدت على مقربةٍ من كرمونا وأسونا، فلعلها انجزت في النصف الأول من القرن السابع ق. م.، لأن مصنوعات مماثلة نقلت الى ساموس من اسبانيا في ذلك الوقت بالذات [167، ص. 110; 125].

وهكذا تكوّنت لاسبانيا مدرستها الخاصة في النقش على العاج، وهي مدرسة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالتقاليد الشرقية. وتتميز هذه المدرسة بالمقارنة مع ما عاصرها من مدارس في المتروبول بالخصائص التالية: تقليد قديم في شكل الاشياء وفي تقنية تركيبها، سكون متزايد، حتى في نقل المشاهد الديناميكية، كالنزال وتعذيب الحيوانات، وخصوصاً سكون رسوم الحيوانات الوحشية بالذات، استعمال واسع للاصطلاحات عند نقل الصور، تعبئة ضعيفة للمساحات الفارغة، لا سيما داخل محيط الجسم، حيث لا تنقل كل التفاصيل، ولا اهمها، مخالفة النسب المتبادلة للشخصيات بهدف اخضاع التركيب لشكل الشيء نفسه. ومع هذا لا يجوز ان ننفي رمزية الصور، انما ينبغي التشديد على زخرفتها المميزة. ومما يثير الانتباه غياب بعض المواضيع المستحبة في الشرق.

ونجد في المصنوعات العاجية، كما في التماثيل، الميزة النموذجية للفن الاسباني: استعمال الرسوم التخطيطية الايقونية الغربية، والتفاصيل المستقلة (المصرية، ما بين النهرين، الايجية) لتكوين التآليف الخاصة ذات المدلول المبتكر. والمقصود في الحالة التي نعالجها، هو المشاهد المرتبطة بالاساطير التي تتحدث عن ملقارت.

وتعتبر اعمال الفينيقيين اعمق ابتكارا، ومن بين هؤلاء الصاغة ونحاتو العاج الفينيقيين الاسبان. ويعترف الباحثون بمهارة الصاغة الفائقة التي تعود الى الألف الثاني ق.م.، كما تشهد على ذلك آثار بيبلوس واوغاريت. وقد أبدى الحرفيون الفينيقيون براعةً في تزيين متون تحفهم بالحبوب الذهبية التي استعملوها على نحو حاذق، مع انها لم تكن من اكتشافهم. ولم يتفوق عليهم في هذا المضمار في مرحلة لاحقة الاَّ الاترووريون واليونانيون.

وتعتبر شواهد فن الصياغة الفينيقي الاسباني لقايا مستقلة لا تندرج حتى الآن في اي سياق أثري، والامر مماثل بالنسبة للامتعة التي اكتشفت في المدافن، لا سيما في مدن الاموات القادسية العائدة الى الفترة الواقعة بين القرن الخامس والقرن الثالث ق. م. وتتسم الكنوز التي وجدت على الأراضي الترتيسية بأهمية كبيرة، وهي على ما يبدو كنوز ممثلي الأشراف المحليين المكوّنة بمعظمها من اعمال الصاغة الفينيقيين. ونذكر في مقدمة تلك الكنوز، الكنز الشهير الذي عُثر عليه في أليسيداء بالقرب من كاسيريس عام ١٩٢٠.

ويتكوّن هذا الكنز من عددٍ كبيرٍ من المصنوعات الذهبية (وقد بلغ عدد الاسطوانات الصغيرة فقط، المثبتة الى قبضة انبوبية الشكل والمزينة بسعيفة، ١٩٤)، « ومبخرتين » فضيتين، وابريق زجاجي ومسنّ [256، ص. 110-123]. ويسترعي الانتباه في تلك المجموعة الذهبية عقد وحزام وتاج واقراط وأساور تعتبر الاكثر تميّزاً، وفي الوقت نفسه اكثر آثار الصياغة روعةً، من بين ما عُثِر عليه في اليسيدا.

وتعتبر الاقراط اكثر المصنوعات اتقاناً وفرادةً حتى الآن، وقد حاول الحرفي من خلالها اظهار فنّه وحبّه للحلى الباهرة على نحوٍ فيه شيء من المغالاة. وقد عُثِر على زوجين من الحلق، يبلغ قطر كل قرط منها ٨ سنتم، وفي وسطه حلقة غير مغلقة مصنوعة من اسطوانة منحنية رقيقة جداً، تزيّنها من الداخل حبّة ذهبية صغيرة. وتنتهي الحلقة بقرصين مسطحين تزينهما كذلك، حبوب ذهبية صغيرة، وقد ثُبّتت الى احد القرصين مفصّلة المشبك التي بواسطتها كان القرط يعلّق بالأذن. ولهذه الاقراط سلاسل ذهبية تُرسل وراء صدفة

الأذن بحيث يتاح وضع تلك الحلى دونما خطر. ولهذه الاقراط من الجهة الخارجية زخرف معقّد جداً مكوّن من حزامين من الزينة. وتكوّن الازهار والأوعية والعسالج (Talles) والعصافير المتعددة والمتنوعة سطحاً متموجاً ومخرّماً، تتناوب فيه عناصر الزخرفة الدقيقة والفسحات المفتوحة بحيث ينفذ منه الهواء والضوء الى جميع تفاصيل القرط ويجعله شبيهاً بالدنتلاّ. وكل هذا مغطّى بوفرة بحبوب ذهبية كروية الشكل وملّحمة بكمية صغيرة من معدن اللحام، الامر الذي يجعلها، خلافاً للحبوب الاترورية أو اليونانية، غير قابلةٍ للانسلاخ عن سطح الصفيحة الذهبية [73، ص. 17-18; 208، ص. 213, 236، ص. 306 ورسم 367a; 256، ص. 112-113].

وللأقراط التي عثر عليها عام ١٩٦٦ على مقربة من سينيس في البرتغال، رسم تخطيطي مماثل. قطرها نفسه (٨ سنتم)، الاّ انها تميزت برونقها الاكثر تواضعاً، المكوّن من عددٍ من الازهار على شكل كؤوس، وبطريقة تثبيت المشبك ،لا على الأسطوانات، بل على كرات [194، ص. 25]. ولبعض اساليب نمنمة الأقراط الأليسيدية نظائر في الفن الفينيقي، ومن ضمنه فن جنوب اسبانيا. فعلى احدى الادوات البرونزية مثلاً (يُرجح انها إبزيم — Boucle)، والتي ابتيعت في سيلفيا، تتناوب السُعيفات وازهار اللوطس [194، ص. 38-39]. وتظهر الحبوب الذهبية بوفرة على العديد من الحلى الفينيقية. واذا كان التأليف وبعض الزينة،ليسا بالأمر الجديد على فن صناعة المجوهرات الفينيقية، فأن ارتباطهما ووفرتهما، الى جانب مهارة الفنان الفذّة، يجعلانها فريدةً من نوعها.

ان انطباع الخفّة التي توحي به الأقراط الأليسيدية، توحي به ايضاً بعض المنتجات الفينيقية المصنوعة من العاج، كصورة السفنكس في مجدّو وسامراء مثلاً، او لوحة آلهات مجدّو، او لوحة « شجرة الحياة » في ارسلان — تاش [44، ص. 136، رسم 44، ص. 176، رسم673-674 ;223 رسم على ص. 148]. ويشير أ. بلانكو فريخيرو الى ان البحث عن النموذج الأصلي لهذه

الأقراط يتطلب العودة الى الفن السوري الفينيقي [73، ص. 31](٥). ويحتمل ان يكون جمع الزخارف المختلفة في اطارٍ محتمٍ واحد قد جرى في قبرص [236، ص. 306]، مع ان شيئاً من هذا القبيل لم يلاحظ حتى الآن. وهناك اقراط تعود الى أواخر القرن السابع ــ مطلع القرن السادس ق. م. [236، ص. 306]، والى هذا التاريخ تقريباً تعود اقراط اكتشفت في سينيس، ومصنوعات برونزية عُثِر عليها في سيفيليا، اوردناها سابقاً للمقارنة [194، ص. 28 ,39].

ويستأثر بالاهتمام كذلك سواران عثر عليهما في هذا الكنز، يبلغ قطر الواحد منهما ٦٦ ملم وعرضه ٢٠ ملم. وكل سوار مصنوع من اسطوانة ذهبية سميكة وشّيت بالزخارف، ويزيّن القسم الوسطي منه صف مزدوج من اللوالب الموضوعة بين افريزين بارزين يمرّان عبر الطرفين الأعلى والاسفل للسوار، المطوّقان بدورهما بخيطٍ ذهبي مفتول. السواران غير مقفلين وعلى اطرافهما زخرفة معقدة مكوّنة من سعيفات وازاهير [73، ص. 19 ;208 ص. 213، 256 ص. 113].

وقد تأكد ان بعض عناصر الاساور يتحدّر من الشرق، من ايجيدا وقبرص. وتصادف لوالب مماثلة في قبرص في منتصف الألف الثاني ق. م. وحوالي العام الألف ق.م. كما تُرى حلزونيات (Volutes) السعيفات بكثرةٍ في تيجان الاعمدة القبرصية. ونجد تركيباً مماثلاً للسعيفة على اسطوانة ذهبية من « انكومي »، وفي نمنمة الكأس التي عُثِر عليها في « دالي » [96، رسم 25، 262، 307، 327]. وهكذا نرى ان علاقة زخرفة السوار الأليسيدي بأعمال حرفيي قبرص هي علاقة فعليّة لا شك فيها، كما أشار الى ذلك أ. غارسيا اي بيليدو منذ امدٍ بعيد [173، ص. 242].

ويعتبر الحزام الذي اعاد جمعه خ. ر. ميليدا من بين عشرات الصفائح الذهبية الصغيرة، احدى روائع فن الصياغة المكتشفة في أليسيدا. وقد رُبطت

---

(٥) قارنه كذلك بالقرط المصنوع في تل جمّة في فلسطين [96، رسم 1177].

بعض الصفائح فيما بينها بمسامير ذهبية كروية الرأس. وينقسم شريط الحزام الى ثلاثة مناطق: واحدة في الوسط ناعمة، حفر على طولها زوجان من الاثلام الرفيعة، واثنتين جانبيتين مكونتين من حقول منفصلة، يزينها مشهدان يتكرران باستمرار: انسان يصارع اسداً، وعلى الجهة اليمنى تسير عنقاء مغرب مشرعة الجناحين. وتتكوّن كبشة الحزام من ثلاث مناطق، الوسطى منها اضيق من الجانبيتين. وتتكرّر على المنطقتين الجانبيتين مشاهد صراع الإنسان والاسد، اما على الوسطى فتُشاهد سُعيفات ومعيّنات. وقد غطّيت خلفية الكبشة كلها وبعض تفاصيل الرسوم عليها بحبوبٍ ذهبية، وتزيد الخلفية المجحبة من ابراز الاشكال المحفورة على الحقول والكبشة [73، ص. 21-22; 236، ص. 305، 256 ص. 115].

والحزام، كالاقراط، لا نظائر دقيقة له. بَيْدَ ان الاشكال المزخرفة، والحبوب الوفيرة المتمازجة، واشكال السعيفات، جميعها مزايا فينيقية صرفة. ويمكننا في الواقع ملاحظة بعض التشابه في تقنية زخرفة هذا الحزام وآثار فن الصياغة الاترورية، ولا سيما الابزيم (Agrafe) الكبير من مدفن ريغوليني — غالاسّي، الذي نجد فيه ايضاً تمازج التحبيب والترصيع [268، ص. 135-136 ورسم 4]. الاّ ان الحبوب الأترورية هي دائماً اكثر تنظيماً، في حين تكوّن الحبيبات في المصنوعات الاليسيدية ارضيةً متراصة لخلفية اللوحة. وتقودنا هذه المقارنة الى القول بأن الحزام الأليسيدي هو نتاج فينيقي، اما بعض الشبه بالتقنية الاترورية فيفسّره الطابع الاستشراقي للفن الاتروري في تلك الحقبة.

ومن بين المجوهرات الاخرى التي عُثِر عليها في اليسيدا، تجدر الاشارة الى التاج المصنوع من بعض الصفائح المربعة المرتبطة فيما بينها، والذي ينتهي بمثلثين. ويزيّن كل صفيحة عقد على شكل وردة واحجار كريمة (وقد بقي على احدى الصفائح حجر من الفيروز) وخيوط وانصاف كرات مخرّمة وحبوب. وتطوّق هذه الصفائح من الأعلى والأسفل مواسير ذهبية، كانت تمر عبرها فيما مضى، خيوط تربط الصفائح فيما بينها. وقد ثُبِّتت الى المواسير السفلى حلقات صغيرة، كانت تعلق بها انواط (Pendeloques)

كرويّة بواسطة سلاسل صغيرة. وتزيّن الأطراف المثلثة للتاج خيوط، وسُعيفة، وعقدة على شكل وردة، واحجار كريمة او معجون (بقيت منه الخلية فقط)، والعديد من الحبوب [72، ص. 16-17; 208، ص. 213; 256، ص. 110-111].

ويعتبر هذا التاج الأقل أصالةً بين كل المجوهرات التي عُثِر عليها في كنز اليسيدا. ونجد بعض المجوهرات التي تشبهه في اسبانيا فقط: التاج الأيبيري في خافيا، الزخرف المرسوم على التماثيل الايبيرية ايضاً في سيرّو — دي — لوس — سانتوس، وكذلك عدد من تماثيل الطين النضيج في بويغ — ديس — مولينس، وقد صنعها حرفيّون اسبانيون — بونيّون وانعكست فيها الملامح المحلية [174، ص. 157; 256، ص. 111-112]. لذلك، ورغم بعض المؤشرات الفينيقية المميزة، والشرقية عامةً (تحبيب كامل الخلفية وبعض الخيوط، وتمازج الذهب بالاحجار الكريمة والمعجون)، لا يعتبر التاج عادةً من صنع الحرفيين الفينيقيين، بل من صنع الصاغة الترتيسيين او الأيبيريين [73، ص. 28; 256، ص. 112].

ولا تثير الملامح المحلية الاسبانية للتاج الأليسيدي (خاصةً شكله) اية شكوك، الا انه يمكن اعطاؤها تفسيراً مغايراً للتفسير الذي اعطاه خ. ر. ميليدا وأ. بلانكو فريخيرو. ويتضح ان صاحب هذا التاج، وكذلك الامتعة الاخرى التي اكتشفت في اليسيدا، لم تكن فينيقية، بل ترتيسية. ولعل الصائغ الفينيقي، بقصد الترويج لبضائعه، استعمل عن قصد،بعض خاصيّات الفن الحرفي المحلّي. اما ما نعتبره اكثر احتمالاً، فهو تأثير الاتصالات الثابتة مع العالم الترتيسي على حرفييّ قادس ومواطنيهم. ويمكننا ملاحظة تشابه في الصياغة والنقش عند اليونانيين الذين استعمروا منطقة شمال البحر الاسود،والذين تظهر في فنهم الملامح الاسقوثية. ونقصد بذلك مثلاً، الجرّة الفضيّة في « تشيرتو مليك »، والمشط الذهبي السولوخي (نسبةً الى منطقة سولوخ). والوعاء الذهبي في « كول — اربا » [4، ص. 43; 47-48; 64; 80; 6، ص. 160-161]. وقد نقع على شيء من هذا القبيل في التيجان الذهبية والفضيّة في ڤاني (كولخيدا)، وهي تيجان ذات شكل كولخيدي محلي [248، ص. 261-263]، لكنها كانت على

ما يبدو من اعمال حرفيين شرقيين، وربما ايرانيين. لذلك، نعتقد ان تمازج الملامح الفينيقية (تقنية الحبوب،وتعدد الألوان) بالملامح الاسبانية (الشكل العام،والافراط في التزيين) قد يصادف في اعمال الصاغة الفينيقيين الاسبان المرتبطين بترتيس. ولعل الاكتشافات اللاحقة تتيح لنا الاجابة بشكل ادق على السؤال المتعلق بالاصل الاتني لصانع التاج الأليسيدي. وعلى اية حال فإن كلا الافتراضين وارد. والى ان يُعثر على اعمالٍ ليست مثار جدل بأنها من صنع الصاغة الترتيسيين، فان الافتراض الثاني يبدو لنا اكثر صواباً، خصوصاً اذا اخذنا بعين الاعتبار مجمل مضمون الكنز الذي تبدو محتوياته الاخرى اقرب ما تكون فينيقية المصدر.

ويستأثر بالاهتمام عقدٌ عثر عليه في هذا الكنز أيضاً، ويتألف من ثلاثة خيوط تتدلّى منها شتى الأدوات الذهبية: اغلفة مختلفة للتمائم، تمائم على شكل هلال، كريّات، رؤوس ثعابين [73، ص. 19-21؛ 256، ص. 113-144]. ويعتبر هذا العقد أثراً مميزاً للفينيقيين: فقد كان يحلو لهم تنسيق الحلى المختلفة والخرز المصنوعة من مواد مختلفة في خيط واحد. ونجد على هذا النحو مثلاً، الخرز التي عُثِر عليها في سينيس، والمصنوعة من الذهب والعقيق اليماني والمعجون والذهب والكهرمان على شكل كريات، واسطوانات، وهلالج (Ellipses)، واقراص، وغيرها، وهي على ما يبدو ادوات متعددة لعقد واحد [194، ص. 28]. وعُثِر في قادس في وقت لاحق على حلى مماثلة، مما جعل الأصل الفينيقي لهذا العقد امراً غير مشكوك فيه.

وتعود الأدوات التي عُثِر عليها في أليسيدا الى حوالي عام ٦٠٠ ق.م. [73، ص. 50؛ 208، ص. 212]. وهي تعتبر اكثر ادوات الصياغة الأسبانية الفينيقية اصالةً في أواخر القرن السابع ومطلع القرن السادس ق.م.، الاّ انها ليست الوحيدة، لأننا نصادف بين الأدوات التي اكتشفت في ايڤورا، والعائدة الى القرن [illegible]ابع، حلى مماثلة (تاج، مثلاً). وتتميّز آثار ايڤورا بغزارة الحبوب، وان [illegible] منظمة هنا كما في المناجد (Pendentifs)، حيث تكوّن خطوطها رأ[illegible] [illegible] وزخرفاً هندسياً من تحته [71، ص. 50-57]. وهناك مصنوعات

أخرى من تلك الحقبة، اقل تنوعاً من تلك التي عثر عليها في ايڤورا، وخاصةً في اليسيدا، تشترك في الكثير من النواحي مع هذه الأخيرة. تلك هي مثلاً، حالة الأقراط التي عثر عليها في سينيس وسيتيفيليا،والتي يذكّرنا تركيبها بالأقراط الأليسيدية [194، ص. 25، 37 ورسوم 20، 21، 43]. ويختلف عقد سينيس عن ذلك الذي عُثِر عليه في اليسيدا، لكنه يتمتع بملامح مشتركة في بعض تفاصيله مع محتويات الكنز الأليسيدي. ويتكوّن هذا العقد من صفائح ذهبية عدّة (بقي منها ١٦)، سُكّت جميعها في قالب واحد. وعبر الأنبوب الموجود في الجزء العلوي من العقد، كان يمرّ فيما مضى خيط يربط تلك الصفائح بعضها ببعض، وقد كانت بدورها مخاطة أيضاً على جلد أو على قماش رقيق، وهذا ما نتبيّنه من خلال الثقوب الصغيرة الموجودة على جوانب كل صفيحة. ونجد على الصفائح، كما في زينة الحزام الأليسيدي، عنقاء مغرب وسعيفات وعِقَداً على شكل وريدات (Rosette)، صنعت جميعها في نطاق تقنية السلك [194، ص. 25-28، رسم 23]. بالتالي، ورغم ان هذه التقنية ابسط مما هي عليه في الأدوات الأليسيدية المصدر، ورغم كون العمل بحد ذاته افقر، فما من شك بأن مصدر العقد هو من ضمن الدائرة نفسها.

وعلى هذا النحو، يمكن اظهار الملامح العامة المميزة للصياغة الأسبانية الفينيقية في القرن السابع ومطلع القرن السادس ق.م.، استعمال واسع للحبوب والسك قبل كل شيء، زد على ذلك امكانية تمازج هذين النوعين من التقنية، كما هو الأمر بالنسبة للحزام الأليسيدي. ولم تكن الحبوب عامةً منظمةً اثناء هذا التمازج في اشكال خاصة (باستثناء اقراط ايڤورا)، بل كانت تغطي الأداة أو جزءاً منها ببساطٍ متصل. وكانت الحبوب تكوّن الخلفية التي تستقر عليها الأشكال المسكوكة عند اقتران الحبوب بالسك، وتخطُّ بعض تفاصيل هذه الأشكال. واستُعملت ألوان متعددة على نحو واسع، ولا سيما في القلائد؛ كما استعملت الزينة النباتية اساساً للزخرفة: سعيفات، عُقَدٌ على شكل ورود، ازهار متمازجة غالباً بطريقة فيها الكثير من الغرابة. وتُصادف احياناً صور للحيوانات والانسان، الاّ ان القائمة بمجملها تتلخص بعنقاء المغرب السائرة، وبصراع الانسان والأسد.

ويمكننا في ترصيع المجوهرات تمييز الأسلوب التالي: مركز بارز تتوزع حوله زخارف مختلفة، غالباً ما تكون في غاية التعقيد. وقوام هذا المركز في الأقراط ـــ الحلقة غير المغلقة التي ثبتت عليها زيَن مختلفة، وفي الحزام ـــ الشريط الوسطي غير المزيّن الذي تقع على جانبيه الأشرطة التي تحمل المشاهد، وفي كبشة الحزام ـــ الشريط الوسطي الضيّق المزدوج السعيفات، اما من الأعلى والأسفل،فشرائط عريضة تحمل زيناً مختلفة؛ وقد يكون هذا المركز في التاج، المحور المكوّن من الأحجار المعيّنة الشكل (بقي منها الاطارات فقط) التي صفّفت حولها العقد الوردية الشكل. ومع ذلك، وكما في المصنوعات العاجية، لا يؤدي هذا التوازن الى تماثل تام. وهكذا نرى على الحزام، ان المشاهد وضعت على المنطقتين العليا والسفلى،بحيث ترتكز ارجل الانسان والأسد في المنطقة العليا من الشريط الوسطي، اما في المنطقة السفلى فيلامسونه برؤوسهم. ويبدو ان الصانع اعتقد انه سيكون من الممكن رؤية جميع المشاهد دون ادارة الحزام. ويختلّ التماثل في التاج بسبب الزخرفة المختلفة للشرائط فوق الصفائح حاملة العقد الوردية الشكل وتحتها. وتتمثّل المرحلة الثانية من تطور فن الصياغة عند الفينيقيين الأسبان في الأدوات التي عُثِر عليها عام ١٩٥٨ على هضبة كارامبولو، قبالة سيفيليا. فقد اكتشفت هناك احدى وعشرون قطعة ذهبية تزن حوالي ثلاثة كيلوغرامات؛ بينها واقيتان للصدر (Pectorals) لهما شكل واحد، لكنهما تختلفان بمحتواهما الزخرفي. وتغطي اطراف احدى هاتين الواقيتين ثلاثة صفوف من انصاف كرات ناعمة: الأنصاف المستعملة في الخط الوسطي كبيرة، اما المستعملة في الخطين الجانبيين فاصغر. وتقسم صفوف من التضاريس والأسلاك المزدوجة الجزء المركزي الى منطقتين، وهذه الأجزاء مغطاة بعقدٍ على شكل ورود مركّبة في خلايا وملتحمة ببعضها البعض. اما في واقية الصدر الثانية، فتتعاقب صفوف انصاف الكرات الصغيرة في زخرفة حواشيها مع صفوف الدوائر المسطحة. ويتكوّن الخط المركزي من انصاف كرات كبيرة لها فجوات في اعلاها، تبرز فوق المناطق الجانبية. وتزيّن هذه الأخيرة دوائر مسطحة وحرشفات موضوعة على غرار القرميد، وهي تطابق عقَدَ الصُدرة الأولى [238، ص. 38-39].

وبين الأدوات التي وجدت في هذا الكنز، هناك قلادة تستلفت الانتباه تتكوّن من سلسلة مزدوجة، مقفلة من احدى الجهات بحلقةٍ ومشبك، وداخلة من الجهة الأخرى في كبسولة مخروطية الوجهين. وتخرج من هذه الكبسولة عدة سلاسل صغيرة دقيقة، عُلّقت عليها دلّايات على شكل اختام. وكانت الاطارات المقوّسة وجوانب « الأختام » غنيّة الزينة: اقراط مدوّرة مع كرات في الوسط، فواصل عمودية على شكل قرميد، مثلثات، علماً بأن كل هذا كان معبئاً فيما مضى بالمعجون. وعلى السطح البيضوي « للأختام » زهرة رباعية الورقات، كانت جميع تجاويف مسطحاتها ممتلئة بالمعجون [236، ص. 305؛ 328، ص. 40].

وضمّ الكنز كذلك سوارين تزينهما صفوف متتالية من انصاف الكرات، وعِقد مسطحة على شكل ورود في خلايا، الأمر الذي منح هذه الأمتعة مظهراً متموجاً. وتفصل بين صفوف انصاف الكرات والعِقد الوردية الشكل، خطوط التضاريس والخيوط [238، ص. 39].

وأخيراً نقول انه اكتشفت في هذا الكنز ١٦ صفيحة مستطيلة، مختلفة الأحجام، كانت تتمتع بزخرف متشابه التخطيط، الاّ انها تختلف في عناصر الزخرفة المستعملة فيها. فقد زيّنت مجموعة من الصفائح (من قياسين: ١١ × ٦ و٦ × ٤,٥ سنتم) بصفوفٍ من عقدٍ على شكل ورود، تتخللها انصاف كرات كانت تزيّن جوانب المستطيلات. وتقطع الصفائح بالعرض مواسير كانت تُمرَّر عبرها في حينه اشرطة لربط جميع الأجزاء فيما بينها. وللمجموعة الثانية من الصفائح القياس نفسه (٩ × ٥ سنتم)، وتزيّنها صفوف متتالية من الحلقات وانصاف الكرات، لها تجاويف في اعلاها. وتتوزع جميع عناصر الزينة على المحاور الطولية لهذه الأدوات [238، ص. 39-40]. ويبدو ان جميع تلك الحاجيات كانت اجزاءً من التيجان او الأكاليل [238، ص. 42].

وواضح ان لقايا كارامبولو تقسم الى مجموعتين، ترجعان اغلب الظن الى طقمين من الحلى. وتؤلف واقية الصدر والسواران وثماني صفائح من

قياسين مجموعةً واحدة، اما المجموعة الأخرى فمكوّنة من واقية الصدر الأخرى وقلادة،والصفائح الثمانية الباقية. وتختلف هاتان المجموعتان بعناصر الزخرفة ،ففي واحدة، عقدٌ على شكل ورود وانصاف كرات، وفي الأخرى، حرشفيات ودوائر وانصاف دوائر مقعّرة القمم. ونلاحظ كذلك استعمال المعجون الملوّن في المجموعة الأخيرة. ومع ذلك كله، نلمس وكأن هاتين المجموعتين قد نفذتا على يد فنّان واحد او في مشغل واحد [238، ص. 41].

وهكذا، تطرح من جديد مسألة المصدر الفينيقي الأسباني او الترتيسي للأمتعة التي عثر عليها في كارامبولو. فلبعضها بلا ريب شكل شرقي، كالصفائح المستطيلة التي كانت تؤلف في غابر الزمان اكليلاً او تاجاً. وكثيراً ما كانت حلى مماثلة تكلّل رؤوس التماثيل القبرصية، كالرأس المصنوع من حجر الكلس في القرن السادس أو الخامس ق.م. والذي اكتشف في مكان ما من الجزيرة، والتمثال الكبير المصنوع من الطين النضيج، العائد الى أواخر القرن السادس ـــ النصف الأول من القرن الخامس ق.م. والمكتشف في مدينة « ميرسيناكي »، والتمثال الصغير المصنوع من الطين النضيج والذي عثر عليه في « ايداليون ». وبدورها، تقلّد التيجان القبرصية، المزيّنة بعِقَدٍ وردية، الأشكال الأسيوية الغربية [96، رسم 51، 84-85؛ 150؛ 298؛ ص. 3]. وتعتبر القلادة المزينة بالدلايات، شرقية الشكل. وقد اكتشفت اشكال مماثلة في الفن الاستشراقي اليوناني والأتروري، وفي الفن القبرصي القديم، كما تعتبر عناصر الزخرفة، كالورود الرباعية الأوراق والأزهار والبراعم والحرشفيات، أسيوية المصدر [238، ص. 44-47].

وفي الآن عينه، تظهر الملامح المحلية في شكل بعض الحاجيات وزخارفها. فواقيات الصدر مثلاً، لا نظائر لها في الشرق ولا في شبه جزيرة البيرينه، لكنها تشبه بعض تمائم اوروبا الوسطى في مطلع الألف الأول ق.م. [238، ص. 42]، ولعل الكلتيّون هم الذين أتوا بها بعد اقتحامهم لأسبانيا في

النصف الأول من هذا الألف من السنين[٦]. وتبدو الأساور الذهبية الضخمة غربيةً على نحو نموذجي ولها نظائر شديدة الشبه في الجزء الغربي من شبه جزيرة البيرينه حيث تمتد بجذورها الى العصر البرونزي [238، ص. 42؛ 246، ص. 253]. الاّ ان زخرفها القائم على العقد الوردية وانصاف الكرات، شرقي الطراز.

وعلى غرار بحثنا قضية التاج الأليسيدي، لا نرى باستطاعتنا الاجابة بدقة على السؤال المتعلق بهوية صانع مجوهرات كارامبولو: أترتيسي وقع تحت وطأة الثقافة الشرقية، أم فينيقي من قادس أم من مدينة اسبانية اخرى تأثّر بالأشكال المحلية، أم استعملها عن قصد بغية ترويج منتجاته.

وتعود جميع هذه الأدوات الى القرن السادس ق.م.، وهي احدث من تلك التي عُثِر عليها في أليسيدا [238، ص. 48].

يبدو لنا ان اسلوب زخرفة المجوهرات قد تغيّر خلال تلك الفترة. فقد اختفت الحبوب الفنّية التي استعملت بكثرة في المرحلة السابقة، وكبرت مقاييسها، وتحوّلت الى انصاف كرات مقعّرة من الأعلى، وبدأ استعمالها في ذلك الوقت في قبرص، وانتشرت فيما بعد انتشاراً واسعاً عند الايبيريين [238، ص. 43-44]. لكن تغيّراً بسيطاً طرأ على التركيب، فاصبحت العقد الوردية الشكل او الدوائر تشكل سطحاً غير مستوٍ، وتوفّر في الوقت نفسه توازناً رتيباً منظماً للزخرفة. وفي عددٍ من الحالات، كما في واقيات الصدر مثلا، يظهر المركز بوضوح ويصبح التناظر الدقيق في اساس توزيع عناصر الزخرفة. وقد شهد التعدّد في الألوان استعمالاً اوسع من السابق بكثير، رغم اختفائه من ادوات احدى هاتين المجموعتين.

ويعتبر النوط (Pendeloque) الصغير، المجهول المصدر، والمحفوظ حالياً في معهد « دون جوان »، نتاجاً وسيطاً بين هاتين الحقبتين من تطور فن الصياغة في اسبانيا الجنوبية. فاستعماله السعيفات والحبوب يقرّبه من ادوات اليسيدا،

---

(٦) حول التأثير الكلتي على فن سهل بيتيس راجع [253، ص. 283-284].

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اما اطاراته المصنوعة من الميناء والأحجار، وتحشيته (Liserage) بالكريّات والبراعم، كما في الصفائح المستطيلة، فيقرّبه من منتجات كارامبولو [238، ص. 48]. ويظهر هذا النوط ان تغيّر اسلوب زخرفة المجوهرات لم يتبدّل فجأةً، بل كان نتيجة تطور.

وفي الوقت نفسه الذي تطوّر فيه فن الصياغة، شهد فن تحويل المعادن وعملية صنع الأدوات المعدنية تطوراً ملموساً. ولم تنل الأدوات الذهبية وحدها انتشاراً واسعاً في شبه جزيرة البيرينه، وانما شاركتها المصنوعات البرونزية ذلك. وتبرز من بين هذه المصنوعات الأباريق و« المجامر » التي سوف نتحدث عنها لاحقاً. ولجميع هذه الأباريق، الاجاصية الشكل تقريباً، عنق طويل على شكل مخروط ناقص؛ ومكان تثبيت المقابض بالجذع مخفي بسعيفة فينيقية الطراز؛ وغالباً ما كان وصل الجذع بالعنق الطويل مقوًّا بطوق. وتقسم هذه الأباريق عادةً الى ثلاث مجموعات: مجموعة أولى تويجها من ثلاث اوراق ولها مقبض مكوّن من ماسورتين، مجموعة ثانية تويجها اسطواني ولها مقبض من ثلاث مواسير، ومجموعة ثالثة تويجها على شكل رأس حيوان منحوت [73، ص. 3-10؛ 183، ص. 85-104؛ 186، ص. 50-80؛ 189، ص. 50-80؛ 194، ص. 28-37؛ 208، ص. 148؛ 343، ص. 127-128]. وكثيراً ما تُصادف اباريق المجموعة الأولى في العالم الفينيقي، اما الأدوات العائدة الى المجموعتين الثانية والثالثة، فلم تلاحظ الاّ في اسبانيا. وهذا ما يوجب النظر اليها باهتمامٍ اكبر.

وينتمي الى المجموعة الثانية مثلاً، الوعاء المحفوظ حالياً في نيويورك. ويعتبر هذا الوعاء بابعاده، من اكبر مصنوعات هذه المجموعة: طوله ٣٤ سنتم، واذا قسنا حتى أعلى نقطة في المقبض ترتفع فوق التويج يصبح ٣٥,٥ سنتم، اما قطره الأكبر فيبلغ ٢٧,٥ سنتم. وقد عُثر عليه في وادي بيتيس السفلي، الواقعة ربما في نيبلا المعاصرة. وشكل هذا الوعاء اجاصيّ ممطوط، له تويج مسطح وسُعيفة في مكان اتصال المقبض بالجذع؛ وعلى جانبي السعيفة جذعان منحنيان، يحملان على طرفيهما ازهار اللوطس. ويتكوّن

المقبض من ثلاثة افاعٍ ملتفّة على بعضها، وتتشعّب فوق التويج بحيث تؤلف رؤوسها وصلة المقبض بالتويج [189، ص. 50-54].

وقد يكون الوعاء المعروض في متحف « لازارو غالديانو » في مدريد مثالاً للابريق ذي التويج الحيواني الشكل. وهذا الاناء اصغر بقليل من الاناء السابق: ارتفاعه ــ ٢٤,٧ سنتم، وقطره الأكبر ــ ١١,٤ سنتم. ويعطيه عنقه الطويل، المقعر بعض الشيء، مظهراً فريداً من نوعه لا تتميّز به الآنية المماثلة في شبه جزيرة البيرينه. وعلى غرار الاناء المحفوظ في نيويورك، يتكوّن المقبض من ثلاث افاعٍ ملتفّة على بعضها، لكنها لا تتشعّب في الأعلى، بل تنتهي برأس افعى واحدة؛ اما عقب المقبض فسميك بما فيه الكفاية، بحيث يبتعد عن الجذع في الجزء الأكثر سماكةً. وقد ثبت المقبض بالجذع بسعيفة من طرازٍ يختلف بعض الشيء عن تلك التي على الابريق المعروض في نيويورك ، فلا وجود لجذوع اللوطس الجانبية، غير ان البرعم المركزي يبرز في الزخرف الحلزوني للسعيفة. وحُفرت على الجذع، وتحت الحلقة التي تفصله عن العنق، منطقة من المثلثات الحادة. ويزيّن الحفر الجزء العلوي من العنق، وتعرض هنا ازهار متناوبة وبراعم اللوطس. والتويج المنفّذ على شكل رأس أسد منقوش باتقان، يضفي على الابريق فرادةً خاصة. وهذه الميزة بالذات هي التي تميّز الاناء عما يشابهه من أوانٍ، وتفرض اسناده الى المجموعة الثالثة التي تضم الى جانبه ابريقاً واحداً فقط من منطقة ايميريتا، له رأس أيل [189، ص. 66-70؛ 236، ص. 306].

ويبرز أ. غارسيا أي بيليدو، بعد تفحّصه ودرسه الدقيق للأباريق البرونزية، الملامح التي تميّز برأيه المصنوعات الأسبانية فقط، وتشكل خاصيّة الفن الترتيسي. وينسب الى هذه الاختلافات وضع الحلقة التي تحيط بالاناء، والتي لا تقسمه الى جزئين متساويين، كما هي الحال في الأباريق الأترورية، بل تقع كقاعدة عامة في الجزء السفلي من الوعاء؛ وتويج على شكل اسطوانة مسطحة او رأس حيوان؛ مقبض على شكل افعى أو ثلاث أفاعٍ متضافرة

تطلُّ برؤوسها من فوق التويج؛ سعيفة لها « هوائي »، أي يتشعب عنها عرانيس جانبية أو جذوع لوطس [189، ص. 70-78].

ومع ذلك، ليست كل الخاصيّات المشار اليها مميّزة للمصنوعات الأسبانية فقط. وما يثير الشك هو قبل كل شيء اصالة التويج ذي الشكل الحيواني. فالوعاء الأتروري مثلاً،المحفوظ في بروكسل والمعروف جيداً، هو نسخة عن الأبريق المعدني، وتويجه له صورة اسد أيضاً [122، ص. 277]. ويوجد في قبرص إناء قديم الهندسة، اكتشف في لارنكا، تظهر في زخرفته اخيلة اباريق فينيقية برأس حيوان. ونرى أيضاً على وعاءٍ خزفي من اورشليم سعيفة لها سيقان جانبية، كما على بعض الأباريق الأسبانية [122، ص. 284-285]. ويتكرر كثيراً شكل الاسطوانة المسطحة على الأواني الفطرية التويج،والتي تصادف في اسبانيا وقرطاجة وقبرص، وقد اكتشفت مؤخراً في فينيقيا [304، ص. 20-21]. في الحقيقة، لم يعثر حتى الآن في أي مكان على إناء برونزي واحد له ملامح « اسبانية ». الاّ ان وجود متوازيات خزفية يشهد على ما يبدو ليس فقط على مصدر المواضيع « الأسبانية »، بل،وعلى اصالة هذه المواضيع.

ومن جميع الخاصّيات التي ذركها الباحث الأسباني، يبقى فقط موقع الحلقة التي تطوّق الأبريق والمقبض الثعباني الشكل. فلم يعثر حتى الآن على أي مثيل لهذا المقبض، ولعل الأمر هنا يرتبط فعلاً بخاصيّة محليّة. بَيْدَ ان هذا المقبض لم ينبثق من لا شيء، لذلك يحتمل ان يكون سلفه مقبض الابريق الذي عثر عليه في صيدون والذي كان مثّبتاً الى التويج بزهرة لوطس [122، ص. 279]. ويبدو الانتقال من طريقة تثبيت غير عادية الى طريقة أخرى، ومن شكلٍ نباتي الى شكل حيواني، امراً جائزاً تماماً.

وليس المصدر الفينيقي لشكل الابريق مدعاة شك. ولعل نموذجه الأصيل هو الابريق الانيوليتي المكتشف في بيبلوس، والمزيّن من الأعلى بزخرفةٍ على شكل شجرة تنّوب، اما جذعه فأملس [96، رسم 733]. ويحتمل انه خلال الانتقال من الخزف الى المعدن، اتخذت الحلقة مكاناً لها في المنطقة

التي تفصل بين المسطحين، المزخرف والأملس، لتثبّت وتزيّن وصل العنق بالجذع. وتعتبر بعض العناصر الزخرفية، كالسعيفات مثلاً، فينيقية أيضاً. ويبدو الزخرف المكوّن من أزهار وبراعم اللوطس المتناوبة على عنق الابريق ذي التويج الحيواني الشكل فينيقياً صرفاً. وترتدي هذه الحقيقة أهميةً كبيرةً، نظراً لاعتبار أ. غارسيا أي بيليدو مثل هذه الأباريق بالذات ترتيسية، لا فينيقية.

ورغم التأكيد على قرابة الأباريق الاسبانية من مثيلاتها الشرقية، وبالتالي التأكيد على مصدرها الفينيقي، الاّ انه يستحيل التغاضي عن ان هذه الأواني صنعت من مواد مختلفة في الجزء الغربي من منطقة البحر المتوسط. فمثل هذه الآنية صنعت في قرطاجة مثلاً، من الطين، في حين كان البرونز المادة الأساسية المستعملة في صناعة الأباريق الأسبانية [183، ص. 102](٧).

وعند الالتفات الى وفرة المعادن في جنوب اسبانيا، بما فيها البرونز، وشهرة هذا الأخير، يصبح بالامكان الافتراض ان الأباريق البرونزية صنعت في شبه جزيرة البيرينه [236، ص. 306]، وانها من آثار الفن الحرفي الاسباني الفينيقي.

يمكن اعتبار الترتيب الزمني للأباريق الأسبانية الفينيقية حالياً، ترتيباً مضبوطاً نوعاً ما. فآنية المجموعة الأولى ترقى الى القرن السابع ق.م.، اما آنية المجموعتين الأخريين فتعود الى القرن التالي [122، ص. 282؛ 189، ص. 79]. ومثل هذه الأواني ذات السعيفة كانت شائعة في فينيقيا في أواخر القرن الثامن والنصف الأول من القرن السابع ق.م.، واختفت عملياً في منتصف هذا القرن لتفسح في المجال امام اباريق مماثلة تنقصها السعيفة. وقد ظلت هذه الأباريق تنتج في الغرب، في قرطاجة واتروريا، حتى القرن السادس ق.م. ضمناً [343، ص. 128]. اما في اسبانيا فقد استمرت قائمةً حتى فترة اكثر تأخراً. وسنتناول في احاديثنا لاحقاً الأباريق ذات السعيفة التي ترقى الى النصف الثاني من الألف الأول ق.م.

---

(٧) نعرف اليوم بوجود اباريق اتروربة مصنوعة من الفضة، وبنسبة اقل من البرونز. الاّ ان الصدفة وحدها هي التي يمكن ان تفسّر هذا الواقع.

نوع آخر من الآنية المعدنية الرائجة والمصنوعة في اسبانيا الجنوبية، هو « المجامر ». بعضها كان يمكن استعماله فعلياً لحفظ الجمر، لكن معظمها كانت له وظيفة طقسية ، فكانت تستعمل عند تقديم الذبائح لتأدية القربان [275، ص. 78-81]. والمجامر عبارة عن آنية واسعة وقليلة العمق، مسطحة القعر أو مقعّرة بعض الشيء؛ لها مقبض أو مقبضان على شكل نصف دائرة تتصل به اناشيط مركّبة في حلقات تدور فيها. ميزتها البارزة هي كونها مثبّتة بدورها الى عارضة مقوّسة تتصل بالجزء الأسفل من الجانب الأفقي، او بالجذع مباشرةً بواسطة براشم (Rivets) مزيّنة من الخارج بعِقدٍ وردية الشكل (وفي احدى الحالات ـــ برؤوس الآلهة المصرية حاتور).

وتقسم هذه « المجامر » الى مجموعتين، الثانية منهما، وهي الاحدث، تعتبر بحق إيبيرية، اما الأولى التي ترقى الى القرن السابع او السادس ق. م.، فشرقية او ترتيسية وتتميز المجموعة الأولى بوجود جانب افقي عريض (لا وجود لمثل هذا الجانب في معظم المصنوعات الايبيرية)، وبمقاييس تختلف قليلاً عن مقاييس الآنية الأيبيرية: وهي اكثر عمقاً وأقل عرضاً من هذه الاخيرة، يتراوح قطرها بين ٤٠ و٤٥ سنتم، اما عمقها فبين ٣ و٥ سنتم. وقد صنعت اساساً من البرونز، باستثناء واحدة فضيّة واخرى برونزية مطلية بالفضة [119، ص. 52-84 ;275، ص. 62-66]. ويدل وجود مجامر مشابهة في مصر والنوبه خلال القرون الثامن ـــ السادس ق. م. [122، ص. 280] على المصدر الشرقي لمثل هذا الطراز من الأواني.

ولا بدَّ من اعتبار الأثفية (Trépied) البرونزية العائدة الى القرن السادس ق. م.،التي عُثِر على بقاياها في مقبرة ايبيرية بالقرب من كاستولون، من ضمن آثار فن النقش على المعادن الاسباني الجنوبي (الاسباني الفينيقي او الترتيسي). وقد وصلتنا هذه الأثفية بحالة مزرية لأنها تعرضت مع غيرها من موجودات المقبرة الى الحرق في محرقة (Bûcher). وما عرفناه من الاجزاء التي وصلتناءان الاناء كان مزيناً بثلاثة تماثيل لآلهة مثبتة الى جدرانه، تذكّر بنموذج حاتور المصرية، وبتماثيل صغيرة لأحصنة وصلنا منها تمثال

صغير بلا أرجل ولا ذنب [76، ص. 47-52 ;60-69]. وليست الزخارف التي تلبّس الأواني الطقسية فريدةً في العالم الفينيقي، كما تشهد الأثفية الخزفية التي ترقى الى الفترة نفسها تقريباً، والتي سنتحدث عنها لاحقاً.

ونجد في الزخرفة الجانبية للُجام تقليداً لنموذج الالهة نفسه، حيث نرى عشتروت باسطةَ اليدين، محمولة على اجنحة طيور، لعلها طيور البط، وفي ذلك رمز لسيطرتها على الماء والهواء، وهي طريقة تعرف باسم « برونز كارياسو » [370، ص. 728].

وتشهد جميع تلك المصنوعات البرونزية على المهارة الرفيعة التي بلغها صانعوها. وقد نقع في الشرق على النماذج الاصيلة لجميع تلك الأدوات، مما يدل على انتمائها الى الوسط الفينيقي. اما مسألة مصدر هذه الأمتعة فتبدو اكثر صعوبةً، ذلك انه ما زال يستعصي علينا في الوقت الحاضر تحديد مقاييس انتقاء الاعمال الترتيسية من المجموعة الاسبانية الجنوبية. فالاستعمال الواسع للبرونز الذي يدل، كما يبدو، على صنع هذه الادوات في اسبانيا الجنوبية، كان ممكناً اللجؤ اليه عند الفينيقيين، كما عند الترتيسيين. وتفسّر علاقات هذين الشعبين سبب وجود مصنوعات فينيقية بحتة في مدافن النبلاء الترتيسيين. وينطبق هذا الأمر على الاثفية المزيّنة بصور الآلهة. ونموذج هذه الالهة يبدو فينيقياً بوضوح، وقد اقتبس بدوره عن المصريين. ويميل بنا تشابه تخطيط هذه الاثفية بالاثفية الخزفية التي عثر عليها في البحر قبالة قادس، الى الاعتقاد بأن مصدر التحفة البرونزية من كاستولون هو فينيقي اسباني (واغلب الظن قادسي).

ولا بدَّ من ابراز ميزةٍ اخرى من مزايا النقش على المعادن الفينيقي الاسباني، وهي تخلّفها بعض الشيء، اذا ما قورنت بالمنتجات الشرقية. ولقد اشرنا الى ذلك عند الحديث عن الأباريق ذات السُعيفة. والكلام نفسه ينطبق هنا على الاثفية: وقد تخلّت مثل تلك المصنوعات الشرقية الطابع في اتروريا عن مكانتها في القرن السادس ق. م. الى المصنوعات اليونانية الطابع؛ اما في اسبانيا، فالى هذا القرن بالذات يرجع الاناء الكاستولوني [76، ص.

61-60]. واذا كانت المقابض الشبيهة بمقابض « المجامر » ترقى في الشرق الى القرون الثلاثة الثامن والسابع والسادس ق. م.، فقد استمرّ وجودها في شبه جزيرة البيرينه حتى العصر الروماني.

واحتلّ الخزف مركزاً مرموقاً في حياة الشعوب القديمة لا يقل اهميةً عن مركز المعدن. ويصعب اليوم تصوّر دور الخزف في الحياة اليومية والعبادة والفن في تلك الازمنة القديمة. ولم يشذّ الفينيقيون عن اعطاء الخزف هذا الدور المرموق. لذلك سنعالج بعض اعمال الخزفيين الفينيقيين الاسبان التي تجاوزت اطار الخزف البسيط غير المزخرف، وفي طليعتها الاثفية.

لقد عُثِر على هذه الاثفية في البحر على عمق يتراوحُ بين ٢٢ و٢٥ متراً، جنوب غرب قادس، بالقرب من المكان الذي يرى اڤيان (or. mar. 314-315) وپلينوس (IV, 120) ان هيكل عشتروت كان قائماً فيه؛ واغلب الظن ان هذا الاناء الطقسي كان على علاقةٍ بالهيكل [72، ص. 57]. لكن الاثفية لم تصلنا كاملةً، فقد فُقِدَ الجزء العلوي من العنق، والجزء السفلي من القوائم، كما اختفت كلياً احدى القوائم. مع ذلك فأن الجزء الأكبر المتبقي يتيح لنا تصوّر الأداة كاملةً، وهي بشكلها الحالي لا تعد كبيرةً ، فارتفاعها ٦٥ سنتم. وقد نفّذت هذه الاثفية باليد، لا على القرص، وثبِّتت الى الهيكل المعدني المفقود حالياً. وهي مستقيمة الجدران، مدوّرة الزوايا، اقواسها مستديرة تتسطح بخطوطٍ خفيفة ملتوية، وتتسع جدرانها من الاسفل قليلاً لتعطي الاناء شكلاً هرمياً بعض الشيء. وكانت تزيّن زواياها رسوم فتيان، ما زال احدها محفوظاً كلياً. وتظهر الرسوم على شكل نقشٍ بارز، ويقف كل واحد منها على قاعدةٍ بارزة. وقد نفّذت على الطريقة المصرية. يزيّن جدران الأثفية زخرف ناتيء غير عالٍ على شكل سعيفات تذكّر بزوارق النيل (ويزيد من هذا التشابه الخطوط العرضية المتوازية الشبيهة بالاشرطة العرضية التي تربط حِزَمَ البردى)، او باوراق النخيل المتعددة المدّقات الشبيهة بالشمس الطالعة؛ كما تزيّنها زنابق جذوعها على شكل حرف «S» وألوانها منمنمة [72، ص. 53-57].

وتشير ك. بلانكو، التي نشرت ودرست هذا الاناء، الى الطابع الفينيقي الصرف الذي تحمله جميع عناصر الزخرف، والى ضرورة البحث عن النماذج الأولية للاثفية في فينيقيا، او سوريا، او قبرص. ويمكن مصادفة بعض اجزاء الزخرفة على اعمال الحرفيين الفينيقيين المختلفة. فنرى مثلاً سعيفةً مشابهةً (لكن دون خطوط عرضية) على سوار ذهبي من تارّوس (سردينيا)، او على زينة برونزية لِلُجَيْم من قبرص [96، ص. 315 :208، جدول 104]، اما الخطوط العرضية فنصادف بعضها على رسوم زوارق البردى المصرية، وعلى الكأس الفضية الفينيقية من مدفن برنارديني في برينيست في اترووريا [72، ص 54، 208، ص. 189، رسم 54]. وتذكّر تشكيلة السعيفات والجذوع التي تتحول الى ازهار زنبق بالسعيفات المتضافرة في مجدّو، اما صور الفتيان فشبيهة بالتماثيل الحجرية، المصرية الاسلوب، والتي عثر عليها في قبرص؛ ونجد زخرفاً ناتئاً على وعائين من تونس [72، ص. 55 ;57 ;96 رسم 45 ;139، ص. 109، رسم 71]. وبما ان جميع هذه المقارنات تعود الى القرنين السابع والسادس ق. م.، فالاثفية ترقى كذلك، الى هذه الفترة بالذات.

ورغم جميع اوجه الشبه التي تتميز بها بعض عناصر الزخرفة، يمكننا اعتبار هذه التحفة فريدةً من نوعها. فقد نفّذت باتقان وزُخرفت بغنى، وتُذكّر زينتها الفخيمة بالآنية المعدنية [72، ص. 57]. ولم يعثر حتى الآن على عملٍ يحمل زخرفاً بهذا التمازج؛ ويتناسب لهذا الحدّ مع سطح الاناء. وتجدر الاشارة الى ان مثل هذه الاثفيات، في اترووريا مثلاً، لها شكل اسطواني او مخروطي [72، ص. 57]. ولعل الاناء الطقسي المثلث الشكل هو ميزة الفن الاسباني الفينيقي بالذات. وتبدو هذه الاثفية لناظرينا وكأنها ذروة ما بلغه الخزفيون الفينيقيون الاسبان (انطلاقاً مما نعرفه عن هذا الفن في الوقت الحاضر).

وبالطبع، صنع خزفيّو جنوب اسبانيا حاجيات اخرى للاغراض اليومية: صحوناً عميقة، قصاعاً، جراراً، اواني مغلقة مميزة العنق [289، ص. 8، 316 ص. 146]. وطبيعي انه لا معنى لنقلها من المتروبول، او من مستعمرات

اخرى. المهم، هو ان الانية التي عُثِر عليها في توسكانوس مثلاً، صنعت من الطين الصفحي نفسه الذي تتكوّن منه التلال المجاورة [158، ص. 1032]. وتدل وفرة هذه الآنية في المستوطنات الفينيقية على مصدرها الفينيقي الاسباني، لا الترتيسي. انها مصنوعات الحرفيين الفينيقيين الاسبان، وقد قام بزخرفتها الصنّاع الذين عملوا في المدن الصورية ومستوطنات الجنوب الاسباني.

وقد نفّذت نمنمة هذه الاواني المتعددة الالوان باسلوبٍ هندسي، وبطريقة مبسّطة للغاية. وجاءت أغلبيتها الساحقة مزخرفة بخطوطٍ متوازية، وبشرائط تلفّ سطح الاناء. وقد استعملت في زخرفتها جميع الألوان تقريباً، ما عدا الأزرق والأخضر. ومع هذا، بدت الشرائط العريضة فاتحة اللون، والضيقة منها قاتمة. فالمناطق العريضة مثلاً، عمق لونها (Ton) مائل للّون الاحمر والبنّي، اما الضّيقة فبنيّة او بنيّة غامقة، وتصادف كذلك شرائط حمراء وبيضاء. ويبدو سطح الاناء فاتح اللون اكثر من الزخرفة، حتى انه يغطي احياناً بطلاء أبيض (Engobe). وقد أتاحت أبحاث الطبقات في توسكانوس تحديد تطوّر هذا النوع من الزخرفة. وهكذا، فان الزخرف المكوّن من تعاقب الألوان الحمراء والبيضاء، او الحمراء والقاتمة، التي تحدّها ايضاً خطوط قاتمة، يرقى الى القرن الثامن ق. م.، وفي ذلك الوقت بالذات صنعت معظم الأواني التي تتمازج عليها الشرائط العريضة مع ثلاث او اربع شرائط ضيقة. وظهرت خلال القرنين السابع والسادس ق. م. النمنمة التي استعملت فيها الشبكة المطرّدة والمائلة من الخطوط القاتمة والحمراء الى جانب الشرائط العريضة [158، ص. 1033-1032; 279، ص. 80-77، 114; 316، ص. 147-146]. ويعتبر هذا الزخرف الأسهل والاكثر ملائمةً، عند تزيين الاناء المصنوع على دولاب الخزّاف.

واستعمل الخزّافون الفينيقيون الاسبان اساليب زخرفة اكثر تعقيداً، ففي طبقة القرنين السابع والسادس ق. م. في منطقة كارمونا، عثر على خزفٍ فينيقي تزيّنه دوائر متراكزة، محصورة بين الشرائط الجانبية والخطوط. واكتشف

هناك ايضاً نوع آخر من الزخرفة، لم يكن الشريط فيه مطلياً برتابة، وانما كان يشكل لوحةً مكوّنة من حقولٍ (Métopes) موشّاة برسوم ازهار منمنمة، رباعية المدقّات، تتناوب مع الشرائط الضيقة العمودية التي رسمت فيها زوايا مماسة تتجه رؤوسها الى الاسفل [288، ص. 64-66]. وتظهر حقول مماثلة، لكنها ممتدة عمودياً، على الاناء المصنوع من قشرة بيضة النعامة، وهو اناء عثر عليه في احد مدافن مدينة الاموات سيكسي [288، ص. 65 رسم 2 ;8]. وتزيّن الخطوط المتوازية والافاريز الجزء العلوي من الأواني التي اكتشفت في كارامبولو. وتصادف هناك ايضاً زخرفة مكوّنة من تراكيب مثلثات مختلفة، ومعيّنات، ومربعات شطرنج، ومربعات مخططة، وما شابه ذلك [288، ص. 62]. وقد غطت الزخرفة الهندسية المتنوعة احياناً كل سطح الاناء، كما هي مثلاً، حالة جرّة اكتشفت في مدنية اموات باريا، تعود اغلب الظن الى النصف الاول من القرن السادس ق. م. وقد جرى هنا وضع الزينة الحمراء النبيذية على كل البدن المغطى بالطلاء الابيض (Engobe). وتكوّنت هذه الزينة من شرائط معبّأة بشتى اللوالب والحنايا والمعيّنات، ومقسّمة الى مناطق مكوّنة من اربعة خطوط متوازية. وبين تلك المواضيع الهندسية يمكن مصادفة متعرّجات (Méandres) [47، ص. 345-348].

يصادف النموذج الاول من الزخرفة في مجمل العالم الفينيقي، ومن ضمنه في الغرب، في قرطاجة وموتيا وموغادور [279، ص. 80-81]. اما الزيَن الأكثر تعقيداً فينبغي البحث عن مصادرها في المنطقة الشرقية من التوسط، ولا سيما في قبرص. فخلال العصرين الهندسي الثالث، والقبرصي القديم الأول (٨٥٠ ـــ ٦٠٠ ق. م.)، تصادف في هذه الجزيرة بالذات زخرفة على شكل دوائر متراكزة. وتعود الى العصر القبرصي القديم الأول (٧٠٠ ـــ ٦٠٠ ق. م.) القصعة والجرّة اللتان يزيّنهما افريز في الجزء العلوي من الجذع، تتناوب فيه حقول عليها ازهار ثمانيّة المدقات مع زخارف ثلاثية الاخاديد (Triglyphe)، مكوّنة من قطع الخط المنكسر الواقعة فوق بعضها البعض، او من الزوايا وما يحشوها من شرائط عمودية [96، رسم 267، 341، ص 87،

103-101، 107]. ورغم ان هذه النمنمة اكثر تعقيداً من تلك التي اكتشفت في اسبانيا، فأن قرابتهما أمر مؤكد. ويمكن استجلاء علاقات الزخرف الفينيقي الاسباني بنظيره في الشرق خلال ازمنةٍ ابعد وفي مجالات اوسع. فالدوائر المتزاكزة بين الخطوط المتوازية في الجزء العلوي من الجذع مثلاً، تصادف في العصر البرونزي الوسيط (١٧٥٠ — ١٥٠٠ ق. م.) في أريحا في فلسطين [96، رسم 1157]. اما تقنية الزخرف الاحمر النبيذي على الطلاء الابيض ومواضيع الزينة بالوَشيِ الهندسي على الشرائط المحصورة بين الخطوط المتوازية فقد لوحظت في قبرص في مطلع العصر الحديدي [47، ص. 352]. وهكذا فأن التزيين بحد ذاته،لم يكن اكتشاف الخزفيين الفينيقيين الاسبان، وانما حملوه من المتروبول، وحافظوا عليه، وأورثوه للصناع المحليين. ولم يستعملوا ما عرفوا من اساليب الزينة للخزف وحسب، بل استعملوه ايضاً لبيض النعام.

تلك كانت اهم الآثار الفنّية والحرفية الفينيقية الاسبانية في النصف الاول من الألف الأول ق. م.،اي ايام كانت المدن الصورية في اسبانيا مستقلةً عن قرطاجة. قد حافظ المستوطنون الاسبان على علاقات وثيقة مع مواطنيهم في المتروبول وقبرص، مما يفسّر اتحاد العديد من اوجه الفن الفينيقي الاسباني بالفن الفينيقي على نحو عام، وقد الّف الفن الفينيقي الاسباني جزءاً من العالم الفنّي الفينيقي العام.

الى خصائص الفن الفينيقي الاسباني والصناعة الحرفية ينبغي ان تُعزى قبل كل شيء خاصية المحافظة. لهذا نجد في اعمال الفينيقيين الاسبان ملامح قديمة اختفت كلياً في الشرق،أو كادت. اما الخاصية المميزة الأخرى للفن والصناعة الحرفية الفينيقيين الاسبانيين فهي الزينة المفرطة (وهو الأمر الذي يتعلق في الواقع بآثار معروفة من الخزف المزخرف) التي لم تستبعد في الوقت نفسه الابقاء على المعنى الرمزي للرسوم. ويبدو هذا بوضوح في مصنوعات حرفيي النقش على العاج والصاغة. اما فيما يتعلق بالتراكيب، فتوازنها لا يصل ابداً تقريباً،حدّ التماثل التام والشعارات الدقيقة (L'héraldique exacte). وهذا ما يشكل ايضاً احدى خصائص هذه الشعبة من الفن الفينيقي.

ومع ذلك، لا بدَّ من ملاحظة الابتعاد عن المبادىء الموضوعة لصالح التماثل والدقةءالذي حصل في القرن السادس ق. م. وهذا ما يظهر بشكل خاص في المجوهرات المكتشفة في كارامبولو. كما تميّزت التحف الفينيقية الاسبانية ببعض الثقل والسكون اللذين لفتا نظرنا في مشاهد محفورة تمثل الانسان والحيوانات معاً، وبأعمال النحت الصغيرة ايضاً. واخيراً ينبغي القول انه من غير الممكن ان لا يؤثر فن الشعوب المحلية على اعمال الحرفيين الفينيقيين في اسبانيا، لا سيما وان هؤلاء الحرفيين صنعوا العديد من اعمالهم لمتعهديهم المحليين. وقد لوحظت آثار هذا التأثير في بعض منتجات الصاغة ونقاشي المعادن.

لقد تحدثنا لدى استعراضنا بعض الاعمال عن استحالة الفصل بدقّة في الوقت الحاضر بين منتجات الحرفيين الفينيقيين الاسبان ومنتجات الترتيسيين. ولا بدَّ هنا من التطرّق الى البيئة الفينيقية الغربية الترتيسية التي كان للفن الفينيقي فيها التأثير الحاسم. ويبدو ان مجال التأثير هذا ينبغي بسطه كذلك على المناطق الأفريقية المقابلة، من رحجون في الشرق،حتى موغادور في الجنوب، رغم ان هذا التأثير على حدٍّ ما نعلم اليوم، يظهر في اساليب الدفن والصناعة اليدوية على نحو اوضح مما يظهر في الفن [289، ص. 9 ;301، ص. 166—168 ;345 ص. 257-260]. ولو قارنّا فن اسبانيا بفن اليونان وأترووريا الاستشراقي، لوجب القول ان الأول حمل طابعاً شرقياً، وفينيقياً بالذات، اكثر وضوحاً، فالمرحلة الاستشراقية عند الاترووريين تكتمل في اواخر القرن السابع ــ مطلع القرن السادس، ويظهر التأثير الشرقي في اليونان بشكل خاص، في القرن السابع كذلك، وفي ايونيا فقط، وهي الاكثر التصاقاً بالشرق من سائر المناطق، تشعر بهذا التأثير خلال القرن السادس ق. م. [8، ص. 122-125 ;20، ص. 76-83 ;25، ص. 109-110 ;268، ص. 132-196]. اما في اسبانيا، فقد استمر الفن الفينيقي الترتيسي الموحد قائماً حتى القرن الخامس ق. م. ضمناً. ولعل العلاقة المتينة والمباشرة بين ترتيسيا والعالم الفينيقي هي التي تفسّر هذا الأمر.

لقد كان للفن الفينيقي في جنوب اسبانيا تأثير كبير على الفن الايبيري الذي بدأ بالتطور في القرن الخامس ق. م. وبامكاننا تحديد العلاقات المباشرة بين الصناعة الخزفية الفينيقية الاسبانية والأيبيرية التي نرى في المرحلة الهندسية الأولى من زخرفتها تناوب الشرائط القاتمة والفاتحة، وهو ما يميّز زخارف الأواني المبكرة من توسكانوس وهويلفا (Huelva). ويبرز هذا الطور في جنوب وجنوب شرق شبه جزيرة البيرينه بالذات، اي في مناطق تأثير الحضارة الفينيقية [158، ص. 1033 ;279، ص. 81-82 ;288، ص. 88-89]. ومن بين تماثيل باستيتانيا الحجرية، المرتبطة بالنماذج الاصيلة الشرقية، تجدر الاشارة الى رسوم الحيوانات على المصنوعات العاجية من منطقة كارمونا [75، ص. 35-40]. ولا يستوعب الفن الايبيري التأثيرات الفينيقية فحسب، بل واليونانية كذلك. ولقد ادى اقتران البواعث المحلية، التي تعود جذورها الى الحضارة المغليثية (Mégalithique) في العصر البرونزي، بالتأثيرات الخارجية الفينيقية واليونانية، الى ولادة فنٍ ايبيري خاص يتمتع بشخصية مميزة، اعطى روائع نخصّ منها مثلاً « سيدة من ايلتشا » الشهيرة،او زخرفة الخزف الايليتيستي [346، ص. 132-134].

والى حدّ كبير، تابع الفن الفينيقي الاسباني خلال القرون الثلاثة: الخامس والرابع والثالث ق. م.،خط التطور الذي تحدَّدً في الفترة السابقة، وتناول الصياغة على نحوٍ خاص. وحتى الآن لم يعثر في الواقع على ادوات يمكن مقارنتها بكنوز أليسيدا وايفورا وكارامبولو. واغلب الظن،ان هذا الأمر مرتبط بكون التحف من كنوز القرنين السابع والسادس ق. م.،صنعت لممثلي نبلاء ترتيسيا الذين ربطتهم علاقة تجارية بالفينيقيين، ولم تعد دولتهم قائمة في النصف الثاني من الألف الأول ق. م.،واختفى باختفائهم الزبون الاجتماعي للصاغة. مع ذلك فقد بقي خط التطور الاساسي على حاله.

صنع الصاغة الفينيقيون الاسبان في النصف الثاني من الألف الاول ق. م.،كما في النصف الأول منه، عقوداً متنوعة الخرز، كالعقيق اليماني المتناوب مع الخرز الزجاجي المطعّم. ونرى في احد العقود خرزاً اسطوانياً من العقيق

اليماني، وخرزتين ذهبيتين مجوّفتين، وثلاث اسطوانات ذهبية تشبه صورة الاله بيس، وصدفة تمثّل « عين اوزيريس ». وتصادف عادةً غلافات تمائم كانت على ما يبدو تُعلّق في العقد [173، ص. 264-265; 273-276].

وشهدت تقنية زخرفة المجوهرات تطورات متواصلة، فاختفت الحبوب اختفاءً شبه تام. واذا كان القرن السادس ق. م. قد تميّز بتكبير الحبوب والاقتصاد في استعمالها، فان طريقة الزخرفة هذه قلّما استعملت فيما بعد. ونجد الحبوب فقط على خاتمين متشابهين او ابزيمين، حيث تستقر في محور خطوطٍ منحنية على شكل حرف « S » تزيّن وسط تلك المصنوعات، وتتوضع صفوفها ايضاً من الجهة الداخلية للاطارات البارزة على اطراف الخاتمين [173، ص. 276]. ويستعمل هذا النوع من الزخرفة في حالاتٍ اخرى على نحوٍ محدودٍ اكثر، استخدام نقاط قليلة مثلاً لتزيين الخاتم [173، ص. 274].

وفي مقابل ذلك، نجد استعمالاً واسعاً للفتائل المعدنية والخيوط الدقيقة، إما مجدولة في ضفائر او مفتولة في لوالب على شكل حرف « S » احاديّ او مزدوج. ويزيّن مثل هذا التخريم عادةً تلك الخواتم او الأبازيم التي تحدثنا عنها للتوّ. وقد نفذّت هنا عملية الاحاطة الخارجية بالاطار على شكل زخرف مجدول يشبه ضفيرة على خيط ذهبي رفيع، اما الشريط المركزي فهو عبارة عن لوالب على شكل حرف « S » مزخرفة بالفتائل. ونواجه هنا ايضاً، نوعاً آخر من زخرفة المجوهرات هو الوُرَيدة (عقدة على شكل وردة) (Rosette). وتتكوّن هذه الوُرَيدة من ثلاثة سطوح دوّارة، موضوعة فوق بعضها البعض: سفلي مكوّن من ثمانية تويجات، وسطي من تسعة، وعلوي من عشرة، وهي تصغر من سطح لآخر، وكلها كانت مملؤة في حينه بالميناء الملوّن الذي كان يعبّىء الخلايا المعدّة خصيصاً له [173، ص. 276]. وتصادف زخارف مماثلة ايضاً في افريقيا القرطاجية [49، جدول XIX]. وكانت تزيّن واقيات الصدر من كارامبولو تشكيلة ايضاً من الوُرَيدات مع انصاف كرات. وكانت تشكيلة هذه الوُرَيدات مع الفتائل المعدنية (Filigrane) شيئاً جديداً على ما يبدو في الفن الاسباني الفينيقي،

ولعل هذا نتيجةً لتأثير قرطاجة. وكما في القرن السادس ق. م. استعمل تعدد الألوان.ويبدو من خلال بقايا المعجون على اسطوانة ذهبية من قادس، ان التويجات عليها ،كانت مطليّةً بألوان متناوبة خضراء رمادية وحمراء داكنة [173، ص. 275]. وكان هذا التباين الشديد يضفي على الامتعة نوعاً من البرقشة التي يبدو انها كانت تروق للفينيقيين.

وكانت اشكال مجوهرات الفترة الواقعة ما بين القرنين الخامس والثالث ق. م. شبيهة ايضاً بسابقاتها. ونقع مجدداً على اقراص لها شكل حلقاتٍ غير مغلقة وغير منتظمة المقطع، تميل اطرافها الى الرقة، وعلى خواتم لها شكل سجق وانواط مختلفة وتمائم.

واستعمل الحرفيون صانعو الأباريق المعدنية،الاشكالَ السابقة ايضاً. وقد زيّنت تلك الآنية، كما في السابق، سعيفة في مكان تثبيت المقبض بالجذع. وترقى الى القرن الخامس ق. م. قطعة من مقبض تحمل سعيفة، عثر عليها في مالاغا (مَلَقَة)، بسيطة النموذج، تتكوّن من زخرف حلزوني الشكل (Volute) وبرعمٍ تتفرّع عنه ١٣ ورقة. وقد جاء رسم السعيفة مع ذلك مبسَّطاً، لكن التنفيذ كان اكثر خشونةً مما كان عليه في الفترة السابقة. ويشذٌ عن المألوف وصل السعيفة بالمقبض: فقد وُصِلا بحلقةٍ محدّبة سميكة وبسيطة، وكان المقبض احادياً غير مزدوج [191، ص. 143-144]. ويبدو واضحاً في هذه الحالة ان المهمة الأولية للسعيفة،وهي تثبيت الوصل وتزينه، قد أُغفلت، وان الشكل قد بُسِّط، وتشهد النماذج الاكثر حداثةً على الانحطاط المستمر. ويستوعب الحرفيون الرسم القديم بشكله العام فقط، فيبسّطون الصورة وينفذونها بخشونة. ففي احدث الأباريق المسمّى « كانوفاس »،والذي يرقى الى العصر الروماني، تفقد السعيفة البرعم والزخرف الحلزوني الشكل، وترتفع عشر ورقات مباشرةً من الحلقة الثلاثية التي تربطها بالمقبض [194، ص. 40-44]. ويسعى اصحاب هذه الاعمال على ما يبدو، الى التمسك بالتقاليد السائدة، غير ان الفن الذي لا يسير خطى جديدة الى الأمام يتقهقر.

ولو عدنا الى فن النحت القادسي في هذه الفترة لوجدنا ان التمثال الذي يزيّن غطاء الناووس الرخامي الشبيه بالانسان، والذي عثر عليه عام ١٨٨٧ في احد مدافن مدينة الاموات پونتا ــ دي ــ ڤاكا، يشكّل بلا ريب ظاهرةً جديدةً. وما زال الناووس الوحيد في اسبانيا حتى اليوم. وقد مرَّ معنا وصف هذا التمثال في الفصل الثاني، لكونه يعطي التصوّر الافضل عن المظهر الخارجي للانسان القادسي. ان ما جعل الأمر ممكناً هو استخدام النحّات اساليب واقعية في رسم الانسان، وابتعاده عن الاصطلاحات. ويتضح لنا هذا الاسلوب خاصةً من خلال تشخيص الرأس الذي تلاحظ فيه حتى تلك التفاصيل الفردية، كشكل الجفون غير المتشابه. اما الوجه فظاهر بشكل بارز ومعالج باتقان. ولا يمكن للتفاصيل الدقيقة المنفّذة بعناية، ولملامح الوجه الهادئة، المعبّرة، الصحيحة والنبيلة ان لا تستحضر الى الذاكرة نماذج الفن اليوناني الكلاسيكي. ويظهر التأثير اليوناني ايضاً، في تصوير الأرجل والأيدي التي لا وجود لها عادة على النواويس الفينيقية [235، ص. 29].

وقد نقل الجذع بايجاز، وان كان الجلباب الذي يرتديه الميت منسوجاً بمجمله. اما سائر التفاصيل فيبدو ان الطلاء كان يبرزها. وفي الوقت نفسه، ينبغي ملاحظة اختلال التناسب الواضح في تصوير بعض اجزاء التمثال. فالرأس مفرط في الكبر بالنسبة الى الجذع، والأيدي غير متناسبة: اليسرى، الموضوعة على الصدر، اطول من اليمنى، كما ان كلتيهما قصيرتان بالنسبة الى مجمل التمثال. ويرتبط التمثال ارتباطاً وثيقاً بالناووس، لا يمكن تصوره بدونه. فتمثال مُمدّد على الغطاء الافقي، المنحني الشكل، الذي يشبه بصورة عامة شبح انسان، ويتمتع الناووس ايضاً بالشكل نفسه، وقد صنع هو وغطائه من الرخام الابيض الذي يختلف الباحثون في تحديد مصدره [173، ص. 260-262; 174، ص. 145-147; 235، ص. 27-31].

ويُصنّف الناووس القادسي بالتأكيد في اطار الفن الفينيقي. ويوضح هذا التصنيف التفاوتات التي اشرنا اليها، والشبيهة بتلك الموجودة في تمثال عشتروت البرونزي الصغير. اما في فينيقيا نفسها، وبتأثير مصري، فقد ظهرت النواويس التي تحمل على غطائها هيئة انسان منذ زمن بعيد. وقد واكب هذا

التأثير لاحقاً، تأثير يوناني ما لبث ان تغلّب على الأول [254، ص. 1478-1484]. فأثّر الفن الهلّيني خلال الفترة الواقعة ما بين القرنين الخامس والثالث ق. م. تأثيراً ملموساً على مختلف فروع الفن الفينيقي [272، ص. 329-335]. ومن ناحية اخرى، استمر الفينيقيون الاسبان في المحافظة على علاقاتهم مع المتروبول، مما جعل ظهور بعض ملامح فنّ النحت اليوناني في النحت القادسي امراً طبيعياً.

ويلاحظ أ. كوكان من خلال دراسته لهذا الناووس، ان اقتران الوجه المصقول جيداً بالجذع المرسوم بشكل غير دقيق، بدأ الأخذ به في الفن الفينيقي في فترة لم تسبق القرن الرابع ق. م. [235، ص. 31]. فقد عثر على هذا الناووس في مدافن تعود الى ما قبل العصر الروماني [167، ص. 258]. وهكذا فقد تمَّ تنفيذه في القرن الرابع او الثالث ق. م.، وان كان تحديد هذاالتاريخ بشكل ادق ما زال مستعصياً.

واذ نأسف لمعرفتنا المحدودة بفن العمارة الفينيقي الاسباني، فان بامكاننا التحدث فقط عن بعض الطرق الفنية في البناء، وعن المخطط العام لهيكل ملقارت القادسي، وهو ما تناولناه في حينه. ويعتبر تاج العمود (Chapiteau)، الذي عثر عليه في البحر جنوب غرب قادس، حيث كان يقوم فيما مضى معبد عشتروت، الشاهد المادي الوحيد على هندسة البناء الفينيقية الاسبانية. ولا نستبعد ان يكون تاج العمود هذا قد زيّن احد اعمدة معبَد الالهة الفينيقية العظيمة. وقد وضع هذا التاج من حجر كلسي، هو عبارة عن اربع حلزونيات متينة تنبثق من رسوم مثلثة: سلسلة زوايا رؤوسها الى الاسفل في الجزء العلوي، وسلسلة مماثلة رؤوسها الى الاعلى في الجزء السفلي [292، ص. 58-70]. ويكثر في الشرق وجود مثل هذا التاج « الايوني البدائي » او « الصوّاني ». وكمثالٍ على هذا التاج، نذكر زخرفة العمادات (Pilastres) في السامرة [44، ص. 162 ورسم 55]. وأوجه الشبه الشرقية تكاد لا تساعد ابداً في تأريخ التاج القادسي لأن تيجان الاعمدة المماثلة استعملت هناك منذ القدم وخلال فترة طويلة، وفي مجدّو مثلاً، يصادف الاكثر حداثةً

منها في القرن العاشر ق. م. وفي قبرص في القرن السادس ق. م. [44، ص. 162-163 ;369، ص. 113]. ويعتبر البعض تاج العمود الاسباني اكثر تطوراً من القبرصي [208، ص. 196]، بحيث يمكن نسبته ربما الى زمنٍ اكثر قدماً. فهل جرى تطوير هذا التاج على الأرض الاسبانية، ام ان تغييرات اقتبست عن البلاد الشرقية، ان الاجابة على هذا التساؤل ما زالت مستعصية. وعلى اية حال، يجدر القول ان تيجاناً اكثر قدماً، ومن طرازٍ قبرصي، كانت معروفة في شبه جزيرة البيرينه في زمنٍ اكثر تقدما، ودليلنا الى ذلك رسم على لوحٍ من العاج يعود الى القرن السابع ق. م. [193، ص. 83، رسم5].

وايجازاً لما ذكرنا عن الحضارة الفينيقية الاسبانية خلال الفترة الواقعة ما بين القرنين الخامس والثالث ق.م.، ينبغي التأكيد مرةً اخرى على عدم حدوث تغيّرات حادة بالمقارنة مع الفترة السابقة. فالطابع المحافظ يبقى احد سمات هذاالفن. وقد بقيت اساليب فنية واشكال عديدة، بينها ما اختفى في المتروبول وقرطاجة (كالسعيفة على الابريق مثلاً)(٨)، مع الميل كما العادة الى الزخرفة والزهو. ونشعر في الوقت نفسه، إن في الصياغة او في فن النحت، ببعض الخشونة والتبسيط. ويشدد الدارسون اليوم بجزمٍ اكبر على التماثل في ترتيب بعض عناصر الزخرف، الامر الذي نراه بوضوح على العديد من الاقراط والقلائد.

الى جانب الفن الفينيقي الاسباني البحت (ولعله من الادق القول، الصوري الاسباني) والصناعة اليدوية في اسبانيا، يبرز الفن القرطاجي الاسباني (او البوني الاسباني) والصناعة اليدوية. وقد عُثِر على آثاره اساساً في قابس ومنطقتها، وفي باريا، وفي جنوب شرق شبه الجزيرة.

وفي جزيرة پيتيوس، حيث بنى القرطاجيون مدينة قابس في القرن السابع ق. م.، عثر علماء الآثار والباحثون عن الكنوز على العديد من تماثيل الطين

---

(٨) مثل هذه المحافظة كانت مميزةً لاعمال فناني سردينيا الفينيقيين، الذين كانوا مرتبطين بقرطاجة ايضاً، ليس قدر ارتباطهم بالشرق، بشكل غير مباشر [264، ص. 65].

النضيج والاقنعة التي تشبه اساساً تلك التي تصادف غالباً في قرطاجة بالذات ومستعمراتها [205، ص. 66-74]. وتبرز على هذه الجزيرة ثلاثة اماكن اساسية للاكتشافات: ايسلا — پلانا، حيث اكتُشفت اقدم المصنوعات التي يتفق تأريخها جزئياً مع زمن بناء قابس؛ معبد تينّيت في مغارة آس — كويرام، ومدينة الاموات بويغس — ديس — مولينس. ولكل واحد من هذه الامكنة تماثيله المميزة.

وما عثر عليه في ايسلا — پلانا هو عبارة عن تماثيل صغيرة من الطين النضيج تصوّر رجالاً ونساءً عراة. وقد جاء الجذع بدائياً للغاية، وجل ما يمكن الاشارة اليه من تفاصيل هو العلامات الجنسية. وهذا الجذع بيضوي او على هيئة جرس، أجوف من الداخل ومصنوع على الدولاب، ومن ثم اضيفت اليه يدان متراخيتان وبعض التفاصيل. ويشكل الرأس تتمةً للجذع، ونرى هنا ايضاً بعض ملامح الوجه فقط، وقد رسمت بخطوطٍ خفيفةٍ خشنة. كما نرى على رأس بعض التماثيل قناديل [173، ص. 233-234; 266، ص. 386]. وتعتبر هذه التماثيل برأينا تماثيل طقسية، وهذا لا يتعارض مع استعمال بعضها كمصابيح. وقد لاقت تماثيل مماثلة انتشاراً واسعاً ضمن دائرة النفوذ القرطاجي. وبالاضافة الى ايسلا — پلانا، فقد عثر عليها في قرطاجة بالذات، وفي اوتيكا وسردينيا وصقلية. ويمكن استكشاف نماذجها الأولية في قرطاجة بالذات [266، ص. 383-388].

واكتشفت تمثايل صغيرة عديدة للآلهة تينّيت، بلغ عددها حوالي ٦٠٠ تمثال كامل،واكثر من الف قطعة في الكهف — المعبد « اس — كويرام ». وكانت هذه التماثيل كافة رتيبةً الى حدٍّ ما: تمثال نصفي تتوجّه قبعة مرتفعة شبيهة بالقبعة اليونانية؛ جذع ناقوسي الشكل، اهليليجي المقطع، رسمت عليه أجنحة مثناة، وعلى الصدر والقبعة زخرف يشبه زهرة اللوطس. وكانت هذه التماثيل الرمادية فيما مضى متعددة الألوان، وقد بقيت في بعض الامكنة حتى اليوم آثار طلاء،وحتى آثار تغطية بالاوراق الذهبية الرقيقة. ويتناقض الشكل الخشن للتمثال مع الوجه الادق تصميماً،الشبيه بوجوه التماثيل الاغريقية: خُصَل شعر، تحوّل متناسق من خط الجبين الى خط الأنف، فم

صغير، عينان لوزيتا الشكل مائلتان الى الاستطالة مع جفون منفّذة باتقان، وجه بيضوي الشكل يوحي تناسقه بالهدؤ والشهامة. لا ريب هنا في وجود تأثير هلّيني. ولا يسمح النموذج الرتيب، وانعدام المعلومات عن الطبقات الجيولوجية، تتبّع تطور اسلوب هذه التماثيل.

ومع ذلك، تتيح لنا المصنوعات المرافقة القول ان صنع هذه التماثيل استمرّ متواصلاً حتى العصر الروماني [173، ص. 253-254 ;174، ص. 150، ورسم 127-128].

ورغم عملية النهب التي تعرضت لها مدافن مدينة الأموات القابسية بويغ ــ ديس ــ مولينس في اواسط القرن الحالي، فقد بقيت التماثيل الفخارية الخشنة ولم تنهب لعدم استرعائها انتباه الناهبين. وتعتبر هذه التماثيل الوفيرة اكثر تنوعاً من تماثيل اس ــ كويرام. فقد كان معظم التماثيل المصنوعة من الطين النضيج تماثيل نساءٍ عارية او متدثرة، مرسومة حتى الصدر او حتى اعلى قامتها. ويصادف الباحث تماثيل رجال، ولكن على نحو اقل بكثير. ومن بين تلك التماثيل ما هو عارٍ وما هو متدثر، لكنه خلافاً لتماثيل النساء، مرسوم فقط على طول القامة. وكانت كل تلك التماثيل في حينه متعددة الألوان ومغطاة باوراق من الذهب، حتى ان بعضها كانت تزينه مجوهرات حقيقية (ومهما يكن من امر فأن شيئاً لم يبقَ منها لأنها كانت ضحية الباحثين عن الكنوز). وكانت كل التماثيل في وضعية كهنوتية صرفة. فالمرسوم منها على طول قامته يقف على رجلين متوازيتين ويمسك احياناً بيديه ادوات قربانية أوأزهار اللوطس، وغالباً ما كانت اليدان في وضعية الصلاة او اشارة اعطاء البركة.

وتقسم هذه التماثيل تبعاً لأسلوبها الى ثلاث مجموعات: المتأثرة باليونان، المتأثرة بمصر والقرطاجية الصرفة.

وتتكوّن المجموعة الأخيرة من تماثيل نساء ورجال منتصبة بطول قامتها، مختلّة التناسب وكبيرة الرؤوس (يكاد يبلغ الرأس في احدى الحالات مثلاً، ثلث مجمل الارتفاع). ورُوعيت النسب في الوجه، وفي هذا نشتم تأثير

اليونانيين، او في اقصى الحالات، اثر الاطلاع على اعمالهم. اما الجذع فهو اعتباطي اكثر. ففي المكان الذي يبدو فيه عارياً يصوّر على نحو تقريبي للغاية وبدون تفاصيل تقريباً. ويصعب في التماثيل المتدثرة استجلاء شكل الجسم تحت الثياب الكثيفة. ولا يستهان بالاهمية المعطاة للحلى التي تُصوّر بغاية الدقة حتى في التماثيل العارية. ويبدو ان الوجه والوضعية والحلى هي التي كان تشغل النحّات، وليس طريقة تصوير الجسم البشري، فتلك ميزة تميّز بها الفنان الشرقي.

ولعل قطعة الرسم التي تحمل نقشاً بارزاً للسفنكس الواقف عند « شجرة الحياة »، مثالٌ على المجموعة المصرية الاسلوب، كما يظن أ. غارسيا اي بيليدو.

وتعتبر المجموعة اليونانية الاسلوب مثيرة للاهتمام لكونها تتيح تتبّع الترتيب الزمني لهذه الادوات، ولانها تنطوي على اعمالٍ من الطراز القديم، والكلاسيكي، واليوناني. ويحتمل بالتالي ان تكون قد صنعت في اقصى الحدود خلال الفترة الواقعة بين القرنين السادس والثالث ق. م. وتحتوي هذه المجموعة المتعددة على تماثيل نساء اكثر بكثير مما تحتوي على تماثيل رجال، وعلى صور صدرية اكثر من احتوائها على صور كاملة. ويقلّد الصنّاع البونيون تقليداً دقيقاً الى حدٍّ ما، تماثيل الطين النضيج اليونانية، لا سيما صور ديميترا وكورا. وما يفضح النحات القابسي هي فقط تلك الاعتباطية والخشونة في المصنوعات والصور [173، ص. 248-252، 174، ص. 150-152، والرسوم 129-138؛ 208، ص. 200، 241، عمود 168].

ولا يستغرب التأثر بالفن اليوناني، وهو تأثر نلمسه في التماثيل التي عُثِر عليها في اس — كويرام ويويغ — ديس — مولينس، لان في هذه الامكنة بالذات اكتشفت مصنوعات هلّينية صرفة [178، ص. 182 ;178، الجزء الثاني، ص. 195-198].

ويجدر القول ان التماثيل الخزفية ظلّت تصنع في قرطاجة حتى العصر الروماني، واننا نلحظ بينها تماثيل مصرية ويونانية الأسلوب [205، ص.

69-66]. وهكذا، يبدو ان القابسيين اتبعوا نماذج العاصمة في فن نحت الاجساد. ويمكن القول ان قابس تأخرت بعض الشيء لأن فيها اعيد انتاج نماذج اكثر بدائية.

وفي قابس، كما في قرطاجة، اكتشفت في مدافن پويغ — ديس — مولينس نوعان من الاقنعة الفخارية التي تمثل وجوه نساءٍ ورجال اتسمت حيناً بالهدؤ والطيبة، واحياناً اخرى بالتصعير البشع والتشويه الى جانب تفاصيل اخرى كالثآليل والوشم [106، ص. 12]. وليس في الاقنعة القابسية اي شيء جديد اذا ما قورنت بالاقنعة القرطاجية. لكنها ولو اصبحت نادرة جداً في قرطاجة بعد القرن السادس ق. م.،وصوّرت السيلان (جنس زهر من الفصيلة القرنفلية) بعد القرن الخامس ق. م.، معيدةً بذلك انتاج النماذج الأصلية اليونانية [106، ص. 112]، فأن هذه الاقنعة البونية الطراز في مدافن قابس استمرّت لفترة اطول، مع ذلك عُثِر فيها على اقنعة يونانية الاسلوب للسيلان، الاّ انها محرّفة بعض الشيء بمقتضى الذوق البوني [241، عمود 168].

ويستعمل الخزّافون القابسيون احياناً، وعلى غرار البونيين عامةً، اشكال فن النحت في زخرفة آنيتهم. وتلك هي الحال بالنسبة للاناء الذي يحمل رسماً بارزاً لوجه بشري. انه ابريق، جذعه عبارة عن رأس بشري كروي الشكل تقريباً، وله وجه وتسريحة. ويتسم تنفيذ الأذنين والشعر بالرمزية، رغم وجود تفصيل مميّز وهو القرط الدائري في الأذن.ويظهر الشعر على شكل انخسافات دائرية على سطح الاناء. وملامح الوجه بارزة كذلك، حواجب عريضة نصف دائرية تتصل ببعضها وتتحول الى أنفٍ مستقيم مصوّر على شكل ضلع عمودي، خطان افقيان ظاهران قليلاً يمثّلان الفم، وتظهر العينان من خلال صورة الجفون البارزة والحدقة الدائرية بينها. والوجه بأجمله غير معبّر ،فلا وجود لتلك الابتسامة الغامضة التي تعطي للوجوه اليونانية القديمة تعبيراً فريداً من نوعه [173، جدول XVIII، رسم 2]. وينتمي هذا الرسم بطريقته الاعتباطية الى مجموعة الطين النضيج القرطاجية الصرفة. ويمكن العثور على اوانٍ تصويرية اخرى منفّذة بخشونة، تصوّر حيوانات من بينها الأيل [52، ص. 100].

وترتدي قشر بيض النعام، الداخلة في عداد موجودات المدافن، وذات المعنى الرمزي الواضح، اهمية كبيرة [51، ص. 29-50]. وتصادف مصنوعات مماثلة ايضاً في مدافن المستعمرين الصوريين. وقد اكتشفت اقدم الانواع (مجموعها ثلاثة نماذج) في مدينة الأموات السيكسية « لاوريت »، وهي بالتالي ترقى الى الفترة الواقعة ما بين القرنين السابع والسادس ق. م. كما توجد شواهد تشير الى العثور على عدد قليلٍ منها قبالة كارمونا [51، ص. 53، ملاحظة 2 ;285، ص. 60-61]. اما باريا وقابس فتوفران كمية ضخمة من هذه المصنوعات.

وتتميّز المنتجات المصنوعة من قشر بيض النعام بتنوعها، فاحياناً تترك البيضة كاملةً تقريباً، وتثقب ثقباً صغيراً فقط، يُفرّغ من خلاله محتواها؛ ويقطع الجزء العلوي (حتى الثلث او النصف او الثلثين) في معظم الاحيان، فيتكون بنتيجة ذلك وعاء فريد من نوعه. ويتفق احياناً (في الحقيقة هذا امر نادر في اسبانيا) ان تكسر البيضة الى قطع لا شكل محدّد لها، وتزخرف لاحقاً على غرار الاقنعة. وتجدر الاشارة الى ان الأواني المصنوعة من قشر بيض النعام كانت تزخرف ايضاً.

وتنوّعت زخرفة الأواني وغلبت عليها المواضيع النباتية، كما عولجت المواضيع الهندسية الصرفة، وان بشكل اقل، ورُسمت الحيوانات والطيور بكثيرٍ من الواقعية. وتركزت الزخرفة في حقول (métopes) على المنحوتات المحيطة بالجزء المركزي من الاناء، وكانت تعبّأ بعض الحقول بخطوطٍ عمودية او اشرطة، وتغطى احياناً بخطوط مائلة او بزينة مجدولة. وقد يحدث احياناً بأن يأخذ الزخرف الهندسي او النباتي شكل شريط غير منقطع في الجزء العلوي من الاناء على نحوٍ موازٍ للفتحة. وتبرز في المواضيع النباتية ملامح شرقية كأزهار اللوطس، والوُرَيدات الثمانيّة الاوراق والست عشرة ورقة، والسُعيفات القبرصية الطراز الحلزونية الزخارف التي تنبعث منها اوراق السعيفة. اما في الامتعة التي عثر عليها في پويغ — ديس — مولينس، فنجد استعمالاً واسعاً للسعيفة اليونانية التي تفتقر الى الزخرف الحلزوني، الاّ انها تتمتع بقاعدةٍ

نصف دائرية (احياناً افقية) تتفرع عنها ١١ أو ١٣ أو ١٥ ورقة، توضع الوسطى منها عادةً على نحو عامودي، اما باقي الورقات فتنحرف عنها كليًّا الى كلتا الجهتين. كذلك تصادف في الزخرفة مواضيع مصرية، مثل « عين اوزيريس » [50، ص. 160-46 ;52، ص. 52-99 ;117، ص. 129-133]. وجاء استعمال قشر بيض النعام كأوانٍ في المدافن، واقعة من الشرق حيث كان تصادف مثل هذه الحاجيات في مصر ما قبل الحكم الوراثي، وفي السامرة. بيد ان زخرفة الامتعة الاسبانية كانت مبتكرة، واختلفت عن بعضها قليلاً، تبعاً لمكان صنعها. فقد كانت اكثر اشراقاً في باريا، واكثر جدّيةً في قابس.

وكثيراً ما تصادف في المستعمرات القرطاجية، وفي الاماكن التي تعاطى فيها القرطاجيون التجارة، مصنوعات زجاجية، منها: الخرز المصنوع من المعجون الزجاجي المتعدد الألوان، وهو من الحلى الفينيقية المألوفة، والأواني المختلفة المتعددة الألوان ايضاً. فعلى هذا الشكل مثلاً، كانت الأواني الرخامية الشفافة ذات الشكل الانبوبي، والعنق القصير، والتويج المسطح. وكان الزخرف بمجمله متموجاً، فاتح اللون على خلفية قاتمة. ومقارنةً بالحاجيات المماثلة (المتحدرة من الشرق) المكتشفة في شمال منطقة البحر الاسود الساحلية، ينبغي ارجاع تلك الأدوات الى الفترة الواقعة ما بين القرن السادس والقرن الرابع ق. م. [174، رسم 151-152 ;364، ص. 555-559].

ويعتبر د. هاردن ان استنباط ما يسمّى بالامواس البرونزية كان بونياً اكثر منه اي نوع آخر من الفن الفينيقي [208، ص. 204]، والمقصود في الواقع هو الفؤوس النذرية التي تصادف في قرطاجة وقابس (لا في شبه جزيرة البيرينه). وهي عبارة عن ألواح برونزية عريضة، تتسع الى الاسفل على شكل بلطة حرب، مقبضها اشبه برأس عصفور طويل العنق له منقار طويل معقوف. ويزيّن سطح هذه الموسى نقش. اما النموذج القابسي فترى عليه هيئة امرأة مصرية الطراز في ثيابٍ شفافة مزيّنة بالازهار، تتجه الى الجهة اليمنى وتعزف على الدف [174، ص. 147]. واغلب الظن ان « الموسى » القابسية قديمة قِدَم معظم المصنوعات القرطاجية [208، ص. 204].

ويرقى المشط العاجي المكتشف في « الكوديا ــ دي ــ آلتشيه » جنوب شرق شبه جزيرة البيرينه، الى زمنٍ احدث، لعله أواخر القرن الثالث او حتى القرن الثاني ق. م. ويزّين هذا المشط رسم محفور لطيرين ممدودي المنقاد، يقفان وجهاً لوجه في وضع قتالي، بشكلٍ يكاد فيه منقاداهما يتلاقيان [307، ص. 368-372، رسم 8]. وتعتبر صورة هذا الزخرف اكثر خشونةً واعتباطيةً،اذا ما قورنت بزخارف المنتجات المصنوعة في كارمونا، اما تركيبها فأقل اتقاناً وجمالاً.

ولن نتوقف عند بعض الاعمال الاخرى المكتشفة في اسبانيا. فالبعض منها ليس بذي اهمية؛ كمجوهرات پويغ ــ ديس ــ مولينس البسيطة (الادوات القيّمة نهبها الباحثون عن الكنوز)، والبعض الآخر غير دقيق لدرجة يصعب معها اخذه بعين الاعتبار عند استعراض الآثار الفنيّة، وحتى الحرفية (ما عثر عليه مثلاً في قادس وكارمونا من تماثيل الطين النضيج)، وقسم ثالث، مثل جُعلان (Scarabées) پيتيوسا، ليس اسباني المصدر.

في ختام هذا الفصل لا بدَّ من الاشارة الى اوجه الاختلاف بين منتجات الحرفيين الفينيقيين الاسبان والبونيين الاسبان.

يتميّز الفن الفينيقي الاسباني بجماله وبنزعته الى الزهو والزخرفة، اما الفن البوني الاسباني فشبيه بفن قرطاجة ومستعمراتها، ويتميّز بالجدّية وجفاف الاسلوب [107، عمود 311]. وحتى من خلال مقارنة زخرفة بيض النعام في قابس وباريا، يتبيّن ان الزخرفة في هذه الاخيرة اكثر زهواً وروعةً مما في قابس، وذلك ربما لارتباط قابس بشكل اوثق ومباشر بالمتروبول. ونلمس هذا الاختلاف ايضاً في الحفر على العاج (اذا لم يكن الفرق في الزمن هو الذي يفسّر هذا الاختلاف).

اما السمة الثانية التي تميّز هذين التيارين فهي وجود مؤثرات خارجية. ففي الفن الفينيقي الاسباني، كما في فن فينيقيا، يحس المشاهد بتأثير مصر وبلاد ما بين النهرين وسوريا الشمالية. فهو فن محافظ يحتفظ بالكثير من الملامح القديمة التي كانت في طريقها الى الزوال،او كانت قد زالت كليًّا

في الشرق، ولا يقع تحت التأثير الأغريقي. وقد يُلاحظ التأثير الهلّيني بوضوح في اسلوب نحت التمثال على الناووس القادسي فقط. ويبدو لنا مع ذلك ان هذا الاسلوب ناجم عن محاولة القادسيين اعادة انتاج نموذج الصورة التي كانت شائعة في المتروبول تحت التأثير اليوناني، لا عن تأثير النحّاتين الهلّينيين على حرفيّي قادس.

ويمكن ان نلاحظ ايضاً في الفن البوني الاسباني التأثيرات الشرقية، ولا سيما المصرية. وقد اختفت تأثيرات بلاد ما بين النهرين لتحل محلها التأثيرات اليونانية التي تميز اعمال الطين النضيج وزخرفة بيض النعام. ولقد قيل في حينه، ان قابس كانت للقرطاجيين على ما يبدو، « نافذة على العالم » فريدة من نوعها، ومكان التقاءٍ بالهلينية في مظاهرها المختلفة. فلم يكن وجود العديد من اعمال الفنانين اليونانيين هناك، ومن بينهم نحّاتوا الاشكال البشرية ضرباً عبثياً، لذلك كان من الطبيعي الاّ يمر هذا دون ان يترك بصماته على اعمال الحرفيين البونيين من قابس.

وهكذا نما على الارض الاسبانية فن فينيقي وصناعة حرفية مرتبطة بالمتروبول، كان لها بدورها اثرها الكبير على التقاليد الفنيّة المحليّة.

الفصل الخامس

الكتابة

ان استنباط نظام الكتابة الذي اصبح عبر الابجدية اليونانية والآرامية اساساً للاجدية السلافية والسيريلّية والحروف اللاتينية الاوروبية الغربية والكتابة العربية والحروف المطبعية المربعة اليهودية، يعتبر احد اهم انجازات الحضارة الفينيقية واسهاماتها الكبرى في الحضارة العالمية [16، ص. 215 ;223-247].

استعمل الفينيقيون الاسبان الكتابة ذاتها، بيد ان الآثار الفينيقية الاسبانية المكتوبة لم تُعرف الا منذ فترة قريبة نسبياً. فحتّى في الباب المناسب من كتاب « أحرف النقوش السامية » الصادر في أواخر القرن التاسع عشر، لم تكن توجد اية وثيقة مكتشفة في اسبانيا عدا ذكر اساطير النقود. اما كتاب مجموع نقوش المستعمرات الغربية (ما عدا افريقيا) الصادر عام ١٩٦٧، فيحتوي على ٢٥ اثراً للنقوش الفينيقية الاسبانية [207، ص. 137-155]. وقد عُثِر بعد صدور هذا الكتاب على عددٍ من الوسوم (Marques) الفينيقية على الأواني اثناء حفريات مستوطنة توسكانوس. ونأمل من جراء التطور السريع الذي يشهده علم الآثار بازدياد معارفنا حول الكتابة الفينيقية الاسباينة في المستقبل القريب.

وبين النقوش الفينيقية، رغم قلّة عددها، يمكن فرز عدة نماذج طبقاً لتصنيفها العادي [246، ص. 137-172]: نقوش تذكارية (ICO spa 3 وربما Hispania 15)،

اهداءات (مثلاً، ICO spa 16; 10 A)، نقوش على المباني (ICO spa 10 B)، نقوش على الاختام، من ضمنها الاشارات المكتوبة على اقراص الخواتم المذهبة (ICO spa 1; 12)، احجار محفورة (Intailles) (ICO spa 6-8) ونقوش على الأواني (مثلاً، ICO spa 2; 13; 15). وقد وصلتنا آثار كتابية (Epigraphiques) من صنع احفاد المستعمرين الصوريين والقرطاجيين، الاّ ان قلة عددها والغياب الشبه التام للآثار المصنوعة في وقت واحد، ما زال يؤخرنا عن تحديد الاختلافات بين المجموعتين تحديداً دقيقاً. لذلك سوف ندرسها مجتمعةً، وسنحاول في نهاية بحثناءان نحدّد مثلاًءبعض جوانب اختلاف الكتابة القادسية فقط.

ويتميّز نحت اكثرية النقوش الفينيقية الاسبانية بتفاهته. ويسمح النزر اليسير منها فقط باستخلاص بعض استنتاجات عن التاريخ السياسي او الثقافي للفينيقيين الاسبان. اما بالنسبة لتاريخ الكتابة نفسهاءفالنقوش مهمة جداًءلانها تتيح لنا التعرّف الى تطوّر هذا الفرع المحلي من الكتابة الفينيقية.

وينبغي الاعتراف بعدم احتواء هذه النقوش على اية عناصر تأريخية المدلول، او اي ذكرٍ لاحداث او اسماء يمكن ربطها بوقائع تاريخية معروفة. فالاغلبية الساحقة منها عثر عليها خارج اي سياق محدد لحفريات اثرية، والقليل منها فقطءيرتبط بتحف فنيّة عُيِّن تاريخها علي ضوء دلائل الاسلوب (كالنقش المحفور على قاعدة تمثال عشتروت مثلاً، او الاحرف الباقية على الاحجار المحفورة). لذلك نرى الباحثين يعزون اغلبية النقوش الفينيقية الاسبانية الى هذا الوقت او ذاك، انطلاقاً من مؤشرات علم الكتابة القديمة. ويؤدي هذا الأمر بالتأكيد الى اثارة جدل حول بعض التواريخ. لذلك فأن ما يطرح في هذا الفصل يحمل في الكثير من جوانبه طابعاً مؤقتاً يمكن ان يتغيّر بنتيجة الاكتشافات الجديدةءأو من خلال خيط الترتيب الزمني لبعض الوثائق.

وتعتبر الطغراءات الثلاثة المنقوشة نقشاً بارزاً على المرساة التي عثر عليها في البحر قبالة قرطجنة المعاصرة، اقدم اثرٍ للكتابة الفينيقية. وقد تكوّنت تلك المرساة البدائية من ثقل كان يلقى بواسطة حبل في قعر البحر. ويتناسب قدم المرساة مع الشكل القديم للحروف الذي يرقى الى القرن التاسع ق.

م. وقد فكَّ خ. م. سولا ـــ سوليه رموز تلك الطغراء كنصٍّ متلاحم،فاذا به ينطوي على اسم صانع المرساة: « نون (NWN) من بيت داهون صانع المراسي » [338، ص. 28-33]. وبما ان بيت داهون هي مدينة في جنوب فلسطين [338، ص. 32]، فقد اعتبر هذا النقش مهماً جداً لجهة تاريخ علاقات اسبانيا بالشرق. غير انه من المستحيل اعتبار تلك للطغراءات آثاراً للكتابة الفينيقية الاسبانية.

ان اقدم نقشٍ نفّذه على الارجح الفينيقيون الاسبان ومعروف في الوقت الحاضر، هو تلك السطور الخمسة المحفورة على قاعدة تمثال عشتروت البرونزية المكّعبة، وقد اكتشف ذلك التمثال في كارامبولو (ICO spa 16). وكنا قد أتينا على ذكره في الفصول السابقة اكثر من مرة، اما الآن فسنرجع اليه بصفته اقدم شاهد على الكتابة الفينيقية الاسبانية. ان التحليل الباليوغرافي للنقش جعل خ. م. سولا ـــ سوليه يؤرخه في القرن الثامن ق. م.، لا بل في نصفه الاول [336، ص. 97-108]. ويعتبر د. غربيني ان هذا النقش يرقى الى فترةٍ اكثر حداثةً، الى القرن السابع ـــ السادس،او حتى الى النصف الاول من القرن السادس ق. م. فقط [171، ص. 2-6]. غير ان معظم علماء النقوش يقتفون اثر سولا ـــ سوليه ويعترفون بتأريخه في القرن الثامن ق. م. [127، ص. 333 ;207، ص. 149 ;310، ص. 145]. ولم يكن العلماء الذين عنوا بهذا النقش متأكدين من مصدره الاسباني،لانه لا يمكن استبعاد احتمال احضار هذا التمثال من الشرق [310، ص. 145]. الاّ ان علاقات الفينيقيين الاسبان الوثيقة بترتيسيا،ووجود عبادة معبد عشتروت في قادس،تفسح في المجال امام امكانية اعتبار التمثال والنقش من صنع هذه المدنية [127، ص. 335-339].

ويرقى الى القرن الثامن ـــ القرن السابع ق. م. نقش صغير مؤلف من سطرين فقط، محفور على القرص البيضوي لخاتم عثر عليه في احد المدافن القادسية. ويرافق النقش صورة يتضح انها مصرية الطراز: هيئتان صقريتان في وضعٍ قتالي يفصل بينهما انسان، وقرص مجنّح. وقد حفر على الخاتم اسم صاحبه.

لقد اسفرت الحفريات في مستوطنة توسكانوس الفينيقية،وفي مدينة الموتى السيكسية « لاوريت »،عن اكتشاف عددٍ من اثار النقوش الفينيقية التافهة المحتوى. فقد حفِر على القطع الخزفية التوسكانوسية المصدر حرف واحد، وفي حالتين فقط، ثلاثة احرف،هي اختصار لأسم المالك او الخزّاف. اما على الوعاء المرمري الذي عُثِر عليه في احد مدافن سيكسي، فقد كتبت باللون الاسود عدة كلمات فينيقية. لكن الزمن، وللأسف، افسد النقش ولم يعد بامكاننا ان نقرأ سوى حرفين فقط. ويحتمل ان تكون الاحرف الثلاثة، التي يمكن قراءتها على صحنٍ اكتشف في مدفنٍ آخر من مدينة الأموات نفسها، هي اختزال لأسم علم [ICO spa 13 ;129، ص. 283-287 ;339، ص. 106-110]. ورغم ضآلة محتوى هذه النقوش الوجيزة فأنها تبقى مهمة جداً، اذ اننا نصادف للمرة الأولى آثاراً مكتوبة مؤرخة بشكل مثبت بالقرائن الأثرية. وهكذا نجد ان معظم القطع الخزفية في توسكانوس، التي تحمل احرفاً، كانت موجودة في طبقة مطلع القرن السابع ق. م. وبعضها في طبقة اواسط هذا القرن. وترقى الى هذا القرن ايضاً، وحتى الى نصفه الأول، مدينة الاموات « لاوريت ». واذا كانت مسألة التحديد الدقيق لمكان صنع الاوعية الرخامية الرقيقة مثيرةً للجدل، فمن الواضح ان الخزف التوسكانوسي الذي يحمل نقوشاً هو خزف محلي المصدر، وطبيعي ان تكون الاحرف قد كتبت عليه هناك ايضاً.

لم يقدم جنوب شبه جزيرة البيرينه الى آثار القرن السابع ق. م. بعد اية وثائق مكتوبة وصولاً حتى القرن الثالث[1]. ومن اجل كمال نشاط هذه الفترة الزمنية ينبغي الرجوع الى الجزء الجنوبي الشرقي من شبه الجزيرة والى پيتيوس، اي الى اعمال الكتبة القرطاجيين الأسبان. ويعتبر النقش المحفور على وجه لوحةٍ برونزية صغيرة احد اقدم النقوش القرطاجية الاسبانية. وقد عثر الفلاحون المحليون عام ١٩٢٣ او ١٩٢٤ على هذه اللوحة الصغيرة

[1] مع ذلك، توجد معلومات عن نقش غير منشور من مالاغا، يرقى الى القرن السادس ق.م. [339، ص. 109-110].

في المعبد ــ المغارة اس ــ كويرام، وتحمل حروفاً فينيقية حفرت على وجهيها. ولم تقرأ هذه النقوش وتؤرخ بدقّة الاّ في مطلع الخمسينات على يد خ. ل. سولا ــ سوليه، وقد تبنّى قراءتها وتأريخها مؤلفو كتابين صدرا مؤخراً، ويتضمنان النقوش الساميّة، هم: هـ. دونّر وف. ريولينغ (KAI 72) و م. ج. غوتزو اماداسي (ICO spa 10). يرقى النقش الأول (KAI 72 A = ICO spa 10 A) الى القرن الخامس ق. م. ويذكّر هذا النقش المعماري بالمعبد الذي بناه شخص يدعى اشادر بن يشوع كنذرٍ للاله رشف ــ ملقارت.

وهناك نقش على بلاطة قبرٍ مصنوعة من حجر الكلس اكتشفت في باريا، يؤرخ دفن شخص اسمه بعل بالاس ويرقى الى أواخر القرن الخامس او القرن السادس ق. م.

ويحتمل ان يكون النقش الوجيز غير المكتمل الذي اكتشفت في الجزء السفلي من النصب التذكاري الذي عثر عليه في وسط جزيرة ايبيسا القديمة، هو الآخر، نقشاً تذكارياً. ولم يكن هذا النصب التذكاري مرتبطاً عند اكتشافه بأي مدفن، واغلب الظن انه جيء به من مكان آخر. ونقرأ في الجزء المنظور من النقش انه ــ هدية بعل شيم ابن... ونشاهد على النصب التذكاري رسم رجلٍ بقامته المديدة، يرفع يده اليمنى مفتوحة الكف اشارة بركة او دعاء. ويرقى هذا النقش الى القرن الرابع ق. م. [338، ص. 12-16، وجدول رقم ١].

وعُثِر خلال الحفريات في الكوديا ــ دي ــ ألتشيه، في الطبقة العائدة الى الفترة الواقعة ما بين القرنين الرابع والثاني، على ثلاثة رسوم دُمغت بها الجرار، تمثّل اختزالاً لاسماء اشخاص. وتكمن اهميتها المميزة، كما هي الحال بالنسبة لآثار توسكانوس و« لاوريت »، في التأريخ الأثري لتلك الوسوم، حتى ولو لم يكن هذا التأريخ دقيقاً. ونأسف لأنها لم تقدم لنا سوى سبعة احرف (ICO spa Bolli 1-2; 332, 283-285).

وقد امكن قراءة ثلاثة احرف فقط على بقايا النقش الذي اكتشف في شمال غرب اسبانيا، بالقرب من مونفورتيه (مقاطعة لوغو). وهذا النقش هو

اقدم اثرٍ للنقوش الفينيقية الاسبانية شمالاً، واقدم شاهد على وجود الفينيقيين في تلك المنطقة. وما وصلنا هو عبارة عن حجر مدوّر بقي عليه السطر الأول المكوّن من ثلاثة احرف، وحرف واحد من السطر الثاني ما تزال قراءته موضع خلاف. ولعله حجر لتحديد الحدود. ويُرجع خ. م. سولا — سوليه هذا النقش،الذي نشره منذ فترة وجيزة الى القرن الثالث ق. م.،وذلك انطلاقاً من شكل الاحرف [335، ص. 27-29].

وترقى الى القرنين الثالث والثاني ق. م. عدة نقوش قصيرة، كان لاحرفها المنقوشة على الخزف،او على الاختام،دور في تسهيل عملية تأريخها، وعدد هذه النقوش ثلاثة، يتكوّن اولها من ثلاثة احرف، وهو عبارة عن نقشٍ اثري حفر على قطعة إناء ناقوسي الشكل (ICO spa 11)؛ ونقشان آخران اكتشفا على اختام الخواتم ،واحد حُفرت على جانبه صورة امرأة عارية يونانية الملامح (قد تكون افروديت — اناديومينا او نظيرتها البونية)، اكتشف في قادس، والآخر ذُيِّلت به صورة لرأس رجلٍ ملتحٍ، اكتشف في پيتيوس (ICO spa 6; 7). وقد اتاحت دراسة هذا الرأس الاخير للمؤرخ م. د. غوتزو اماداسي اعتبار النقش اكثر تقدماً بالمقارنة مع ما اقترحه خ. م. سولا — سوليه الذي انطلق من معطيات باليوغرافية فقط [332، ص. 279-280 ;335، ص. 29-31].

ويرقى النقش الثاني المحفور على اللوحة التي اكتشفت في اس — كويرام الى حوالي عام ١٨٠ ق. م. (ICO spa 10B=KAI 72B). وهو نقش معماري يتحدث عن بناء حائط (اغلب الظن، حائط المعبد) قدّمه الكاهن عبد اشمون ابن عزبو بعل نذراً لتينّيت وهاغاد..

ويعتبر النقش الصغير المكوّن من ثلاثة اسطر والمحفور باحرفٍ صغيرة منقوشة باتقان على غطاء خاتم ذهبي ضخم بيضوي الشكل، موجباً للاهتمام من وجهاتٍ مختلفة. انه هدية من شعب قادس الى الأله ملقاشتروت. وما يلفت الانتباه هو اسم المدينة المكتوب على نحو اكثر حداثة — GDR'، وليس HGDR. كذلك لا يظهر الأله ملقاشتروت الاّ في نقوش الازمنة

المتأخرة، اي في العصرين الهلّيني والروماني. كل هذا،الى جانب اشكال الحروف القديمة،يدفع بنا الى ارجاع النقش الى النصف الثاني من القرن الثاني ق. م. (334، ص. ICO spa 12=KAI 71; 256-251).

وتعزى ايضاً الى النصف الثاني من القرن الثاني ق. م. النقوش المحفورة على قطعة من إناء يوناني عثر عليها بالقرب من غاليرا (ICO spa 2).

واكتشفت مؤخراً في اسبانيا ايضاً ثلاثة نقوش بونية حديثة محفورة على آنية، اكتشف اثنان منها في بيتيوس. ووجد في المكان الذي فيه عُثر على القطعة الثالثة، جزء من إناء مجهول، ناقوسي الشكل، انما يمكن الاعتقاد انطلاقاً من نشر صورة هذه القطعة في كتاب ل. سيري عن الحفريات في باريا وجوارها، ان جزأها الذي يحمل حرف الألف البوني الجديد،يتحدّر من احد تلك الامكنة (ICO spa Npu 1-3).
عدا هذه النقوش المؤرخة جميعاً بهذه الطريقة او تلك، يجد الباحث في اسبانيا ايضاً عدة وثائق مكتوبة لا تحديد فيها للتاريخ اطلاقاً. ولن نتطرق الى تلك النقوش ولا الى اساطير النقود.

وعند البحث في تطور الكتابة الفينيقية الاسبانية ينبغي التنبّه الى ان الاختلاف في طريقة كتابة الاحرف لا يتعلق بالزمن فقط، بل بالمادة التي حُفِر عليها النقش، وبخط الكاتب ايضاً. ونرى في نقشٍ واحد احياناً عدة طرائق لكتابة الحرف الواحد.

ولننتقل الآن الى دراسة بعض الاحرف.

حرف الألف (أ): وَرَدَ هذا الحرف في اقدم نقشٍ فينيقي اسباني (ICO spa 16 = Hispania 14) على قاعدة تمثال برونزي صغير، قصير الساق نسبياً، مائل قليلاً الى اليسار. وتبدو خطوط النقش الجانبية اكثر طولاً من الجهة اليمنى، وتمتد مسافة قصيرة عن الساق لتلتقي تحت زاوية صغيرة. وهي لا تصل في احدى الحالات الى حد الالتقاء،وان كان هو المقصود (ولو اطلناها قليلاً الى الجهة اليسرى لالتقت تحت نفس الزاوية). وقد يكتب هذا

الحرف احياناً (الحرف الثالث من السطر العلوي) على نحو يكون له ساق ثانية اقصر من الأولى، بحيث يصبح الحرف شبيهاً بمربّع، وهو امر غير مألوف على حد علمنا، في النقوش الفينيقية الاخرى.

وللألف ساق منكسرة منحنية الى اليسار في الأعلى، وعمودية في الجزء السفلي الاكبر في النقش على الخاتم البرونزي العائد الى القرن الثامن/القرن السابع ق. م. (ICO spa 1 = Hispania 1). والخطوط الجانبية قصيرة جداً من الجهة اليمنى وتمتد الى اليسار من الساق لتلتقي تحت زاوية واسعة، وان كانت لا تزال حادة. ونظراً لطريقة الكتابة من الجهة اليسرى، فأنها تلتقي لتؤلف مثلثاً.

وفي النقش Hispania 16 من توسكانوس العائد الى مطلع القرن السابع ق. م. حرف الف له ساق عمودية (انحناءته الطفيفة الى اليمين في اعلاه هي خطأ عرضي على ما يبدو) وخطوط عرضية طويلة، السفلى منها افقية، وتتجه العليا وفق زاوية من ٤٥ درجة. ويتخطى كلا الخطين الساق باتجاه اليسار، حيث يلتقيان على شكل زاوية. وفي الحرف الثاني، تتجه الساق المنكسرة من اليسار الى اليمين في الأعلى، وعمودياً في الأسفل. ويلتحم كلا الخطين العرضيين في مكان انكسار الساق بشكل يؤلف السفلي منهما خطاً مستقيماً يتجه الى الاعلى بزاوية صغيرة، اما العلوي فهو منحنٍ في بادىء الأمر، ثم يتحوّل الى خطٍ مستقيم يتجه بزاوية اكبر من الخط السفلي. ويتخطى هذاالأخير الساق قليلاً من الجهة اليسرى.

ونقع في النقش Hispania 2 (ICO spa 10A)، المحفور على صفيحة برونزية بأحرف مائلة[٢]، على طرائقِ عدة لكتابة الألف. وتَرِد الساق في حرفين على شكل ثلمةٍ مائلةٍ مثنية الاطراف، يتصل بها خطّان قصيران متوازيان يتجهان بزاوية ٤٥ درجة. وتذكّر الساق في حالة اخرى، بتلك الساق التي

(٢) نستعمل مصطلحات ج. ب. بيكهيم (J. B. Peckham): الكتابة المائلة — المنسابة او المنحنية عندما يوفر الكاتب من حركة يده؛ الكتابة الشكلية — التي تنزع لتكون مربعة أو مجزّءة في حال انقطاع الاداة عن المادة التي تكتب عليها [283، ص. 3].

كانت مألوفةً في القرن السابع ق. م. لكنها لم تكن منكسرة، بل منحنية. وتمر عبرها في الجزء العلوي المنحني خطوط عرضية متوازية على يمين الساق ومقوّسة (العليا اكثر تقوّساً من السفلى) من الجهة اليسرى حيث تتصل ببعضها. وفي نهاية النقش، نجد في السطر الأخير حرفاً تشكّل الساق فيه خطاً مستقيماً موضوعاً بشكل منحنٍ، ويتجه بزاوية قدرها حوالي ٧٥ درجة، اما الخطوط العرضية فمتوازية ولا تتخطى يسار الساق. ويستبق هذا الشكل من الألف في نواحٍ كثيرة الكتابة المتأخرة لهذا الحرف في النقوش الفينيقية الاسبانية، وان كان يصادف قبلئذٍ في اماكن اخرى (من ضمنها قرطاجة).

وللألف في جزءٍ من النقش Hispania 11) ICO spa 14) شكل في غاية التعقيد، فَرَضه حسب رأي خ. م. سولا ـــ سوليه، شكل الحجر بالذات [335، ص. 29]. وقد ادّى الشكل الدائري للحجر الى كتابةٍ تنحني خطوطها في كل عناصر الحرف. وتمر الخطوط العرضية عبر الساق لتلتوي عند اطرافها، بحيث تكاد تلتصق بعضها ببعض.

والنقش Hispania 12 (ICO spa 7) الذي يرقى الى القرن الثالث/القرن الثاني ق. م. منفّذ على حجر محفور (Intaille). وشكل الألف هنا قديم جداً مع ان شكل الاحرف الاخرى اكثر حداثةً. ساقه منحنية، وتلتقي خطوطه العرضية على شكل زاوية، بعيداً عن يسار الساق، وتمتد قليلاً لجهة اليمين. وتذكّر كتابة هذا الحرف باحدى طرق كتابته في Hispania 2.

ويرقى الى ذلك الوقت ايضاً الألف المحفور على الوعاء الناقوسي الشكل (ICO spa 11=Hispania 8). ولهذا الألف ساق مستقيمة منحنية الى اليسار وخطان عرضيّان متوازيان، ينتهي العلوي منهما بعيداً الى اليسار؛ ويشكل كلاهما مع الساق زاوية قائمة. وكثيراً ما نعثر على مثل هذا الألف في فينيقيا وفي قرطاجة على السواء.

وقد لوحظ حرف مماثل ايضاً في النقش Hispania 5 (ICO spa 10B) على الجهة الثانية من اللوحة البرونزية التي اكتشفت في پيتيوس. وقد اعتبر الخط

عن يسار الساق، في هذه المرة فقط، خطاً مستقلاً، واتصل بالساق بين نقطتي اتصال الخطين المتوازيين. الى جانب هذا يصادف شكل آخر للألف: ساق منحنية قليلاً، لها في اسفلها انشوطة صغيرة، وينطلق من نقطة اتصال طرف الانشوطة مع الساق خط عرضي سفلّي بزاوية قائمة، والخط العرضي العلوي موازٍ للسفلي ويتقاطع مع الساق بشكل يكون فيه من الناحية اليسرى، اقصر مما هو عليه من الناحية اليمنى، وينتهي من الجهة اليمنى بخطٍ اضافي موازٍ للساق. ويصادف في قرطاجة حرف مماثل انما بدون انشوطة، اما الانشوطة فتلاحظ في النقش المكتشف في منطقة « الحُفرا » [283، جدول XVI; 1; 5].

ويعتبر الحرف المحفور على الخاتم الذهبي الذي اكتشف في قادس والعائد الى القرن الثاني ق. م. غايةً في الغرابة (Hispania 10= ICO spa 12). فساقه مستقيمة تقريباً (منحنية قليلاً في الجزء العلوي)، يتصل برأسها على نحو زاوية قائمة تقريباً، خط عرضي قصير وحيد يتجه نحو اليمين. ويعتبر خ. م. سولا ــ سوليه شكل الحرف هذا شكلاً انتقالياً من اشكال الحرف البوني الحديث [334، ص. 254]. ويظهر هنا وكأنه نصف حرف بوني جديد.

ويبدو الألف المحفور على قعر الاناء الذي اكتشف في غاليرا، والعائد الى الفترة الزمنية نفسها، مألوفاً اكثر (Hispania 4= ICO spa 2). فهو يذكّر بالحرف المحفور على الوعاء الناقوسي الشكل الذي يرقى الى القرن الثالث ــ القرن الثاني ق. م. كما يذكّر باحد اشكال هذا الحرف الموجود في نقش Hispania 5: ساق مستقيمة مائلة (من اليسار نحو اليمين)، يمر عبرها الخط العرضي العلوي وهو اطول من الجهة اليسرى، ويتفرّع عنها الخط السفلي الموازي للعلوي، ويشكل كلا الخطين زاويةً حادة مع الساق.

اخيراً، وقع الباحثون في اسبانيا على حرف ألف بوني حديث ونموذجي، محفور على إناء اكتشف في باريا (ICO spa Npu I): صليب مائل مع نقطة تقاطع في الجزء العلوي، وينطلق من رأس كل عارضة خط موازٍ للعارضة

الاخرى، ويتخطى الخط الايمن عارضته، اما الايسر فيبتدىء بعد تراجعه قليلاً عن رأس العارضة.

وهكذا، نرى في سياق تبدل هذا الحرف ان الساق المنحنية في البدء (المنكسرة ــ في احد الحالات) استقامت فيما بعد، كقاعدة عامة. ونقع على الدلائل الأولى لهذه الاستقامة في نقش من توسكانوس يرقى الى مطلع القرن السابع ق. م. ولا تصبح الساق المستقيمة مألوفةً الاّ ابتداءً من القرن الثالث، رغم عدم اختفاء الساق المنحنية، كما هي الحال في النقشين المكتشفين في پيتيوس (Hispania 8; 12) واللذين يرجعان الى الفترة نفسها تقريباً. وتصادف طريقتا كتابة الألف في نقش Hispania 2 المكتشف على الجزيرة نفسها،والمحفور في القرن الخامس ق. م. وكانت الخطوط العرضية في البدء منفرجة على شكل زاوية، واصبحت ابتداءً من القرن الخامس متوازيةً، رغم ما نلاحظه من زاوية في نقش Hispania 12 العائد الى القرن الثالث ــ القرن الثاني،والذي يتميّز بالشكل القديم لكتابة حرف الألف. ويتناسب تطور كتابة حرف الألف عامةً مع التطور العام للكتابة الفينيقية [283، ص. 132-134; 197-199 وجداول XVII-XII]. وقد وُجد رسمان طريفان لهذا الحرف ليس لهما نظائر دقيقة حتى الآن: الأول، على شكل مربع، في نقش Hispania 14 الذي يعود الى القرن الثامن ق. م.، والثاني له خط عرضي واحد، في نقش Hispania 10. وبما ان كتابة هذا الحرف في الحالة الأولى جاءت وحيدة والى جانب كتابة مألوفة له، لذلك يعتقد ان في الامر خطأً ارتكبه النقاش. والنقش الثاني مصدره قادس حيث لم يُعثر حتى الآن على نقوش بونية حديثة، ولذلك لا يسعنا الحديث عن مدى تتطابق طريقة كتابة هذا الحرف على الخاتم الذي اكتشف في قادس، مع طريقة كتابته المحلية. وتفسح النقود في المجال امام امكانيات المقارنة، لكننا سنعود الى هذه المعلومات لاحقاً.

حرف الباء (ب):لهذا الحرف عدة نماذج حفرت على قاعدة برونزية ترقى الى القرن الثامن ق. م. (Hispania 14 = ICO spa 16). ويتألف رأسه من خطين

عرضيين يتصلان اما بزاوية على شكل مثلث، او يتحول احدهما الى الاخر على شكل قوس، ويكون السفلي منهما عادةً افقيا، لكنه يتجه احياناً نحو الاسفل. والساق عمودية او تميل قليلاً نحو اليسار، بحيث يكون الحرف بمجمله مائلاً باتجاهٍ يخالف اتجاه عقارب الساعة. وتتكوّن قائمة الحرف من خطٍ يرتبط بالساق بزاوية او بوصلٍ متناسق. وعلى هذا النحو نصادف في نقش القرن الثامن ق. م. كتابة مزوّاة او مكوّرة.

ويتضح لنا ان للباء شكلاً مائلاً في النقش العائد الى القرن الثامن والقرن التاسع ق. م. والمحفور على الخاتم البرونزي الذي اكتشف في قادس (Hispania 1= ICO spa 1). ويتكوّن هذا الشكل في الواقع من ثلاثة خطوط تتصل بزاوية تذكرنا بقوسٍ معقوفة، قائمة الزوايا ومنحنية قليلاً الى اليسار.

وتبدو كتابة هذا الحرف مزوّاة بشكل واضح في نقوش توسكانوس التي ترقى الى مطلع القرن السابع ق. م: رأس على شكل مثلث حاد له خط سفلي افقي، وساق عمودية تتصل بها بزاوية منفرجة عند طرفها قائمة موازية تقريباً للخط العلوي للرأس.

اما في النقش المحفور على الوعاء المرمري، الذي اكتشف في مدينة الأموات « لاوريت »، والذي يرقى الى الفترة نفسها تقريباً (ICO spa 13)، فيبدو الحرف مكوّراً بشكل واضح: رأس مدوّر، وساق عمودية تتحول بليونةٍ الى قائمة.

وفي النقش Hispania 5 (ICO spa 10A) العائد الى القرن الخامس ق. م. تبدو الباء مكوّرة بمجملها وموجهة ضد اتجاه عقارب الساعة. رأس يتطلع الى اسفل، لا تتصل خطوطه العرضية دائماً بالساق (لا يصل الخط السفلي في احدى الحالات حتى الساق، وفي حالةٍ اخرى — الخط العلوي)، وساق منحنية تتحول بانسجام الى قائمة. ويبدو هذا التحول في بعض الحالات اكثر وضوحاً، رغم عدم اخلاله بالانطباع العام لليونة.

وتلاحظ أيضاً على النصب التذكاري المكتشف في باريا، والعائد الى أواخر القرن الخامس، او القرن السادس ق. م. (Hispania 3=ICO spa 3)

طرائق مختلفة لكتابة هذا الحرف. ويبدو الخط العلوي للرأس في احدى الحالات خطاً شديد الانحناء، يتصل بزاوية بالخط السفلي الذي يتجه قليلاً الى الاسفل، اما الساق العمودية فتتحول الى قائمة قصيرة. ويكوّن الرأس في نموذج آخر نصف دائرة وتتصل الساق الطويلة العمودية بالقائمة بزاوية منفرجة واسعة. وهناك اخيراً نموذج شبيه بالاول، الا ان الخط السفلي للرأس منحنٍ، والرأس كله اضيق مما كان عليه في الحالة الأولى. ولا بد من الاشارة الى مصادفة الطرائق الثلاث لكتابة هذا الحرف في النقوش البونية العائدة الى ذلك الوقت [275، جدول XII 2-1].

وفي نقش Hispania 15 المكتشف حديثاً، والعائد الى القرن الرابع ق. م. تبدو الباء مكوّرة،وتجد فيها زاوية واحدة فقط،عند وصل الخط العلوي للرأس بقمة الساق. ويتصل الخطان العلوي والسفلي للرأس ببعضهما البعض اتصالاً منسجماً. ويتجه كلا الخطين نحو الاسفل، لكن زاوية العلوي، بطبيعة الحال، اكثر انحداراً. وتلتوي الساق بشكل غير ظاهر لتتحول الى قائمةٍ قصيرة جداً، لدرجة يصعب معها تمييزها، وبحيث ان الباء تذكّر في كثير من النواحي بحرف الراش (الراء Ṙ المترجم) أو الداليت (الدال D — المترجم).

وقد ادّى انحناء الحجر في المقطع Hispania 11 (ICO spa 14)، كما في حالة الحرف السابق، الى تقوّس غير عادي في جميع عناصر الباء (ب) تذكّر خطوطه برقم « تسعة » 9 الراهن.

وللباء المنقوشة على حجر محفور يعود الى القرن الثالث — القرن الرابع ق. م. (Hispania 12 = ICO spa 7) شكل مائل واضح كالذي يصادف على ورق البردي العائدة الى القرن الخامس — القرن الرابع ق. م، او في النقوش البونية الحديثة [283، جدول 6; XVII; XI; X، وربما 7]. ويكوّن اندماج الساق بالقائمة خطاً منحنياً ينتهي بشدّة الى الاعلى. ويمتزج خطّا الرأس فعلياً، في بقعة ممطوطة حادة الطرف. وما من شك في انحناء هذه الكتابة.

وتتمتع الباء بمظهر مختلف، شكلي واضح، منقوش على وعاء ناقوسي

الشكل يعود الى الفترة نفسها (Hispania 8 = ICO spa 11). ويؤلف الرأس مربعاً منحرفاً يتصل خطه العرضي بالعلوي بوصلٍ مكوّر، وبالسفلي بزاوية حادة. وتتحول الساق العمودية بانسجام الى قائمة طويلة تتجه يساراً بزاوية قدرها حوالي ٤٥ درجة.

وتلاحظ الباء ايضاً على احجار محفورة من قادس ترقى الى القرون ذاتها (ICO spa 6). وهي تميل قليلاً الى اليسار، ويشكل رأسها نصف دائرة خطّاها العلوي والسفلي متوازيان ويتصلان بالساق بزاوية قائمة تقريباً. الساق قصيرة، وتتفرّع عنها بزاوية اكبر قليلاً من زاوية قائمة، والقائمة طويلة حادة الطرف. اما المظهر العام للحرف فشكلي ومزّوى. وتجدر الاشارة الى عدم وجود كتابات مماثلة دقيقة لمثل هذه الكتابة في ذلك الوقت، لا في المتروبول ولا في الغرب، رغم وجود هذا النموذج اجمالاً في سياق تطوّر الكتابة الفينيقية والبونية.

وتعتبر طرائق كتابة الباء في النقش البيتيوسي Hispania 5 (ICO spa 10B) الذي يرقى الى حوالي عام ١٨٠ ق. م. مألوفةً اكثر. فالرأس الحاد يقترن بخط الساق المنحني دون اي ابرازٍ للقائمة، كما يصادف عادةً في النقوش البونية المتزامنة [283، جدول XIV ;1 ;3]. وثمة نموذج آخر مائل يظهر بشكل ابسط فقط الخط العمودي للساق، كما يظهر بطريقة اكثر تعقيداً الخط العلوي الذي يتجه يساراً الى الاسفل،ويتصل بالساق بزاوية حادة. وتتطابق هذه الكتابة مع الكتابة البونية الحديثة،الأكثر حداثة [283، جدول XVII ,8-6].

اخيراً، هناك شكل مزوّى اصيل، لا مثائل دقيقة له، يصادف مجدداً في نقش Hispania 10 (ICO spa 12) العائد الى النصف الثاني من القرن الثاني ق. م.،والذي اكتشف في قادس. ويتكوّن رأس الباء في هذا النقش من خطين، افقي وعمودي، يتصلان بزاوية قائمة بحيث يظهر الرأس وكأنه مربع غابت عنه الجهة العليا. كذلك يتصل الخط الافقي بزاوية قائمة بالساق. وتقع قمة الساق والخط العمودي على مستوى واحد. وتتفرع قائمة طويلة

عن الطرف السفلي للساق القصيرة العمودية،وبزاوية تزيد قليلاً عن ٢٧٠ درجة.

وتلخيصاً للنتائج يمكن القول ان كلا النموذجين، الشكلي والمائل، لكتابة الباء يصادفان في النقوش الفينيقية الاسبانية. وتنطوي الوثائق القديمة على كتابة مكوّرة ومزوّاة لهذا الحرف.

ويرتسم لاحقاً، وبوضوح، الاختلاف بين منطقتين. ففي النقوش الاسبانية، كما في البونية عامةً، يغلب الشكل المكوّر [283، ص. 199-200]، اما في نقشين قادسيين فيغلب الشكل المزوّى. ونقع في الشاهدة القابسية التي ترقى الى حوالي عام ١٨٠ ق. م.،على حرف بوني حديث فعلاً. وتعتبر النماذج القادسية لكتابة حرف الباء اصيلةً عموماً، لكنها لا تتمتع بأية نظائر دقيقة.

حرف الجيمل (الجيم ــ ج): يتكوّن هذا الحرف من خطين يتصلان في الاعلى بزاوية حادة واسعة. وتوجد في شرق منطقة البحر المتوسط، كما في غربه، طريقتان لكتابة هذا الحرف تتعايشان في آن: طريقة متساوية الاضلاع، وطريقة اخرى غير متساوية الاضلاع،يكون فيها خط اليمين اطول من خط اليسار [283، ص. 136-137 ,201]. وقد لوحظت كلتا الطريقتين في اسبانيا. ويصادف النموذج المتساوي الاضلاع في القرن الخامس (Hispania 2=ICO spa 10A)،وحوالي عام ١٨٠ ق. م. (Hispania 5=ICO spa 10B)، اما النموذج غير المتساوي الاضلاع ،ففي نقوش القرون الرابع والثالث والثاني (Hispania 3=ICO spa 3, Hispania 12= ICO spa 7; ICO spa 8). ويعتبر حرف الجيم على الخاتم الذهبي الذي اكتشف في قادس مميزاً تماماً (Hispania 10= ICO spa 12). فرأسه على شكل خطين ينبسطان الى الأعلى بزاوية صغيرة، اما الساق فعمودية، وتتجه في البداية الى الأسفل نحو اليسار، وبعد ذلك عمودياً تقريباً. لم ترد كتابة كهذه لحرف الجيم في جداول الكتابة الفينيقية، وهي لا تشبه الشكل البوني الحديث.

حرف الداليت (دال ــ د): للدال في نقوش القرن الثامن ق. م. (Hispania 14= ICO spa 16) ساق قصيرة منحنية قليلاً الى اليسار احياناً؛ ورأس على شكل مثلث متوازي الاضلاع تقريباً، ومكوّر الزاوية في بعض الاحيان.

في القرن الخامس ق. م. لوحظت عدة طرائق لكتابة هذا الحرف (Hispania 5 = ICO spa 10). وتتكوّن الساق في احداها من خطين متوازيين موصولين بخط جانبي قصير من الاسفل يتصل به بزاوية قائمة رأس، لعل الكاتب لم ينجزه، او انه اقتصر على خطٍ جانبي قصير، مستبقاً بذلك الشكل البوني الحديث. وعلى أي حال، يغلب الظن ببروز تأثير الحروف الفينيقية المائلة. والنماذج الاخرى هي اكثر شكليةً. ففي جميع الحالات يظهر الرأس مثلثاً وممطوطاً. وساق هذا الحرف هي كالعادة مستقيمة ومنحنية احياناً بعض الشيء. ويميل الحرف في جميع النماذج الى اليسار قليلاً، وهو امر مألوف في النقوش البونية العائدة الى تلك الفترة.

ويتميّز حرف الدال المحفور على الوعاء الناقوسي الشكل العائد الى القرن الثالث ــ القرن الثاني ق. م. بكتابة مماثلة (Hispania 8 = ICO spa 11): رأسه على شكل مثلث متساوي الساقين، ممطوط، حاد الزاوية؛ ساقه قصيره مستقيمة، وانحناؤه العام الى اليسار.

وتُصادف مجدداً في نقش Hispania 5 (ICO spa 10B) العائد الى حوالي عام ١٨٠ ق. م. عدة نماذج للدال، وخليط من الكتابة المائلة والشكلية. ففي احدى الحالات يبدو الرأس مختزلاً الى خط قصير واحد، متصلاً بقمة الساق بزاوية حادة، مما يذكر على نحو واضح بالحروف المائلة والكتابة البونية الحديثة. وساق هذا الحرف عمودية، لكنها منحنية الى اليسار في نموذج آخر؛ اما الرأس فيبرز واضحاً ،مكوناً من خطين، احدهما سفلي مستقيم، والآخر علوي على شكل قوس يربط طرف الخط السفلي بقمة الساق. ويلاحظ ايضاً وجود رأسٍ مثلثٍ ممطوط.

وتصادف الاحرف المائلة في نقش Hispania 4 (ICO spa 2) الذي يرقى الى النصف الثاني من القرن الثاني ق. م. ساق مستقيمة، منحنية الى اليسار، تتقاطع في جزئها العلوي (لكن على بعض المسافة من القمة) مع خطٍ جانبي بحيث يظهر الحرف بمجمله على شكل صليب مائل، بَيْدَ ان تقاطعه في

الاعلى وعوارضه غير متساوية، فاحداهما،وهي المنطلقة من اليمين الى الاسفل نحو اليسار،اقصر بمرتين من الاخرى.

وكتابة هذا الحرف على الخاتم القادسي الذي يرقى الى الفترة نفسها (Hispania 10=ICO spa 12) هي كتابة مائلة ايضاً، لكنها تبدو مختلفةً تماماً. وقد وردت ثلاث مرات في هذا النقش. وقد اختزل الرأس في اثنتين منها بقطعة وضعت بعيداً بعض الشيء عن قمة الساق، اما في النموذج الثالث فالحرف عبارة عن خطٍ قصير جداً متصل بطرف الساق. وتشكل الساق في جميع الحالات خطاً عمودياً او منحنياً بعض الشيء. وتذكرنا هذه الكتابة بالشكل البوني الحديث للدال.

وهكذا، فأن جميع حالات كتابة هذا الحرف في الآثار الفينيقية الاسبانية تكاد تتناسب كلياً مع تطور شكله في الكتابة الفينيقية والبونية، إن في نماذجها الشكلية او المائلة [283، ص. 137-138 ;201].

حرف الحاء (ح): ورد هذا الحرف في نقش واحد محفور على ظهر لوحة برونزية اكتشفت في مغارة اس — كويرام، وتعود الى العام ١٨٠ ق. م. تقريباً (Hispania 5 = ICO spa 10B). ويعتبر هذا الحرف شديد الشبه بالحروف البونية العائدة الى تلك الفترة [283، ص. 201]، لكن ساقه، كما هي الحال في كتابة بعض الاحرف الاخرى (الألف، مثلاً)، مزوّدة بانشوطة. وينطلق الرأس، السفلي والوسطي، من نقطة واحدة في الساق، ويؤلفان زاوية، اما الخط العلوي فيبتعد عن قمة الساق على نحو موازٍ للخط الوسطي. والوضع العام للحرف، كما هي الحال في الكتابة البونية عامةً، منحنٍ بعض الشيء الى الجهة اليسرى.

حرف الواو (و): كانت كتابة هذا الحرف في القرن الثامن ق. م. (Hispania 14 = ICo pa 16) شبيهةً بكتابته في النقوش الاخرى العائدة الى الفترة نفسها: ساق معوجّة، متموجة وطويلة الى حدٍّ ما، يتصل بها بزاوية منفرجة رأس مكوّن من خطين، احدهما يتجه بانحراف الى الاسفل نحو اليسار،

والثاني يتجه عمودياً الى الاعلى على نحوٍ موازٍ للجزء الملائم من الساق، بحيث يشكل كلا الخطين زاويةً حادة.

وبعد ذلك يصادف حرف الواو فقط في نقش يرقى الى حوالي عام ١٨٠ ق. م. (Hispania 5= ICO spa 10B). وكانت ساقه في ذلك الوقت طويلة منحنية (في احدى الحالات مستقيمة) مع انشوطة في اسفلها. اما رأسه فصغير، يتكوّن في حرفين، من خطين متصلين بزاوية حادة، وهو في الثالث مختزل الى خطٍ مستقيم يمر عبر قمة الساق بحيث يطل قليلاً عن يسارها. ويتصل الخط السفلي للرأس في احد النموذجين الاولين باعلى قمة الساق، وفي الثاني تحت القمة بقليل.

ولهذا الحرف على الخاتم الذهبي القادسي المصدر العائد الى النصف الثاني من القرن الثاني ق. م. (Hispania 10= ICO spa 12) ساق مستقيمة منحنية قليلاً نحو اليسار مع نتوءٍ على شكل قطعة دائرية في الجزء السفلي، لعله بداية لكتابة انشوطة شبيهة بتلك التي التقيناها في الحالة السابقة. ويتراجع الرأس عن قمة الساق، كما يتألف من خطٍ واحدٍ منكسر. وتذكّر كتابة هذا الحرف على الخاتم القادسي بالواو المائلة المكتوبة على ورق البردي العائد الى حوالي عام ٣٠٠ ق. م. [283، جدول 6; XI].

ويلاحظ في اسبانيا وجود شكل بوني حديث للواو في قعر صحن خزفي (Hispania 7= ICO spa Npu 3): ساق مستقيمة تميل الى اليسار، ورأس من خطٍ واحدٍ منحن بعض الشيء يتفرّع عند طرفه الى شعبتين على شكل لسان ثعبان. ورغم عدم اكتشاف مثل هذا الحرف بالتمام، فان تشابهه مع الأشكال البونية الحديثة أمر لا مراء فيه [226، رسم 237 ;283 جدول 3 XVII].

ولا يتيح لنا العدد القليل لأحرف الواو المكتشفة في اسبانيا تتبّع تطوره الواضح. ولكن يمكن القول فقط،اننا لا نلاحظ انعطافات كبيرة هنا عن الاشكال الفينيقية العامة [283، ص. 141-143 ;203].

حرف الزين (ز). يصادف هذا الحرف، كالكثير من سواه، في اقدم نقش فينيقي اسباني يرقى الى القرن الثامن ق. م. (Hispania 14 = ICO spa 16). وضعه هنا افقي بشكل عام ويتألف من ثلاثة خطوط مستقيمة: علوي يتجه بزاوية صغيرة نسبة الى الخط الأفقي، وسفلي يكوّن مع الخط الافقي زاوية كبيرة (بحيث لا يكون هذان الخطان متوازيين)، ويصل وسط هذين الخطين خط عرضي عمودي. وتتمتع الزين بوضعية مماثلة (لكن مع خطوطٍ متوازية وافقية) في نقش الملك الموابي ميشا العائد الى القرن التاسع ق. م. [226، رسم 237 ;246، جدول I، XIIV]. وتشبه هذه الكتابة الآثار القبرصية التي ترقى الى النصف الثاني من القرن الخامس ق. م. [283، جدول 1, I,].

وقد شهد حرف الزين على الأرض الاسبانية في القرن الخامس ق. م. تغيّراً في الشكل، وذلك في نقش Hispania 2 (ICO spa 10A). وقد اتخذ هذا الحرف لاحقاً شكل حرب پي "π" اليوناني، الاّ ان خط اليمين فيه أقصر قليلاً من خط اليسار. وتصادف مثل هذه الكتابة في النقوش البونية، انما في حقبة احدث ،نرى بعض التلميح اليها في أواخر القرن الرابع ق. م. اما الكتابة المطابقة لحرب « پي » الآنف الذكر فتلاحظ في القرن الثاني فقط،في النقوش البونية الحديثة [283، جدول XVII; 7-6; XV; 8; XII]. ونجد هنا مجدداً استباقاً للشكل الذي اتى لاحقاً.

ويتمتع هذا الحرف بشكل بوني مألوفٍ اكثر من النقش القائم على ظهر اللوحة الصغيرة نفسها التي ترقى الى حوالي عام ١٨٠ ق. م. (Hispania 5 = ICO spa 10B). ويبدو واضحاً الاتجاه العمودي العام .ترتبط جميع الخطوط العمودية الطويلة بخطٍ عريض قصير. لكن لا بدَّ من الاشارة الى انه اذا كان ما يصادف في الحالة السابقة هو النموذج الباكر للكتابة التي اصبحت مألوفةً في وقت لاحق، فأن الوضع الآن هو وضع معكوس، فشكل الزين قديم بالنسبة للكتابة البونية، لكنه كان يصادف في الشرق في ذلك الوقت بالذات [275، جدول VI ;10].

ويكتسب هذا الحرف مظهراً مميزاً على خاتم من قادس يرقى الى القرن الثاني ق. م. (Hispania 10 = ICO spa 12)، خط اليسار فيه طويل، ويميل قليلاً الى اليمين. ويتفرّع عنه الى اليمين (مرةً من الوسط تقريباً، ومرةً اخرى من مسافةٍ تساوي الثلث تقريباً انطلاقاً من الطرف السفلي) خط عرضي قصير ينحني بانسجام الى الاسفل ليتحوّل الى الخط الايمن. وليست لدينا اية دلائل تشير الى كتابة الخط الايمن فوق الخط العرضي. وتقع الاطراف السفلى للخطوط العمودية على مستوى واحد. شكل مماثل (اويكاد تماماً) يصادف في آثار القرن الثالث ق. م. البونية، الاّ ان الحرف فيها اكثر انحناءً الى اليمين وطرف الخط الأيمن تحت طرف الخط الأيسر [283، جدول XIV, 4, 7].

وينبغي القول في خلاصة البحث حول كتابة الزين في اسبانيا ما يلي. في البدء كان هذا الحرف افقي الاتجاه، فأصبح في القرن الخامس مربعاً تقريباً، وفي القرن الثاني عمودياً. وتبدّل وضع الخط العرضي الذي يرتفع الى الاعلى حتى قمم الخطوط العمودية، او يهبط نزولاً حتى منتصف الخط العمودي او ثلثه. وتقلّص الخط الايمن الذي كان بطول الخط الايسر سابقاً الى النصف. وتجد جميع الاشكال المكتشفة في اسبانيا ما يشبهها في النقوش الفينيقية الاخرى التي لا تعود احياناً الى وقت واحد، كما هي الحال مثلاً، في آثار القرنين الخامس والثاني.

حرف الحاء (ح): تتمتع الحاء بمظهرٍ قديمٍ وشكلي في نقشٍ على البرونز يعود الى القرن الثامن ق. م. (Hispania 14 = ICO spa 16). وتميل كلتا الساقين قليلاً الى اليسار، وتبدو اليسرى منهما اقصر من اليمنى. وتتفرّع من طرفي اليسرى خطوط عرضية تتجه منحرفةً صعوداً الى اليسار دون ان تبلغ حدَّ الاتصال بالساق اليمنى، ولعل هذا عائد الى الخط الشخصي للكاتب[٣]. وتقترب هذه الخطوط مبدئياً من قمة الساق اليمنى ووسطها.

---

(٣) تتصل الخطوط العرضية بالساق اليمنى في الجداول التي اوردها خ.م. سولار سوليه وف. رولينغ [310، ص. 141، رسم ١، 336، جدول 1].

اما الخطان الجانبيان فمتوازيان، ويقع بينهما خط آخر موازٍ لهما، اقرب الى العلوي منه الى السفلي. ولم تلاحظ مثل تلك الكتابة في النقوش الفينيقية، لكنها تصادف في النقش الآرامي كيلاموفا العائد الى أواخر القرن التاسع ق. م. مع اختلاف بسيط، اذ ان الساق اليسرى ترتفع قليلاً فوق الخط العرضي العلوي [226، رسم 260 ;261 ;336، جدول 1].

ونجد على قطعٍ (Tessons) من النصف الاول للقرن السابع ق. م. طريقتين لكتابة هذا الحرف. نجدنا في الحالة الأولى إزاء حرفٍ شكلي واضح، نُحت وفق خمسة خطوطٍ حفرت بوضوح، يشكل اثنان منها، متوازيان وعموديان، ساقا الحرف اليمنى واليسرى، اليسرى منهما اقصر من اليمنى. والخطوط الثلاثة الاخرى هي خطوط عرضية. يربط العلوي منها، المتجه بزاوية صغيرة، قمتي الساقين؛ يتجه الخطان الآخران بزاوية اكثر حدةً. وتنتهي الساقان في الاسفل تحت الخطوط العرضية. وفي الحالة الثانية، نرى الساقين منحنيتين بشدة نحو اليسار، الاولى منهما مستقيمة واقصر من اليسرى المنكسرة الى حدٍّ ما. لا وجود البتة للخطوط العرضية [339، ص. 108، وجدول 32]. ويعتبر الانحناء الى اليسار امراً مميزاً لحروف القرن الخامس ق. م. والفترة الزمنية اللاحقة، لكنه يصادف كذلك حوالي عام ٧٠٠ ق. م. على قاعدةٍ ذهبية اكتشفت في قرطاجة [283، ص. 144-145 وجدول 4, VII].

وتنحني الحاء (ح) في نقش Hispania 2 (ICO spa 10A) العائد الى القرن الخامس ق. م. كثيراً الى اليسار، على غرار الكتابة البونية عامةً في تلك الحقبة. وتترك انطباعاً ينطوي على شيء من عدم الانجاز، انما لا يمكننا القول ان الامر صدفةً، او هو طريقة محلية للكتابة، لان هذه الكتابة تصادف مرة واحدة. والساق اليسرى اطول بكثير من اليمنى التي ينطلق من قمتها، بزاوية قائمة، خط جانبي لا يبلغ الساق اليسرى (ينتهي هذا الحرف تقريباً عند منتصف عرض الحرف). وينطلق من تحت منتصف الساق اليسرى بقليل الخط الوسطي الموازي للعلوي والذي لا يبلغ بدوره الساق اليمنى. وتقع اطراف هذين الخطين الجانبيين تقريباً على الخط نفسه بالنسبة للساقين. وتتصل

اخيراً الاجزاء السفلى من الساقين (وليس اطرافهما) بخطٍ عرضي آخر. الخطان العلويان متوازيان، اما السفلي فقابل للألتقاء بهما. ولم تلاحظ مثل هذه الكتابة بالضبط مرةً اخرى في النقوش الفينيقية.

ونرى في الوسم على الجرّة العائدة الى القرن الرابع ـــ القرن الثاني ق. م. التي اكتشفت في «الكوديا ـــ دي ـــ ألتشيه» السيقان عمودية، اما الخطوط الجانبية فنراها متجهة الى اليسار نحو الاسفل، في حين ان اتجاهها معاكس في جميع الحالات الاخرى. لكن ينبغي الاخذ بعين الاعتبار ان هذا الحرف قد دمغ على الخزف بواسطة خاتم؛ وبالتالي، فان اتجاه الخطوط الجانبية على الخاتم كان طبيعياً.

وتصادف الحاء (ح) في نقش Hispania 5 (ICO spa 10B) الذي يرقى الى حوالي عام ١٨٠ ق. م. فنرى الساق اليسرى اكثر انحناءً الى اليسار، اما اليمنى فعمودية تقريباً، الاَّ انها مقوّسة بعض الشيء. وللساق اليسرى للحاء انشوطة، كما هي الحال عند بعض الاحرف الاخرى في هذا النقش. وميزة هذا الحرف هي وجود خطين منحنيين جانبيين فقط، يقعان في الجزء العلوي من الحرف ولا يتصلان بأيٍ من الساقين.

ونقع في اسبانيا على حاء بونية حديثة كتبت على صحن خزفي (Hispania 7= ICO spa Npu 3)، ساقها اليسرى منحنية بعض الشيء، اما اليمنى فمستقيمة واطول بكثير من اليسرى. وبين هاتين الساقين خط متعرّج. ومع ذلك، فأن هذه الكتابة غير المألوفة للأحرف البونية الحديثة تصادف في منطقة الحُفرا [283، جدول 4, XVII].

وعلى غرار النقوش الفينيقية بشكل عام، تطورت الحاء الفينيقية الاسبانية من الوضع العمودي الى الوضع المنحني [283، ص. 144-146; 205-206]. وقد وردت كتابة هذا الحرف في نقشين من اس ـــ كويرام على وجهي لوحة برونزية غير مألوفة.

حرف الطاط (ط): من الصعب في الواقع التحدث عن تطوّر هذا الحرف في اسبانيا. ففي نقش Hispania 14 (ICO spa 16) العائد الى القرن الثامن ق.

م.ء يمكننا بصعوبة التعرّف في مطلع السطر الاعلى الى الجزء السفلي من شكل بيضوي، وربما الى أثر خط عرضي. وتصادف الطاط بعد هذا في اسبانيا، انما في مظهرها البوني الحديث فقط. وتتألف في هذه الحالة من ساقين منحنيتين تمثلان شكلاً بيضوياً غير مقفل من الاعلى والاسفل. ويدخل في الفتحة العليا خط جانبي. وفي وسط الشكل البيضوي خط جانبي ثانٍ يتجه بزاوية قدرها حوالي ٤٥ درجة، الاّ ان أياً من هذه الخطوط لا يلامس الساقين (Hispania 7= ICO spa Npu 3). ولا وجود لمثل هذا الشكل تماماً في النقوش البونية الحديثة، لكن المطابقة بشكل عام تبدو واضحة.

حرف الياء (ي): نادراً ما نرى حرف الياء في اسبانيا. الا ان ثمة حالتين ترقيان الى فترة قديمة، يظهر الحرف في احديهما واضحاً بعض الشيء، وذلك على قاعدة برونزية تعود الى القرن الثامن ق. م. (Hispania 14= ICO spa 16). ولم يبقَ من الحرف الثاني في هذا النقش (في نهاية السطر العلوي) سوى الجزء السفلي. والجزء العلوي من الساق، في الحرف الواضح، عمودي تقريباً، ينحني من ثم بشدّة الى اليسار. وتتجه خطوط الرأس العرضية من الجزء العمودي في الساق (الخط العرضي السفلي من نقطة الانحناء بالذات) بزاوية الى اليسار نحو الأسفل، وتنطلق من الطرف السفلي للساق، وبزاوية حادة، قائمة تتجه الى اليمين صعوداً. خطوط الرأس العرضية والقائمة جميعها متوازية. وينحني الحرف بمجمله انحناءً قليلاً الى اليسار. وهناك كتابة مشابهة لحرف الياء، لكنها ليست مماثلة، تصادف في كلمات الاهداء الى بعل — ليبانون الذي يرقى الى القرن الثامن ق. م. والذي اكتُشف في قبرص [283، جدول VII].

ويمكن تبيّن هذا الحرف في السطر العلوي من النقش المحفور على وعاء من المرمر، يعود الى القرن السابع ق. م.ء اكتشف في مدينة الاموات « لاوريت » (ICO spa 13). وما بقي في الواقع هو آثار هذا الحرف فقط. ومع ذلك، يمكن تبيّن ساق مستقيمة، منحنية الى اليمين، قائمة تبتعد عنه بزاوية حادة الى الاعلى نحو اليمين، والخط العرضي العلوي للرأس المتجه الى اليسار نحو الاسفل. ويحتل الحرف وضعاً عمودياً، وهذا امر قديم بعض

الشيء بالنسبة لذلك الوقت، رغم انه يصادف في فترة احدث، في بيبلوس مثلاً [275، جدول IV 1-2].

بعد قرونٍ كثيرة، في مطلع القرن الثاني ق. م.، عاد حرف الياء ليظهر من جديد في النقوش الفينيقية الاسبانية (Hispania 5 = ICO spa 10B). لقد كان الحرف منحنياً، لكنه لم يكن افقياً كما في النقوش البونية الاخرى العائدة الى الفترة نفسه، وهو يذكّر بالاحرى بالاشكال البونية الحديثة الاكثر تقدماً [283، جدول XVII, XVI]. ساق مستقيمة تتجه الى الاسفل نحو اليسار، تلتحق باطرافها خطوط الرأس والقائمة المتوازية، ويتجه اول تلك الخطوط الى الاسفل نحو اليسار، اما الثاني فالى الأعلى نحو اليمين. ويطلّ خط القائمة العرضي قليلاً عن يسار الساق. ونستشف في نقش هذا الحرف تأثير الكتابة المائلة.

وهكذا نرى ان كتابة الياء في النقوش الاسبانية تراعي بشكل عام التطور العام للكتابة الفينيقية. الاّ ان الاشكال الاسبانية في القرنين السابع والثاني ق. م.، تميّزت بوضع عمودي اكثر من معظم هذه الحروف العائدة الى تلك الفترة. الأمر المميّز كذلك هو كتابة الرأس حوالي عام ١٨٠ ق. م. بخطٍ واحد فقط، وهو امر نادراً ما نصادفه، مع انه ليس بخارج عن المألوف.

حرف الكاف (ك): يتألف هذا الحرف في نقش (ICO spa = Hispania14 16)، العائد الى القرن الثامن ق. م. من ثلاثة خطوط: ساق مستقيمة منحنية قليلاً الى اليمين، وخط الرأس العرضي المنحني المتصل بالجزء العلوي للساق، وخط عرضي مستقيم قصير آخر ينطلق من الخط العرضي المنحني. وتذكّر هذه الكتابة باحد نماذج هذا الحرف في نقش كيلاموڤا حوالي عام ٨٢٥ ق. م. [336، جدول I]. ونجد كتابة مختلفة للكاف في الاهداء الاسباني الى عشتروت. الساق ذاتها، اما الرأس فعبارة عن مثلث متساوي الاضلع تتصل قمته بالساق وأحد اضلاعه موازٍ لهذه الساق. وكانت مثل هذه الكاف موجودة في نورا في القرن التاسع ق. م. [207، جدول XXVII].

وقد لوحظ هذا الحرف لاحقاً في نقش يرقى الى حوالي عام ١٨٠ ق. م. (Hispania 5= ICO spa 10B) ساق مستقيمة، متموجة بعض الشيء، يتفرّع عنها، على مسافة قصيرة من القمة الى اليسار صعوداً، خط عرضي. وتتكرّر مثل تلك الكتابة في النقوش البونية [283، جدول IV, 9-6, XVI; 4-3].

وفي نقشٍ يرقى الى القرن الثاني ق. م.، حرف شبيه بالسابق اكتشف في الكوديا — دي — ألتشيه، وقد حفر على قعر وعاء خزفي (Hispania 4= ICO spa 2). وفي هذه الحالة فقط، يبتعد خط الرأس عن الساق مسافةً كبيرةً عن القمة. عدا هذا، هناك خط افقي آخر يبتعد عن الساق الى اليسار ويتقاطع مع الاول. وتعتبر هذه الكتابة فريدةً من نوعها، لاننا لم نعثر على شبهٍ دقيقٍ لها حتى الآن.

وفي النقش على الخاتم الذهبي، القادسي المصدر، العائد الى النصف الثاني من القرن الثاني ق. م. (Hispania 10= ICO spa 12)، تبدو الكاف للوهلة الاولى غريبةً بعض الشيء. ساق مستقيمة تقريباً ينطلق من قمتها الى اليسار نحو الاسفل وبزاوية حادة، خط قصير تابع للرأس. ونادراً جداً ما يصادف هذا الشكل، الا ان وجوده قائم مع ذلك. وقد يرجع الى طريقة الحروف المائلة التي لوحظت في أواخر القرن الخامس ق. م. ويمكن مصادفته في احدى نقوش القرن الثاني ق. م. البونية، وفي نموذج الكتابة في النقش البوني الحديث الذي اكتشف في هدرومات [246، جدول XLIV، 283، جدول 5, XV; 4; XI].

حرف اللام (ل): كثيراً ما يصادف هذا الحرف في النقوش الفينيقية الاسبانية، ابتداءً من اقدمها المحفور على البرونز في القرن الثامن ق. م. (Hispania 14= ICO spa 16). ويتألف هذا الحرف هنا، كما في آثار الكتابة الفينيقية الاسبانية الاخرى العائدة الى تلك الفترة او القريبة منها [283، جدول 3, 1, VII ص 154]، من ساقٍ مقوّسة تتحوّل بانسجام الى قائمة تتجه نحو اليمين صعوداً، بحيث يصبح الحرف شبيهاً بصنّارة الصيد.

ونجد كتابة تماثل هذا الحرف على الخاتم البرونزي القادسي الذي يرقى

الى القرن الثامن ــ القرن السابع ق. م. (Hispania 1 = ICO spa 1). ويلاحظ في هذا النقش نموذجين لحرف اللام، احدهما مماثل تماماً للحالة السابقة، اما الثاني فساقه منحنية اكثر بقليل الى اليمين وتتحوّل الى قائمة بطريقةٍ اقل انسجاماً، بحيث ان قوس التحوّل ترتسم في زاوية حادة. وشكل حرف اللام هذا ليس غريباً كذلك، فهو يصادف خاصةً في « حسّن ــ بايلي » في النصف الأول من القرن السابع ق. م. [283، جدول VII ;6].

وموجود هذا الحرف كذلك،بطريقتين مختلفتين في نقش Hispania 2 (ICO spa 10A) الذي يرقى الى القرن الخامس ق. م. وتبدو الساق في كلتا الحالتين مستقيمة ومائلة الى اليمين، اما شكل الساق فيختلف بين حرف وآخر. ففي النموذج الأول (الذي عثر عليه مرتين) تتكوّن الساق من خطين جانبيين: واحد يبتعد عن الطرف السفلي للساق بزاوية حادة الى اليمين نحو الاعلى، وآخر يتجه من طرف الأول نزولاً، قليلاً الى اليسار، وهو اقصر من الاول. وتتلاءم هذه الكتابة بمجملها مع تطوّر الكتابة الفينيقية والبونية في ذلك العهد [246، ص. 179]. اما النموذج الثاني (وقد ورد مرةً واحدةً في مطلع النقش) فهو اكثر غرابةً. وتتألف قائمته من خطٍ عرضي واحد يبتدىء عند الجزء السفلي من الساق (انما ليس عند اقصى طرفها)، مؤلفاً معها زاوية قائمة.

وفي نقشٍ تذكاري من باريا يرقى الى القرن الرابع او الى أواخر القرن الخامس (Hispania 3 = ICO spa 3)،يُصادف حرف مماثل تقريباً للنموذج الاول في النقش السابق، لكن الخط الثاني للقائمة فقط يتجه عمودياً الى الاسفل، كما ان الخط الأول هو اكثر انحداراً. وفي حرف آخر من النقش ذاته يتجه احد خطي القائمة ايضاً بزاوية الى الاعلى، اما الثاني فالى اليسار نحو الاسفل. ولا يبتعد هذا الاخير عن طرف الأول كالعادة، بل يكاد يلامسه، منطلقاً قليلاً فوق طرفه.

ونرى في القرن الرابع ق. م. (Hispania 15) ساقاً طويلة مستقيمة، مائلة قليلاً الى اليمين، يبتعد عن طرفها الى اليمين نحو الاعلى، كما في السابق،

خط القائمة. وينطلق من طرف هذه القائمة خط ثانٍ يتجه الى الاسفل على شكل قوس صغيرة.

وفي الوسم الخزفي العائد الى القرن الرابع/القرن الثالث (ICO spa Bolli 2) ساق مقوّسة تتصل بطرفها قائمة موجّهة الى الأسفل.

وفي مقطعٍ من نقشٍ على حجر يرقى الى القرن الثالث ق. م. (Hispania 11 = ICO spa 14) يبدو حرف اللام مدوّراً مثل الألف والباء، وذلك بسبب الشكل الدائري للحجر، وجميع عناصر هذا الحرف منحنية، الاّ ان وصل القائمة بالساق ليس متناسقاً، بل مزوّى.

وعلى حجرٍ محفور يرقي الى القرن الثالث/القرن الثاني (Hispania 12= ICO spa 7) يصادف هذا الحرف ثلاث مرات، تختلف جميعها عن بعضها البعض. ففي مطلع النقش ساق مستقيمة، ويبتعد احد خطوط القائمة عن الجزء السفلي للساق بزاوية قائمة، ويمرّ من عند طرف هذا الخط خطٌ آخر، بحيث يكون طرفه وطرف الساق على مستوى واحد. ويختلف الحرف الموجود في وسط النقش عن الاول، فخط القائمة الثاني يبتعد عن الاول بزاوية قائمة بشكل موازٍ للساق. وساق الحرف الاخير منحنية وتميل الى اليمين، اما خطا القائمة فيلتقيان فيما بينهما ليشكلا قوساً واحدةً تتصل بالساق تحت وسطها بقليل. وتنتهي القائمة تحت طرف الساق.

وفي نقش Hispania 5 (ICO spa 10B) الذي يرقى الى حوالي عام ١٨٠ ق. م.، وكما في بعض الآثار الاخرى، نرى نموذجين لحرف اللام. في النوذج الاول ـــ الساق مستقيمة، تميل قليلاً الى اليمين ويتصل بطرفها خط القائمة الذي يتجه صعوداً الى اليمين، ويتفرّع عن طرفه خط ثانٍ يتجه الى الاسفل نحو اليمين. والشكل العام في النموذج الثاني هو نفسه، الاّ ان خط القائمة الاول ينطلق من طرف الساق بزاوية حادة الى حدٍ يبدو فيه وكأنه اتّحد بالساق نفسها.

ويصادف حرف اللام عدة مرات على وسمٍ ذهبي من قادس يرقى الى النصف الثاني من القرن الثاني ق. م. (Hispania 10= ICO spa 12). ويُلاحظ

بالاجمال نموذجان لهذا الحرف: واحد بقائمةٍ على شكل خط ينطلق من طرف الساق الى الاسفل نحو اليمين، وآخر بقائمةٍ على شكل قوس تتجه كذلك الى الاسفل نحو اليمين، وتنطلق إمّا من طرف الساق، او من فوق الطرف بقليل. وتبدو الساق في جميع الحالات مستقيمة ومائلة الى اليمين. ويصادف كِلاَ النموذجين في الكتابة الفينيقية،وإن نادراً نسبياً. وتعتبر القائمة المقوّسة مميزةً للشكل المائل اكثر من غيره [283، جدول XI ,6 ,7].

ونجد في اسبانيا طريقتين بونيتين حديثتين لكتابة حرف اللام، اولاهما عبارة عن خط مستقيم دون اية خطوط عرضية اخرى (Hispania 7= ICO spa Npu 3)، كما هي الحال في النقوش البونية الحديثة التي تصادف غالباً، لكنه، وخلافاً للوضعية العادية، يميل الى اليمين لا الى اليسار. وفي الحالة الثانية (Hispania 6= ICO spa Npu 2)، تميل الساق المنحنية الى اليمين. ويتصل بجزئها العلوي رأس مكّون من خطين عرضيين قصيرين يؤلفان زاويةً حادة. ويعتبر تحوّل القائمة الى رأس امراً مألوفاً في الكتابة البونية الحديثة [283، جدول XVII].

وهكذا نرى ان تطوّر حرف اللام يتناسب جملةً مع تطوّر الكتابة الفينيقية بشكل عام [283، ص. 154-156; 210-211]. في اول الأمر كان الحرف على شكل كلاّب، وظهرت بعدئذٍ قائمة مرسومة بوضوح تتصل كقاعدةٍ عامة بالساق بزاوية. ويتحوّل انكسار خط القائمة الى خطٍ عرضي مستقل،بحيث تتكوّن القائمة معظم الاحيان من هذين الخطين اللذين يتصلان بزاوية، او يندمجان معاً بانسجام،فيشكلان قوساً. اما في النقوش البونية الحديثة، فتغيب القائمة كليًّا،او تنتقل الى الاعلى لتتحوّل الى رأس.

حرف الميم (م): كحرف اللام، كثيراً ما يصادف في النقوش الاسبانية. ويجدر بنا تتبّع تطور حرف الميم، لانه يستخدم في بعض الحالات كعنصر لتأريخ النقش. فنراه مثلاً في اقدم نقشٍ يرقى الى القرن الثامن ق. م. (Hispania 14= ICO spa 16)، ساقه هنا مائلة الى اليمين، مستقيمة بمجملها، لكنها منحنية قليلاً الى اليسار عند اسفلها. الرأس يبدو قديم الشكل على

نحو واضح، لا خط سفلي افقي له، ويتكوّن من خطين جانبيين: احدهما مستقيم او منحني، ينطلق من الساق صعوداً الى اليسار، والآخر منكسر او منحنٍ يتصل بالأول، بحيث يصبح خط الرأس السفلي متعرّجاً. ويُلاحظ شكل الرأس المتعرّج هذا في آثارٍ اكثر قدماً، ترقى الى القرن التاسع ق. م.، كما في نقش الملك ميشا او كيلاموڤا، او على الحجر الذي اكتشف في نورا مثلاً [336، جدول 1]. ومع ذلك، يُصادف في السطر السفلي من النقش الاسباني خط سفلي افقي للرأس، يتفرّع عنه خطان عموديان متوازيان للساق. ويمكن مشاهدة كتابة مشابهة في نقشٍ من « كارا — تيبه » يرقى الى النصف الثاني من القرن الثامن ق. م. [283، جدول VII ;3]. وقد اتاح شكل هذا الحرف بالذات، الى جانب معطيات اخرى، للمؤرخ خ. م. سولا — سوليه نسبة هذا المرجع الى القرن الثامن [336، ص. 107].

ويظهر على الخاتم البرونزي العائد الى القرن الثامن/القرن السابع (Hispania 1 = ICO spa 1) نموذج للميم فريد من نوعه. فعن الساق الثخينة العمودية القصيرة، الحادة الرأس، ينطلق بزاوية صغيرة، خط الرأس الافقي الموجّه قليلاً الى الاعلى، والذي يتفرّع عنه مثلثان حادا الزاوية يمثلان الخطوط العمودية. ويذكّر الرأس، نتيجةً لذلك، بتروس القلاع. اما الميزة الاساسية لهذه الكتابة فتكمن في تحوّل المنعطف الصغير نحو اليسار في اسفل الساق الذي اشرنا اليه في الحالة السابقة، الى قائمة طويلة تتجه يساراً وقليلاً الى الاسفل، وتنتهي ابعد من خط الرأس الافقي. فلا وجود لمثل هذه القائمة عند هذا الحرف في حالاتٍ اخرى.

ويعتبر حرف « الميم »، الى جانب حرف الباء، الحرف الوحيد الذي يمكن تبيّنه في السطر الثاني من النقش المحفور على الوعاء الرخامي الشفاف الذي اكتشف في مدينة الاموات « لاوريت » (ICO spa 13). تبدو الميم هنا مرتبطةً « بحرف الباء »، ولعل هذا الاتصال هو سبب عدم تكوّنها من خطين، بل من خطٍ عمودي واحد للرأس (تقوم ساق الباء بدور الخط الثاني). ويتصل الخط الافقي بقمة الساق.

ويتّخذ رأس الحرف مجدداً في نقش القرن الخامس ق. م. (Hispania 2 = ICO spa 10) شكلاً قديماً متعرجاً. فمن قمة الساق المستقيمة ينطلق خط الرأس بزاوية حادة الى الاسفل يساراً، ومنه، وبزاوية اكثر حدةً، ينطلق الخط الثاني يمينا الى الاعلى. وبهذا الخط الثاني، وليس بعيداً عن أوله، يتصل خط ثالث موجّه الى الاعلى نحو اليسار. وتذكّر هذه الكتابة بتلك التي استعملت سابقاً، حوالي عام ٧٠٠ ق. م.، على النوط الذهبي الذي اكتشف في قرطاجة [283، جدول VII ;4]. وها نحن هنا امام تطور ثانوي لشكل الميم القديم النادر في النقوش البونية [283، ص. 212، ملاحظة 27].

ومن جديد، وفي نقش عثر عليه حديثاً يرقى الى القرن الرابع ق. م. (Hispania 15)، نرى الرأس يتمتع بمظهرٍ عادي يتصل فيه الخط السفلي الافقي بالجزء العلوي من الساق او بقمتها تقريباً. في تلك الحقبة، كان الخط العمودي الوسطي يطل عادةً تحت الخط الافقي [283، جدول XII]، لكن هذا لا يحدث في حالتنا هذه، وتصادف الميم مرتين في هذا النقش. الحرف الاول مائل الى اليمين ويتصل الخط العمودي الاخير بالخط الافقي بزاوية حادة، والحرف الثاني ينحرف يساراً ويتميّز بالتحوّل المكوّر من الخط الافقي الى العمودي في نهاية الحرف.

وتعتبر الميم المشكّلة بالختم على وسم خزفي من القرن الرابع ـــ القرن الثاني (ICO spa Bolli 1) نموذجية بالنسبة للاشكال البونيـة. فهـي مكـوّرة بمجملها، ساقها منحنية تلتوي يساراً الى الاسفل، وتنطلق من قمتها قوس، يجتمع فيها الخط الافقي والخط العمودي الاخير اللذان كانا منفصلين سابقاً، ويخترق القوس خط مستقيم قصير. ولا تختلف هذ الكتابة بشيء عن الكتابة العادية في النقوش البونية [283، جدول XII].

وعلى حجرٍ محفور يرقى الى القرن الثالث/القرن الثاني ق. م. (ICO spa 6)، نرى لهذا الحرف ساقاً منحنية تلتوي عند اسفلها الى اليسار. اما الرأس فقد أُتلف، ولم يبقَ منه سوى الخطوط العمودية التي مع ذلك تدفعنا للاستنتاج بأنها موازية للساق وتنتهي معها على المستوى نفسه، اما الخط

السفلي فينبغي ان يكون افقياً. وهذا امر لم نألفه في النقوش البونية العائدة الى تلك الحقبة من الزمن، لكنه يصادف في النقوش الفينيقية الشرقية، ولا سيما في صيدون وأرواد [283، جدول V ,9-7 ;IX ;8]. ويطل الخط الوسطي هناك في الاسفل تحت الخط الافقي، وهو ما لا يلاحظ على الحجر القادسي المحفور، مع ضرورة التنبه الى الحالة السيئة للنقش.

وعلى الصفيحة القابسية التي ترقى الى حوالي عام ١٨٠ ق. م. (Hispania 5= ICO spa 10B)، تبدو الميم للوهلة الاولى مائلةً وغريبة المظهر كلياً: صليب مائل غير منتظم بعض الشيء. ولا وجود لمثل هذه الكتابة في النقوش البونية العائدة الى تلك الفترة، لكنها مألوفة في الكتابة البونية الحديثة [283، جدول XVII]. كما انه ما من شك في علاقتها بالحروف المائلة التي كانت معروفة سابقاً [283، جدول X ,6-4 ,XI ,6].

ويعتبر الحرف الموجود على إناءٍ يعود الى النصف الثاني من القرن الثاني ق. م. والمكتشف في هاليرا (Hispania 4= ICO spa 12)، شديد الشبه بالحرف السابق، الاّ ان خطوطه المستعملة هنا منحنية. وإزاء ذلك نصادف مجدداً على الخاتم القادسي العائد الى الفترة نفسها (Hispania 10= ICO spa 12) شكلاً قديماً لهذا الحرف: ساقه مستقيمة او مدوّرة بعض الشيء في اسفلها، ورأسه متعرج. ويذكّر هذا الحرف بمظهره بحروف القرن الثامن ق. م.، ويعتقد انه اقدم تصوير لشكل الميم.

وتلاحظ في اسبانيا ايضاً اشكال للميم بونية حديثة واخرى على شكل صليب (Hispania 6= ICO spa Npu 2; Hispania 7= ICO spa Npu 3).

وهكذا اذاً، تصادف في اسبانيا اشكال مختلفة لكتابة الميم. ويسير تطوّر هذا الحرف من الرموز المستقيمة الساق والمتعرجة الرأس، الى الاشكال ذات الرأس القائم الزوايا (اي ذات الخط السفلي الافقي)، ليصل لاحقاً الى الساق المستقيمة والرأس المقوّس الشكل، واخيراً الى الكتابة الصليبية الشكل. ويتناسب هذا التطور مبدئياً مع التطوّر العام لهذا الحرف في الكتابة الفينيقية. ومع ذلك، نرى فيه بعض الخاصّيات: توقّع مبكر للرمز البوني الحديث في

مطلع الألف الثاني ق. م.،وشكل قديم يصادف في قادس في النصف الثاني من القرن نفسه.

حرف النون (ن): كثيراً ما يصادف حرف النون في اسبانيا ايضاً،وفي جميع النقوش تقريباً. الا انها تتغيّر قليلاً على غرار المناطق الاخرى في العالم الفينيقي [283، ص. 159-161، 213]. ولهذا الحرف عادةً ساق مستقيمة او منحنية، ورأس مزوّى، اضف الى ذلك ان الخط العمودي للرأس موازٍ عادةً للساق. لذلك فرؤوسه قائمة الزوايا او مزوّاة.

ويظهر في السطر السفلي من نقشٍ يرقى الى القرن الخامس ق.م. (Hispania 2 = ICO Spa 10A) رأس مكوّر، يتكرّر لاحقاً في القرن الرابع (ICO Spa 15) وخلال القرون الرابع والثالث والثاني (ICO Spa Bolli 1). وفي نقشٍ قادسي يعود الى النصف الثاني من القرن الثاني ق.م. نرى الرأس مدوّراً ايضاً، الّا ان القوس تبدو اقل وضوحاً منها في الحالات الأخرى، بحيث يمكن اعتبار الكل وكأنه خط واحد مستقيم. ومثل هذه النون،وان كانت نادرة نسبياً، الاّ اننا نصادفها في النقوش البونية العائدة لتلك الفترة [283، جدول XV ,5,3]. بيد ان الرمز البوني الحديث (Hispania 6 = ICO Spa Npu 2) يبدو غير مألوف. فساقه طويلة ولها انشوطة عند اسفلها، اما رأسه فصغير ومقوّس،ويتصل على نحو منسجم،بالساق من الجهة اليسرى،خلافاً لسائر الاحرف البونية الحديثة التي يتجه رأسها الى اليمين [283، جدول XVII]. لكن هذا الشكل، كما يشير غوتزو اماداسي في ملاحظاته على هذا النقش [207، ص. 152]، يبدو اكثر شبهاً بالشكل البوني، وليس البوني الحديث.

حرف السين (س): من الصعب ايضاً التحدث عن تطور هذا الحرف في إسبانيا، وتعود هذه الصعوبة للسبب التالي: يصادف حرف السين هذا، في النقوش المؤرخة، مرتين فقط، الاولى في القرن الرابع ق.م. والثانية حوالي عام ١٨٠ ق.م. (كما يصادف على الوسم الخزفي غير المؤرّخ حيث لحق

به التلف). وتتمتع السين في الحالة الأولى (Hispania 3 = ICO Spa 3) بساق طويلة مستقيمة (تنحني عند اسفلها نحو اليسار)، وبرأس مكوّن من ثلاثة خطوط متوازية فيما بينها. ينطلق الخطان الأولان من الساق (واحد من قمتها، والثاني تحته بقليل) الى الاسفل نحو اليسار، اما الثالث (تحت الثاني) فصعوداً الى اليمين. ولم تلاحظ مثل هذه الكتابة في اي مكان آخر.

اما فيما يتعلق بحرف السين الفينيقية الاسبانية الثانية (Hispania 5 = ICO Spa 10 B) فله رأس متعرّج شبيه برأس الميم في النقش القادسي العائد الى النصف الثاني من القرن الثاني ق.م.، لكنه اكثر عرضاً وساقه على شكل انشوطة ممطوطة. ويعتبر شكل السين هذا الاكثر تكراراً في النقوش البونية [283، جداول XIII، XIV، XVI].

حرف العين (ع): تصادف العين كثيراً في النقوش الفينيقية الاسبانية، لكن تطور هذا الرمز، كما في حالة النون، غير ظاهر تقريباً. ولعل ما يفسّر هذا الامر هو شكل هذا الحرف الدائري تقريباً. وهكذا فان التغيّرات التي كان يمكن ان تطرأ، تكمن في جعل الدائرة مفتوحة او مغلقة. وتصادف في الكتابة المائلة عين مزوّاة [183، ص. 164، 214-215]، كما تلاحظ في اسبانيا ايضاً. ونجد في نقشٍ من القرن الثامن (Hispania 14 = ICO Spa 16) نماذج مختلفة تتعلق على ما يبدو بخط الكاتب، والى جانب الرموز المغلقة تصادف نماذج مفتوحة مختلفة، ففتحاتها من الاعلى وعن اليسار وعن اليمين. وليست هذه الحالة الوحيدة، اذ انه من الممكن رؤية عين مفتوحة من الجهتين، كما هي الحال على نوط من قرطاجة يرقى الى حوالي عام ٧٠٠ ق.م. [283، جدول VII، 4].

ويصادف في النقوش الاكثر قدماً العائدة الى القرون الثامن / السابع والرابع (او أواخر الخامس) ق.م. (Hispania 1 = ICO Spa 1; Hispania 17; Hispania 3 = ICO Spa 3) الشكل المغلق فقط. وفعلاً، بدأت في القرن الخامس (Hispania 2 = Ico Spa 10) تظهر فتحة صغيرة في اعلى الدائرة. ويعتبر

هذا التناوب في الاشكال المفتوحة والمغلقة أمراً مألوفاً في الكتابة البونية [283، جداول XVI-XII] ويمكن الكلام ابتداءً من القرن الرابع ق.م.، عن العين المفتوحة الشبيهة بالحدوة من حيث الشكل. الاّ ان الاستثناء الوحيد هو النقش Hispania 5 (ICO Spa 1013) العائد الى حوالي عام ١٨٠ ق.م.، الذي حُوِّرت فيه النماذج المائلة للرمز المثلث او المتعدد الزوايا، المغلق او المفتوح في اماكن غير متوقعة — من الاسفل او من اليسار.

ويُظهر هذا العرض المقتضب عدم وجود اية خصائص لتطوّر العين في اسبانيا، وبأن ارتقاءها تمَّ بالطريقة نفسها التي جرت في كتابة الفينيقيين الشرقيين والأفارقة. ومهما يكن من أمر، فانه يصعب توقّع تضارب في انواع هذا الحرف اذا نظرنا الى بساطة شكله.

حرف الپه (P): للحرف په في اقدم نقشٍ فينيقي اسباني (ICO Spa 16) Hispania 14 ساق مائلة الى اليمين، طرفها السفلي حاد وتتحوّل قمتها بانسجام وبشكل دائري، الى رأس صغير يتجه الى الاسفل نحو اليسار.

بعد ذلك، تصادف الپه فقط في نقشٍ من القرن الخامس ق.م. (Hispania 2 = ICO Spa 10A). وانحناء الساق هنا هو نفسه، قليلاً الى اليمين، الاّ ان الساق تنقسم في الاسفل بحيث تنجم عن ذلك قائمة لا تبرز كثيراً، وتتجه الى الاسفل نحو اليسار. ويتكوّن الرأس من خطين: خط افقي قصير ينطلق من قمة الساق، وآخر، اكثر طولاً، يبتعد عن الأول الى الاسفل نحو اليسار. ويصادف شكل الحرف المزوّى هذا في النقوش الفينيقية الشرقية والقبرصية، الاّ انه يعتبر غير مألوف بالنسبة للبونية منها العائدة الى تلك الفترة [283، جداول 1 ,5 ;6, IX ; جدولXII].

وتلاحظ الكتابة المزوّاة وغير المألوفة في نقشٍ تذكاري جوهري اكتشف في باريا، ويرقى الى القرن الرابع او اواخر القرن الخامس ق.م. (Hispania 3 = ICO Spa 3). ساق مستقيمة وبدون اية كسور، تميل الى اليسار؛ رأس مكتوب بخطين: الاطول منهما ينطلق بزاوية حادة من قمة الساق الى

اليسار نحو الاسفل، اما الثاني، وهو خط افقي قصير، فينطلق من طرف الأول باتجاه الساق دون ان يبلغها. ويعتبر مظهر هذا الرمز اقرب ما يكون الى الباء (ب) او الداليت (د).

وعلى لوحة برونزية ترقى الى حوالي عام ١٨٠ ق.م. (Hispania 5 = ICO Spa 10 B) تبدو اليه (P) وقد اختزلت، والرأس وقدَ غاب كلياً. وتلتوي الساق العمودية المستقيمة في جزئها السفلي، لتتحوّل الى قائمةً صغيرة تتجه الى اسفل نحو اليسار. وهذه الكتابة شديدة الشبه بالاشكال البونية الحديثة، لكنها كانت تصادف قبل ذلك ايضاً، كما في « الحُفرا » مثلاً [283، جدول 6,XVI].

وتكتب اليه بطريقة اكثر تعقيداً من المألوف في النقش البوني الحديث العائد الى النصف الثاني من القرن الثاني او الى القرن الأول ق.م. (Hispania 6 = ICO Spa Npu 2): ساق منحنية، يتصل بقمتها رأس مكوّن من خطٍّ واحد يتجه نحو الاسفل، مما يذكّرنا باشكال الفترة السابقة الواقعة ما بين القرن الرابع والقرن الثاني ق.م.

هكذا، وباستثناء الكتابة المدوّنة في باريا في القرن الرابع ق.م. (او في اواخر القرن الخامس)، لا تقدم الحالات الاخرى مبدئياً أي شيء جدير بالمقارنة مع الكتابة الفينيقية العامة. وينبغي التنويه فقط باستباق كتابة اليه الكتابة المألوفة في ذلك الزمان في احدى الحالات ولوجودها بالشكل القديم، مرةً اخرى. والملفت للنظر ايضاً، هو وجود هذا الحرف في القرن الخامس ق.م.، على نحو اكثر شبهاً بالنماذج الفينيقية الشرقية لا البونية، رغم ان الحديث كان يتناول نقشاً محفوراً في مستعمرة قرطاجية. وان كتابة هذا الحرف في باريا التي سكنها القرطاجيون كذلك، هي كما رأينا غير مألوفة.

حرف الصاد (ص): قلّما يصادف هذا الحرف في اسبانيا. فعلى وعاءٍ من توسكانوس اكتشف في طبقة القرن السابع ق.م.، نرى خطّين افقيين يصلهما من اليمين خط عمودي. ويعتقد خ.م. سولا ـــ سوليه ان الصاد قد رسمت

هناك، رغم ان الحرف حفر بشكل سيء وباتجاه اليمين. بيد ان الباحث يرفق افتراضه بعلامة استفهام [339، ص. 108-109 وجدول 32]. وعلى اية حال، لم يعثر على كتابة مشابهة للصاد في النقوش الفينيقية، انما وبانتظار لقايا جديدة، ينبغي على ما يبدوء ابقاء المسألة موضوع بحث.

عدا ذلك تصادف الصاد فقط في النقش البوني الحديث (ICO Spa Npu 3= Hispania 7)حيث تتألف من ساقٍ مائلة الى اليسار، كما في الكتابة البونية الحديثة عادةً، ومن رأس مدوّر طويل فوق العادة، على شكل صنّارة صيد ممطوطة. وتبدو هذه الكتابة غير متوقّعة بعض الشيء، لكن لا شك في انها الصاد بالذات.

حرف القاف (ق): أثبت وجود هذا الحرف في النقوش الفينيقية الاسبانية ثلاث مراتٍ حتى الآن. المرة الأولى في القرن الثامن ق.م. (Hispania 14 = ICO Spa 16) لكن الرمز أتلف في هذه الحالة بسبب وجود حفرةٍ في البرونز بالقرب من الحرف تغطي جزءاً منه. لذلك لم يبقَ من الرمز سوى الجزء السفلي،وربما قمة الساق والجزء الأيمن من الرأس. ويمكن الاستنتاج من هذه الآثار بأن الساق كانت مستقيمة ومائلة الى اليسار، اما الرأس فمكوّر على صورة شكلٍ بيضوي ممطوط، كالحرف الذي وُجِدَ في نقشٍ من « كارا — تيبه » يرقى الى الفترة نفسها تقريباً [283، جدول 3, VII]. الاّ ان الساق في النقش الاسباني قد تكون اطول فقط.

وفي القرن الخامس ق. م. (Hispania 2 = ICO Spa 10 B) كانت القاف أيضاً مستقيمة ومائلة الى اليسار، انما اقصر قليلاً مما كانت عليه في القرن الثامن. اما الرأس فيتألف من مثلثين منفصلين. ويبتدىء الخط العلوي، في الايسر منهما، عند قمة الساق،ثم ينحدر سريعاً الى الاسفل نحو اليسار، اما السفلي فيربط طرف هذا الخط بالساق وينخفض قليلاً عن رأس المثلث باتجاه الساق. ويقع المثلث الايمن تحت الايسر، ويتجه خطه العلوي يميناً الى الاعلى، وينطلق نحوه بزاوية حادة جداً،الخط السفلي الذي يصل طرفه بالساق.

وتصادف مثل هذه الاشكال احياناً في الآثار البونية [283، جدول 2, XIII]. وتشبه هذا الحرف القاف المحفورة على حجرٍ في باريا في أواخر القرن الخامس او القرن الرابع ق.م. (Hispania 3 = ICO Spa 3)، اما الفرق الاساسي بينهما فيكمن في الرأس الدائري للقاف.

ومما يؤسف له ان عدد الاحرف القليل لا يسمح بدراسة تطوّرها، لا سيما ان اية اشكال للقاف لم تصادف بعد القرن الرابع ق.م.

حرف الراء (ر): لم تطرأ على شكل هذا الحرف تغييرات كبيرة، رغم انه كثيراً ما يصادف نسبياً في النقوش الفينيقية الاسبانية. ولا يلاحظ دائماً الفرق بينه وبين الدال ،فالفرق بين هذين الحرفين يكمن اساساً في طول الساق وان كانا يكتبان في كل حالة محدّدة بطرق مختلفة [283، ص. 139-138].

وفي نقشٍ من القرن الثامن ق.م. (Hispania 14 = ICO Spa 16) نرى ساقه مستقيمة، عمودية او مائلة الى اليسار، ورأسه ممطوطاً على شكل مثلث حاد. وفي احدى الحالات، لا تتصل خطوط رأسه بالساق ولا فيما بينها. ولعل هذا نتيجة قلّة اكتراث الكاتب، بعدم ملاحظته شيئاً مماثلاً لا في النقش ولا في حالات اخرى.

وفي الواقع، لا تختلف الراء المحفورة على خاتم برونزي قادسي يرقى الى القرن الثامن / القرن السابع ق.م. (Hispania 1 = Ico Spa 1) بشيء عن الحرف الذي سبق وصفه ،الساق المستقيمة والمائلة الى اليسار نفسها، والرأس المثلث الزوايا نفسه.

ونقع في القرن الخامس ق.م. (Hispania 5 = ICO Spa 10 A)، كما في حالة الدال، على عدة نماذج لكتابة الراء. وكثيراً ما يكون هذان الرمزان متجاورين، مما يساعد على التمييز بينهما. وتعتبر نماذج هذين الحرفين من حيث المبدأ هي نفسها. فتصادف الساق المرسومة بخطين متوازيين يربطها خط عرضي. وكلا الحرفين يتشابهان في هذا. ويكمن الاختلاف بينهما في طريقة كتابة

الرأس،فبينما يتحوّل عند الدال الى خط عرضي قصير، نرى الراء على شكل مثلث صغير. وتتميّز الراء عن الدال في حالات اخرى، بانكسار في الساق يكسب الحرف بنتيجته قائمةً لا تصادف عادةً خلال كتابة هذا الرمز،وان كنا نجد تلميحاً اليها احياناً في الكتابة المائلة [283، جداول 2, XI. 5, X].

وتصادف الراء في نقشٍ جوهري (Lapidaire) يرقى الى اواخر القرن الخامس او القرن الثاني (Hispania 3 = ICO Spa 3) ثلاث مراتٍ، وفي كل مرة مختلفاً. والساق هنا دائماً مستقيمة ومائلة قليلاً الى اليسار، اما الرأس فمدوّر في الحالة الأولى، مثلث في الثانية، وله خط مقوّس وآخر مستقيم في الثالثة. وبما ان الدال غير موجودة في هذا النقش، فان من غير الجائز التحدث عن اختلافها.

حوالي عام ١٨٠ ق.م. (Hispania 5 = ICO Spa 10 B)، يستعمل الكاتب مجدداً عدة نماذج لكتابة هذا الحرف. وتظهر الاختلافات مجدداً في رسم الرأس، اما الساق فمستقيمة ومائلة الى اليسار في جميع هذه النماذج. ويبدو الرأس مدوّراً في نموذج معيّن، ويتحوّل في آخر الى خطٍ متصل بقمة الساق بزاوية حادة، ويتكوّن في ثالث من خطين متوازيين، ينطلق السفلي منهما من قمة الساق الى اليسار نحو الاسفل، اما العلوي فيمر فوقها وفوق الساق. وتختلف الراء عن الدال التي كثيراً ما تكون بجانبها، بقياس الساق بالاجمال: وساق الراء أطول في السطر العلوي، ويحصل العكس في الحالات الاخرى. ويُستشف في بعض النماذج تأثير الحروف المائلة.

وفي نقشٍ على الخزف يرجع الى النصف الثاني من القرن الثاني ق.م. (Hispania 4 = ICO Spa 12) نصادف نموذجاً شكلياً، عندما يتفرّع عن الساق خطّ الرأس، السفلي منهما بزاوية قائمة، والعلوي بزاوية حادة، متجهاً الى اليسار نحو الاسفل دون ان يتصل بالسفلي، بحيث يبقى المثلث غير مكتمل. وكذلك في الكتابة المائلة،حيث يكتب الرأس والساق بجرّة قلم ،ساق مستقيمة مائلة الى اليسار، ينطلق من قمتها الى اليسار نحو الاسفل خط الرأس الذي يلتوي فيما بعد الى الاسفل نحو اليمين دون ان يبلغ الساق.

وقد اكتشف نموذجان على خاتم ذهبي من قادس يرقى الى الفترة نفسها (Hispania 10 = ICO Spa 12). وقد كانت الساق في كلا النموذجين مستقيمة او ملتوية الى اليسار عند اسفلها. وللرأس في الحالة الأولى شكل قوس صغيرة تقع على بعض المسافة من الساق دون ان يتصل بها، اما في الحالة الثانية فينطلق من قمة الساق على شكل خط قصير ثخين. ولا يصادف النموذج الأول في اي مكان آخر، اما النموذج الثاني فيعيد الى الذاكرة بعض الاشكال البونية الحديثة [مثلا، جدول I, XVII].

وتظهر كل هذه المعلومات وجود اشكالٍ صورية ومائلة للراء في اسبانيا. وتتفق كتابة الراء مبدئياً، مع تلك التي تصادف في الخط الفينيقي عامةً، وقد رافق تطورها في تلك البلاد تغيّرات هذا الرمز في الشرق، كما في قرطاجة [283، ص. 138-139, 201]. ومع ذلك، يمكننا ان نلاحظ في الكتابة ملامح مبتكرة، لا سيما في الراء الاولى على الخاتم الذهبي القادسي.

حرف الشين (ش): في الكثير من النواحي، يمر تطوّر هذا الحرف في اسبانيا ، عبر المراحل نفسها التي اجتازها في الكتابة الفينيقية الشرقية والبونية.

وكانت الشين في القرن الثامن ق.م. على شكل خطٍ متعرّج مكوّن من اربعة خطوط، يذكّر بحرف «دوبل ــ ڤيه» (W)، وكان الخط الايمن أطول بقليل من سائر الخطوط. وقد اعتبرت تلك الكتابة امراً ميّز اشكال ذلك القرن، لا سيما النقش الذي اكتشف في كارا ــ تيبه [283، 169-170 وجدول 3, VII].

ويميّز الفترة اللاحقة، ابتداءً من مطلع القرن السادس ق.م.، شكل مؤلف من ثلاثة خطوط، اثنان منهما يتصلان بزاوية وبينهما الخط الثالث، وتتجه جميع الخطوط الى الأعلى [275، ص. 170]. وللشين هذا المظهر نفسه تقريباً في نقوش القرنين الخامس والرابع (أو أواخر الخامس). ويبدو الحرف في احدى هذه النقوش مزوّى (Hispania 2 = ICO Spa 10 A). وفي احد النماذج، يتصل خطان بزاوية منفرجة، ومن وسط الخط الايسر منهما تقريباً

ينطلق خط آخر عمودياً الى الاسفل. وفي نموذج آخر، تتصل الخطوط الجانبية بزاويةٍ قائمةٍ تقريباً، ويمتدّ من الخط الايسر منهما الخط الاوسط، موازياً للأيمن. ويُصادف احياناً ان تنطلق الخطوط الثلاثة من نقطة واحدة. وتنبغي اخيراً الاشارة الى مثل هذه الحالة عندما يكون المظهر العام مشابهاً للسابق، الاّ ان الخطوط لا تبلغ حدَّ الاتصال ببعضها البعض. ولجميع هذه النماذج صلات مشتركة مع آثار اخرى من النقوش الفينيقية.

اما فيما يتعلق بالنقش (ICO Spa 3) Hispania 3 العائد الى القرن الرابع او أواخر القرن الخامس ق.م.، فان الحرف هناك يشبه احد النماذج السابقة (حيث تنطلق جميع الخطوط من نقطة واحدة) الاّ ان الخط الايمن منحنٍ، مما يعطي مجمل الحرف طابعاً دائرياً.

ويتضمن نقش (ICO Spa 10 B) Hispania 5 العائد الى حوالي عام ١٨٠ ق.م. هذا الرمز كذلك. ويشبه مبدئياً الرمز الذي نصادفه في القرن الخامس ق.م. في النقش المحفور على ظهر صفيحة برونزية اكتشفت في اس ـــ كويرام. وتنطلق جميع الخطوط من نقطة واحدة، وان كانت لا تتصل احياناً. الاّ ان نقطة الالتقاء الواقعية او الوهمية في هذا النقش تقع في الاعلى، اما خطوط الحرف فموّجهة الى الاسفل. ورغم ان هذه الكتابة لا تصادف في اسبانيا الاّ في اس ـــ كويرام، فان لها دوراً في التطور العام للكتابة الفينيقية [283، جدول XVI].

وللشين على الخاتم الذهبي القادسي العائد الى النصف الثاني من القرن الثاني ق.م. (Hispania 10 = ICO Spa 12)، ساق قصيرة مستقيمة على غرار ما نصادفه احياناً في احرف تلك الفترة [283، جدول 6, XVI]. ويبدو الرأس على شكل نقطة غليظة (على قدر نصف الساق) تقع عن يسار الساق. ولعل المقاسات الصغيرة لهذا الحرف (ارتفاعه اقل من ١,٥ ملم) لم تفسح امام الكاتب لتصوير الرأس باتقان واظهار جميع عناصره.

اخيراً، نصادف في اسبانيا ايضاً شكلاً بونياً حديثاً للشين، كتب على قعر قصعةٍ خزفية عثر عليها في پيتيوسا (Hispania 7 = ICO Spa Npu 3). وهذا

الرمز معقّد بعض التعقيد، رغم انه كتب على ما يبدو بجرّة قلم. وينكسر الخط المنحني الذي يمر من الاسفل الى الاعلى نحو اليمين عند رأسه، ويتحول الى ساق مستقيمة تتجه الى الاسفل وقليلاً الى اليسار؛ وينطلق من اسفل الساق خط ثانٍ منحني، قصير، يتجه الى الاعلى حتى يكاد يبلغ وسط الساق، ويتجه من هناك على نحو مستقيم الى الاعلى نحو اليسار، مخترقاً الخط المنحني الاول. ويعتبر خ.م. سولا ــ سوليه ان من المستحيل قراءة هذا الحرف الاّ شيناً [332، ص. 277]. ويمكن رؤية كتابة مشابهة، وان غير مطابقة تماماً، في الكتابة البونية الحديثة [34، جدول 2].

وهكذا نرى ان تطور الشين في اسبانيا تمَّ بالطريقة نفسها التي شهدتها الكتابة الفينيقية عموماً. ولا تلاحظ تعديلات كبيرة، انما نشير فقط الى ان رأس الحرف، في نقشٍ قادسي يرقى الى النصف الثاني من القرن الثاني ق.م.، يكتب منفصلاً عن الساق ولا يتصل بها. ولا تتيح أبعاده الصغيرة اظهار مدى اصالة الكتابة.

حرف التاف (ت): تصادف التّاف في عدة نقوش اسبانية مرتّبة ترتيباً زمنياً منظماً الى حدٍّ معين بحيث يمكن تتبّع التطور التدريجي لكتابة هذا الحرف من القرن الثامن حتى القرن الثاني.

ويبدو هذا الحرف في نقشٍ على البرونز من القرن الثامن (Hispania 14 = ICO Spa 16) على شكل صليبٍ « لاتيني » مستقيم مائل الى اليمين. ويخترق الساق الطويلة في جزئها العلوي، وبزاوية قائمة، خط عرضي تقسمه الساق الى جزئين متساويين. وتعتبر مثل هذه الكتابة امراً مميزاً لنقوش اخرى ترقى الى الفترة نفسها، الاّ ان تناسب بعض عناصر هذا الرمز في اسبانيا يبدو اكثر دقةً. كما يلاحظ في النموذج الاسباني غياب المنعطف الصغير للطرف الأيمن للخط العرضي الذي يظهر في احد نماذج التاف في نقشٍ من كارا ــ تيبه، هذا الغياب الذي يُنبىء بالتطور اللاحق لهذا الحرف [283، ص. 172-173]. لذلك يبدو شكل التاف التي نحن بصددها اكثر قدماً.

وبالمقابل، تميل الساق على خاتم برونزي قادسي يرقى الى القرن الثامن / القرن السابع (Hispania 1 = ICO Spa 1) ميلاً شديداً الى اليسار، وتتقاطع من جديد بزاوية قائمة، لكنها اقرب بكثير الى الوسط مع خط يظهر فيه الجزء الواقع عن يسار الساق اطول بقليل من الجزء الواقع عن يمينها. ويبدو الرمز بسبب طريقة تنفيذه،شبيهاً بنجمة رباعية الأطراف. ويُلاحظ ان الخط العرضي بمجمله اقصر بكثير من الساق، الامر الذي يجعل الحرف شبيهاً بصليب مائل. وتصادف كتابة التاف الصليبية الشكل هذه،في نقوشٍ اكثر قدماً، كما في « نورا »،أو في نقش الملك ميشا مثلاً [246، جدول XLIV].

ونشاهد الكتابة ذاتها، بشكل صليبٍ مائل، على قطعة خزفية من توسكانوس وُجدت في طبقة منتصف القرن السابع ق.م. [339، ص. 109 وجدول 32]. وكلا الخطين هنا متساوٍ تقريباً، اما الساق المائلة الى اليسار فأطول قليلاً من العارضة، ويتقاطعان في الجزء العلوي من الساق. ولا تصادف هذه الكتابة القديمة في النقوش المعاصرة لهذا الرمز،وإن لوحظت في الكتابة الآرامية والعبرية المشتقة من الفينيقية [246، جداول XLVI, XVI].

وتتخذ التاف في نقشٍ من القرن الخامس ق.م. (Hispania 2 = ICO Spa 10 A) شكلاً مغايراً تماماً. فالساق تصبح منحنية، وتميل في جزئها العلوي بشّدة الى اليمين، وفوق الوسط بقليل، ينطلق منها الى اليمين وقليلاً نحو الاسفل،خط عرضي لا يطلّ من الجهة اليسرى. ومن طرف هذا الخط، بزاوية قائمة، ينطلق خط آخر الى الاسفل نحو اليسار، وينتهي قليلاً فوق الطرف السفلي للساق. وتذكّر هذه الكتابة باشكال هذا الحرف في نقش اشمو نصر الصيدوني العائد الى القرن الخامس، وبودعشتروت العائد الى النصف الثاني من القرن نفسه [283، جدول V 3 ,5]. ويجدر القول ان الخط العرضي عن يسار الساق ظل قائماً بشكل عام،في النقوش البونية، الامر الذي لا نلاحظه في شكل التاف هذا.

ونلاحظ المزيّة نفسها (غياب الخط العرضي عن يسار الساق) في نقوش بونية اسبانية اخرى من باريا وقابس. وللتاف في القرن الرابع ق.م.

(Hispania 15)، كما في الحالة السابقة، ساق منحنية مائلة الى اليمين، ويتفرّع عنها الى اليمين نحو الاسفل، خط عرضي، يتحوّل مرةً الى خط عمودي قصير، ومرة اخرى ــ يتصل بها بزاوية منفرجة. ويتجه الخط الثاني هذا، في الحالة الاولى، الى الاسفل نحو اليسار، اما في الحالة الثانية، فالى الاسفل نحو اليمين. وفي نقش اقدم بقليل، يرقى الى القرن الرابع نفسه، او الى اواخر القرن الخامس (Hispania 3 = ICO Spa 3)، تبدو الساق مستقيمة ومائلة الى اليمين كذلك. وتتصل جميع خطوط هذا الحرف بزاوية، مما يُسبغ عليه شكلاً مزوّى، تشبه كتابته حرف «H» اللاتيني. وفي نقشٍ آخر يرقى الى حوالي عام ١٨٠ ق.م. (Hispania = ICO Spa 10B) نرى الساق مستقيمة عامةً، وتنحني قليلاً الى اليسار عند اسفلها فقط، وهي عمودية تقريباً. وينطلق منها في الجزء العلوي بزاوية حادة، صعوداً الى الاعلى، خط عرضي يتفرّع عنه بدوره، بزاوية حادة الى الاسفل، خط آخر. وتختلف جميع اشكال التاف هذه عن الاشكال البونية العادية، وهي اكثر شبهاً بالاشكال الفينيقية الشرقية، الشكلية منها والمائلة [283، جداول XI-XIII].

ونصادف في النصف الثاني من القرن الثاني ق.م. (Hispania 4 = ICO Spa 2) نموذجاً آخر لهذا الحرف، ساق مستقيمة مائلة الى اليمين، خط عرضي يبتدىء قليلاً عن يسار الساق، مخترقاً اياها، تماماً كما كانت الحال في الكتابة البونية. ويضفي الخط العرضي المتموّج على هذا الرمز منحًى شاذاً يتجه من الاسفل الى الاعلى نحو اليمين، ومن ثم يلتوي بمرونة الى الاسفل وقليلاً الى اليمين، ومجدداً الى الاعلى نحو اليمين، مخترقاً الحرف المجاور. ويظهر هذا الخط الطويل المنحني التأثير الواضح للاحرف المائلة [283، ص. 174].

وكتابة التاف الاكثر غرابةً هي تلك الموجودة على خاتم ذهبي من قادس يرقى ايضاً الى النصف الثاني من القرن الثاني ق.م. (Hispania 10 = ICO Spa 12). وهذا الحرف ــ صغير القياس ولا يتجاوز خط السطر، ساقه مستقيمة ومائلة قليلاً الى اليمين، اما خطه العرضي فينطلق من قمة الساق

نحو اليمين، كما هي الحال عادةً في الاشكال البونية الحديثة [283، جدول XVII]. لكن الحرف القادسي، وخلافاً لهذه الاشكال، يحتفظ بالخط الثالث الذي ينطلق من طرف الخط العرضي الى الاسفل وينتهي على مستوى واحد مع الساق. ويشبه المظهر العام لهذا الرمز الحرف اليوناني بي (Π). وتجدر الاشارة الى اننا لم نصادف مثل هذه الكتابة في آثار فينيقية اخرى.

وبالاجمال، تصادف جميع اشكال التاف تقريباً، في آثار اخرى للكتابة الفينيقية. الاّ ان ما يمكن ملاحظته في اسبانيا هو المحافظة على الاشكال القديمة والفينيقية الشرقية. وينبغي الاشارة خصوصاً الى المنحى الشاذ لهذا الرمز في قادس في النصف الثاني من القرن الثاني ق.م.، وهو امر اشرنا اليه في بعض الحروف الاخرى، كالألف او الجيم مثلاً.

لقد بحثنا في تطور بعض الاحرف في النقوش الاثرية الفينيقية الاسبانية، كما استعرضنا جميع احرف الابجدية الفينيقية، الى هذا الحد او ذاك. ورأينا ان البعض منها يصادف مراراً وتكراراً، والبعض الآخر في القليل النادر ، كحرف الصاد مثلاً الذي يصادف مرةً واحدة وبشكل غير مؤكد. وهناك احرف، كالنون والجيم، تصادف بكثافة نسبياً في اسبانيا، ومع ذلك فقد كانت ضئيلة التطور. ويعيق دراسة تطوّر الكتابة الفينيقية الاسبانية عدم الانتظام هذا.

ولا بدَّ للمرء عند دراسة النقوش الفينيقية الاسبانية إلاّ ان يلاحظ انطواءها على ملامح الكتابة الشكلية منها والمائلة. ويعتبر تفاعل الملامح الشكلية والمائلة فيما بينها، امراً يميّز الآثار الفينيقية، لا سيما البونية منها [283، ص. 221 41-40, 63, 101, 174] ونجد تفاعلاً مماثلاً في اسبانيا. فعلى وعاءٍ جرسي الشكل يرقى الى القرن الثالث / القرن الثاني (Hispania 8) نرى الباء شكلية؛ وعلى حجر محفور يرقى الى الفترة نفسها (Hispania 12) نراها مائلة. ويستعمل الكاتب احياناً في النقش نفسه لدى كتابته نماذج مختلفة من حرف واحد كلا الاسلوبين. وهكذا نرى الدال (د) في نقش Hispania 2 مرةً شكلية، ومرةً اخرى مائلة. ويبدو من خلال مقارنة الكتابة القادسية (اي

جدول ١ الكتابة الفينيقية الأسبانية

	ألف (أ)	باء (ب)	جيم (ج)	دال (د)	هاء (هـ)	واو (و)	زين (ز)	حاء (ح)	طاء (ط)	ياء (ي)	كاف (ك)
VIIIS.Av.J.C *Hispania 14*											
VIII-VII S.Av.J.C *Hispania 1*											
Début VII S.Av.J.C *Hispania 16,17*											
Moitié VII S.Av.J.C *Toscanos*											
VII S.Av.J.C *ICO Spa 13*											
V S.Av.J.C *Hispania 2*											
IV S. (ou Fin V siè) *Hispania 3*											
IV S.Av.J.C *Hispania 15*											
IV-II siè *ICO Spa 13.T.1.2*											
III S.Av.J.C *Hispania 11*											
III-II siè *Hispania 12*											
III-II siè *Hispania 8*											
III-II siè *I CO Spa 6*											
vers l'an 180 av.J.C *Hispania 5*											
2ème moitié du II siè Av.J.C *Hispania 10*											
2ème moitié du II siè Av.J.C *Hispania 4*											
Néopuniques *I CO Spa Npu*											

تابع جدول رقم ١

تاء (ت)	شين (ش)	راء (ر)	قاف (ق)	صاد (ص)	فاء (ف)	عين (ع)	سين (س)	نون (ن)	ميم (م)	لام (ل)	
											VIII s. Av. J.C. *Hispania 14*
											VIII-VII S. *Hispania 1*
											Des. VII s. Av. J.C. *Hispania 16,17*
											Cep. VII s. Av. J.C. *Toscanos*
											VII s. Av. J.C. *I CO Spa 13*
											V s. Av. J.C. *Hispania 2*
											IV s. (ou fin du V siè) *Hispania 3*
											IV s. Av. J.C. *Hispania 15*
											IV-II siè. *I CO Spa 13 t.1,2*
											III s. Av. J.C. *Hispania 11*
											III-II siè *Hispania 12*
											III-II siè. *Hispania 8*
											III-II *I CO Spa 6*
											Vers l'an 180 Av. J.C. *Hispania 5*
											2eme Moitié II siè. Av. J.C. *Hispania 10*
											2eme moitié II Siè. Av. J.C. *Hispania 4*
											Néopuniques *I CO Spa Npu*

الفينيقية الاسبانية) بالكتابة البونية الاسبانية، ان الأولى عامةً اكثر شكلية من الثانية. ومع ذلك تصادف فيها عناصر من الكتابة المائلة، كالباء (ب) على خاتم برونزي يرقى الى القرن الثامن / القرن السابع، او الواو (و) على خاتم ذهبي يعود الى النصف الثاني من القرن الثاني. ويظهر تأثير الحروف المائلة ايضاً من خلال القائمة المقوّسة لاحدى نماذج اللام (ل)، على الخاتم الذهبي ذاته.

ولا تنسخ الواو المحفورة على الخاتم القادسي اشكال الحروف المائلة المعاصرة لها، بل الاشكال الأكثر قدماً الموجودة على ورق البردى العائد الى حوالي عام ٣٠٠ ق.م. وتقرّبنا هذه الملاحظة من موضوع قِدَمِ بعض الرموز الفينيقية الاسبانية. ويُلاحظ استعمال الكلمات القديمة في قادس اكثر منه في پيتيوس أو في جنوب شرق شبه جزيرة البيرينه. وهذا ما نشعر به في اكثر آثار الكتابة الفينيقية الاسبانية قدماً. فكتابة التاف مثلاً، في النقش العائد الى القرن الثامن ق.م.، وعلى قطعة خزفية اكتشفت في توسكانوس وترقى الى القرن اللاحق، تبدو اكثر قدماً منها في المستندات الفينيقية الأخرى العائدة الى الفترة نفسها. وللميم في نقشٍ يرقى الى النصف الثاني من القرن الثاني ق.م. (Hispania 10) رأس متعرّج يعتبر ممّيزاً لفترة اقدم من هذه بكثير. وللباء (ب) ايضاً في هذا النقش بالذات شكل قديم جداً. ويصادف رأسها المربع بدون الضلع العلوي في اقدم كتابة فينيقية [246، جدول XLIV]، لكن في فترة اقدم.

ومع ذلك، يصعب القول ان هذا يشكل صفةً تميّز الكتابة القادسية عن كتابة المستعمرات القرطاجية. فمثل هذه الظواهر تلاحظ في بعض النقوش البونية الاسبانية ايضاً. وهكذا فأننا نشاهد شكلاً اكثر قدماً للميم ذاتها مع رأس متعرج مماثل، على لوحة برونزية اكتشفت في المعبد المغارة اس — كويرام في پيتيوس (Hispania 2)، وهي في الحقيقة اقدم من الخاتم القادسي وترقى الى القرن الخامس ق.م. وهنا، كما اشرنا، اننا إزاء قِدَمٍ ثانوي للميم يظهر في آثار بونية اخرى.

الى جانب الكلمات المهجورة، نقع في الكتابة الفينيقية للاسبانية على اشكال بونية حديثة (ليست النقوش البونية الحديثة هي المقصودة هنا). وهكذا نرى في بعض الوثائق اختلاط الرموز القديمة بالرموز البونية الحديثة. وكنّا قد اشرنا آنفاً الى قدم اشكال بعض الأحرف على خاتم ذهبي يرقى الى النصف الثاني من القرن الثاني ق.م.، لكننا نصادف في النقش نفسه كتابةً بونية حديثة للدال والتاف. ولنموذج واحد للراء؛ وللألف بشكل انتقالي بين الرموز القديمة والبونية الحديثة. وكان للباء والميم والپه اشكال بونية حديثة خلال الفترة السابقة، اي في النصف الأول من القرن الثاني نفسه.

وتجدر الاشارة الى اننا نصادف مرتين في النقش الذي ضربه المستعمر القرطاجي في پيتيوس (Hispania 2) في القرن الخامس ق.م. رموزاً لم تظهر (على الأقل في اللقايا التي اكتشفت حتى عام ١٩٦٧) في نقوش قرطاجة ومستعمراتها الا في الحالة المذكورة، لكنها كانت رائجةً في الشرق في الوقت نفسه. والأمر يتعلق بالپه والتاق.

وتلاحظ في كتابة بعض الاحرف ملامح غير عادية لم نقع عليها في آثار اخرى للكتابة الفينيقية. تلك هي الحال مثلاً بالنسبة لكتابة الألف في النقش Hispania 14 من القرن الثامن والنقش Hispania 10 من النصف الثاني من القرن الثاني ق.م.، والكاف ــ في النقش Hispania 4 الذي يعود الى الفترة السابقة نفسها، والنون ــ في النقش Hispania 1 الذي يعود الى القرن الثامن / القرن السابع، وحالاتٍ اخرى. احياناً، ورغم الشكل الطبيعي للحرف يبدو وضعه شاذاً، كما هي الحال بالنسبة لكتابة الياء في القرنين السابع والثاني ق.م.

وتظهر مسألة الكتابة القادسية على نحو مميّز. فمن خلال ما وصلنا من آثار قليلة لهذه الكتابة يبدو الشذوذ واضحاً في كتابة عدد من الاحرف التي لا نظائر لها تقريباً، او كلياً. واذا كانت غرابة الألف الشبيه بالقفص في نقشٍ من القرن الثامن ق.م. (نفّذ اغلب الظن في معبد عشتروت القادسي) نتيجة خطأ ارتكبه النقّاش، فمن الصعب الاعتقاد ان قوائم الميم

والنون المفرطة في الطول، والباء الشبيهة بالقوس، على خاتمٍ يرقى الى الفترة الواقعة ما بين القرنين الثامن والثاني، كانت مصادفات. وهناك بعض الاحرف المحفورة على خاتمٍ يرقى الى النصف الثاني من القرن الثاني ق.م. التي تستوجب اهتماماً اكبر. تلك هي حالة الألف المقوسة الساق بعض الشيء،والتي تتصل قمتها بخط الرأس الوحيد؛ والجيم الشاذة كلّياً المقوّسة الساق والرأس المكوّن من خطين متباعدين؛ والراء (ر) ذات الرأس الشبيه بقوسٍ صغيرة والواقع بعيداً بعض الشيء عن الساق؛ والشين التي حُوِّل رأسها الى نقطة غليظة؛ والتاق الشبيهة بالحرف اليوناني پي (Π). وليس لهـذه الاشكال اية نظائر في المعلومات المتوفرة من النقوش الفينيقية، لذلك ينبغي مقارنتها باساطير النقود التي نفّذها ضاربو العملة القادسيون خلال الفترة الواقعة ما بين القرن الثالث ق.م. والقرن الأول ميلادي. وتنطوي تلك الاساطير للأسف،على حروفٍ اقل مما يلزم للمقارنة مع الأحرف الموجودة على الخاتم. ويستحيل مثلاً،مقارنة مثل هذه الاحرف، كالشين والتاق.

وتعطي الدراسة المقارنة للرموز المحفورة على الخاتم الذهبي (وكذلك الحجر المحفور العائد الى القرن الثالث / القرن الثاني، رغم وجود حرفين هناك فقط) نتائج هامة. ويصادف الألف القادسي غير المألوف على النقود [363، جدول IX ;14 ;14 ;15 ;19 ;2, LXXIV]، كما تلاحظ اشكال اخرى من بينها ما يشبه تلك التي صودفت في مطلع القرن السابع [363، جدول IX ,12 ;I, LXXIV ;5 ,6]. ويتبين من هذا ان شكل الألف، موضع اهتمامنا، يصادف على الحاجيات في عصر ما قبل الرومان، كما على الاشياء المسكوكة في العصر الروماني، وان بشكل اقل. ولا تمتلك الباء النقدية المدوّرة الرأس، أي شيء مشترك مع الحرف الموجود على الخاتم، الاّ ان قائمتها الطويلة التي تنتهي عن يسار الساق [363، جدول 3, LXXIV] تشبه قائمة هذا الحرف على خاتمٍ يرقى الى القرن الثامن / القرن السابع، والحرف الموجود على حجرٍ محفور من القرن الثالث / القرن الثاني. ويمكن العثور على ما يشابه الدال واللام والميم. فعلى النقود، وعلى الخاتم ايضاً، نصادف الميم برأسها

جدول ٢. النقوش القادسية

	VIII 8. Hispania 14	القرن الثامن ــ القرن السابع Hispania 1	القرن الثالث ــ القرن الثاني ICO Spa 6	النصف الثاني من القرن الثاني Hispania 10	القرن الثالث ق. م ــ القرن الأول م. نقود
ʾ ألف (أ)	[illegible]	[illegible]		[illegible]	[illegible]
b باء (ب)	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
g جيمل (ج)				[illegible]	[illegible]
d دال (د)	[illegible]			[illegible]	[illegible]
h هاء (هـ)					[illegible]
w واو (و)	[illegible]			[illegible]	
z زين (ز)	[illegible]			[illegible]	
ḥ حاء (ح)	[illegible]				
ṭ طاط (ط)					
y ياء (ي)	[illegible]				
k كاف (ك)	[illegible]			[illegible]	

	القرن الثامن Hispania 14	القرن الثامن ـ القرن السابع Hispania 1	القرن الثالث ـ القرن الثاني ICO Spa 6	النصف الثاني من القرن الثاني Hispania 10	القرن الثالث ق. م ـ القرن الأول م. نقود
l لام (ل)	[illegible]	[illegible]		[illegible]	[illegible]
m ميم (م)	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
n نون (ن)	[illegible]	[illegible]		[illegible]	
s سين (س)					
c عين (ع)	[illegible]	[illegible]		[illegible]	[illegible]
p به (ب)	[illegible]				[illegible]
ṣ صاد (ص)					
q قاف (ق)	[illegible]				
r راء (ر)	[illegible]	[illegible]		[illegible]	[illegible]
š شين (ش)	[illegible]			[illegible]	
t تاف (ت)	[illegible]	[illegible]		[illegible]	

المتعرج. ويشبه احد نماذج الراء برأسه المتمثل بشكل خط غليظ (لكن ليس ذلك الذي اشرنا لكونه شاذاً كلياً) بعض اشكال هذا الحرف في اساطير النقود القادسية [363، جدول 6, LXXIV; 15, IX]. لذلك يمكن التأكيد ان اشكال الاحرف هذه كانت منتشرةً في قادس، وهي لا تصادف في الآثار النقشية، بل تتوافق مع النماذج المحلية لكتابتها في هذه المدينة.

وعلى عكس ذلك، لا نرى للاشكال الاخرى ما يشابهها لا في النقوش الفينيقية عامةً، ولا في اساطير النقود القادسية خاصةً. وتلك هي حال الدال والراء والشين عندما تكتب رؤوسها مستقلةً عن الساق. لكن هذه الكتابة يمكن ان تكون نتيجة رغبة الكاتب في تصوير الحرف بشكل اوضح في الفسحة الصغيرة المعطاة له. وحالة الجيم هي على عكس ذلك تماماً. فلا نرى اية قيود حول المكان يمكن ان تزعج النقاش في تنفيذ هذا الحرف على شكل زاوية (متساوية، أو متباينة الضلعين). وهذا الشكل العادي بالذات (المكوّر الخط او المنكسر احياناً) الذي تتمتع به الجيم على النقود [363، جداول LXXIX, LXXIV, X-IX]، لا يشبه الرمز على الخاتم الذهبي. وبما ان المعلومات ما زالت قليلة جداً،فمن المستحيل القول ان كنّا امام نموذج محلي لكتابة هذا الحرف، ام انها ميزات خط الحفّار. ولو نظرنا الى امكانية العثور مستقبلاً على تشابهات،لكان من السابق لأوانه اطلاق اي فرضيّات الآن. كذلك من المبكر ان نتناول الشين والتاف بأي كلام، وذلك بسبب غياب المعلومات اللازمة للمقارنة.

وهكذا يبدو ان الكتابة القادسية بمجملها اذا ما قورنت بالكتابة البونية الاسبانية، هي قديمة وصورية اكثر.

وفي هذا التلخيص لنتائج دراستنا عن الكتابة الفينيقية الاسبانية تنبغي الاشارة بادىء بدء الى ان النقوش ما زالت ضئيلة جداً للقيام باستنتاجات قطعية. ومع ذلك،يمكننا القول ان أصالة بعض الاحرف لا تعد شاهداً كافياً على أصالة كل الابجدية. وقد استنتج الباحث الاميركي د.ب. پكهام، في ضوء دراسته الدقيقة لبعض نماذج الكتابة الفينيقية خلال القرون الثامن ــ الأول،

انه بقدر ما يتجمّع لدينا من معلومات، بقدر ما يصبح الطابع التكاملي للكتابة الفينيقية اكثر وضوحاً، وهو ما يمكن قوله عن الخصائص المحلية لبعض الاحرف، لا عن الكتابات بكاملها [283، ص. 225]. وكما يتراءى لنا، تؤكد دراسة النماذج الفينيقية للابجدية الفينيقية هذا الاستنتاج(٤) وتفيدنا النقوش الاثرية الفينيقية الاسبانية بان الاحرف التي تصادف في هذه النقوش، ما عدا بعض الاستثناءات، تطابق النماذج المنوه بها في الكتابة البونية. ومع ذلك نرى بعض التباين بين هذه الآثار ووثائق قادس المكتوبة. ورغم انه من غير الجائز تضخيم هذا التباين، الا انه يعكس في مجال الثقافة هذا فروقاً اشرنا اليها في مجالي الدين والفن.

وفي ختام عرضنا للكتابة الفينيقية الاسبانية لا بدَّ من التطرّق الى مسألة امكانية تأثيرها على الكتابة الترتسية. وتعتبر هذه المسألة قديمة قِدَم دراسة الكتابة الترتسية نفسها(٥). علماً ان ظهور الكتابة عند كل شعب هو نتيجة حاجاته وجهوده الذاتية، يضاف اليها مسألة الاشكال المحددة للرموز التي قد تقتبس (وان كانت تحوّل لاحقاً) عن شعوب اخرى. وتبقى حقيقة مفادها ان جميع انظمة الابجدية في الوقت الحاضر، او معظمها تقريباً، يدين في النهاية الى الكتابة الفينيقية، وهذه الحقيقة افضل دليلٍ على هذه الاقتباسات. ولعل الشيء نفسه قد حصل عند الترتسيين.

قَبل الكلام عن الكتابة الترتسية، يجدر بنا ملاحظة عدم وجود تسمية لها متعارف عليها في الأدب العلمي المعاصر، اما تسميتها « ترتسية » فتسند على الأقل الى نظامين من الكتابة في جنوب اسبانيا. ويعتبر أ. توفار ان النقوش التي عثر عليها في لوزيتانيا الجنوبية، بالاضافة الى ما عثر عليه في وادي بيتيس، هي ترتسية، وانه ينبغي التفريق بوضوح بين كتابة هذه النقوش

---

(٤) لا بد من الاشارة الى عدم استعمال د. ب. پكهام للمواد الاسبانية، باستثناء نقشين من الهيكل ــ المغارة اس ــ كوئرام.

(٥) يغنينا العرض التاريخي الممتاز لهذه المشكلة الذي قدّمته ف.أ. كوزلوفسكيا عن القيام بذلك [18، ص. 138-151].

وبين ما نعرفه من كتابات،انطلاقاً من اساطير النقود وغيرها من آثار جنوب وجنوب شرق اسبانيا العائدة الى فترة اكثر تقدماً. ويفضل الباحث السلمنكي تسمية الكتابة الاخيرة جنوبية،او إيبيرية جنوبية [353، ص. 295-296; 354، ص. 5-6 ,10]. وعلى العكس من ذلك، فان و. شمول الذي اقتفى أثر م. غوميس مورينو، يسمّي الكتابة الأخيرة ترتيسية، والأولى لوزيتانية جنوبية [315، ص. 3-4][٦]. ويبدو لنا ان وجهة نظر أ. توڤار هي الأصح. فالنقوش المكتشفة في الجنوب الغربي،والتي تكاد تكون معاصرةً للدولة الترتيسية، لا ترقى الى ما بعد القرن السادس ق.م. [253، ص. 292-296]، في حين تعود النقوش الايبيرية الجنوبية الى فترةٍ ابعد (على الاقل تلك المعروفة في الوقت الحاضر). ويُعتقد ان مركز الحضارة الترتيسية كان قائماً في جنوب غرب شبه جزيرة البيرينه بالذات؛ اما وفرة النقوش في وادي بيتيس،فيمكن تفسيرها على انها صدف اللقايا، وان اكتشاف اثرٍ من هذا النوع في هذه المنطقة يبعث الآمال في اكتشاف لقايا مماثلة.

والنقوش الترتيسية هي عبارة عن شواهد قبور محفوزة على بلاطات حجرية لها بمجملها اتجاه الجانب الايسر (وان كان لها احياناً اتجاه الجانب الايمن) تتجعّد على شكل لولب ابتداءً من طرف البلاطة،بحيث تكون نهايتها على الجزء الداخلي من الحجر [315، ص. 6 ,41].وتحتوي هذه النقوش على ٢٥ رمزاً بنماذجها المحلية المختلفة [315، ص. 15][٧]، مما يدل على ان الكتابة الترتيسية كانت في اساسها هجائية، لكن مع بقايا عرضية للمقطعية، حسب افتراض أ. توڤار [253، ص. 295].وليس باستطاعتنا الآن طرح مسألة المدلول الصوتي لهذه الرموز، وسنكتفي من ذلك بما وُضع للدراسة من اهداف تتمثل بتحديد ما يمكن ان يكون من علاقات بين الرموز الترتيسية والحروف الفينيقية.

---

(٦) يسمّي هـ. ينسن الكتابة الفينيقية الليبية كتابةً توردیتانية (والتوردیتانيون هم أحفاد الترتيسيين) [226، ص. 145-148].

(٧) يضم جدول أ. توفار اكثر من ثلاثين رمزاً [354، جدول 1].

جدول ٣. الكتابة الترتيسية (حسب أ. توفار).

الفينيقية	MLI LXII	MLI LXIII	MLI LXIV	MLI LXIX	MLI LXXI	MLI LXXII	MLI LXXIV	Schulten I	Leite APV	Leite APXXIII a	Leite APXXIII b	Leite APXXIII c	AEA XXVI a	AEA XXVI b	Alcala del Rio MLI LXI
A	Δ A	A	Δ	A	A	A A	A	Δ	A	A	A	A	A	A	A
9							ει?								
Λ					7			^			^	^			^
9							A				A	A			Δ
≡	‡				+		‡	‡		‡	‡	≠	‡	‡	‡
ч				ч	ч	ʮ		ч		ч				ч	ʮ
I Z			Z												
目 目			HθH	H	HB	HH		ЖHЖ					)(	目	HH
⊕			φ				Θ								Θ
Z	ЧИ	Ч	ЧЧ		Ч	И	Ч	Ч	Ч	Ч		Ч	И	Ч	N
K	K	)I	)I	)I ((	)I	)(							K		K
L	1	1			1	1	1	11						1	1
Ч															
Ч	MN	M	H	M		N	M	M	M	M	M	M	N	M	N
‡	ξ						ξ	ξ‡		‡				ξ‡	‡‡ξ
O	O	O	O	O	O	O	O	O	O	O	O	O	O		O
7		7				ς	٦								P
M	M			M		M		M							M

الفينيقية	MLI LXII	MLI LXIII	MLI LXIV	MLI LXIX	MLI LXXI	MLI LXXII	MLI LXXIV	Schulten I	Leite APV	Leite APXXIII a	Leite APXXIII b	Leite APXXIII c	AEA XXVI a	AEA XXVI b	Alcala del Rio MLI LXI
φ							⧗	⧗							
ᑫ 9	Կ		9	9	9	ᐅ(	99	99	9	9	9	9	9	4	P
W·V	}			ϟ		ς		ϟ							
+ †							T								X
	≸≸ᚨ					ᚨ				≢	≢				⊧
	A						Λ	A							
			*												
					YY				ϒ		ϒ				
						N									
								≚							
								φ						φ	
								O							
								Y							
			⋈	⋈										⋈	⋈
														↑	↑
								□							
											□				
															ᵒo

وما يسهّل مهمتنا هو وجود جداول وضعها أ. توقار، رُتِّبت فيها الاحرف الترتسية وفقاً لتسلسل الابجدية الفينيقية [354، جدول 1]. وقد تشابه العديد من الرموز تشابهاً عجيباً، ويبدو هذا التشابه خاصةً في الاحرف (الفينيقية) التالية: الجيم، الواو، العين، التاف، وغيرها. وفي حالات اخرى يمكن التحدث بثقة عن علاقات مع مثل هذه الاحرف الفينيقية، كالحاء، والزين، والياء، والألف، والشين. ولو قارنا الأحرف الترتيسية بالاحرف الفينيقية الاسبانية لظهرت العلاقة مع الاشكال الأكثر قدماً، كما هي الحال مع الواو او الحاء. ونلاحظ في كتابة العين والرمز القريب منه عند الترتيسيين، ان دائرة هذا الحرف في النقوش الفينيقية، كما في الترتيسية، تحتل فقط نصف المساحة المخصصة لكتابتها، ونادراً ثلثيها [315، ص. 7]. ويؤكد كل هذا وجود علاقة بين الكتابتين الترتيسية والفينيقية.

ويحتمل ان تكون لجميع رموز الكتابة الترتيسية الدلالة نفسها التي لمثيلاتها في الكتابة الفينيقية. ولعل في النظام الأول اشارات خاصة للاحرف الصوتية ولبعض المقاطع الصوتية، اي لما لم يكن موجوداً عند الفينيقيين في النصف الأول من الألف الأول ق.م. وقد يكون الترتيسيون اقتبسوا بعض الاحرف الصوتية والمقاطع اللفظية عن الفينيقيين وبدّلوا معنى الرموز المقتبسة،كما فعل ذلك مثلاً اليونان الذين استعملوا بعض السواكن للرمز الى احرفهم الصوتية. ولقد تمَّ تحويل الحروف الفينيقية عند الترتيسيين على ما يبدو، على غير النحو الذي تمَّ عليه عند اليونان [315، ص. 20-21]، ولذلك فان مدلول الاحرف الترتيسية قد لا يتفق مع الفينيقية واليونانية، رغم تشابه الأشكال. فالى اي حدّ يمكن القول بوجود او عدم وجود تطابق؟ ان الاجابة على هذا السؤال ستكون ممكنة فقط في حال فكّ رموز الكتابة الترتيسية بطريقة لا تقبل الجدل. فما اشار اليه الباحثون من تشابه في اشكال الرموز الكتابية الترتيسية بالاشكال التي تصادف في آسيا الصغرى، وخاصةً عند الكاريين [32، ص. 26، ملاحظة 30]، يفسّره انطلاقهما المشترك (في نهاية الأمر) من الابجدية الفينيقية[٨]. ويجعل الوقت المفترض لظهور الكتابة الترتيسية ما

---

(٨) يبدو ان علاقة ترتيسيا مع كاريا هي في غاية الاشكال.

بين القرنين التاسع والثامن ق.م. [18، ص. 149] اقتباسَ الاشكال الفينيقية امراً ممكناً.

اما فيما يتعلق بالكتابة الأيبيرية الجنوبية، فقد كانت مختلطة، هجائية — مقطعية، وشكلت خطوةً الى الوراء بالمقارنة مع الكتابة الترتيسية [345، ص. 6-5 ,13]. ولعل لهذا صلة بانقراض الدولة الترتيسية؛ لذلك فان علاقة هذه الكتابة بالفينيقية تبدو بوضوح،اقل ارتباطاً منها بالترتيسية. ومع ذلك نستشف هذه العلاقة من خلال شكل بعض الرموز (كالحاء والعين والپه والراء مثلا)، كما في نزعة النقوش نحو الجانب الايسر [226، ص. 272 ورسم 248].

وهكذا يتضح ان الفينيقيين الاسبان اثروا على جيرانهم في الكتابة، كما كان لهم في المجالات الحضارية الاخرى تأثير كبير جداً.

واستمرت الكتابة الخاصة بالصوريين والمستعمرين القرطاجيين،قائمةً فترة طويلة،حتى بعد الاحتلال الروماني، اما اختفاء الاحرف الفينيقية عن النقود فيتوافق مع توقف السك المحلي في القرن الأول بعد الميلاد. وفي الواقع، لم نعد نعثر على آثار كتابية ترقى الى فترة متأخرة لهذه الدرجة، وقد نرجع ذلك الى الصدفة. وما اشير اليه عن حقيقة عبادة الالهة الفينيقية، حتى قيام سلطة روما، يجعلنا نأمل بالعثور على نقوش اهدائية مثلاً. الاَّ انه في القرن الأول ق.م.،وحتى في قادس، بدأت تظهر نقوش يونانية، وبصورة رئيسية لاتينية. وقد عثر على الكثير من هذه الاخيرة في المدن الفينيقية الاسبانية. من بينها اثر كبير ينبغي التنويه به هو قانون مالاغا البلدي الذي وضع ايام ڤيسپاسيان. وقد وضعت معظم النقوش التذكارية طبقاً للنماذج الرومانية، مما يعكس اثر الرومان الذي بلغ حدًّا بعيداً في تطوير هذه المدن. وستشكل دراسة هذا التأثير الروماني موضوع الفصل التالي.

الفصل السادس

الحضارة الفينيقية في اسبانيا الرومانية

تناولنا في الفصول السابقة تاريخ الفينيقيين الاسبان وحياتهم اليومية وديانتهم وفنّهم وكتابتهم خلال العصر الذي سبق الغزو الروماني. اما الآن، فسنتناول مصير الحضارة الفينيقية الاسبانية في ظل الحكم الروماني.

لقد ابتدأت عام ٢١٨ ق.م. الحرب البونية الثانية، وطالت عملياتها العسكرية شبه جزيرة البيرنيه. ولما اتضحت نتيجة الحرب في اسبانيا، آثرت قادس، مُنافِسة قرطاجة منذ القدم، الاتفاق مع روما. وبينما كانت الجيوش الرومانية تجتاح عام ٢٠٦ ق.م. وادي بيتيس، وصل الى روما هاربون من قادس ووعدوا بتسليم المدينة والحامية القرطاجية (Liv. XXVIII, 23, 6). واكتشفت المؤامرة، وأرسل المتآمرون الى قرطاجة، لكن محاولة هؤلاء التي دعمها الرومان لم تنجح في الاستيلاء على المدينة (Liv. XXVIII, 30, 4, 31). وما ان خرج القائد القرطاجي ماغون من قادس، حتى اصبح غير قادر على العودة اليها، فقد منعه السكان من الدخول، فاضطر للتوقف بالقرب من سيمبي. وبعد ابتعاده عن ضواحي قادس، استسلم القادسيون للرومان (LIV. XXVIII, 37).

لم يعنِ استسلام قادس تحوّلها الى مدينة تُفرض عليها ضرائب الحرب، لأن القادسيين كما نعلم، كانوا في القرن الأول ق.م. « شعباً حليفاً »، على

حدّ ما يشير اليه شيشرون في مرافعته (عام ٥٦ ق.م.) دفاعاً عن المواطن القادسي بالبو (pro Balbo VIII, 19)، وهكذا كان يعتبر سكان المدينة انفسهم، وينسب الخطيب هذه الكلمات الى الرجل القادسي الذي يتهم بالبو. وفي ذلك الوقت،كانت هناك معاهدة بين روما وقادس. الاّ ان تلك المعاهدة كانت قد عُقدت أيام القناصل مارك ليبيد وكوينت كاتول، اي عام ٧٨ ق.م. فكيف كانت تسوّى العلاقات بين قادسٍ وروما قبل عام ٧٨، وهل سبقت هذه المعاهدة اتفاقية أخرى، كما يُعتقد عادةً؟ [23، ص. 331-332 ,170 ص. 17 ;217، عمود 455 ;351، ص 100].

وعلى ذكر المعاهدة التي عقدها القادسيون مع القائد مارسيوس الذي كان يعمل بالنيابة عن شيبيون في وادي بيتيس، يأتي ذكر شيشرون على نحو غير محدد (pro Balbo XV, 34; XVII, 39). ولا يريد الخطيب بادىء بدء تأكيد امر وجود هذه المعاهدة ابداً، ويفضل عند التحدث عنها الاحتماء وراء صيغة المجهول « يُقال »: يُقال ان لوسيوس مارسيوس عقد مع القادسيين اتفاقاً (XV, 34). ولم يكن شيشرون متأكداً، عند كشفه عن المعاهدة المعقودة في عهد قنصلية ليبيد وكاتول، ما اذا كان الاتفاق قد عقد وقتئذٍ ام انه جُدِّد. ويتضح ان شيشرون يحدد على نحو خاطىء زمن عقد المعاهدة الأولى،فهو يرجعه الى الفترة التي كان فيها مارسيوس قائداً مؤقتاً للجيش الروماني في اسبانيا، اي الى عامي ٢١٢ — ٢١١ ق.م. غير ان القرطاجيين في ذلك الوقت بالذات اصابوا نجاحاً، ولم يصمد الرومان في شمال شرق شبه جزيرة البيرنيه الا بصعوبة كبيرة. واذا كان ثمة من اتفاق، فلعله عقد عام ٢٠٦ ق.م. بالذات،حين وصل المنشقون القادسيون الى المعسكر الروماني. وقد مرض شيبيون قائد الرومان يومذاك. فأجرى مارسيوس المحادثات على ما يبدو. وتجدر الاشارة الى ان مجلس الشيوخ، كما يقول شيشرون نفسه، لم يعطِ حكمه حول الاتفاق مع قادس الاّ عام ٧٨ ق.م.؛ وبالتالي، اذا كان هناك من اتفاق عقده مارسيوس فان مجلس الشيوخ لم يوافق عليه.

ولا بدَّ هنا من الاستعانة بالمصدر الوحيد « تيتوس ليڤيوس » الذي يتحدث بشيء من التفصيل، عن الحوادث المتصلة بانضمام قادس الى الجمهورية الرومانية. واذا كنا قد تحدثنا آنفاً، عن ظروف التحاق قادس بروما، فأن علينا ان نضيف تأكيدات الوفاء التي تبادلها الفريقان اثناء محادثات مارسيوس مع المبعوثين القادسيين (XXVIII, 23, 8). وفي العام ١٩٩ ق.م.، اوفد القادسيون وفداً قنصلياً الى روما يطالب مجلس الشيوخ « بعدم ارسال حاكم الى قادس، خلافاً لما تمَّ التوافق عليه مع لوسيوس مارسيوس سپتيم عند استسلامهم (اي القادسيين) لرعاية الشعب الروماني (XXXII, 2, 5). وهكذا، يدل ما ورد هنا ان ما تمَّ التوافق (Convenisset) عليه مع مارسيوس، يقتصر على انتقال القادسيين الى تحت رعاية الرومان فقط، انما دون اي ذكر للمعاهدة. وهناك اشارة في دائرة الكلام (Période) XXVIII من الكتاب، الى عقد معاهدة صداقة (amicitia) مع قادس، زد على ان هذا يُذكر الى جانب عمل مماثل تجاه الملك النوميدي ماسينيسّا. ولم تُعقد مع هذا الاخير، وفق نص الكتاب، اية معاهدة رسمية. انما، ونتيجة محادثات شيپيون الشخصية مع الملك، وُضعت شروط للخدمات المتبادلة، رافقتها مجدداً تأكيدات الوفاء (XXVIII, 35). وقد استعمل ليڤيوس هنا التعبير نفسه الذي ورد في الرواية عن محادثات مارسيوس مع القادسيين، وهو تأكيدات الوفاء (XXVIII, 35, 12) «fide accepta dataque». ويتحدث ساليوستيوس كذلك عن عقد صداقة بين شيپيون وماسيتيسّا، لا عن معاهدة رسمية (Iug. 5, 4-5).

ولا بدَّ من الاشارة كذلك الى عدم ذكر أپيان لأي اتفاق مع قادس، واكتفائه بملاحظة بسيطة حول احتلال الرومان لهذه المدينة (Hisp. 37).

ويستنتج من مجمل ما ذكر، ان اية معاهدة رسمية لم تعقد عام ٢٠٦ ق.م. بين الحكومة الرومانية والقادسيين، وان الامر اقتصر على اتفاق « صداقة » بين القائد الروماني وسكان قادس، زد على ذلك، ان مجلس الشيوخ لم يصادق على هذا الاتفاق. لقد كانت معاهدة الصداقة «amicitia» احد نماذج

العلاقات التعاهدية بين روما والحلفاء، وكانت فوق هذا، كما يشير س.ل. اوتشينكو، النموذج الأكثر عموميةً والأقل تطلباً [27، ص. 205][1].

وقد يسأل سائل: لماذا طلب القادسيون من مجلس الشيوخ عام ١٩٩ عدم ارسال حاكم اليهم؟ وهل كان ارسال الحاكم مشروطاً بالاتفاق مع مارسيوس، ام ان الرومان، وخلافاً للاتفاق، قرّروا الامساك بزمام الأمور على نحو اكثر صرامةً في المدينة الفينيقية القديمة؟ ويكتب ليڤيوس: «Gaditanis item petentibus remissum, ne praefectus Gadis mitteretum adversus id quod iis in fidem populi Romani venientibus cum L. Marcio septimo convenisset». وتجيز هذه الجملة من وجهة الصرف والنحو نوعين من الترجمة. الترجمة الأولى: « بناء لطلب القادسيين، أُجري تنازل يقضي بعدم ارسال حاكمٍ الى قادس، رغم التنسيق الذي جرى مع مارسيوس بخصوص هذا الامر عند انتقالهم الى حماية الشعب الروماني ». والثانية: « استجيب لطلب القادسيين حول عدم ارسال حاكمٍ الى قادس، لان هذا الارسال كان مخالفاً للاتفاق مع مارسيوس ». وتتيح لنا الأدلة غير المباشرة، ذكر عقد « الصداقة » والوضع التاريخي العام عام ٢٠٦، التحدث عن افضلية الترجمة الثانية [23، ص. 331-332]. ولا بدَّ من الاضافة، ان قادس كانت تعتبر من حيث تركيب الدولة القرطاجية، كما جاء في الفصل الاول، متساوية الحقوق شكلياً مع العاصمة. واغلب الظن ان المبعوثين القادسيين كانوا يتطلعون الى ضمان مثل هذا الوضع خلال محادثاتهم مع القائد الروماني. ويبدو ان مضمون الاتفاق مع مارسيوس قام في نظر القادسيين، على استبدال الحامي (protecteur)، مع المحافظة، في حقيقة الامر، على عدم تغيير وضع قادس ذاتها.

منذ ذلك الوقت، وخلال ١٢٨ سنة، كانت هذه المدينة في وضعية المشاعية (communauté) المرتبطة بروما « بالصداقة ». وفي العام ٧٨ ق.م. عقد اتفاق رسمي (foedus). ولعل مبادرة توقيعه جاءت من روما، وذلك

---

(١) عن نماذج العلاقات التعاهدية بين روما « والحلفاء » راجع: [27، 205-206, 209-210, 255 ص. 44-46، 347-348].

بمقتضى ما اشار اليه شيشرون الذي، في سياق تعداده للاسباب التي من اجلها يعامل الرومان قادس باحترام، ينوّه بنفوذ القنصل كاتول (pro Bolbo XV, 35). وقد حصل ذلك في الوقت الذي اندلعت فيه ثورة سرتوريوس في اسبانيا،التي انتصرت على المحاولات الاولى للقضاء عليها، يضاف الى ذلك وفاة سولاً في تلك السنة. وفي مثل هذا الوضع غير الثابت، كان يهم الحكومة الرومانية الاّ تسمح للمدينة الغنيّة، الجيدة الموقع، بالانفصال عنها. وهكذا استُبدلت « الصداقة » المتقلبة « بتحالف » واضح. ويعلن شيشرون (pro Balbo XVI, 35) شروط هذا الاتفاق، وهي: سلام مقدس ودائم، وصيانة عظمة الشعب الروماني؛ وتُلاحظ الاشارة المقصودة الى عدم احتواء الاتفاق على شيء آخر. وقد اقرّ مجلس الشيوخ اتفاق عام ٧٨، وصدّقت عليه الجمعية الوطنية (pro Balbo XV, 34-35; XVI, 35). وفي هذه الحالة ينبغي الوثوق كلياً بالخطيب، لان هذه الاحداث جرت قبل ٢٥ سنة فقط،من القاء الخطاب، بحيث انه كان باستطاعة المتحدّث وسامعيه تذكّر ذلك جيداً.

وهذا الاتفاق بلا شك اتفاق غير متكافىء، ويظهر عدم تكافئه هذا بشكل واضح في الصيغة المهذبة التالية: maiestatem populi Romani comiter conservanto [225، ص. 346-347]. ويؤكد شيشرون بحزم (pro Balbo XVI, 36)، في سياق دحضه التفسير الملائم الذي اعطاه القادسي للنص، تفوّق روما خلال كلمة conservanto التي تستعمل في القانون اكثر منها في المعاهدة، والتي تدلّ ان روما لا تطلب، بل تأمر « بالمحافظة على عظمتها »؛ اما كلمة comiter فينبغي فهمها « بأدب » وليس « ابلاغاً »، لان الشعب الروماني لا يحتاج الى القادسيين للمحافظة على عظمته.

ورغم التأكيد المتعجرف للتفوّق الروماني، فقد قيّدت شروط المعاهدة الرومان بطريقة ما. ويذكر شيشرون قبل ذلك بقليل (pro Balbo XV, 34-35) ان معاهدة مارسيوس التي لم يصادق عليها الشعب لم تقيّد الشعب بشيء، خلافاً لمعاهدة كاتول. وقد لاءمت الحالة الأخيرة، على ما يبدو، القادسيين كذلك، وذلك لأنهم فضّلوا جعل وضعهم قانونياً في الجمهورية الرومانية،

باعترافهم بسيادة روماءبدل الاحساس بأنهم متروكون لتعسفٍ لا تحدده اية معاهدات مبرمة.

واعتبرت حوادث عام ٧٨ ق.م.،من وجهة نظر الحقوق الدولية، تحوّلاً الى نوع آخر من العلاقات الميثاقية: من « الصداقة » الى « التحالف ». فتحولت قادس الى « مشاعية متحالفة » بكل معنى الكلمة.

ويشهد استمرار سك العملة السابقة، لا البرونزية فقط وانما الفضّية ايضاً، التي حملت صورة رأس هرقل — ملقارت، على الحكم الذاتي لقادس. واستمر اصدار العملة طبقاً للنظام البوني اليوناني،الذي اعتمد قبل الأحتلال الروماني [363، الجزء الأول، ص. 51-54].

وطبيعي ان الحكم الذاتي لم يُنقذ قادس كليًّا من تدخّل النواب الرومان لأسبانيا البعيدة. ويقول شيشرون ان القيصر منع مثلاًءتأدية الشعائر « البربرية » القديمة في قادس عندما كان حاكماً لهذه المقاطعة عامي ٧١ — ٦٠ ق.م. وفي عام ٤٩ ق.م. نقل وارّون من معبد هرقل القادسي الى المدينة،جميع الاموال والحلى، وجَمَعَ السلاح من جميع السكان، وأدخل الى قادس ست كتائب من الاقاليم بإمرة غاي غالونيوس (Caes. bel. civ. II, 20). تلك كانت الحوادث التي وصلتنا، ويُعتقد ان اعمالاً اخرى مشابهة قام بها الحكام الرومان ونوابهم.

وتعتبر المعلومات المتوافرة عن وضع المدن الفينيقية الاسبانية اقل بكثير. ويذكر پلينوس (III, 8) مالاغا « كمدينة الفدراليين ». وايام وُضعت خارطة اغريپا،التي يستند اليها پلينوس (المرجع نفسه)، اي تحت حكم قيصر، كانت مالاغا « مشاعية اتحادية ». وتشهد نقود سيكسي الفضيّة العائدة الى القرن الثالث / لقرن الثاني التي اكتشفت منذ فترةٍ قريبةٍ نسبياً، ان السك القديم للعملة هنا، كما في قادس، استمر وفق النمط البوني اليوناني [153، ص. 322]. مما يدل ان سيكسي حافظت على حكمها الذاتي الذي كفله ربما اتفاق او معاهدة « صداقة ».

وفي الوقت نفسه، نعرف ان هاتين المدينتين الفينيقيتين بالذات شاركتا في الانتفاضة التي جرت في اسبانيا الجنوبية ضد الحكم الروماني بقيادة الزعيمين النورديتانيين كولخاس ولوكسينيوس، وفقاً لما ذكره ليڤيوس (XXXIII, 21, 6). ويمكن افتراض سير الاحداث على النحو التالي: كانت هذه المدن الفينيقية، مثل قادس، خاضعةً للرومان،ومن ثم اصبحت « حليفة » للشعب الروماني. وانتقلت اخيراً لتكون تحت حمايته. ولو لم يكن هناك اتفاق محدّد بين روما وقادس،لكان من الممكن الاعتقاد بأن الرومان اكتفوا بمعاهدة « صداقة » مع مالاغا وسيكسي ايضاً. ولكن ما ان توطّد الرومان (او بشكل ادق، اعتبروا انفسهم قد توطدوا)، مستفيدين من غموض التعهدات المتبادلة، حتى راحوا يتدخلون في الشؤون الداخلية للمدن، ربما عن طريق ارسال حكام،كما فعلوا في قادس. ولقد تمكن القادسيون، كما رأينا، ان يحصلوا من مجلس الشيوخ على تنازل عن ارسال المأمور الروماني. لكن يبدو ان المالقيين والسيكسيين لم يوفقوا في ذلك، مما جعلهم ينضمّون الى انتفاضة التورديتانيين. ولعل الرومان اعتبروا،خلال سير المعارك،ان من الملائم اعطاء تنازلات للفينيقيين واحياء وضع الحكم الذاتي لمالاغا وسيكسي « كمشاعيتين حليفتين ». ويفسّر هذا الافتراض في نظرنا انضمام هاتين المدينتين الى الانتفاضة ومحافظتهما لاحقاً، على وضعية « الحليفتين »(٢).

ولا توجد اية معلومات عن الوضع القانوني لأبديرا في تركيب الدولة الرومانية. ويذكر پلينوس (III, 8) هذه المدينة بكل بساطة،دون ان يحدّد وضعها القانوني. وما يذكره الكتّاب الآخرون، بمن فيهم سترابون (III, 4, 3; 6) الذي يتحدث عن منشأها فقط، لا يوضح اي شيء جديد. وقد وصلتنا نقود ابديرية (نسبة الى مدينة ابديرا ــ المترجم) تحمل نقوشاً فينيقية. وتشبه هذه النقود النحاسية الصغيرة تلك التي كانت تُسكّ في العديد من مدن اسبانيا [363، جزء III، ص. 16-17]، ولذلك لا يجوز الاستناد اليها

(٢) ان افتراض تحالف مالاغا وسيكسي أبداه أ.ف. ميشولين [23، ص. 335]، لكن دون اية براهين.

لاستنتاج اي شيء حول وضع ابديرا القانوني. ويمكن الاعتقاد بالتأكيد، ان وضع هذه المدينة قد لا يكون مختلفاً عن وضع سائر المدن الفينيقية الاسبانية، لكن هذا افتراض غير مسنود.

لا يذكر الكتّاب القدامى عند تحدّثهم عن الوقائع الحربية في شبه جزيرة البيرنيه اي شيء تقريباً، عن اقتحام المدن الفينيقية الاسبانية. واذا ما نظرنا الى الطابع التفصيلي لهذه الاحاديث، وجب الاعتقاد انه لو كانت قد جرت مثل هذه العمليات الحربية، لما كان فات الكتّاب الحديث عنها. لذلك يمكن الافتراض بأن الرومان اخضعوا المدن الفينيقية في جنوب اسبانيا، وجزئياً في جنوبها الشرقي، بالطرق السلمية. ولقد كان لهذا الاخضاع الجزئي، على ما يبدو، اثره على وضع هذه المدن في تركيب الجمهورية الرومانية. والاستثناء الوحيد الذي نراه، هو الاستيلاء بالانقضاض على قرطاجة الجديدة، عاصمة دولة البركيديين.

ولكن كيف كان وضع قرطاجة الجديدة في تركيب الدولة الرومانية؟ لقد سكت پوليبيوس (X, 17, 7) وليڤيوس (XXIV, 47, 1) عن ذلك قائلين فقط، ان شيپيون رفق بالمواطنين بعد استيلائه على المدينة، فأعاد اليهم ممتلكاتهم ودعاهم الى مبايعة الرومان. وفي السنوات التالية جعل من قرطاجة الجديدة مقر القيادة العامة للجيش الروماني ونقطة انطلاق الحملات الشيپيونية في اسبانيا [219، عمود 1621]. فكان على الرومان بالطبع ان يُخضعوا لسيطرتهم القاعدة التي يستندون اليها. ويؤكد هذا الافتراض الأولّي ما أوردته المصادر من معلومات غير مباشرة. ويقول شيشرون ان كلا الشيپيونين أبليا البلاء الحسن عن الاستيلاء على الأراضي الرومانية الواقعة قبالة قرطاجة الجديدة (de leg. agr. I, 5; II, 51). ويروي سترابون (III, 2, 10)، مستشهداً ببوليبوس، ان مناجم الفضة في ضواحي هذه المدينة تخص الشعب الروماني، اي انها كانت ملكية جماعية[٣]. وفي عهد الجمهورية الرومانية، وقبل ان تصبح

(٣) هناك مناجم كثيرة، وخاصةً مناجم رصاص، انتفع بها لاحقاً بعض المواطنين الرومان او جماعات من جباة الضرائب (publicains)، وقد عرفنا ذلك من لقايا السبائك ذات النقوش [132، ص. 41-68].

المدينة مستعمرةً، كانت تسمّى اوپّيدوم (oppidum) (وليس civitas foederata مثلاً) وتقع تحت حكم الرباعيين (Quatuoriers) (CIL II, 3408)، وبالتالي لم يأتِ الكلام على موضوع الحفاظ على القانون المحلي ابداً. ويتيح لنا كل هذا (اغتصاب الارض والمناجم، تسمية المدينة، وجود موظفين على الطراز الروماني) الى جانب الفرضيّات الأولية،اعتبار قرطاجة الجديدة مدينة أتاوة. وعلى ضوء ما عثر عليه من اشارات نسر للفيالق،وغيره من الشارات العسكرية، يمكننا القول ان الجنود الرومان عاشوا في هذه المدينة [361، ص. 79]، وان واقع الحال دفع السكان الفينيقيين الى الاختفاء بسرعة،او الى الظهور بالمظهر الروماني، لاننا نكاد لا نرى في هذا العصر الروماني آثاراً للحضارة الفينيقية.

لم تعمّر أكرا ـــ ليفكا التي أسسها هملقار بعد سقوط البركيديين بكثير ، فقد اظهرت مدافن هذه المدينة التي نُبشت في ألبوفرات، انها هجرت في مطلع القرن الثاني ق.م. على ابعد تقدير [180 ص. 449]. وقد استمر الاستيطان في باريا قائماً في العهد الروماني،كما تشهد على ذلك لقايا الخزف الروماني في مدافن هذه المدينة [50، ص. 12-13 ,39 ,186-187]. فعلى إناء يوناني اكتُشف فيها بالذات، عُثر على حرف ألف بوني حديث، وعلى عروة جرّة وُجدت دمغة فينيقية (حرف حاء) كانت تصادف بكثرة في قرطاجة [332، ص. 289-290]. وتحملنا القرينة الاخيرة على الافتراض ان الحديث لم يكن يدور على الحفاظ على السكان البونيين بالذات، بل على العلاقات التجارية لباريا الرومانية مع قرطاجة.

وكان من الطبيعي ان تشترك قابس، وهي المستعمرة القرطاجية، في الحرب مع الرومان. وكان لا بدَّ لها ان تسترعي انتباه الرومان لوقوعها على « رأس جسر » يربط شبه جزيرة البيرنيه بايطاليا. ولم تكن محاولتهم الاستيلاء على قادس عام ٢١٧ ق.م.، اي في السنة الثانية من الحرب، من باب الصدفة كما يروي ليفيوس (XXIII, 20, 7-9)، لكنهم اضطروا للاكتفاء بتدمير ضواحيها. ولا نعلم شيئاً اكثر من هذا عن دور قابس الفعّال في العمليات الحربية، وما يفسّر هذا الموقف هو عدم تمييز الرومان في هذه الفترة، ومن

بعدهم المؤرخين الرومان — اليونان، بين القابسيين والقرطاجيين، ولذلك لم يتعمدوا ذكرهم [251، ص. 132]. وفي نهاية الحرب، وبخلاف القادسيين، لم يخن القابسيون القرطاجيين. وفي ذلك يقول ليڤيوس (XXVIII, 37, 4)، ان ماغون الذي أبحر من قادس توقف لبعض الوقت في بيتيوس فلم يتلقَ فيها المؤونة وحسب، بل امدادات ايضاً من سفن، وسلاح، وشبان، ربما كملاّحين لتلك السفن. وفي ظل ظروف كهذه، كان على الرومان بعد استيلائهم على المدينة ان يطردوا القرطاجيين من الجزيرة عموماً، او ان يخضعوا المدينة كلها لسلطانهم. لكن پلينوس (III, 76) يفيد ان قابس كانت « مشاعية حليفة ». ولم تحمل نهاية القرن الثالث ق.م. اية تغيرات في طريقة السك القابسي وظلّت النقود تصدر طبقاً للنظام السابق مع المحافظة على الاساطير الفينيقية. ولم يتغيّر هذا النظام ويصبح رومانياً الاّ في عهد اغسطس، ومع ذلك،فقد حافظ السك على النقش الفينيقي، والصورة السابقة لاله الملاحة، والمطرقة، والثعبان [363، جزء I، ص. 60-62؛ جزء III، ص. 17]. وتتيح لنا هذه المعطيات القول بأن قابس دخلت في تركيب الجمهورية الرومانية كمدينة « حليفة » [251، ص. 136]. لكن روما لم تكن تملك في تلك الفترة الواقعة في أواخر الحرب البونية الثانية اسطولاً كافياً لاحتلال قابس، ففضلت الاتفاق معها. لكننا لم نعلم شروط ذلك الاتفاق وتعديلاته المحتملة.

وهكذا اصبحت المستعمرات الصورية السابقة (مع اخذنا بالاعتبار كل الشكوك والتحفظات الممكنة بالنسبة لأبديرا) وقابس « مشاعيات حليفة ». ولم تكن تدخل في تكوين اقاليم اسبانيا القريبة والبعيدة، وحافظت على حكمها الذاتي، وقانونها، وسك نقودها. وهذه المدن التي حافظت على حكمها الذاتي من الاعتداءات الأولى للقناصل الرومان (قادس بواسطة الالتماس ، ومالاغا وسيكسي بنتيجة الانتفاضة) واصلت حياتها كالسابق. ونعلم من خلال خطاب شيشرون في دفاعه عن بالبو (XVI, 32)، ان قادس قد حكمت في الخمسينات من القرن الأول ق.م.، طبقاً للقانون الفينيقي، اي انها حافظت على النظام السياسي نفسه الذي تحدثنا عنه في الفصل الثاني. ويشدّد سترابون (2،

111, 4) على احتفاظ مالاغا بمظهرها الفينيقي. ويبدو ان هذا الجغرافي استمدّ معلوماته من پوسيدونيوس، او ارتيميدور، او اسكليپياد ميرلاي [108 a، ص. 600-604; 262 ص. 49-59]، وهي ترقى بالتالي الى اواخر القرن الثاني / مطلع القرن الأول ق.م. وقد نقشت على النقود التي سكّتها المدن الفينيقية الاسبانية حتى نهاية الجمهورية وعهد اغسطس وخلفائه القريبين، اساطير فينيقية هي خير شاهد على بقاء اللغة الفينيقية في هذه المدن. وقد عُثر في سيكسي وأبديرا وقابس على نقوشٍ فينيقية ولاتينية من تلك الفترة، لكنها في مالاغا كانت فينيقية فقط [363، جزء I، ص. 60، 62، جزء III، ص. 14، 16-20، 32.27 جزء IV، ص. 12-14]. وفي قادس، كما في مالاغا، استمرت الفينيقية بعد اعتماد النظام الروماني لغة النقود، كما في السابق، اما الاساطير الفينيقية فلم تختفِ الاّ بعد توقف السك المحلي في اواسط القرن الأول ق.م. [206، ص. 85 ,362، ص. 293 ;363 جزء III، ص. 8-9]. وفي عهد اغسطس بدأت تظهر نقوش لاتينية على النقود التي حملت الى جانب صورة هرقليس — ملقارت المألوفة صُوَرْ اغسطس، واغريپا، وغاي، ويوليوس قيصر، وطيباريوس [206، ص. 55-89 ;362، ص. 293]. الاّ ان هذه القطع لم تكن برأي أ.م. غوادان نقوداً بالمعنى الصحيح للكلمة، بل كانت ميداليات تذكارية فقط، لفترة اصدارٍ قصيرة جداً — من عام ٨ ق.م. حتى عام ٤م [206، ص. 56 ,74].

وحافظت المدن الفينيقية الى حدٍّ كبير على العبادات والطقوس القديمة. فهرقليون القادسي، هيكل هرقليس — ملقارت، اشتهر في العالم الروماني كله. ويرقى اوج شهرته في المجتمع القديم الى القرن الأول ق.م. [101، ص. 646]، لكنه ظلّ قائماً حتى نهاية الوثنية، وقد زار هذا الهيكل كلٌ من پوليبيوس، پوسيدونيوس، قيصر، ابولونيوس التيّاني وغيرهم من مشاهير الرومان واليونان [188، ص. 150-151]. والبارز أن العبادة في هذا الهيكل كانت تؤدّى دائماً حسب الطقس الفينيقي، حتى في الوقت الذي كان جميع زوّار المعبد، وربما القادسيون، يأثرون تسمية الاله ملقارت، وليس هرقليس أو هرقل (III, 21-24, Arrian. Alex. II, 16, 4 App. Hisp. 2; Diod. V, 20, 2: Sil It)

وفي العصر الروماني كانت عبادة هذا الاله قائمة في أبديرا وسيكسي ايضاً [188، ص. 135].

ومن خلال النقود اساساً، تمَّ التحقّق من عبارات فينيقية اخرى استمرت شائعةً في مدن اسبانيا خلال العصر الروماني. فعلى نقود مالاغا مثلاً، نجد وجه رجل ملتحٍ أو أمرد وكمّاشة بمثابة شعارٍ له. وهذا الرجل هو بلا شك،هوصر الفينيقي الذي اعتُبر فيما بعد مطابقاً لفولكان (بركان) الروماني [192، ص. 10]. وعلى نقود سيكسي وقادس يمكن رؤية رأس او قوام كامل لآلهة محاربة، يغلب الظن انها عشتروت [192، ص. 13]. وتشهد النقوش اللاتينية التي تذكر جواري فينوس [228، رقم 30 ,34، ص. 303] على بقاء معبد عشتروت في قادس ايام الرومان. ويرقى الشاهد الوحيد على عبادة ملقاعشتروت الى القرن الثاني ق.م.، وهو خاتم ذهبي تحدثنا عنه كثيراً في الفصول السابقة. ويتحدث سترابون (III, 5, 3) عن وجود كرونيون، اي معبد بعل، همّون، في قادس. وتشهد على هذه العبادة نقود مالاغا وسيكسي وقابس [192، ص. 5]. ويرقى النقش الفينيقي الذي يأتي على ذكر الآلهة تينّيت وهاغاد (KAI 72 B) الى عام ١٨٠ ق.م.،اي الى الفترة التي اصبحت فيها قابس « حليفة » لروما. وهناك اشارة الى عبادة الاله « بس » في قابس في العصر الروماني، وهو الاله الذي تظهر صوره على النقود والطين النضيج [192، ص. 14].

ووصلتنا معلومات عن الاضاحي البشرية في قادس ايام الرومان. فقد كانت تلك الاضاحي مرتبطةً بعبادة ملقارت او بعلٍ ــ همّون. وقد مثّل احراق فاديوس عام ٤٣ ق.م. على ما يبدو تضحيةً من هذا القبيل (Cic. ad fam. X, 32, 3). واغلب الظن ان القرابين البشرية كانت تلك الطقوس « البربرية » القديمة التي حظّرها قيصر عام ٦١ ــ ٦٠ ق.م.،على حد ما روى شيشرون (pro Balbo XIX, 43).

وتشير حفريات مدن الاموات القادسية والقابسية الى المحافظة على الطقوس السابقة في العصر الروماني. ففي قادس، وفي المكان نفسه الذي وجدت

فيه مقابر العصر السابق، انما في طبقة اعلى، اكتُشفت قبور ترقى الى العصر الروماني الجمهوري، استُعملت فيها طريقة الدفن التقليدية. وفي جزيرة ليون، بالقرب من قادس، اكتشفت حجرة مثلثة تحت الارض من الطراز الفينيقي، لكنها تعود الى العصر الروماني. واستمر الدفن في مدينة الاموات القابسية پويغ — دس — مولينس حتى بعد خضوع قابس لروما، ووفق المراسم القديمة. وقد اكتشف قبر يرقى الى العصر الروماني، عُثِر فيه على بقايا هيكل عظمي، مما يدل على حفظ الجثة، كما احتوى على اوانٍ فينيقية تقليدية من قشر بيض النعام، وأوعية زجاجية للبلسم، وأوانٍ رومانية على شكل ختم [173، ص. 282-283 ;180,ص. 432 ,436].

واستمرّت الحياة الاقتصادية في المدن الفينيقية الاسبانية كالسابق، كما ظلّت الفروع القديمة للصناعة اليدوية والفن قائمةً. وصنعت اباريق بعروة تزيّنها سُعيفة عند نقطة تثبيتها الى الجذع، رغم ان النموذج الوحيد لهذا العمل يرقى الى ما بعد عام ٢٠٠ ق.م. يشهد على تقهقر هذا النوع من النقش [194، ص. 41]. واكتُشفت في المدافن القابسية العائدة الى العصر الروماني تماثيل مصنوعة من الطين النضيج على الطراز المعروف بالقرطاجي [174، ص. 152]. وتابع الحرفيون الفينيقيون الاسبان صنع الأواني المألوفة، بما فيها الجرار التي صُمِّمت بحيث أُفيد من مواد قابس افضل افادة. وقد اتخذت الأواني شكلاً ممطوطاً اكثر، وهي على شكل قذيفة او صاروخ شبيه بمخروط ناقص من كِلا الجهتين؛ وقد برزت احياناً، تحت التأثير الروماني من دون شك، وعلى نحوٍ اكثر وضوحاً من السابق، رقبة لها تويج كبير. ويتضح ان جميع هذه الجرار هي فينيقية الطراز [68، ص. 76-78 ,83]. وفي شبه جزيرة البيرنيه، ولغاية القرن الثاني وحتى الأول ق.م.، أُنتج الخزف القديم الأحمر، وحافظت فروع الاقتصاد الاخرى على اهميتها: كصيد السمك، وتحضير المواد الكردمانية، وبناء السفن. ويرقى العديد من المعلومات الواردة في الفصل الثاني، والتي تشهد على بناء السفن ورحلات الصيادين القادسيين وتحضير التوابل السمكية وغيرها، الى القرنين الاخيرين اللذين سبقا الميلاد،

اي الى الفترة التي كان فيها القادسيون وسكان المدن الفينيقية الاخرى في الجنوب الاسباني تحت سلطة روما.

ولنتوقف عند مسألة الزراعة. فان اشارات ميلا وديودوروس،التي أوردت في الفصل الثاني،تتيح لنا القول بوجود زراعة الكرمة والزيتون وتربية المواشي في قابس في العصر الروماني. اما في قادس، فقد كانت الحالة على عكس ذلك، واذا وجب عليها ان تمتلك في النصف الأول من الألف الأول ق.م. شيئاً من الأراضي على اليابسة، فان اشارات سترابون (III, 5, 3) تتحدث عن ضآلة مساحة تلك الاراضي في القرن الأول ق.م. فقد عاش القادسيون على جزيرة صغيرة وتملّكوا جزءاً صغيراً فقط من البر، وكان بوسع المدينة ان تضم ذلك العدد الكبير من السكان (هي الثانية بعد روما) لأن جزءاً لا يُستهان به من سكانها كان يعيش في البحر، او يعيش فصلياً في العاصمة؛ وقد ظهرت المدينة الجديدة بفضل مساعي بالبو الابن. ويشير سترابون نفسه (III, 2, 2) ان القادسيين كانوا يتواعدون للاجتماع في أستا المجاورة،لأنه لم يكن لديهم على ما يبدو، مكانٌ لهذا الغرض في مدينتهم. فمتى فقدت قادس جزءاً كبيراً من ممتلكاتها البريّة؟ أكان ذلك نتيجة الاحتلال الروماني، ام القرطاجي ايضاً؟ يمكننا الاستنتاج من خلال ما ذكر في مطلع هذا الفصل عن ظروف انتقال قادس الى ظل سلطة روما،ان الرومان في هذه الفترة لم ينتقصوا من مصالح القادسيين. فقد حاول القرطاجيون، كما نعلم، القيام بهذا. وتجدر الاشارة الى ان موقع مدن الاموات القادسية خلال القرون الخامس ــ الثالث (والعصر الروماني حتى القرن الأول ق.م.) كان عند اسوار المدينة،وعلى الجزيرة بالذات. وبالتالي، فقد ضَؤلت مساحة المدينة. لذلك يذهب بنا الاعتقاد الى ان قادس فقدت اراضيها على اليابسة خلال الغزو القرطاجي. اما المقاسات الصغيرة لأراضي المدينة فكادت توفر للقادسيين امكانية العمل في الزراعة،او في تربية المواشي. ولا نملك اية معلومات عن اراضي سكان المدن الفينيقية الاسبانية الاخرى،او عن اعمالهم الزراعية.

اما فيما يتعلق بالتجارة والملاحة وعلاقات الفينيقيين الاسبان مع الشعوب المجاورة، فهناك شواهد اكيدة عليها في العصر الروماني. فقد قام القادسيون،

كما روى سترابون (II, 3, 4)، بتجهيز سفن بحرية ضخمة. ومن قادس، على حدٍّ ما ذكر پلينوس (II, 167-168)، أبحر الملاحون حول غالة، وعلى طول الساحل الموريتاني. وعن الملاحة جنوباً يروي سترابون (II, 3, 4) ان مراكب الصيد العائدة الى سكان فقراء نسبياً، بلغت نهر ليكس، وحمل التيّار ذات مرة احدى السفن القادسية بعيداً الى الجنوب، فتحطمت على شاطىء افريقيا الشرقي، بعد ان دارت حولها. ويكتب پلينوس نفسه (III, 169) مستشهداً بسيليوس انتيپارت، مؤرخ وقائع القرن الثاني ق.م.، ان هؤلاء ابحروا قبل ذلك من اسبانيا الى اثيوبيا بهدف التجارة(٤). ولا يمكننا في الواقع التحقق من هذه المعلومات المتعلقة ببعثات قديمة مثل هذا القدم، كما ان سترابون ذاته لا يصدّق خبره، انما يبدو ان في هذه المعلومات انعكاساً لانطباع التجار القابسيين عن البعثات البحرية البعيدة. وأنشأ القادسيون مجدداً علاقات مع موغادور بعد ان كانوا فقدوها حوالي عام ٥٠٠ ق.م.؛ فظهرت هناك النقود القادسية [232، ص. 239-240]. ويشهد تصريح الملك الموروزي يوبا الثاني، على اهمية قادس في نظر الافارقة. فقد اعتبر، على حدّ ما يقول اڤيان (or. mar. 280-284)، ان لقبه الاساسي هو لقب دومفير قادس (اي احد الحاكمين في حكومة الاثنين الرومانية — المترجم).

ولعل من الواجب تفسير بعثة پوليبيوس (Plin V, 9-10) التي جهّزها شيپيون اميليان أبّان الحرب البونية الثالثة، فقد جاءت هذه البعثة نتيجة تطلع التجار الرومان الى تصفية الهيمنة القادسية على التجارة مع مناطق افريقيا الاطلسية، او الحدّ منها. واذا كان الرومان قد وضعوا نصب اعينهم مثل هذه الاهداف، الاّ انهم لم يتمكنوا من تحقيقها. وهكذا، من بين الحوالي المئتي قطعة نقدية التي عُثر عليها في الأراضي المعروفة اليوم باسم المغرب، والتي تعود الى الفترة السابقة لعملية الضمّ الروماني، نجد مئة قطعة قادسية تقريباً [150، ص. 273]. وكان عدد القطع الرومانية اربعين فقط. وفي مدينة تمّوزا الصغيرة تمّ اكتشاف قطعتين نقديتين من روما، وخمس وعشرين قطعة من

(٤) يحتمل ان يكون المقصود هنا اثيوبيا الغربية، اي ساحل افريقيا الغربي [176، ص. 205، ملاحظة 10].

قادس. وليس صدفةً ان يختار « اودوكس » قادس بالذات قاعدة لرحلته التي كان ينوي القيام بها حول افريقيا، على حدٍّ ما يقول سترابون (II, 3, 4). وقد كانت مالاغا برأيه (III, 4, 2) محطةً تجارية للرحّالة الأفارقة حافظت على علاقاتها مع الشاطىء المقابل من البحر المتوسط. وتدل النقود الطنجية التي عثر عليها في اقصى جنوب شبه جزيرة البيرنيه،على العلاقات التي اقامتها مع اليابسة المقابلة. وكان القادسيون والمالقيون يحملون المنتجات الزراعية من موريتانيا مقابل الخزف وأدوات الترف والمنتجات الاخرى [301، ص. 222].

ولم تنقطع علاقات الفينيقيين الاسبان بالسكان المحليين بعدما توطّدت سلطة الرومان في شبه جزيرة الپيرنيه، حتى ان بعض المعلومات تدفع الى الاعتقاد بتعزيزها .ففي المجالين الاقتصادي والثقافي لم يكن لروما أول الأمر، الوزن الذي اكتسبته لاحقاً، واخذ القرطاجيون بالتراجع عن جنوب اسبانيا وجزئياً عن جنوبها الشرقي. وقد ادّى هذا الواقع الى تعزيز نفوذ المدن الفينيقية الاسبانية، فكانت لقادس اهميتها الكبيرة المميزة، فاعتبرها سترابون (III, 4, 9)، الى جانب كوردوبا، اكبر مركزٍ تجاري في جنوب اسبانيا؛ ومنها انطلقت الطرق البرّية، كتلك التي كانت تؤدي مثلاً الى كوردوبا وأبولكون، متابعةً نحو الساحل الشرقي لشبه جزيرة البيرنيه. ويحتمل ان تكون الطريق من قادس الى التورديتانيين قد مرّت بمحاذاة شاطىء المحيط ومن ثم بيتيس، الامر الذي كان يفترض المرور بمدينة أستا التي ربما كان للقادسيين معها علاقات وثيقة. ويحتمل ان تكون قد وصلت الى روما عبر قادس بالذات الجرّة التي عُثر على حطامها في مونتي ــ تيستاتشو [243، ص. 239]. ولما كان واضحاً ان قادس لم تكن تمتلك أراضٍ كبيرة على اليابسة أبّان الحرب السرتورية، فان المواد الغذائية التي كانت ترسلها آنذاك الى روما (cic. pro Balbo XVII, 40) كانت تستوردها على ما يبدو،من تورديتانيا (وكذلك من موريتانيا). وكانت مالاغا ايضاً مرتبطة بوادي بيتيس بطريق بريّة عبر الممرات الجبلية [319، عمود 824]. وتشهد نقود كاستولون، وحتى تارّاكون، وفي وقت لاحق امريتا، التي عُثِر عليها في مدافن قادس، على العلاقات الاقتصادية

للمدن الفينيقية الاسبانية مع السكان المحليين [258 ,1917، ص. 7 ;1918، ص. 9-8 ;1923, ص. 7-6 ;1926, ص. 10].

وعاش الفينيقيون انفسهم في العديد من المدن التورديتانية، وكتب سترابون (III, 2, 13) بوضوح عن ذلك، واستعمل ظرف الزمان « الآن » (٧٧٧) والفعل في صيغته الاصلية للدلالة على الوقت الحاضر. الاّ ان هناك سؤالاً يطرح نفسه، وهو هل ينبغي ارجاع هذه المعلومات الى ايام سترابون، اي الى حكم اغسطس، ام الى زمن مراجعه. ونجد في وصف سترابون لاسبانيا آثار هذا الزمان وذاك. ومع ذلك يبدو لنا أن الافتراض الثاني هو الاكثر احتمالاً، لأنه في مطلع الفصل الثاني من الكتاب الثالث، الذي أُخذت منه المعلومات التي تهمّنا الآن، ذكر سترابون ان قادس اشتهرت خاصةً بتحالفها مع الرومان (III, 2, 1). وترقى هذه الملاحظة الى الفترة التي سبقت تحوّل هذه المدينة الى مستلحقة (Municipe) رومانية، وهو ما حصل ايام حكم قيصر او خلفه، كما سنرى لاحقاً. واغلب الظن، ان هذا المقطع بالذات يرقى الى الفترة التي كانت فيها قادس « مشاعية حليفة ».

وهكذا يمكن القول ان الفينيقيين سكنوا بعض المدن التورديتانية وجاراتها، خلال القرنين الثاني والأول ق.م.

وكان لا بدَّ لكل هذا من ان يؤثر على ثقافة التورديتانيين وجيرانهم. ففي بعض المدن الاسبانية الجنوبية، كان التأثير الفينيقي كبيراً، لدرجة ان النقود المحلية التي كانت تضرب خلال القرنين الثاني والأول، كانت تحمل رموز اساطير فينيقية. وقد عُرف الوضع نفسه ايضاً في إيتوسي واولونت وأورسون [335, ص. 33-48 ;363, الجزء الثالث، ص. 34-37]. ويشعر الباحث بالتأثير نفسه في الفن ايضاً. فقد اكتشفت في تاخو ــ مونتيرو، بالقرب من استابا القديمة، شواهد قبور مهمة تحمل نقوشاً نموذجية من الأيقنة (Iconographie) البونية ، جياداً ونخيلاً. وتؤكد النقوش اللاتينية على هذه الشواهد انها ظهرت ايام الرومان [179, ص. 301, رقم 304-305]. وعن الأمر نفسه، يتحدث الكنز الذي عُثر عليه في سانت ــ ياغو ــ دي ــ لا ــ اسبادا الذي دُفن

ما بين عام ١٠٥ وعام ٨٠ ق.م. ومن بين المجوهرات الأيبيرية والكلتيّة المصدر التي يحتويها هذا الكنز اقراط ذهبية تزيّن اعلاها هيئة ايبيرية الطراز، وفي اسفلها حبوب ذهبية جُمعت على شكل مثلثات. وما من شك في ان لاستعمال الحبوب بعيم (prototype) فينيقي [100, ص. 353 ;305, ص. 118-119]. واغلب الظن ان هذه الأقراط هي من صنع حرفيٍّ اسباني، لكن تأثير الصناعة الفينيقية عليها يبدو واضحاً.

وكانت العبارات الفينيقية منتشرةً وسط السكان المحليين، وقد تقبّلوا بعضها في العصر السابق. اما الآن، فالشواهد عليها مؤكدة اكثر وبشكل اوسع، وخاصةً فيما يتعلق بعبادة ملقارت ــ هرقليس. وتظهر ما بين عام ١٣٣ وعام ٨٢ ق.م. صورة جانبية لرأس الاله القادسي على مسكوكات كاراتاي، واسيدون، ولاسكوتا، وبيلون، وكاريسّا، وكارمونا، وكالّيت وديتوما [188, ص. 135-136]. وفي بيلون واسيدون ايضاً، شواهد على عبادة بعل ــ همّون الذي يظهر على نقود هاتين المدينتين، كما يظهر في سيكسي وقابس على شكل ثور وقرص شمسي له اشعة. وقد يكون هذا الاله بالذات منحوتاً ايضاً على نصبٍ تذكارية من تاخو ــ مونتيرو [192, ص. 5 ,147].

وأخيراً، تصادف في بعض مناطق اسبانيا الجنوبية اسماء يتضح انها فينيقية: بودون ــ في لاسكوتا وارخونيليا، حتّون ــ في كيستا، اميلتسه ــ في كاستولون [337, ص. 307-308 ,313.312]. ولا نعرف اذا كان هؤلاء الأشخاص فينيقيين عاشوا في المدن الاسبانية، ام سكاناً محليين.

ولو رتّبنا جميع النقاط المذكورة على الخريطة لحصلنا على لوحة في غاية الاهمية. فجميع هذه النقاط تقع في وادي بيتيس وعلى الطرف الجنوبي لاسبانيا، على شبه جزيرة ضيقة بين المحيط الأطلسي والبحر المتوسط. وكان التورديتانيون يقطنون هذه المنطقة، وهم ورثة الترتسيين القدامى. وتكاد تتطابق هذه المنطقة تمام التطابق مع « ممتلكات احفاد ارغنتون » التي يذكرها سيليوس ايتاليك (III, 391-405)، اي مع بقايا الدولة الترتيسية التي ربما كانت تقع تحت سيطرة السلالة الملكية القديمة. والى جانب ذلك، كان المثلث الجنوبي

الذي يضم مدن بيلون، واسيدون، ولاسكوتا، وايتوسي، مأهولاً بالفينيقيين الليبيين، وقد سك نقوداً رسمت عليها اساطير فينيقية ليبية، وهو ما اشرنا اليه سابقاً. والعلاقات القديمة بين العالم الفينيقي وترتيسيا معروفة لدينا تمام المعرفة. وكما نرى، فان الاحتلال الروماني لم يقطع هذه العلاقات، زد على انه بمقتضى انتشار عبادة ملقارت ــ هرقليس، تزايد التأثير الفينيقي على الجيران الاسبان في النصف الثاني من القرن الثاني ــ النصف الأول من القرن الأول.

ويظهر التأثير الفينيقي في بعض المناطق الاخرى من شبه جزيرة البيرنيه، لا سيما في تلك التي كانت مرتبطةً سابقاً بترتيسيا، وعبرها ــ بالفينيقيين. وهذا ما نراه في سالاسيا على ساحل المحيط الأطلسي. وفيما مضى كان بين ترتيس ومنطقة سالاسيا طريق بريّة (Av. or. mar. 178-180)؛ وقد عُثِر في مدافن هذه المدينة على قشر بيض نعام، وجُعَلْ (Scarabeé) مصري يحمل اسم بَسَمّيتيح الأول (٦٦٣ ــ ٦٠٩ ق.م.)، وأوانٍ يونانية من القرن الرابع ق.م. [24, ص. 132 ;325, ص. 96]. لذلك لا غرابة ان يلاحظ هنا التأثير الفينيقي أبّان العصر الروماني. وتظهر على نقود سالاسيا،ابتداءً من عام ٨٤ ق.م.،صورة هرقليس القادسي الطراز، وكذلك الدلافين والتونة الشبيهة بتلك التي كانت تضرب على نقود قادس وسكسي. والاساطير هنا، على ما يبدو فينيقية، وقد استبدلت في عهد اغسطس فقط باللاتينية [188, ص. 135 ;363, الجزء الثالث، ص. 24-25].

وتلاحظ آثار المنحى الفينيقي في المنطقة الواقعة ما بين نهري أناس وتاغ، وهي منطقة كانت ايضاً مرتبطة بترتيس. وهنا بالذات اكتشفت عدة أباريق برونزية فينيقية وكنز المجوهرات في أليسيدا. وفي المنطقة نفسها، في تالافان، ظهر نصب تذكاري يحمل نقشاً لاتينياً وصورةً لآلهة فينيقية [239، ص. 165]. وتصادف في بعض الأماكن من هذا الأقليم اسماء فينيقية [337، ص. 309]. ومن هنا على ما يبدو توغل الفينيقيون صعوداً بمجرى نهر تاغ، كما يدل على ذلك الاسم الفينيقي أمّونيكا الذي تؤكده شواهد عدة في توليت [337، ص. 309].

وكان للفينيقيين منطقة نفوذ ثانية في جنوب شرق وشرق اسبانيا. وينبغي بوجه خاص ابراز منطقة ايليتسي التي اشتهرت كأحد مراكز الحضارة الايبيرية المزدهرة. وهنا بالذات اكتشفت « سيدة ألتشه » الشهيرة ، تحفة فن النحت الايبيري، فكان هنا مركز صناعة الخزف الأيليتسي، ولعله اكثر انواع الفن الفخاري الاسباني زهواً وجمالاً. وقد يبرز التأثير البوني في زخرفة هذه الأواني ايضاً. وهكذا تظهر على احدى أواني القرن الأول ق.م. صورة آلهة زرقاء الجناحين، منحوتة بين جوادين، يخالها الناس صورة الآلهة تينّيت،او آلهة الخصب المحلية،التي يظهر نموذجها بتأثير رسوم هذه الآلهة الفينيقية. ونقف على هذا التأثير من خلال صورة امرأة (من الواضح انها آلهة كذلك) ترتدي تنّورة واسعة، وتمسك بيديها سعفة نخل، وتحيط بها حيوانات وحشية مختلفة. ويظن البعض ان الاسود والنسور التي تظهر بكثافة على الأواني الأيليتسية، مُدينة ببروزها في الأيقنة الأيبيرية لتأثير الفينيقيين كذلك [101، ص. 789, 792 ;239، ص. 172 ؛307 ص. 272-273 ;370، ص. 811]. وعلى اية حال، ما زال من غير الممكن اعتبار العديد من حالات ظهور مثل هذا التأثير مؤكدة كليًّا لأن بعضها قد يفسر بطريقة مغايرة. فحسب رأي ف. بنوا مثلاً، لا تظهر صورة الآلهة المجنّحة في فن الرسم على الأواني في ايليتسيا تحت التأثير الفينيقي، بل تحت التأثير اليوناني ــ الايطالي [67، ص. 216].

وتعتبر آثار التجارة البونية اقل مدعاةً للشك. فخلال حفريات « الكوديا »، اكتُشفت شقف جرارٍ بونية تحمل سمات خزَّافي القرن الثاني ق.م. المشكّلة بالاختام المرسومة بالصباغ الاحمر [332، ص. 283-285 ;335، ص. 31-33]. وعثر هناك ايضاً على مشطٍ من العاج [307، ص. 368]. واكتشفت مصنوعات فينيقية في مدينة الموتى كابيسيكو ــ ديل ــ تيسورو [293، ص. 227-228]، وعلى اكروبول باريا [332، ص. 289-290]. ولوحظ في هذه المدينة بالذات اسمان فينيقيان ــ عمونوس وياكون، وقد عثر على هذا الاخير في نقشٍ ايبيري [337، ص. 310, 311-312].

واكتشفت صادرات فينيقية ايضاً شمالي منطقة ايليتسي، وعلى الساحل الشرقي لشبه جزيرة البيرنيه، وفي المناطق المتاخمة للساحل، وهذه الصادرات هي مصنوعات ذهبية ووعاء زجاجي في بارتشين؛ جرّة صغيرة في كاستيلون؛ ختم بوني على عروة جرّة في اوليا ستريت؛ حاجيات فينيقية عديدة: خرز، وأوانٍ زجاجية صغيرة، وتمائم، وجرار في امپوريون [68، ص. 76-77 ;161، ص. 208 ;173، ص. 290 ;299، ص. 202]. وتجدر الاشارة اخيراً الى عدم انقطاع الجرار القابسية عن الظهور في العصر الروماني على شواطىء غالة [68، ص. 83].

وفيما يتعلق مباشرةً بالمستوطنات الفينيقية (والبونية منها على نحو ادق) في المنطقة الجنوبية الشرقية من شبه جزيرة البيرنيه، فقد رأينا من غير المُجدي التحدث عنها كمراكزٍ للحضارة الفينيقية الاسبانية، لأنها إما اختفت مثل أكرا ـــ ليڤكا، وإما لم تعد بونية مثل باريا وقرطاجة الجديدة.

ولا يمكن لمن يبحث في ظهور الحضارة الفينيقية في اسبانيا الرومانية الاّ ان يلاحظ الفرق الواضح بين المنطقتين الرئيسيتين. الجنوب مع سالاتسيا ومنطقة ما بين نهري أناس وتاغ، والجنوب الشرقي والشرق. وقد حافظت المدن الفينيقية الاسبانية في الجنوب كليًّا على مظهرها واهميتها الاقتصادية والثقافية، وجزئياً على مظهرها واهميتها السياسية. وقد لوحظت في هذه المنطقة ايضاً نقود تحمل اساطير فينيقية، واعتناق السكان المحليين هناك العبادات الفينيقية، لا سيما عبادة ملقارت ـــ هرقليس. وكان يعيش وسط التورديتانيين هناك العديد من السكان الفينيقيين. وتفقد المدن في الشرق والجنوب الشرقي، باستثناء قابس البعيدة عن شبه الجزيرة، الطابع الفينيقي. ويتضح لنا ضعف التأثير الفينيقي على السكان المحليين. وقد يبرز بشكل محدود في بعض الاسماء فقط، وبشكل اكثر الفاتاً في فن الرسم على الأواني المحلي. اما فيما يتعلق بالعبادة، فتلاحظ دلائلها في عبادة تينّيت. ويمكن التحدث بثقة فقط عن استمرار العلاقات الاقتصادية القديمة في تلك المنطقة، وعن المحافظة على التجارة مع قرطاجة وقابس. وكان الجنوب مرتبطاً بقادس، اما الجنوب الشرقي والشرق، فبأفريقيا وبيتيوسّا. واختلفت مجالات التأثير

الاقتصادي للفينيقيين الغربيين ايضاً ،فاحتفظت قرطاجة وقابس باسبانيا الشرقية وغالة الجنوبية، وقادس ومالاغا (وربما مستعمرات صورية اخرى) بأراضي ترتيسيا القديمة والمناطق المتصلة بها، وكذلك تابعتا وطوّرتا التجارة مع افريقيا الشمالية الغربية وساحلها الاطلسي.

وللمحافظة على علاقاتها التجارية السابقة، تضاءل اتصال قادس في البدء بمنطقة البحر المتوسط. فقد كتب پوليبيوس يقول (XVI, 29, 12): قليلاً ما يستعمل الناس المضيق عند اعمدة هرقليس بسبب الانقسام القائم بين الشعوب المقيمة عند طرف ليبيا (اي افريقيا) واوربا، وبسبب جهل « البحر الخارجي ». وقد سبقت هذه الكتابة بلا ريب،رحلة پوليبيوس، اي حقبة الحرب البونية الثالثة. ولعل مرد هذا الوضع حصار المضيق الذي دام عدة سنوات وقام به القرطاجيون في مطلع القرن الخامس ق.م. ولما تحوّل هذا الحظر الى تحريم ديني كما رأينا، فقد كان ممكناً تلمّس نتائجه حتى بعد القضاء على السيطرة القرطاجية. ولا حاجة للكلام بالطبع،عن توقف الملاحة التام عبر المضيق، وعن انقطاع الفينيقيين الاسبان بشكل كامل عن منطقة البحر المتوسط الشرقية. وقد اشرنا في الفصول السابقة،الى بقاء العلاقات بين المدن الفينيقية الاسبانية والشرق، ولا سيما مع قبرص. ويتحدث سترابون (II, 3, 4) عن ان أودوكس من كيزيك،عرف من اصحاب السفن الاسكندريين عام ١١٤ او ١١٣ ق.م. هوية السفينة التي عُثر على حطامها على شاطىء افريقيا الشرقي، فاتضح انها قادسية. ومن خلال ذلك الحطام عرف الاسكندريون السفن القادسية، حتى ان الرواة تمكنوا من ابلاغ أودوكس تفاصيل عديدة عن الرحلات البحرية القادسية الى السواحل الافريقية. وتشهد باطية (Cratère) عُثِر عليها جنوبي اسبانيا،على التجارة مع مصر الهلّينية، وهي باطية صنعت على ما يبدو، خلال السنوات العشر الأخيرة من حياة الجمهورية الرومانية [83، ص. 34]. وما يبدو لنا اكثر احتمالاً هو بالأحرى زيارة الاسكندريين لقادس لا العكس. فلم يكن البحارة الاسكندريون على معرفة بسفن القادسيين التجارية الكبيرة وحسب، وانما ايضاً بقوارب صيد السمك الصغيرة،التي يتضح جلياً انها لم تزر العاصمة المصرية. ويبدو ان الطريق من الاسكندرية الى قادس

كانت الطريق نفسها التي سلكها أودوكس في ابحاره الى هذه المدينة عبر الارشيدوقية الايطالية فمسّاليا الغاليّة (Galloise)، ومن ثم بمحاذاة الساحل. بيد ان هذه الطريق لم تكن مألوفة تماماً حتى في مطلع القرن الأول ق.م. وتشهد على ذلك رواية سترابون الممتعة حول رحلة پوسيدونيوس. ففي طريق عودته من قادس ضلّت سفينته طريقها وتمكّنت بعد ثلاثة اشهر من بلوغ ايطاليا، بعد ان ارتادت خلال هذه الفترة جوار جزر البليار وسردينيا، وحتى أفريقيا.

وهكذا، فقد استمرت الحضارة الفينيقية القديمة، لا بل تطوّرت في مدن اسبانيا الفينيقية التي اصبحت « حليفةً للشعب الروماني ». ومع ذلك، لم يكن باستطاعة هذه المدن، وهي موجودة ضمن نطاق الدولة الرومانية، ان لا تتأثر بالرومان. وظهرت ايضاً عملية الهيمنة الرومانية بوضوح في المدن الفينيقية الاسبانية، وكان من نتائجها تحويل بعض المشاعيّات والشعوب الى اجزاء تكاملية للدولة المتوسطية التي تتزعمها روما. وهذا ما جعل تلك المدن تفقد مع الوقت طابعها الفينيقي. وتنطبق على وضع الفينيقيين كلمات ف. انجلز عن « مسحاج (Rabot) التسوية الذي استخدمته السلطة الرومانية العالمية »، وتراجع اللغات الوطنية امام اللاتينية، وزوال الفوارق وتحوّل الجميع كلّياً الى رومان [انظر 1 a، جزء 21، ص. 146-147]. ورغم كونهم اصحاب حضارة قديمة تفاعلت وتطورت على الأرض الاسبانية زهاء الف سنة على

الأقل (وأكثر من الفي سنة، اذا اخذنا حضارة المتروبول بعين الاعتبار)، فقد تحول الفينيقيون الأسبان تدريجياً عند دخولهم في تركيب الدولة الرومانية، الى رومان. ولا بدّ لنا الآن، من معالجة الهيمنة الرومانية على المدن الفينيقية الأسبانية من جوانبها المختلفة، الاقتصادية، السياسية والثقافية.

لقد كانت المدن الفينيقية الاسبانية، ولا سيما قادس، مدناً تجارية بالدرجة الأولى. وكان أول مظهر لهيمنة الرومان على الاقتصاد، اي دمج اقتصاد هذه المدن بالنظام الاقتصادي العام للمنطقة المتوسطية الرومانية، اقامة هذه المدن علاقات وطيدة مع مختلف اجزاء العالم الروماني. لكن بعض هذه

العلاقات كان قد نشأ منذ فترات سابقة. وقد اتصل ذلك بالروابط بين قادس واسبانيا الجنوبية، وبين قابس والساحل الاسباني الشرقي والغاليّ الجنوبيّ. فعندما وجدت هذه الأراضي نفسها جزءاً من الجمهورية الرومانية، تحوّلت العلاقات مع هذه الجمهورية الى ما يشبه البوادر الأولى للهيمنة الرومانية الاقتصادية. وطالما تحدثنا عن هذه العلاقات فيما سبق، فاننا سنلقي الآن نظرة على تطور علاقات المدن الفينيقية بالاجزاء الأخرى من الدولة الرومانية.

واذا كانت علاقات قادس الشرقية والمتوسطية ضعيفةً في النصف الأول من القرن الثاني ق.م.،وأقوى بعض الشيء في أواخر هذا القرن ومطلع القرن التالي، فان الوضع قد اختلف تماماً في القرن الأول ق.م. فتملك القادسيون حسب قول سترابون (III, 5, 3) عدداً كبيراً من السفن التجارية للملاحة في المحيط، وفي البحر المتوسط ايضاً. وكانت تجارة تورديتانيا مع ايطاليا وروما تجارة بحرية تمر عبر المضيق (Strabo III, 2, 5). وقد وصلت اكبر السفن التجارية الى اوستيا والارشيدوقية من تورديتانيا (Strabo III, 2, 6). ولو قارنّا هذه المعلومات بما قيل سابقاً عن علاقات قادس بتورديتانيا،لبدا مؤكداً ان معظم البضائع التورديتانية كانت تنقل الى ايطاليا على سفن قادسية. ولا بدَّ من التذكير بأن الارشيدوقية كانت محطةً (ونقطة انطلاق ربما للايطاليين) للمبحرين الى قادس. وينوّه بلينوس (XIX, 1, 4) بالطريق بين قادس واوستيا. وقد اكتشف في روما بالذات،وفي اوستيا،حطام جرار قادسية [243، ص. 243, 239][5]. ويرى شيشرون ان مواداً غذائية مصدرها قادس وصلت روما ابّان الحرب السرتورية (pro Balbo XVII, 40). وفي الوقت نفسه،اكتشفت في مدن الموتى القادسية قطع من الخزف الأرّيتيني، ومن ضمنها أوانٍ صنعت في ورشة أتاي الشهير، وتحتل قادس بعدد نماذج الخزف الأرّيتيني المكتشفة (١٠ من اصل ٦٦) المرتبة الثانية في بيتيكا (بعد هيسباليس) [118، العدد 2426c; 2110e; 46, 2061; 1307e; 477; 464; 97, 181; 54, 177; 81][6]. وكل هذا يدل على وجود علاقات وطيدة بين قادس وايطاليا.

(٥) عن الجرار المصنوعة في منطقة قادس، راجع: [291، ص. 169-173].

(٦) قد تكون الأواني الأرّيتينية المكتشفة في سهل بيتيس وصلت جزئياً ايضاً،عبر قادس.

وكذلك كانت المدن الفينيقية الاسبانية الاخرى على اتصال بايطاليا. وينطبق هذا الأمر مثلاً، على مالاغا، علماً بأنه كانت توجد في روما نقابة للتجار المالقيين (CIL VI, 9677). وقد اكتشف بين القطع القديمة في مونتي — تيستاتشو حطام جرّة من مالاغا (CIL XV, 4203). وعثر أيضاً على قطعة من جرّة كانت تحتوي في حينه على توابل سمكيّة من صنع هذه المدينة (CIL XV, 4737). وبما ان مالاغا وسكسي اشتهرتا بتوابلهما السمكية، ومن ضمنها الهاروم (Strabo III, 4, 2)، فمن المحتمل ان يكون « مرق التخليل الهسبيري » الذي يذكره مارسياليس (XIII, 40) قد اتى من هذه الأماكن.

وكان القادسيون يوّردون محاصيل المناطق المجاورة الى روما وايطاليا. وقد بنوا اقتصادهم في الكثير من الاحيان على تجارة وسيطية. وليس من باب الصدفة ان تحتوي الجرار القادسية،التي اكتشفت في روما واوستيا (باستثناء واحدة منها، سنتحدث عنها لاحقاً) على زيتٍ أُنتج لا في المدينة ولا على اراضيها، بل في وادي بيتيس. وكانت الحالة على عكس ذلك بالنسبة لمالاغا وسيكسي. فقد كان تجار هذه المدن يحملون الى ايطاليا ما كان يصنعه مواطنوهم. وما زالت جرّة الزيت المالقية وحيدةً حتى الآن. ومقابل ذلك، وكما اشرنا اعلاه، توجد دلائل على استيراد الهاروم المالقي. وليس من باب الصدفة ان يكون رئيس نقابة التجار المالقين في روما تاجر مملّحات (Salaisons) (CIL VI, 9677) ويحتمل ان تكون جرّة الهاروم،المعروف باسم « هاروم الحلفاء » او « هاروم الشركاء »،قد وصلت الى پومپاي من احدى المدن الفينيقية الاسبانية (CIL IV, 5659; 149, p. 301).

ووطّد الفينيقيون الاسبان علاقاتهم مع المناطق الاخرى من الدولة الرومانية. وتجدر الاشارة بالدرجة الاولى،الى غالة التي مارس تجار قابس مع ساحلها التجارة منذ القدم، كما رأينا. وابتداءً من القرن الأول ق.م.،انضمّ اليهم القادسيون. وقد عُثر في السفن الغارقة قبالة الساحل الغالّي وبجواره على السلع التجارية القادسية، لا سيما الجرار المصنوعة في منطقة قادس وكارتيا. وكان أوج التجارة الغالّية القادسية في اواسط القرن الأول ق.م. — اواسط القرن الأول م. [68، ص. 348; 83، ص. 483-485].

ولم تنقطع علاقات المدن الفينيقية الاسبانية مع الشرق في العصر الروماني. وكان لا بدَّ لهذه العلاقات من ان تطور اكثر مع تطوّر الملاحة في مضيق اعمدة هرقليس. ويشهد الحُقّ الزجاجي المُكتَشف في أستاءالذي يحمل علامة شخص يدعى أنيي من صيدون، العائد الى القرن الأول ق.م.، على التجارة مع سوريا وفينيقيا [147، ص. 207]. ولم يحمل التجار الشرقيون بضائعهم الى اسبانيا فحسب، بل عاشوا هناك ايضاً. ففي مالاغا مثلاً، كان في القرن الأول ق.م. تجمّع للسوريين، وربما للاسيويين، اي لسكان مقاطعة آسيا الرومانية [319، عمود 824].

وعلى هذا النحو، نرى انه مع توطيد او توسيع المدن الفينيقية الاسبانية لعلاقاتها مع ايطاليا وروما والمناطق الاخرى من الدولة الرومانية، دخلت في الوقت نفسه في النظام الاقتصادي العام للدولة الرومانية. فمارست التجارة مع الاجزاء المختلفة لهذه الدولة، بائعةً المنتجات التي كانت تحصل عليها من الشعوب الاخرى، ممثِلةً بذلك دور السمسار، كما باعت مصنوعاتها الخزفية (كالجرار التي اعتبرت قبل كل شيء أوعيةً للتعبئة) وغلال صيد السمك. وترقى الشواهد العديدة حول الهاروم الاسباني الى القرن الأول ق.م، والقرن الثاني بالذات [149، ص. 300]. ويصعب الاعتقاد ان في الأمر صدفة. ورغم ان هذا النتاج كان يُحضّر سابقاً (تحدث عنه الكتّاب اليونانيون خلال القرن الخامس ــ القرن السابع)، فان الانضمام الى النظام الاقتصادي الروماني العام فتح امام الفينيقيين الاسبان اسواقاً واسعة جديدة، من ضمنها روما، وشكّل حافزاً من دون شك لتطوّر هذا القطاع من الاقتصاد.

وقد بدأ تأثير روما يظهر في الصناعة اليدوية الفينيقية الاسبانية ايضاً. فتغيّر المظهر الخارجي لبعض جرار قادس وقابس تحت وطأة التأثير الروماني، مكتسباً قائمة واضحة وتويجاً عريضاً. وقد نتج عن حفريات مدينة الاموات القادسية العائدة الى العصر الروماني اكتشافات رومانية الطراز عامةً [173، ص. 282]. وقد يشكل كل هذا دلائل على اثر روما الاقتصادي في المدن الفينيقية الاسبانية.

وبرز بصورة موازية اثر الرومان السياسي. وفي نهاية المطاف،أكتسبت معظم المدن الفينيقية الاسبانية الجنسية الرومانية او اللاتينية،واصبحت مستلحقات (Municipes). وكانت قادس اول من حصل على هذا الوضع القانوني، واصبحت اول مستلحقة من خارج نطاق المدن الايطالية.

ونجح بعض سكان قادس في الحصول على الجنسية الرومانية قبل غيرهم. وتلك كانت حال عم بالبو وابن اخيه. ويذكر شيشرون في مرافعته دفاعاً عن بالبو الأكبر (XVIII, 50-51)،مواطنَين آخرين حصلا على الجنسية الرومانية. ويأتي احد النقوش اللاتينية التي اكتشفت في قادس على ذكر آل پومپاي (CIL II, 1867) الذين اصبح جدّهم مواطناً رومانياً ابّان الحرب السرتورية،او بعدها بوقت قصير. ولم تكن تلك التغيرات حالات استثنائية في الممارسة الرومانية.

والجديد مبدئياً كان منح قادس الوضع القانوني للمستلحقة، وتعميم الجنسية الرومانية على جميع سكانها.

ويربط ليڤيوس (per. CX) وديون كاسيوس (XLI, 24, 1) هذه الوثيقة باسم قيصر. ويأتي ازينيوس پوليون في رسالته المكتوبة في حزيران عام ٤٣ ق.م. على ذكر الفرسان القادسيين، ومنصب الربّاع (Quatuorier)، واللجان التي مدّتها يومان؛ وبالتالي،لعل نظام قادس السياسي اخذ من النموذج الروماني مثالاً له. وفي الوقت نفسه اطلق پلينوس (IV, 119) على هذه المستلحقة اسم Augustana Urbs Iulia Gaditana، اما نقش القرن الثاني ق.م. (CIL II, 1313) فقد وسمها بسمة رسمية — Municipium Augustanum Gaditanum؛ وتظهر على نقود قادس ايام اغسطس،صورة اغريپا (Marcus V. Agrippa)،مع اسطورة municipii parens وتاريخ قنصليتها الثالثة [206، ص. 80 ,83]. وتطرح في المؤلفات العلمية، نتيجة هذا التضارب في المراجع، وجهات نظرٍ مختلفة.

فبناءً لرأي بعض العلماء، منح قيصر القادسيين الجنسية الرومانية، وضاعف

اغسطس هذه المنن، مضيفاً لقباً فخرياً [98، ص. 602 ;218 ص. 837](٧).
وبعض الذين يعتبرون ان قادس كانت قد صبحت مستلحقة عام ٤٩ ق.م.
لا يذكرون البتّة مؤسس الامبراطورية (principat) [27، ص. 220 ;82، ص.
74 ;342، ص. 206 ,351، ص. 142]. واخيراً، نصادف رأياً يقول ان المدينة
حصلت ايام قيصر على الوضع القانوني (Statut) لمستعمرة لاتينية فقط، ولم
تصبح مستلحقة رومانية الاّ تحت حكم اغسطس [37، ص. 66].

ولو رجعنا الى النصوص التي ذكرها قدماء الكتّاب لوجب الانتباه الى
ان الكتاب الملائم من نتاج ليڤيوس لم يحفظ، وان الملاحظة المختصرة
الواردة في موجز هذا الكتاب، لا تسمح بتحديد طابع الجنسية القادسية.
ويُعتَبَر كاسيوس ديون اكثر تفصيلاً وتحديداً. فيستعمل كلمة πολιτεία التي
لاحظ هـ. غالشتير انها تعني دائماً عند هذا الكاتب الجنسية الرومانية (وليس
اللاتينية) [170، ص. 18، ملاحظة 14]. وتقدم لنا رواية كاسيوس ديون ايضاً
تفصيلاً مهماً جداً، وهو ان الشعب الروماني صادق لاحقاً على مأثرة قيصر.
وهذا ما يسمح لنا بابداء الافتراض التالي:

يحتمل ان يكون قيصر قد اتخذ قراره حول منح القادسيين الحقوق المدنية
ابّان وجوده في قادس، بعد استسلام « فارّون » عام ٤٩ ق.م.، عندما اعاد
الى معبد هرقليس (اي ملقارت القادسي) الأموال التي صادرها فارّون، ونصّب
كوينت كاسيوس رئيساً لهذه المقاطعة (Caes. bel. civ. II, 21). لكنه لم يُصدر
لدى عودته الى العاصمة القانون الملائم عبر جمعية الشعب النّاخبة
(Comices) (لم يأتِ قيصر نفسه على ذكر اي شيء من هذا). فقد كان
بحاجة الى قادس في اسبانيا كقاعدةٍ له ضد البومبيين. اما في روما، وفي
الظروف التي سادت عام ٤٩، عندما كانت جيوش بومباي ترابط في شبه
جزيرة البلقان ويشرف البومبيون على افريقيا، لم يكن قيصر يرغب في افساد
علاقاته مع الدهماء (Plèbe) الرومانية. ونعرف مدى الغيرة التي كانت تنظر
به الدهماء الى مسألة الجنسية.

---

(٧) يعتبر رأي ر. غروسيه [203، ص. 255] وف. فيتّينغهوف [361، ص. 75] قريباً من هذه النظرة.

واصبحت الجنسية الرومانية للقادسيين قانونية ابّان حكم اغسطس، وكان اغريبا المبادر المباشر لتوقيع هذه الوثيقة، فاستحق على هذا الاهتمام لقب « والد المستلحقة »[٨]. ومن الممكن ارجاع هذا الحدث الى عام ٢٧ ق.م.، عام قنصلية اغريبا الثالثة، المذكور على النقود القادسية. ولعل اعادة تنظيم هيئة القضاة لهذه المدينة وتحويلها من هيئة رباعية الى دومفيرة (Duumvirat) على علاقة بذلك [125 a، ص. 331-332]. وهذا التأريخ مقبول تماماً، لأن تشكيل سلطة الـ princeps جرى في هذه السنة، فاضطر عندئذٍ اغسطس واغريبا الى معالجة الشؤون الاسبانية بسبب الحرب في شمال شبه جزيرة البيرنيه.

لكن القادسيين لم ينتظروا مصادقة مجلس الشيوخ والشعب على هبة القيصر، وسرعان ما اتخذوا الاجراءات القانونية لادارة مدينتهم طبقاً للنموذج الروماني. وقد رافقت هذه التغييرات اضطرابات ادّت الى طرد بعض المواطنين الذين اعادهم بالب الاصغر (Cie. ad. fam. X, 32) عام ٤٣ ق.م. ولعل بالب لجأ الى التقليد القديم، تقديم القرابين البشرية، ليرضي المحافظين. فأمر باحراق الجندي البومبي فاديوس، وكسب ودّ انصار الوضع الجديد عن طريق الألعاب الباذخة التي يقارنها ازينيوس بوليون بالألعاب التي كان يقدمها قيصر في روما (Cic. ad. fam. X. 32, 2-3).

وهكذا اصبحت قادس خلال الفترة الواقعة ما بين عام ٤٩ وعام ٢٧ ق.م. مستلحقة رومانية، واصبح سكانها مواطنين رومان، مما ادّى الى تراجع القانون الفينيقي القديم امام القانون الروماني.

اما كيف تحولت سائر مستوطنات الفينيقيين الاسبان الى مدن رومانية فلا نعلم عن ذلك الاّ النزر اليسير. وبلينوس الذي استند، كما يقول عادةً [مثلاً، 352، ص. 155]، على خارطة اغريبّا، يسمّي مالاغا وقابس « مشاعيّات حليفة » (Plin, III, 8; 76). ويعطي سكسي تسميةً رسميةً كاملة Sexi firmum

(٨) يعتبر بعض الباحثين ان تعبير Parens يعزّز Patronus وحسب، دون ان يفترض وجود علاقاتٍ بين اغريبا وقيام قادس كمستلحقة [170، ص. 18 ,361 ص. 75، ملاحظة ٦].

Iulium (III, 8)، الأمر الذي يدعو الى الاعتقاد بأن هذه المدينة كانت في مطلع القرن الأول ق.م. مستلحقة. ويبدو أن تغيّر النظام النقدي الذي اصبح رومانياً، ارتبط كذلك بتغيّر الوضع في المدينة [363، جزء III، ص. 19-20]. ولا نعرف تاريخاً لاعادة تنظيم سكسي، لكن اسم Iulium يسمح باعتبار هذا العمل من صنع قيصر، مما يدفع الى الظن بان السابقة firmum (préfixe) (معناها الوفيّ) متصلة به، وقد منحت الى السكسيين لأنهم حافظوا على اخلاصهم لقيصر ابّان الحروب مع البومبيين [170، ص. 14 ;221 عمود 2028]. اما اذا كان قيصر لم يقرر اتخاذ الاجراءات القانونية المتعلّقة بوضع قادس، فهل يُعقل ان تصبح سكسي مستلحقة رومانية ايام حكم قيصر، وهي التي كان لها في اسبانيا دورٌ اقل اهمية بكثير من سواها. اننا لا نستبعد ان تكون المدينة حصلت على الوضع القانوني الجديد (Statut) من انطونيو، الذي قام بتنفيذ ما كلّفه به الدكتاتور الراحل. فقد يكون هذا مماثلاً لما حصل لمدينة اورسون الاسبانية التي أعطيت وضع مستعمرة رومانية، بناء لأمر من قيصر وقانونٍ من انطونيو (CIL II, 1045, 105)، ودعي وضعها تبعاً لهذا القانون Colonia Genetiva Iulia Ursonensis. ويحتمل اخيراً، ان يكون اغسطس صاحب هذا العمل.

ولا يذكر پلينوس اي شيء عن الوضع القانوني لأبديرا. وما وصلنا من نقود ابديرية، ذات نقوش فينيقية ولاتينية، يرقى الى العصر الامبراطوري، عصر اغسطس وطيباريوس [363، جزء III، ص. 16-17؛ جزء IV، ص. 19-20]. وكان اصدارها طبقاً للنظام الروماني. وبالتالي، اذا كان وضع ابديرا في حينه وضع « مشاعية حليفة »، فمعنى ذلك انها غيّرت وضعها القانوني. على أي حال، لا معلومات لدينا عن وضعها هذا.

وحافظت مالاغا وقابس على وضع « المشاعيات الحليفة » اكثر من سائر المدن الفينيقية الاسبانية. وقد وصلتنا مقاطع كبيرة من قانون مالاغا البلدي (CIL II, 1046b)، الذي نقف من خلاله على التسمية الرسمية للمدينة — Flavianum Malacitanum Municipium. وكذلك دُعيت مستلحقة قابس بالفلاڤية

(Flavianum) (CIL II, 3663). ويدل هذا على ان مالاغا وقابس لم تصبحا مشاعيتين مدنيتين رومانيتين او لاتينيتين الاّ في عهد ڤسبازيان (Vespasian). وقد تمَّ حصولهما على الوضع القانوني كمستلحقة كما يبدو، في الوقت الذي التفت فيه هذا الامبراطور الى معالجة شؤون شبه جزيرة البيرنيه، فاعطى الجنسية اللاتينية جميع الاسبان الذين لم يكن لديهم حتى ذلك الوقت،الجنسية الرومانية او اللاتينية.

وفي اواخر عهد الجمهورية ،وخلال القرن الأول من قيام الامبراطورية، نلاحظ ان المدن الفينيقية بدأت تفقد قانونها الفينيقي الواحدة بعد الاخرى، لتصبح مستلحقات رومانية (ربما باستثناء ابديرا)، وتتحوّل الى جزءٍ لا يتجزأ من الدولة الرومانية الواحدة، لا من الناحية الاقتصادية فحسب، بل ومن الناحية السياسية ايضاً.

وحصلت في الوقت نفسه تغيّرات كبيرة في الحياة الثقافية للمدن الفينيقية الاسبانية،بتأثير عملية الهيمنة الثقافية الرومانية. وظهرت هذه العملية واضحةً من خلال مدينة الأموات القادسية العائدة الى العصر الروماني. فقد استمرت طريقة الدفن الفينيقية التقليدية قائمةً حتى بعد عام ٢٠٦ ق.م.،حين بدأت عملية احراق جثث الموتى تنتشر تدريجياً، وعلى نحو واسع ابتداءً من القرن الثاني ق.م.،فكان الرماد يجمع في اوعية على غرار ما يلاحظ في المدافن من ادوات تقليدية كانت توضع في المدافن الرومانية خلال تلك الحقبة، كحقاق البلسم الزجاجية والفخارية، والمصابيح الرومانية الطراز، والتماثيل المصنوعة من الطين النضيج. واثناء تلك الحقبة،كانت المدافن من كلا الطرازين (دفن الجثث وحرقها) لوقوعهما في طبقة واحدة، وكثيراً ما كانت جنباً الى جنب، لكن مقابر دفن جثث الموتى استمر تراجعها على نحو كبير واختفت كلّياً مع سقوط الجمهورية. ويؤكد الخاتم الذهبي الفينيقي الصنع، المُكتشف في احد اوعية المدافن،والذي يحمل نقشاً فينيقياً يُذكَرُ فيه الاله ملقاعشتروت ورعاته، بأن تقليد الدفن الجديد بالنسبة لقادس،لم يكن نتيجة تغيير التركيب العرقي لسكانها، بل تقبَّله السكان الفينيقيون بمحض ارادتهم

[156، ص. 274-279; 338، ص. 24-25 وملاحظة 48]. ويبدو ان هذا الوعاء كان يحتوي على رماد احد كهنة ملقاعشتروت، المتحدّر من طبقة الاشراف القادسيين. وفي الوقت نفسه، كانت المدافن التي استعملت فيها طريقة الدفن التقليدية (خلافاً لمدافن الفترة السابقة) عبارة عن حفرٍ غير عميقة لا تحتوي على اية ادوات، اذا ما استثنينا حقاق (جمع حق) البلسم الفخارية. وتعتبر هذه المدافن اشد فقراً من مقابر حرق الجثث المعاصرة لها، وتوحي بأن من دُفن فيها كان من الفقراء والعبيد والمعتقين، وحتى الرقيق [173، ص. 281-282; 1917, 258; 1918 وغيرها]. الا يعني وضع المدافن هذا، ان الطبقات السفلى من الشعب القادسي حافظت لفترة اطول على العادات القديمة؟ وحتى بعد تحوّلهم الى حرق جثث الموتى، يحتمل ان يكونوا قد بقوا متمسكين ببعض التقاليد القديمة. تلك هي حال ثلاثة مدافن للجثث المحروقة كانت موجوداتها الفقيرة جداً (واحد منها لا يحتوي على اي شيء) من الطراز البوني، اما الرماد فكان مجموعاً في جرّةٍ حيناً، وفي وعاء من الطراز القرطاجي حيناً آخر [1925, 258، ص. 7].

كذلك طالت هيمنة الرومان العبادات الفينيقية الاسبانية. ورغم ان تأدية العبادة في هيكل هرقليس القادسي استمرت على الطريقة الفينيقية، فقد ظهرت في هذا المعبد بِدَع مرتبطة بالتأثير الروماني. نُشاهد على النقود العائدة الى العصر الروماني صورة هيكل يكاد يكون كلاسيكي الطراز، له اعمدة وسطح معمَّد (Entablement) [69، ص. 84 ,188، ص. 102]. ورغم الطابع الفني للصورة يُعتقد ان المعبد اعطي في ذلك الحين طابعاً رومانياً هلّينياً، فقد كان محاطاً بسياج مماثل لمباني العبادة الرومانية المألوفة، او ببناءٍ جديد من الطراز الهندسي الكلاسيكي. ويُرجّح ظهور هذا المذبح الحجري الذي يحمل صورة مشاهد مآثر هرقليس الاثني عشر قبل عهد نيرون؛ ويحتمل ان يكون تمثال الاله قد ظهر ابّان حكم تراجان او ادريان (Adrian). ويومذاك، اتخذ العديد من الآلهة التي يعبدها سكان المدن الفينيقية الاسبانية وجيرانهم مظهراً رومانياً. فالمالقيون الذين كانوا يصوّرون حُوصَرْ القديم على نقودهم اصبحوا يصوّرونه على هيئة فولكان (اله النار — Vulcan) [192، ص.

10]. وتظهر عشتروت بهيئة مينرفا على نقود سكسي وقادس،في أواخر عهد الجمهورية، واثناء حكم اغسطس [192، ص. 13]. وتجدر الاشارة الى ان اساطير كل النقود بقيت فينيقية. ومع محافظتهم على لغتهم، صوّر الفينيقيون الاسبان آلهتهم على الطريقة الرومانية،واعطوها اسماء رومانية. ففي قادس مثلاً، لم يكن الحديث عن النقوش اللاتينية يدور حول عشتروت، بل حول فينوس [228، عدد 34, 30 وص 303]. وكانت النقوش العديدة المكتشفة في اسبانيا تذكر هرقليس وليس ملقارت. ويتخذ الاله القادسي، بعد ان اصبح هرقليساً رومانياً (وان حافظ على طابعه السابق)، نعوتاً لاتينية في عددٍ من الحالات، من بينها اسم اغسطس [188، ص 133-134]. وتنتشر في شبه جزيرة البيرنيه، لا سيما في الجنوب والجنوب الشرقي منها، عبادة الآلهة السماوية ـــ Dea Celectis، التي كانت الشكل الروماني لتينّيت البونية القديمة. ومع ذلك، ورغم عدم وجود اي شك حول انحدار ديا شيليستيس من تينّيت، لم تبقَ اية ملامح فينيقية في عبادة هذه الآلهة التي تندرج تماماً في مجمع الآلهة (Panthéon) الروماني [192، ص. 8 ,140-147].

وقد حافظت المدن الفينيقية الاسبانية طويلاً على اللغة الفينيقية كما تشهد بذلك اساطير النقود. وقد استمرت النقوش الفينيقية على نقود قادس ومالاغا وقابس حتى نهاية السك المحلي [363، جزء III، ص. 9 ,32؛ جزء IV، ص. 13-14]. وكانت اسماء بعض المدن الاسبانية تكتب بالفينيقية ايضاً. ومع ذلك،فقد ازدادت اللغة اللاتينية انتشاراً. وكانت المدن الاسبانية غير الفينيقية اول من تخلّى عن الاساطير الفينيقية، واتضح ان تأثير الحضارة اللاتينية المنتصرة كان اقوى من بنية العلاقات القديمة. وبدأت تظهر النقوش اللاتينية على امتعة ابديرا وسكسي وقابس ايضاً [363، جزء III، ص. 25 ,37.34؛ جزء IV، ص. 12-14]. وقد ضُربت في قادس نقوش باللاتينية على ميداليات تذكارية سُكّت ما بين عام ٨ ق.م. وعام ٤م.،وحتى لو لم تكن هذه الميداليات نقوداً فهي تشهد لقادسيي تلك الفترة على معرفة باللغة والاحرف اللاتينية. ولا شك في ان بالب، صديق بومباي وقيصر وشيشرون، اتقن هذه اللغة. والقادسي المجهول الهويّة الذي اتهم بالب امام المحكمة الرومانية،

كان يجيد اللاتينية بالتأكيد. وتشير نتائج حفريات مدينة الاموات العائدة الى العصر الروماني،الى انتشار اللغة اللاتينية في قادس. وفي الوقت الذي لا تلاحظ فيه اية نصب على المدافن الفينيقية البحتة، نعثر على شاهدات قبور (Epitaphes) لاتينية على المدافن التي جرت فيها عمليات الدفن،طبقاً للطقوس الرومانية. وقد عُثِر بالقرب من احد هذه المدافن على لوحة رخامية تحمل نقشاً ذكرت فيه فتاة باسم مارسيا بانّوي، ابنة لوسيوس [258 ,1920، ص. 5-4]. ونعثر على اسم مماثل — بانّون — في افريقيا وهو يعتبر سامياً، وكانت مثل تلك الأسماء معروفة لدى اليهود القدامى [350، جزء f. VIII II V. Banno]. وهكذا يمكننا القول اننا إزاء مدفن امرأة قادسية، وان كانت قد اصبحت على ما يبدو مواطنة رومانية (ويفترض من الأسماء الرومانية لوسيوس ومارسيا صحة هذا القول). وقد اتقن القادسيون اللغة اللاتينية في النصف الثاني من القرن الأول ق.م.،لدرجة انهم اعطوا روما الشاعر كانيوس روف الذي نوّه به مارسيال (مثلاً، I, 61; III, 20). ويصعب تحديد زمان سقوط اللغة الفينيقية من الاستعمال، اما سك العملات المحلية فقد توقف في اسبانيا أبّان حكم الامبراطور كاليغولا (Caligula) [197، ص. 42]. ولا يُعرف الى اي مدى تكلّم الفينيقيون لغتهم الام بعد هذ الفترة.

وانتشرت في قادس ايضاً،(وربما في المدن الفينيقية الاسبانية الاخرى) اللغة اليونانية. ويتحدث سترابون (III, 4, 3) عن اسكليبياد ميرليسكوس الذي درّس القواعد اليونانية بالطبع في توردیتانیا. ولا يستبعد ان يكون اسكليبياد قد مارس النشاط التربوي في مدن اسبانيا الجنوبية الفينيقية. ويعتبر ذكر « الخطيب اليوناني » ترويل على احد النقوش القادسية (CIL II, 1738)،شاهداً على انتشار اللغة اليونانية هناك.

الى جانب كل هذا، وجدت النواحي الاخرى لنمط الحياة الروماني انعكاساً لها في المدن الفينيقية الاسبانية. فنقف في قادس على ذكرٍ للمصارع المحترف (Gladiateur) (CIL II, 1739). وعُثِر في البحر قرب هذه المدينة على تماثيل رخامية وبرونزية (احدها مطعّم بالفضة) من الطراز الروماني [351، ص.

442]. وعثر قرب قادس ايضاً على صورة رخامية لشخص ترقى الى القرن الأول ق.م.،ولعل هذا الشخص هو لوسيوس كورنيليوس پوزيون [351، ص. 602-601]. وكان لمالاغا مدرّجها ،كما هو معلوم [188، ص. 88-93]. وعلى ما نرى، فقد كان للرومان هيمنة على الأخلاق والعادات والمظهر الخارجي للمدن الفينيقية الاسبانية.

ومع انضمام هذه المدن الى الدولة الرومانية المتعددة القوميات، بدأ يتدفق عليها مدٌّ سكاني شديد التنوع. فقد كانت تلك المدن، ولا سيما قادس، غنيةً ، فقد بلغ عدد فرسان هذه المدينة كما يقول سترابون (III, 5, 3) خمسمائة فارس، وقد اجتذبوا بطبيعة الحال ابناء المناطق والمدن المختلفة. ونجد في النقوش القادسية التي ترقى الى العهد الامبراطوري،اسماء مارك ريبوريوس فيليب (CIL II, 1755) الأيبيري او الكلتيّ الأصل، وألديست ماور (CIL II, 1755)،الذي ينبغي البحث عن مكان منشئه او منشأ اجداده،في الجهة المقابلة من المضيق. ويذكر احد نقوش القرن الثاني ق.م.،مارك انطونيوس سيرياك (CIL II, 1313). وبحكم انتمائه الى مقاطعة غاليريا، يفترض ان يكون اجداده قدموا الى قادس في القرن الأول ق.م. على ابعد حد، وتمكنوا من ان يصبحوا عام ٤٩ مواطنين قادسيين،وان يحصلوا مع الآخرين على الجنسية الرومانية من قيصر[٩]. ولا نعرف ما اذا كانوا قد لعبوا في ذلك الوقت دوراً مرموقاً في قادس، لكن سليلهم كان في الصفوف الاولى للأشراف القادسيين، فاحتل منصب الدومفير.

وتصادف الاسماء اليونانية بكثافة نسبية في النقوش القادسية. وقد كان اليونانيون والمتحدرون من الشرق الخاضع لنفوذ اليونان يعملون كمعلمي رخام،مثل پوبليوس روثيليوس سينتروف (CIL II, 1724)، وكاطباء،مثل ألبان ارتيميدور (CIL II, 1737)، وكخطباء او مدرّسين للخطابة،مثل ترويل (CIL, 1738). ونقع على العديد من الاسماء اليونانية في اواسط الرقيق والعبيد المعتقين. انما يصعب، والحالة هذه، تمييز اسماء اليونانيين والألقاب الرقيقية الشائعة على الطراز اليوناني؛ والى هذه الاخيرة يمكن على ما يبدو،ان ننسب مثل هذه الاسماء، كهيدون (CIL II, 1834) وديادومين (CIL II, 1873). وتشهد

اللوحة الرخامية،التي اكتشفت في مدينة الاموات التابعة لمدينة قادس والعائدة الى تلك الحقبة من الزمن والحاملة نقشاً يونانياً يذكر يوليا ميرينا [258 ,1918، ص. 5]، على ان اليونانيين بدأوا بالظهور في قادس،حتى في عهد الجمهورية. ويتحدث نقش مشاعية التجار السوريين والأسيويين في مالاغا الذي سبق ذكره،عن اقامة ممثلي الشرق الخاضع لنفوذ اليونان وسكان المدن الفينيقية الاسبانية الاخرى.

وسكن الرومان ايضاً في قادس. فقد اكتشفت اثناء حفريات المدافن القادسية العائدة الى عهد الجمهورية،شاهدات لممثلي عشائر الليتسينيين والڤاليريين [258 ,1928، ص. 7-8]. وقد سبق ظهور هذه المدافن تحوّل قادس الى مستلحقة. لذلك،لا نظننا إزاء قادسيين حصلوا على الجنسية الرومانية، وانما إزاء رومان استوطنوا في قادس.

مع ذلك، لدينا بعض الامثلة عن اقامة اشخاصٍ في قادس متحدّرين من مناطق اخرى من الدولة الرومانية. وقد اجتذب مركز قادس التجاري المهم التجّار والمغامرين من مختلف اطراف العالم الروماني [184، ص. 135-136]. وقد اسهم التركيب العرقي المختلط للسكان اسهاماً كبيراً نسبياً،في القضاء السريع على التقاليد المحليّة،وأدّى الى انتشار الحضارة الرومانية في كافة انحاء الدولة.

وتغيّرت اراضي المدن وتوسعت ايضاً. ومن جديد بدا هذا التغيّر واضحاً من خلال قادس. ففي مطلع القرن الأول ق.م.،سكن القادسيون مدينةً صغيرةً تكاد لا تمتلك اية اراضٍ على اليابسة. اما بعد حصول قادس على وضع قانوني كمستلحقة، فقد بنى بالب الاصغر مدينةً جديدةً لمواطنيه على اليابسة، نقل اليها المرفأ على ما يبدو، وذلك وفقاً لتلقيب سترابون (III, 5, 3) المدينة الجديدة بالمدينة ذات ميناء (ἐπίνειον). والمدينة المزدوجة، كما يروي الجغرافيّ (المرجع نفسه)، كانت تسمّى باليونانية ديديما ـــ المدينة المزدوجة. انما يتضح ان هذه التسمية كانت غير رسمية،لأن ذكرها لم يرد بعد ذلك في اي مكان ،لا في النقوش، ولا عند كتّاب آخرين. ولعل المدينة الجديدة

كانت هي Portus Graditanus التي يذكرها ميلا (III, 4)،والتي يلمح اليها على ما يبدو،اسم عائلة (Cognomen) احد القادسيين — بورتنزيس، اي ميناوي [228، عدد 17]. ولعل من الواجب ارجاع توسيع الأراضي القادسية على اليابسة، الى ما قبل ديديما، الى عهد بالب الاصغر. وتشهد قاعدة تمثال كومّود،الذي شيدته المشاعية القادسية،والذي اكتُشف في تشيكلانا المعاصرة، على بعد عشرة كلم من غاديس الراهنة، على سلطة المدينة الجزيرية على جزءٍ ما من اليابسة [217، عمود 461].

وليس من باب الصدفة ان ترقى المعلومات الأولى عن الزراعة القادسية الى القرن الأول ق.م. بالذات. فقد كتب كولوميلاّ (XI, 31) عن زراعة الخس في اراضي قادس، وسمّى عمّه، وهو قادسي بالتأكيد (اذ ان الكاتب نفسه انحدر من هذه المدينة)، « المزارع الأكثر علماً » في بيتيكا (V, 5)، زد على ان هذا العم كان يعمل في كرم عنب. وقد عُثر في روما على جرّةٍ تحتوي على نبيذٍ،يُعتقد انه قادسي من موسم العام ٣٧ ق.م. [136، ص. 663].

ولعل تاريخ قادس، كمدينة من الطراز القديم لا يرتكز اقتصادها على تجارة السمسرة فحسب، وانما على الزراعة ايضاً، يبتدىء في هذه الفترة.

وهكذا نرى كيف ان المدن الفينيقية الاسبانية فقدت باستمرار طابعها القديم. ومن مجمل ما ذكر،يمكن استنتاج رسم تخطيطي للهيمنة الرومانية على هذه المدن. فبعد اخضاع اسبانيا الجنوبية والشرقية، غادر القرطاجيون بعض مستعمراتهم، ومن بينها قرطاجة الجديدة التي تحولت الى حصن للسلطة الرومانية، وسرعان ما فقدت طابعها الفينيقي. اما بالنسبة لقابس والمستعمرات الصورية، فقد كان الأمر على خلاف ذلك تماماً. ففي الفترة الأولى،استمرت الحضارة القديمة فيها على المنوال السابق. اما من ناحية القانون العام،فقد تحوّلت هذه المدن الى « مشاعيات حليفة »،غير داخلة في نطاق المحافظات (يبقى وضع ابديرا مشكوكاً فيه). وخلال القرنين الاخيرين من عهد الجمهورية والقرن الأول من عهد الامبراطورية، ترسخت قادس ومالاغا وقابس وغيرها

من المدن الفينيقية الاسبانية،في النظام الاقتصادي للدولة الرومانية، وتعزّزت علاقاتها السياسية، وانتشرت فيها العادات الرومانية؛ فاتخذت العبادات القديمة منحًى رومانياً، وبدأ السكان التحدث باللغة اللاتينية، كما تغيّر تركيب السكان تدريجاً، واتخذت المدن مظهراً ريفياً رومانياً عادياً. وكان عهد قيصر واغسطس، عهد الانتقال من الجمهورية الى الامبراطورية، حاسماً في تاريخ الفينيقيين الاسبان. فخلال هذه الفترة اندمج اقتصادهم باقتصاد مجمل الدول، واختفت طقوس الدفن القديمة، وبدأ الرومان واليونان يظهرون في المدن. وآنذاك تحوّلت قادس، ثم سكسي، الى مستلحقات رومانية. وبعد قرن على هذا التغيير وصل الدور الى مالاغا وقابس.

وبالرغم من بقاء بعض آثار الحضارة الفينيقية الاسبانية، فقد اختفت بمجملها لتذوب في الحضارة الرومانية.

الفصل السابع

مشاهير قادس

نلاحظ من خلال دراستنا لتاريخ الحضارة الفينيقية في اسبانيا،انها حضارة طوت ذكر رجالاتها. فقد ابتلع الزمن اسماء مبدعي تلك التماثيل التي تحدثنا عنها في الفصول السابقة، وأغفل التاريخ أولئك الذين ساهموا في مسيرة الحياة السياسية والاقتصادية للمدن الفينيقية الاسبانية. الاّ ان الوضع تبدل قليلاً في ظل هيمنة الرومان، وتحوّل الفينيقيون الاسبان الى طريقة الدفن الرومانية، فاقتبسوا العادة الرومانية المتمثلة في وضع نصب تذكاري على ضريح المتوفي يحمل شاهدة. وقد حملت الينا « الوثائق الحجرية » في المدن الفينيقية الاسبانية عشرات الاسماء، بيد ان معظم تلك النقوش كان غايةً في الايجاز، فلم تقدم لنا سوى اسم الميت الراقد تحت الحجر. ولم يكن بين من ذكرتهم تلك النقوش،اشخاص رفعوا اسم مدينتهم على المستوى الروماني العام. ورغم الاهمية الاقتصادية والثقافية لتلك المدن الفينيقية الاسبانية، ولا سيما قادس، فقد بقيت ريفية، وكان حظ سكانها قليلاً نسبياً في تبوّء مناصب في اطار الدولة كلّها. فلم يتجاوز نشاط اغلبيتهم الساحقة دائرة حدود مدينتهم. ولعل الكثير منهم تطلعوا الى احتلال مناصب محترمة في روما. وقد تحدث سترابون (III, 5, 3) عن اولئك الذين امضوا اوقاتهم في العاصمة، فلم يقيض الا لقلة منهم فقط،اداء قسطهم في الحضارة الرومانية،

وفي الحياة السياسية للدولة الرومانية. والى هذه القلة ينتسب بالدرجة الأولى قطبان من آل بالب، عمّ وابن اخيه.

تتحدر عائلة بالب من سلالة قادسية نبيلة (Cic. pro Balbo III, 6; SHA max. et Balb. 7, 3) لعل ممثليها احتلّوا مناصب مرموقة في مسقط رأسهم، وكانوا على بعض يسرٍ وفّره لهم وصول بالب الجد الى طبقة الفرسان، بعد ان اصبح مواطناً رومانياً [271، عمود 2161]. فهذا الرجل الذي رفض بكثيرٍ من التبصّر الحصول على منصبٍ في قادس، انضمّ في ريعان شبابه الى الرومان ابّان الحرب السرتورية. ووثّق صداقته بكوينت ميميوس الذي كان يخدم تحت امرة ميتل، وشارك معه في المعركة ضد سرتوريوس برًّا وبحراً. ولما انتقل ميميوس الى خدمة پومپي (Pompey) كوزيرٍ للمالية، بعد وصول هذا الاخير الى اسبانيا، تبع بالب صديقه في مسيرته اللاحقة في اسبانيا تحت ألوية غنيوس پومپي، وشارك في اكثر معارك هذه الحرب ضراوة، في سوكرون وتوريا (Cie. pro Balbo II, 5). وتقديراً لمآثره، منحه پومپي الجنسية الرومانية (المرجع نفسه، 19, VIII; 6, III). وما من شك في ان پومپي هو الذي اغدق عليه هذا اللقب، وقد نوّه شيشرون بذلك اكثر من مرّة (مثلاً، المرجع نفسه، 7, III)، وكذلك بالب نفسه (Cie. ad Att. IX, 7, 2). الاّ ان المنفّذ المباشر لهذه الوثيقة كان على ما يبدو، لوسيوس كورنيليوس لينتول (المرجع نفسه) الذي حمل المواطن الجديد اسمه القبلي. ويُرجَّح ان يكون جميع افراد عائلة بالب قد اصبحوا مواطنين رومان، وذلك لان والده وابن اخيه كانا يحملان ايضاً اسم لوسيوس كورنيليوس.

وتعرّف بالب في صباه بقيصر ودخل فوراً في عداد اصدقائه المقرّبين (Cie. pro Balbo XXVIII, 63)، مما ترك أعظم الأثر على مستقبل هذا القادسي كشخصية سياسية. ولسنا نعرف اين ومتى حصل ذلك، الاّ ان هناك من يظن حدوث ذلك عام ٦٨ ق.م.، حين كان قيصر وزيراً لمالية اسبانيا القاصية وأمضى وقتاً في قادس [273، عمود 1261 ;211، ص. 63]. ومع ذلك يصعب تأكيد هذا الظن على نحو قاطع، اذ لا يمكن استثناء امكانية انتقال بالب

الى العاصمة بعد ان اصبح مواطناً، وتقرّبه هناك من قيصر. ويمكننا ان نؤكد امراً واحداً فقط،هو ان اسمه ظهر لأول مرة في كانون الأول (ديسمبر) عام ٦٠ ق.م.،في رسائل شيشرون (ad Att. II, 3)، وكان الخطيب قد تعرّف به جيداً وكذلك بصديقه أتّيك، الأمر الذي يدل على قدم معرفة ممثلي النخبة الرومانية بالب. وقبل هذا التاريخ بسنة، اي عام ٦١ ق.م.، اصطحب قيصر، المعيّن حاكماً شرعياً لاسبانيا القاصية، صديقه معه وعهد اليه بمنصب قائد سلاح الهندسة (Cie. pro Balbo XXVIII, 63). وما زال من غير المعروف ما اذا كان بالب قام بواجباته المباشرة، ام ان النائب الروماني استخدمه لتعزيز علاقاته مع المشاعيات الاسبانية لمعرفته الجيدة باسبانيا من خلال قتاله الطويل فيها. ويبدو الافتراض الاخير هو الاكثر احتمالاً.

وبعد عودته الى روما، ارسل قيصر بالب الى شيشرون رغبةً منه في استمالته الى جانبه،او لتحييده على الأقل (Cie. ad Att. II, 3)، او ربما بعد ان تحقّق من مواهبه الدبلوماسية. وعندما انتقل الدكتاتور العتيد الى غالة لتولّي منصب الوالي الروماني فيها، عَيَّنَ بالب في منصبه السابق واستبدله لاحقاً بماموزّا (Cie. pro Balbo XXVIII, 63) ومع ذلك ظلَّ قيصر بحاجةٍ الى الرجل القادسي لا كمهندس عسكري، بل كممثل دبلوماسي. فكان بالب يقيم في قيادة قيصر العامة، خصوصاً في بريتانيا، او ينتقل الى روما.

واقام الفينيقي الداهية، خلال فترة وجود حكومة الثلاثة، علاقاتٍ ممتازة مع پومپي ومع قيصر على حدٍّ سواء. فحصل من پومپي على هدية،هي عبارة عن قطعة ارض لاقامة بستان (Cie. ad Att. IX, 13, 8)، كما نجح في جعل تيوفان ميتيلين، احد اتباع پومپي، يتبناه (Cie. pro Balbo XXV, 57; ad Att. VII, 7, 6)، وهذا لم يعد عليه برأسمال سياسي فحسب، بل وبربحٍ ثابت. وآنئذٍ اغتنى بالب كسائر القيصريين. فعدا البستان الذي سبق ذكره، كان بالب يملك ضيعة توسكولان التي اشتراها من كوينت ميتل (Cie. pro Balbo XXV, 56). ولقد اثار غناه ونمط حياته الباذخة الحسد والحقد في روما تجاه ذلك الريفي «الحديث النعمة» . وفي الوقت نفسه،كان تقرّب بالب من حكومة

الثلاثة معروفاً، لذلك لم يكن مستغرباً بأن يقع الاختيار على بالب كهدفٍ لتوجيه ضربةٍ الى قيصر وپومپي . ففي عام ٥٦ ق.م.، اتُهم بالب بانتحال الجنسية الرومانية بطريقةٍ غير شرعية. وقد انبرى پومپي وكراس،وكذلك شيشرون، بناءً على طلب الاثنين الأولين، للدفاع عن بالب. ولقد كان شيشرون الى حدٍّ ما مديناً لبالب، لأن القادسي ابدى اهتماماً « خدمات، دموعاً، اعمال، تعزية » تجاه اقارب الخطيب اثناء نفيه (Cie pro Balbo XXVI, 58). ويشدّد شيشرون في مرافعته دفاعاً عن بالب،على ان اتهام الاخير يوجّه في الحقيقة ضربةً الى قيصر وپومپي (مثلاً، في المرجع نفسه XXVIII, 64). وبطبيعة الحال بُرِّئت ساحة المتهم.

وفي هذا الوقت كان نفوذ بالب في عهد قيصر كبيراً لدرجة ان شيشرون نفسه « أُدخل » من خلاله الى حاشية قيصر،صديقه ترياسيوس واخاه كوينت (مثلاً، Q. fr. II. 10; ad fam. VII, 6, 1; VII, 7, 1-2). ويُرجّح ان يكون بالب قد آثر السفر لبعض الوقت، بعد محاكمته، لمقابلة نصيره في غالة، لكنه عاد مجدداً الى روما في أواخر عام ٥٤ ق.م.،وتحادث خاصةً مع شيشرون (ad fam. VII, 16, 3). وفي روما مثّل قبل كل شيء،مصالح قيصر. فعندما طرح شيبيون مسألة المقاطعات الغاليّة، وهو امر يمس قيصر، اجرى بالب بالذات مفاوضات مع شيبيون محاولاً عدم السماح بطرح هذا الموضوع للمناقشة. وفي ذلك الوقت، اي في أواخر الخمسينات ق.م.، احاط بالب برعايته شيشرون بشكل مكثّف، ربما بتكليفٍ من رئيسه، في محاولةٍ لاستمالة الخطيب الشهير الى جانب قيصر. فقد كتب شيشرون (VII, 3, 12)، الى أتيك يقول « يُرسل (اي قيصر) اليَّ رسائل وديّة، كما يقوم بالب بهذا العمل باسمه ». ويطالب الممثل القيصري باقامة استقبال احتفالي وتلاوة صلوات تكريماً لانتصارات شيشرون في كيليكيا. ويقول لكوريون ان من يعارض الاستقبال الاحتفالي وتلاوة الصلوات،يسيء بذلك الى قيصر (Cie. ad fam. VII, 11, 2). ولقد كان تقرّبه من والي غالة الروماني معروفاً،لدرجة ان احداً لم يشك في كلماته تلك.

وفي الفترة التي سبقت مباشرةً الحرب الاهلية، وحتى في الفترة الأولى

على ابتدائها، قام بالب، المقيم في العاصمة يومذاك، بمهمةٍ خطيرةٍ لصالح قائده، ففاوض البومبيين والجمهوريين على السلام مع قيصر. ونتساءل أخشي قيصر حقاً، الحرب وأراد السلام وفقاً لشروط ملائمة له، أم كان يموّه اعداداً للحرب. ولكن، بصرف النظر عن ذلك، يمكن القول انه حاول بشتى الطرق اقناع المجتمع الروماني برغبته في السلام والالفة. ويدين بالب بالكثير من هذه المهمة، التي ادّاها الى بومبي نفسه، والى القنصل البومبيّ لينتول عام ٤٩ ق.م. (Cie. ad Att. IX, 7b, 2). وبذل بالب، بتكليفٍ من قيصر، قصارى جهده لابقاء السياسي المعروف شيشرون، والقنصل الشرعي لينتول، في روما، او لاعادتهما اليها، نظراً لما كان يمثّل هذا الامر من اهمية بالنسبة لقيصر. وقد كتب بالب اليهما اكثر من مرة رسائل ودّية (مثلاً، Cie. ad Att. VIII, 15a) الرسالة التي وصلتنا، والتي وجهها بالب نفسه الى شيشرون)، كما ارسل ابن اخيه الى مقر قيادة بومبي للتحادث مع القنصل (Cie. ad Att. 9, 4; 11, 5; Vel. Pat. II, 51, 3). وربما لهذه الغاية، او رغبةً منه في عدم قطع العلاقات مع حاميه، اهتمَّ بالب ابان اقامته في روما التي كانت في قبضة القيصريين، بجميع اعمال لينتول، وكتب عن ذلك الى شيشرون (ad Att. IX, 7b, 2) آملاً، على ما يبدو، ان يصل هذا الخبر الى حاميه.

وتعتبر الرسالة التي ارسلها بالب الى شيشرون والتي وصلتنا بفضل النُسَخْ التي ارسلها المرسل اليه الى صديقه أتيك، افضل شاهد على دبلوماسية بالب. وهكذا نراه في أولى هذه الرسائل (ad Att. VIII, 15a)، يناشد الكاتب شيشرون ان يأخذ على عاتقه الاهتمام باعادة الوفاق بين قيصر وبومبي. وفي النتيجة، يتكوّن انطباع مؤداه ان اهم شيء بالنسبة لقيصر هو اعادة السلام والوفاق مع بومبي، اما ما كان يهم بالب في المرتبة الأولى، فهو المحافظة على علاقات الصداقة مع لينتول، هذا بالاضافة الى استعداده للقيام بأي عمل من اجل هذا الهدف، والشخص الوحيد القادر على القيام بهذه المهمات هو شيشرون. وقد كتبت الرسائل الاخرى بالاسلوب نفسه (ad Att. IX, 7; 7a; 13a). ونلاحظ بالب يضرب بمهارة على ادق اوتار قلب شيشرون حساسيةً، على طموحه المفرط، وعلى ثقته البالغة بأهميته بالنسبة للجمهورية، وللقادة

الذين يقاتلون في سبيلها. وينشر ممثل قيصر في هذه الرسائل (ولا يُستبعد ان تكون رسائل مماثلة كُتبت الى شخصيات سياسية اخرى) نسخاً عن رسائل قائده المفعمة بتعطشه المزعوم الى السلام.

وكان بالب، بالتعاون مع فارس آخر اسمه اوپيوس، يدير فعلياً جميع الاعمال في فترة غياب قيصر. فليس من باب الصدفة ان يعلّق شيشرون آماله على هاتين الشخصيتين بالذات، خلال وجوده في بروندیزيا بعد مغادرته الجيش اليومپي، دون ان يكون بمقدوره العودة الى العاصمة (مثلاً، Ad Att. XI, 14, 2; 8, 1-2; 18, 1). لكن بالب، بعد ان ادرك مرامه بتحويل شيشرون عن اليومپيين، لم يعد يسعى لملاطفته، ولذلك نرى شيشرون يتذمر من تزايد فتور رسائل بالب اليه في بروندیزيا (ad Att. XI, 9, 1). لقد عرض شيشرون على بالب واوپيوس مسودّة رسالته الى قيصر، لكنه لم يرسلها لعدم موافقتهما على نصّها (ad Att. XII, 51, 2; XIII, 1, 3; 25, 1). ويتوجه شيشرون الى بالب لمعرفة تفاصيل قانون المستلحقات (ad fam. VI, 18, 1)، كما يرسل الى قيصر، عن طريق بالب واوپيوس، خطابه حول ليغاريا واستحسانه لرسالة الهجاء التي كتبها قيصر في كاتون (ad Att. XIII, 19, 2; 51, 1)، ويتوجه للقيصر طالباً السماح لسيسينا بالبقاء في صقلية (ad fam. VI, 8, 1). ويبدي له في هذا الخطاب ملاحظةً على جانب كبير من الاهمية. وهي ان قيصر يصادق عادةً على كل ما يقوم به بالب واوپيوس في غيابه. وفيما يتعلق بسيسينا، لم يُجب كلا الرجلين فوراً، ومع ذلك فقد اعطيا جواباً للملتمس في اليوم نفسه، في حين لم يتمكنا بالطبع من الاتصال بقيصر الموجود في اسبانيا. وتشهد هذه الحادثة بوضوح على ان كِلا الفارسين كان يحل بعض المسائل من تلقاء نفسه، وان كان ذلك باسم قيصر. وقد وصل شيشرون الى التأكيد بأن قرارات مجلس الشيوخ تكتب عند بالب (ad fam. IX, 5). ويُرجّح ان هذا القول ليس سوى خطوة عدائية من جانب سياسي معارض لا يتمتع بأية قوة حقيقية، ومع ذلك يبدو انه على شيء من الحق في هذا.

كان بالب واوپيوس حلقة وصلٍ بين قيصر الغائب واولئك الذين بقوا في روما. فلم يكن يتبادلان مع الدكتاتور الرسائل العادية فحسب، بل تلك

المكتوبة بالرموز ايضاً (Gell. N. A. XVIII, 9). ومن المؤكد ان محور تلك المراسلة كان الشؤون الحكومية. ويرى تاسيت (ann. XII, 60) انه كان باستطاعة هذين الفارسين الاعتماد على قدرة قيصر، وتقرير مسائل الحرب والسلم. وبهذا الخصوص ينبغي الاشارة الى عدم احتلالهما اية مناصب رسمية، وكانا، بصفتهما شخصين غير رسميين، يتصرفان كعميلين لموكلهما. وقد اعتبر هذا التصرف امراً استثنائياً ومميزاً لفترة انحطاط الجمهورية، عندما كان للتقرّب من الحاكم الدور الاساسي،وليس للمقام الرسمي. ولعل مآل العلاقات العدائية،التي نشأت آنئذٍ بين بالب وانطونيوس الرغبة في السلطة الحقيقية، وهذا ما شكا منه بالب الى شيشرون بعد مقتل الدكتاتور (ad Att. XVI, 21, 2; XV, 2, 3). وكان بالب يمثّل ايضاً مصالح قيصر المادية، كما في قضية ارث كلوفيوس مثلاً، الذي كان من بين ورثته قيصر وشيشرون (ad Att. XIII, 46, 3).

وبقي القادسي قريباً جداً من الدكتاتور، حتى بعد عودة هذا الاخير الى روما. وما يثير بهذا الصدد،هو ما نقله شيشرون حين قال (ad Att. XIII, 52)؛ فبعد شهرين من عودته،اختلى قيصر ببالب واجرى معه مفاوضات على انفراد. ويروي سفيتونيوس (Iul. 78, 1) ان قيصر لم ينهض من مقعده عند دخول الشيوخ (Sénateurs) الذين وفدوا جميعاً لتبجيله. وهناك رواية اخرى بهذا الصدد،مفادها ان الدكتاتور كان قد همَّ بالوقوف، لكن بالب منعه من ذلك. وينقل بلوتارك ايضاً هذه الرواية (Caes. Go). ومن غير المعلوم ما اذا كان الأمر قد حصل هكذا فعلاً، الاّ ان هذا يبدو مميزاً بالنسبة لمزاج الرومان ،فالى القادسي الغريب، الحديث النعمة، يعزى ذلك الأثر السيّء على من كان،منذ فترة وجيزة خلت،معبود الجماهير.

وقدوضع مقتل قيصر بالب في موقف حرج ،فلم يكن باستطاعته الاعتماد على دعم انطونيوس،او مجلس الشيوخ،او الدهماءِ الرومانية؛ وعدم مشاركته المباشرة في الحروب جعلته بعيداً عن الجيش المحارب وقدامى محاربيه؛ وكان من المحتمل ان تثير ثرواته الحسد والرغبة في التنكيل به،على غرار ما اصابه منذ اثنتي عشرة سنة خلت. لذلك آثر السفر لبعض الوقت الى

المصيف المعروف في بايي. وكان بالب مريضاً حقاً (ربما بالنقرس)، فكتب الى شيشرون يعلمه بالامر في تموز (يوليو) عام ٤٥ ق.م. (ad fam. VI, 19). ومع ذلك، يصعب الاعتقاد بأن يكون المرض السبب الوحيد لسفره الى بايي؛ ولم يكن من قبيل الصدفة ان يجتمع هناك قيصريون آخرون ممن احسّوا بوضع غير مريح، وكان بينهم القنصلان العتيدان هيرسيوس وبانسا، اللذان ترأسا في السنة التالية جيش مجلس الشيوخ الموجّه ضد انطونيو. وقد عقد بالب صداقة وثيقة خاصة مع هيرسيوس (ad Att. XIV, 20, 4)، كما قام اكثر من مرة بزيارة شيشرون الذي آثر ايضاً مغادرة روما الى قريته (ad Att. XIV, 9, 3; 11, 2; 21, 2). ويُظن بان بالب حاول عبر شيشرون، الاتصال بدوائر مجلس الشيوخ التي كان يحتقرها قبل فترة وجيزة خلت.

ولاح لبالب أمل جديد في شخص وريث قيصر الفتي. فعندما وصل اوكتافيوس الى نابولي في نيسان (ابريل) عام ٤٤ ق.م.، كان بالب اول من التقاه غداة وصوله (ad Att. XIV, 10, 3). وكان بالب نفسه اول من نقل الى شيشرون ان ذلك الفتى سيرث المغدور. ويحاول بالب ايضاً تملّق شيشرون، فيتحدث عن رغبته في التقرّب من انطونيو (مثلاً، ad Att. XIV, 21; XV, 5; 2, 8, 1). ويبدو انه كان قد وضع رهانه في ذلك الوقت على اوكتافيوس. ولم يكن مصادفة توجه بالب الى روما بعد ان وصلها الوريث القيصري، ومن العاصمة احاط بالب شيشرون علماً بالتطورات. ولما دخل الصراع في السنة التالية، مرحلة الحسم بين انصار مجلس الشيوخ واوكتافيوس من جهة، وانطونيو من جهة اخرى (ينتهي الأمر، كما هو معلوم، باقامة حكم الثلاثة الثاني)، آثر بالب مغادرة ايطاليا الى اسبانيا التي كان قد مضى عليه زمن بعيد لم يزرها فيه، وهناك ابتدأ حياته السياسية (ad fam. X, 32, 8).

بالطبع، لم يكن اختيار اسبانيا صدفةً، فمنذ زمن بعيد كان بالب قد أقام مع مواطنيه علاقات مميزة. وقد عقد القادسيون معه، بعد ان اصبح مواطناً رومانياً، اتفاقاً حول الضيافة (pro Balbo XVIII, 41). وكان هذا شكلاً من الجنسية الفخرية، شبيهاً بالعديد من الاتفاقات المماثلة التي وصلتنا. ولا يُعرف

ما اذا كان مرتبطاً بمدنٍ اسبانية اخرى. وفي صيف عام ٤٣ ق.م.، حين كتب ازينيوس بوليون الى شيشرون، كان بالب قد غادر الريف، وعاد على الارجح الى ايطاليا. فقد جرت آنذاك معركة موتينا التي انتصرت خلالها قوات مجلس الشيوخ واوكتافيوس على جيش انطونيو، وبعد مقتل پانسا وهيرسيوس اصبح اوكتافيوس القائد الوحيد لهذه القوات. وقد برز في ذلك الوقت حلف بين جميع انصار قيصر، بحيث كان بامكان بالب ان يعتبر حضوره الى روما امراً ممكناً، لا بل ضرورياً.

ولا نعرف عن حياة بالب اللاحقة الاّ القليل. فقد اختفت رسائل شيشرون، وهي اكثر المراجع اهميةً، ولم يعد يصلنا سوى معلومات متناثرة. وقد وصلتنا نقود، يبدو انها اسبانية السك، يحمل وجهها الأول ذكراً للمثالث (احد ثلاثة حكام في روما قديماً — Triumvir) غايوس قيصر، اي اوكتافيوس، ويحمل وجهها الثاني ذكراً للحاكم الشرعي (propreteur) بالب [271، عمود 1267]. وبالتالي، فان بالب كان قد احتلّ منصب الحاكم الشرعي في العام السابق، اي عام ٤١ ق.م.

في النصف الثاني من عام ٤٠ ق.م. اصبح بالب قنصلاً (CIL I², p. 61, 64, 65; Dio cass. XLVIII, 32; plin VII, 136) وهو وان لم يكن قنصلاً عادياً، فقد كان قاضياً. وهكذا اصبح اول شخصٍ غير ايطالي يحتل هذا المنصب الرسمي الرفيع، والاكثر شرفاً في الدولة الرومانية. ويمكن اعتبار هذا المنصب مكافأةً له على خدمة قيصر واوكتافيوس لفترةٍ طويلة، لان بالب لم يكن يمتلك سلطةً فعلية. ومهما يكن، فقد تراجع تأثيره على الحكومة الرومانية تراجعاً كبيراً، بحيث لم يعد له التأثير الذي كان له قبل ان يحتل اي منصب رسمي، عندما شغل منصب احد الاوصياء على عرش قيصر في روما عند تغيّب الدكتاتور. وفي تلك السنة ايضاً، كُرِّمَ بالب مرةً اخرى، فانتخبته مدينة كاپُويا وليًّا عليها (CIL X, 3854). ويشهد تاريخ تلقيبه قنصلاً على ان ذلك القرار اتُّخذ سنة قنصليته بالذات.

ويروى عن احداث حياة بالب اللاحقة انه دعي عام ٣٢ ق.م. الى فراش موت أتيك، على حد ما يذكر كورنيليوس نيپوت في سيرة حياة صديق شيشرون [4, 21].

وكان بالب على علاقة وثيقة بالعديد من رجال الثقافة الرومانية البارزين. فكثيراً ما يرد اسمه في رسائل شيشرون؛ ويبدو من خلالها انه لم يعرف أتيك معرفة جيدة وحسب، بل كان صديقه. وكان له علاقات جيدة مع ڤارّون (Cie. ad fam. IX, 6, 1). وهو الذي حثّ هيرسيوس على وضع الكتاب الثامن من « مذكرات الحرب الغاليّة »، فانجز العمل الأدبي لحاميهما وقائدهما المشترك قيصر (Bel. Gal. VIII, praef).

واختبر بالب نفسه في معرفة الادب اللاتيني. وقد اطلق عليه كاتب سيرة سليله البعيد،الامبراطور بالبين،صفة المؤرخ (SHA, Max. et Ball. 7, 3). ويستند سفيتونيوس في تأريخه لحياة قيصر على مؤلف بالب (Iul. 81, 2) عند ذكره البوادر التي انذرت بوفاة قيصر. واغلب الظن،ان بالب لم يحث هيرسيوس على عرض نهاية مآثر قيصر في غالية فحسب، بل كتب بنفسه تاريخ حاميه.

ولا نعرف في اي سنة توفي بالب،لكننا نعرف انه حذا حذو قيصر، فترك في وصيته لكل مواطن ٢٥ ديناراً (Dio cass. XLVIII, 32, 2).

وبالاضافة الى بالب الأكبر اصبح ابن اخيه لوسيوس كورنيليوس، بالب الاصغر، مواطناً رومانياً (Plin. V, 36). ويبدو انه حصل على هذا اللقب وهو ما زال طفلاً. ولا نعرف اي شيء عن المجرى المبكر لحياة بالب الثاني، انما يحتمل ان يكون قد خدم عند قيصر في غالة. وقد حمّله هذا الاخير في شباط (فبراير) عام ٤٩ ق.م. رسالةً الى القنصل لينتول يطلب منه فيها العودة الى روما (Cie. ad Att. VIII, 9, 4; 11, 5). لكن بالب علم في كانوزيا، قبل وصوله الى بروندیزيا، بسفر لينتول الى البلقان متعقباً پومپي (Cie. ad Att. IX, 6, 1). ولا نعلم ما اذا كان لحق بلينتول بمعسكر پومپي في السنة نفسها. وفي مطلع السنة التالية،نجد بالب الاصغر في عداد قوات قيصر، في معركة ديراخيا التي جرح اثناءها (Caes. bel. civ. III, 19). وبعد تعافيه،

اقبل بالب مجدداً على مهمة دبلوماسية دقيقة، فتسلّل، غير عابىءٍ بالخطر، و « بشجاعةٍ تفوق تصوّر البشر »، الى معسكر پومپي واجرى محادثات مباشرة مع لينتول في محاولة لاقناعه بالعودة الى العاصمة (Vel. Pat. II, 51, 3). وفي عامي ٤٥ و٤٧ ق.م. ارسل بالب الاصغر رسائل شيشرون من مركز قيادة قيصر (ad Att. XI, 12, 1; XII, 38, 2). هكذ، وخلافاً لعمّه، ونظراً لبقائه في روما، شارك في جميع (او تقريباً في جميع) حملات قيصر من خلال وجوده في قيادة قيصر العامة في الاسكندرية وفي اسبانيا. ولم ينسَ قيصر بالب الاصغر عند اصداره، قبيل وفاته، الأوامر الى الموظفين في العام التالي، ٤٣ ق.م. فعيّنه وزيراً للمالية في اسبانيا القصوى. وفي العام ٤٣ ق.م. وجد بالب نفسه في هذه الوظيفة بأمرة الحاكم العام ازينيوس بوليون الذي لم تكن تربطه به علاقات ودّية.

واننا لا نعلم شيئاً عن نشاط بالب الاصغر في سائر مدن الريف. ففي قادس، على ما يقول ازينيوس بوليون، كان بالب يتصرّف كقيصر في روما. فنرى كيف كان هذا القيصر القادسي يعطي احكامه المطلقة في مسقط رأسه ،يمنح لقب فارس الى الممثل هيرينيوس غال، يعيّن نفسه عضواً في الحكومة الرباعية، ينشىء حكومته الرباعية، يقيم مجالس بلدية، يفرض مسبقاً انتخاب مرشحين لسنتين كما كان يفعل قيصر، يقيم الألعاب، يعيد المنفيين، يُحرق فاديوس من انصار پومپي، حتى انه كان يرمي بالمواطنين الرومان الى الوحوش الكاسرة ،ومن بينهم تاجر من غيسباليس.

ويحتمل ان يكون قد تمَّ في هذا الوقت بالذات، وبمبادرةٍ من بالب وعلى نفقته الخاصة، بناء مدينة جديدة ومرفأ على اليابسة للقادسيين، وهذا ما ذكره سترابون (III, 5, 3)، ومع ذلك ،لا يستبعد ان تكون تلك الانشاءات عائدةً الى فترةٍ لاحقة. وحين كان سترابون يذكر هذه الانشاءات كان يسمّي صاحبها بالب ــ القادسي المنتصر. وإن نحن تمسّكنا باقوال الجغرافيّ حرفياً، لذهب بنا الافتراض الى ان المدينة الجديدة والمرفأ بنيا بعد انتصار بالب، اي بعد عام ١٩ ق.م. ولعله كان قد حصل في ذلك الوقت على ثروة عمه الخيالية، وايًّا كان الزمن الذي ترقى اليه المبرّة نحو قادس، فأن القادسيين

مجّدوا ذكراه، فنقشوا اسمه على الميداليات القادسية التذكارية التي تحمل اساطير لاتينية، والعائدة الى أواخر القرن الأول ق.م. ومطلع القرن التالي. ويعتبر هذا الرجل الشخص الوحيد الذي لم يكن ينتمي الى العائلة الامبراطورية الذي أُولي مثل هذا الشرف الرفيع. ولا بدَّ من كلمة حق تقال هي انه خلافاً لأغسطس وأفراد عائلته لم يُصوَّر بالب، بل ذكر اسمه في النقش فقط [206، ص. 74 ,77 ,79-80]. وقد اقام بالب علاقات مع مدنٍ اسبانية اخرى، لم تتضح الاَّ بعد عام ٤٣ ق.م.

امضى بالب فترةً وجيزةً في قادس. وآثر في الفاتح من حزيران (يونيو) من العام ٤٣ نفسه، ولسبب نجهله، الانتقال الى موريتانيا، حاملاً معه، كما يقول ازينيوس بوليون (Cie. ad fam. X, 32, 1)، كل الاموال الحكومية والذهب والفضة، دون ان يدفع حتى للجنود. ولم تعرف وجهة سيره بعد ذلك. وبما ان الملك الموريتاني بوهود الذي قصده بالب في البدء كان من انصار انطونيو، لذلك لم تستمر صداقتهما طويلاً. وعن تلك الفترة لا نملك معلومات محدّدة عن حياة بالب الاصغر الى ان عيَّنه اغسطس قنصلاً (Vel. Pat. II, 51)، اي حين ادخله مجلس الشيوخ برتبة قنصل سابق، وهو الذي لم يحتل أي منصب انتخابي قبل ذلك، فأرسل اثر ذلك الى مقاطعة افريقيا برتبة والٍ روماني (Proconsul). وقام اثناء احتلاله هذا المنصب بحملةٍ ضد قبيلة الهرمنتيين الافريقية الذين كانوا يعيشون في الصحراء التي يظن انها منطقة فسّان الراهنة [40، ص. 317]. ورجع بالب الاصغر من تلك الحملة ظافراً (Vel. Pat. II, 51, 3)، فلقّب بالامبراطور (بالمعنى الجمهوري)، على ما ذُكِرَ في النقش المكتشف في مستعمرة نوربا والمُهدى الى بالب الذي اصبح وليَّها في فترة ما بعد العام ١٩ ق.م. [185، ص. 186، عدد 18][1]. وكما ان بالب الاكبر كان اول شخصٍ غير ايطالي رُقِّي الى منصب قنصل، كذلك فأن بالب الاصغر اصبح اول شخص غير ايطالي (في الواقع اجنبي، من وجهة نظر

---

(١) ربما ليس من قبيل الصدفة ان يحمل احفاد بالب اسماء نوربان فلاكّ ونوربان بالب (PIR², 1331).

رومانية) يُمنح لقب امبراطور ويكرّم كمنتصر. وقد كان آخر شخصٍ من خارج البيت الامبراطوري يحظى بمثل هذا الشرف.

ومن الاحداث اللاحقة في حياة بالب الاصغر نعرف فقط انه بنى مسرحاً في روما في ساحة مارس، اي المريخ (آله الحرب عند اليونان ــ المترجم)، دُشّن عام ١٣ ق.م. (Suet. Aug. 29, 5; Dio Cass. LIV, 25, 2). وكان هذا المسرح احد المسارح الحجرية الثلاثة في روما، وكان يتسع لسبعة او ثمانية آلاف متفرّج، وقد بني بناءً فخماً ومتقناً؛ وقد تحدث پلينوس (XXXVI, 60) عن اعمدته الاربعة المصنوعة من العقيق اليماني. وكان لهذا المسرح رواق مسقوف يتصل بالمسرح ويدعى قبو (Crypte) بالب، وقد خُصِّص للاستراحة والاحتماء من المطر [9، جزء II، كتاب 2، ص. 167 ;222 عمود 1732 ,366 عمود 1422]. وظلَّ هذا المسرح قائماً طيلة ثلاث وتسعين سنة، الى ان احترق عام ٨٠ م. مع ما احترق من ابنية في روما (Dio Cass. LXVI, 24, 2). وكان بالب في فترة بنائه المسرح في عداد مواطني روما المشهورين، وقد ذكر سڤيتونيوس، عند تدوينه سيرة اغسطس، اسم بالب الى جانب مارسيوس وأزينيوس پوليون وأغريپا وغيرهم. ولا نلم بشيء عن حياة بالب الاصغر بعد تلك الفترة.

وعلى غرار عمه، كان بالب الاصغر على معرفةٍ جيدة برجال الثقافة الرومانية المرموقين في زمنه، كشيشرون وأتيك. ومارس هو الآخر نشاطاً ادبياً. ويأتي ازينيوس پوليون في رسالة الى شيشرون على ذكر كتاب « ثوب النبلاء » (Pretexte)، وهو مسرحية ألَّفها بالب الاصغر مقتبساً موضوعها من التاريخ الروماني. ولعل كاتب تلك « المذكرات المسرحية » الفريدة من نوعها، حذا حذو قيصر، ودوَّن مآثره التى كان قد مضى عليها خمس سنوات، ليس نثراً، وانما بحلَّة اكثر زهواً واسلس على الفهم. وقد أُخرجت تلك المسرحية عام ٤٣ ق.م. في قادس. ويحتمل ان تكون صياغتها مرتبطةً بمميزات قادس؛ اولاً، لان معظم السكان لم يكونوا ربما قد اتقنوا بعد اللغة اللاتينية كي يقرأوا المؤلف النثري، فكان باستطاعتهم ان يشاهدوا على المسرح نموذجاً

عن شجاعة حاميهم، ثانياً، لعل بالب أراد ان يكون كل شيء في المستلحقة الجديدة التي هي مسقط رأسه، مماثلاً لما في العاصمة فتقدم فيها ايضاً خلال الألعاب، مسرحية اقتُبس موضوعها من حياة مواطن فذ (على حدِّ رأيه)، يعتقد ان عنوانها « المسيرة » [202، عمود 1271].

ومن مؤلفات بالب ايضاً، كتاب « التفاسير »، وهو مؤَلف لا يعرف حجمه الاجمالي، لكنه لا يقل عن ١٨ كتاباً، لأن ماركوبيوس يذكر الكتاب الثامن عشر في « اعياد زُحل » (Saturnales) (III, 6, 16). وبما ان ماكروبيوس يورد تسمية الكتاب باليونانية Ἐξηγητικά، لذلك يُعتقد بأنه كان مكتوباً باليونانية. ويعالج بالب في هذا الكتاب مسائل عديدة تتعلق بالعبادات، ومن بينها عبادات هرقليس وجيميني (آله الزواج عند الاغريق والرومان — المترجم). واسطورة جيميني التي نقلها بالب، يذكرها سيرڤيوس في تعليقه حول « الانيادة » (IV, 127). وكان بالب هذا على علاقة برجال الكهنوت الرومان. فقد كان بمقتضى الميداليات القادسية التي سبق ذكرها، عضواً في لجنة الحبريين.

لقد توقفنا باسهاب عند سيرة حياة شخصين من آل بالب، هما القادسيان الأولان، على ما نعرف، اللذان لعبا دوراً مهماً في حياة روما السياسية والثقافية. وقليلاً ما كانا معروفين في الواقع في تاريخ الثقافة الرومانية، لكنهما كانا اكثر شهرة بكثير في الحقل السياسي. وقد اندثرت مؤلفاتهما، وشغف الكتّاب القدامى الذين تحدثوا عنهما باهميتهما كشخصيات سياسية.

واعطت قادس روما لاحقاً، رجالاً كان لهم دور واضح في الادارة والجيش ومجلس الشيوخ الروماني. نذكر منهم كورنيليوس پوزيون الذي كان في عهد ڤسبازيان خطيباً دهماوياً، حاكماً شرعياً (Prêteur) لفيلق، واخيراً قنصلاً (PIR² C, 1425). وخلال فترة حكم الاباطرة انطونيو الأول والثاني والثالث، اعطت قادس اربعة شيوخ (Sénateurs)، كان من بينهم ماركوس انطونيوڤير، والد الامبراطور العتيد ماركوس اوراليوس [148، ص. 67 ;74]. وقد أتى تعاظم دور القادسيين في الادارة العليا للامبراطورية الرومانية، وهو دور ميّز

تلك الحقبة، متناسباً بوجهٍ عام مع ازدياد شأن ابناء المناطق في ادارة الدولة. الاّ ان هؤلاء الاشخاص لم يلعبوا اي دور في مسيرة الحضارة الرومانية. لذلك سنتوقف فقط، عند تلك الشخصيات التي وُلدت في قادس وكان لها دور معيّن في حياة روما الثقافية.

وقد وصلتنا اخبار بعض القادسيين الذين اشتهروا في ميدان الثقافة الرومانية في القرن الأول ق.م. ومنهم المهندس الزراعي كولوميلا، الفيلسوف موديرات، والشاعر كانيوس روف(٢). ولم تحفظ لنا الايام شيئاً من مؤلفات هذا الاخير، وجل ما نعرفه عنه جاءنا من خلال ما ذكره صديقه مارسيال. وقد عرف الفيلسوف موديرات من خلال مؤلفات الافلاطونيين الجدد الأوائل. ولا يمكننا الحكم على كولوميلا الاّ انطلاقاً من مؤلفه « حول الزراعة ».

ولد لوسيوس يونيوس موديرات كولُوميلا في قادس، وكان من مقاطعة غاليرا (Col. IX, 235) التي جعلت قيصر يمنح القادسيين الجنسية بسببها. وقد عاصر كولوميلا شخصيات مرموقة من اواسط القرن الأول ق.م.، كالفيلسوف سينيكا الذي تحدث عن ملكيته العقارية (III, 3, 3)، واخيه هاليون (IX, 16, 2) واشخاصاً معروفين آخرين أيضاً عاشوا في عهد كلوديوس — نيرون. وكان عمه، على حد ما يقول هو نفسه، اكثر مزارعي بيتيكا ثقافةً، وقد اتى على ذكره في مؤلفه اكثر من مرة (مثلاً، II, 16, 4; V, 5, 15 وغيرها). ويبدو ان ذلك العم هو الذي حبّب الى ابن اخيه الزراعة. ولا يذكر كولوميلا، عدا عمّه، أيًّا من اقاربه، بحيث يحتمل ان يكون يتيماً، او مترعرعاً في كنف عمه [26، ص. 15]. وقد غادر وطنه يافعاً، وكان خطيباً جماهيرياً للفيلق الحديدي السادس، وتلقى علوماً رومانية عادية (لا نعرف اين ومتى). لكنه تخلّى لاحقاً عن منصبه العسكري او الاداري، وكرّس حياته للزراعة،

---

(٢) اعتبر ر. توفينو [351، ص. 670] ان الخطيب الشهير (بشكل ادق، المنشد) الذي عاش في النصف الثاني من القرن الأول ق.م. ماركوس بورسيوس لاترون من مواليد قادس كذلك. ومع ذلك لا توجد اية دلائل على اصله القادسي، اما ذكر سينيكا الاكبر مع « لاترون » منذ الطفولة (contr. I praef. 13) فتدل على ان لاترون قرطبي الأصل [210، عمود 234].

فاهتمَّ بالنظرية والتطبيق. اشترى لنفسه عدة عقارات كبيرة في ايطاليا (3, 3; 9, 2) ووضع عدة مؤلفات، وصلنا اثنا عشر كتاباً من مؤلفه « في الزراعة »، وكتابه « في الاشجار ». ويغلب الظن انه ألّف هذه الكتب خلال الفترة الواقعة ما بين عام ٦١ وعام ٦٥ ق.م. [15، ص. 140].

وبعد ان انتقل الى ايطاليا، اصبح كولوميلا ايطالياً على الوجه الأكمل. فأحسَّ نفسه مرتبطاً بتاريخها، واعتبر اجداد الرومان اجداده. لكنه، وخلافاً لما شاع عنه، ظلَّ يذكر دائماً انه من مواليد قادس. ويسمّي تلك المدينة « مستلحقتنا » (VIII, 16, 9)، و « قادسنا » (X, 18, 5). ويتذكر زراعة الخس قرب مدينته (XI, 3). ومع ذلك،فقد توجّه في كتابه الى الانسان الايطالي قبل كل شيء، آخذاً بعين الاعتبار التربة الايطالية والمناخ، محاولاً النهوض بالزراعة الايطالية [26، ص. 14][٣]. وكان مصدر معارفه وتوجيهاته كتب المؤلفين اليونان واللاتين، لكنه اعتمد اساساً على خبرته الذاتية كمزارع وخبرة جيرانه: « اطلب منهم (اي مؤلفي الكتب) النصح، انما لا تعتقد انك ستنال كل المعرفة من تعاليمهم... ان الخبرة والتطبيق هما السيدان في كل ميدان من ميادين المعرفة » (1,1,15-16؛ انظر كذلك 26، ص. 121). ويُعتبر كولوميلا ممثل الزراعة الوفيرة المردود،ونصير تيار تطبيق المبادىء العلمية في الزراعة الرومانية [26، ص. 24]. ويعتبر مؤلفه مرجعاً من الدرجة الأولى لمعلوماتنا عن زراعة ايطاليا في القرن الأول ق.م.

ولعل الفيلسوف موديرات كان نسيباً لكولوميلا؛ فهو كذلك قادسي المنشأ (Pyth. 48 Proph. Vit,7). لكننا لا نعرف شيئاً عن حياته، يمكننا القول فقط انه كان الى جانب ابولونيوس التيّاني، اكبر ممثل للفيتاغورية الحديثة في القرن الاول ق.م. [356، ص. 516].

وتعتبر الفيتاغورية الحديثة فلسفةً مثالية نموذجية قريبة جداً من الدين، ظهرت في القرن الأول ق.م. عندما انتشر التصوّف في المجتمع وشاع التعلق بالتعاليم

(٣) لمزيد من التفاصيل عن كولوميلا راجع كتاب م.ي. سيرغيينكا [26، ص. 14-22].

الدخيلة البعيدة جداً عن الديانة الرومانية الشكلية الجافة. وسرت في الوقت نفسه موجة اهتمام « بالحكماء القدامى ». بمن فيهم فيتاغوروس وتعاليمه وشخصيته. وظهر فلاسفة اعتبروا انفسهم من اتباعه. وقد نشأت اختلافات متباينة بين مختلف ممثلي الفيتاغورية الحديثة حول تفسير هذه المسائل او تلك. فكانت الفيتاغورية الحديثة انتقائية، لا تقترب من الفيتاغورية القديمة الاّ بالشكل، لكنها في الواقع جمعت الى الفكر الفيتاغوري القديم عدداً كبيراً من الحالات الافلاطونية والأريسطاطالية والرواقية (Stoïcisme)، بحيث اعتبرت احدى ظواهر الافلاطونية الوسطى اكثر منها تتمةً لافكار الفلاسفة الفيتاغوريين في القرنين السادس والخامس ق.م. [135، عمود 271-272].

وما يجمع بين ممثلي فيتاغوروس وتلاميذه الفيتاغوريين الجدد هو التعلّق بأسرار الارقام، والطابع الاخلاقي اللاهوتي الحاد لمذهبهم فقط. وهم لا يأخذون من تراث افلاطون الاّ ما يتعلق الى حدٍّ كبير باللاهوت فقط، فيحاولون فهم الآلهة من خلال المعنى الرمزي للأرقام، ويولون في الحياة اليومية اهتماماً كبيراً « للتنقية » و « التنفيذ » [135، عمود 273]، لذلك برز اتجاهان في الفيتاغورية الحديثة: تطبيقي، اهتم بنشر الفضائل الفيتاغورية التي انحطت الى مستوى السحر والشعوذة؛ ونظري، انصرف الى شرح اسرار اللاهوت والعالم. واذا كان ابولونيوس التيّاني ممثل الاتجاه الأول، فقد اصبح موديرات مروّج الفيتاغورية الحديثة النظرية في القرن الأول ق.م.

وضع موديرات احد عشر كتاباً دعاها « الاحاديث الفيتاغورية »، أورد فيها، على ما يبدو، عرض تعاليمه، وسيرة حياة فيتاغوروس، وتاريخ الفلسفة الفيتاغورية [102، عمود 2320 ;135، عمود 276]. كما وضع مؤلفاً « حول المادة »، محاولاً ربط تعاليم فيتاغوروس بتعاليم افلاطون، مؤكداً ان الثاني اقتبس مذهبه حول المادة عن الأول [102، عمود 2318-2319]. وفي حديثه عن العالم المادي، يعلن موديرات ان العقل الوحيد (ἑνιαῖος λόγος) يفيض من ذاته الصفات، ولا يتخذ لنفسه اي شكل (στερήσας τῶν αὑτοῦ λόγων καὶ εἰδῶν) ويوضع العقل هنا، حسب رأي الباحثين، في مواجهة « البُعد » بمعناه كمادة

لا شكل لها [102، عمود 2319]. وجرياً على التقليد الفيتاغوري، شغف موديرات بغموض الارقام،فاعتبرها طريقةً فقط،لنقل مفهوم الاشكال اللامادية والعلل الأولى التي لا يمكن ادراكها بالتأمل والتصور (proph. Vit. Pyth. 48-49). وخلافاً للفيثاغوريين القدامى، تعامل فيما نعلم مع عددين فقط هما الواحد (κονᾶς,εis، جوهر فرد — Monade)، والاثنان (δυάς، الثنائيـة — Diade). فالواحد مبدأ الوحدة والتجانس والمساواة، وهو سبب التوافق الشامل والودّ، لأن كل هذا مشترك في الطبيعة كلها؛ والاثنان مبدأ التجزئة، وعدم المساواة، والتقسيم العام، والتغيّر (Porph. Vit. Pyth. 49-50). وتحوُّل الواحد الى اثنين يعني خلق العالم المادي. كما يتصور موديرات الروح كتناسق حسابي، لأن فيها يجري تحوّل المختلف الى معتدل ومتناسق (Stob, I, 864).

ولا نعرف اي شيءٍ آخر عن نظريات موديرات، لكن ما ذكر كافٍ لنفهم اننا بصدد فلسفة مثالية نموذجية، تتوافق كليًّا مع المنهج الفيتاغوري الحديث. وهكذا نجد ان النقاط المنطقية من فلسفة فيتاغوروس قد طرحت جانباً، اما المعنى الرمزي للاعداد فرُبِط بأكثر عناصر الفلسفة الافلاطونية مثاليةً. وبمقتضى ما اقتبسه الافلاطونيون الجدد عن اعمال موديرات، كان لا بدَّ له من ان يؤثر تأثيراً كبيراً على الفلسفة المثالية اللاحقة، ومنها الافلاطونية الحديثة [102، عمود 2320] التي استبق بعض افكارها.

والقادسي الأخير المعروف بين أهل الفكر الرومان في القرن الأول ق.م.، كان الشاعر كانيوس روف، الا انه لم يصلنا شيئاً من اشعاره، لذلك نرانا مدفوعين لتصديق كلام مارسيال عنه،وهو الكلام الوحيد الذي وصلنا. كان روف صديق هجّاءٍ شهير، ورد اسمه مرّات عدة في هجائياته، احياناً بتهكّم، وغالباً بمودة، كما يدعوه مع غيره من الاصدقاء الى غدائه المتواضع (Mart. X, 48). ولا نعلم الاّ القليل عن حياة روف، فقد وصلنا انه وُلِدَ في قادس (I, 61)، وان زوجته تيوفيلا (لعلها يونانية او عبدة معتقة، وقد يكون هذا الاسم اسماً مستعاراً لرومانية، مثل ليسبيا الكاتولية) كانت تدرّس الفلسفة، حتى ان مارسيال بحرصه الودّي يؤكد انه كان بامكانها ان تصبح زينة المدارس

الابيقورية والرواقية (III, 69).ولعل روف عاش في روما، مثل مارسيال، حياة مولى (Client). ومن المرجح ان يكون الاخوان « لوكان » و « تول » من حماته، فقد كان يمضي الوقت احياناً في قريتهما (III, 20, 17). ويقدّر مارسيال موهبة صديقه الشعرية عالياً فيشبهه بفيرجيل واوفيد ولوكان وسينيكا، كما يشبهه بأبولودور وستيلا وفلاك (بالطبع ليس هوارسيوس) وديسيان وليسينيان الذين لم تصلنا اعمالهم، كما كانت الحال بالنسبة لروف (I, 61). لقد كان روف، حسب قول مارسيال، كاتباً واسع الاطلاع، أرّخ (او كتب قصائد تاريخية) عهدي كلوديوس ونيرون، ونظم مراثٍ وقصائد ملحمية (ولعل الفن الشعري الاخير هو الذي جعل مارسيال،الذي لم يكن يحب الأدب الملحمي الشعبي،يدعو صديقه بالثرثار) (III, 64). ووضع مسرحيات مأسوية (Tragédies) على غرار المآسي السوفوكلية، ونافس كاتب الاساطير فيدر (III, 20, 2-7). وكان روف معروفاً جداً في الأوساط الادبية، تألق نجمه في الفترة التي ظهرت فيها المناقشات في هذه الاوساط، وتميّز بفكاهته (I, 68; III, 20, 8-9). وما يؤسف له انه لم يصلنا شيء من اشعاره.

وتحدّرت من قادس بعض النساء الشهيرات، امثال باولينا والدة الأمبراطور ادريان، وسابينا زوجته. وقد تحلّق حول سابينا في الجناح النسائي من القصر الامبراطوري أناس مثقفون، كان من بينهم الحاكم الشرعي الروماني سيبتيسيوس كلار، والمؤرخ الشهير سفيتونيوس. ويستفاد من مجالسهم،انهم كانوا على ارتباط بايديولوجية الحكم السابق. فسفيتونيوس مثلا، كان يشاطر الامبراطور تراجان (Trajan) كلّياً وجهات نظره، مع حقده على الاستبداد واعجابه بالحكام الطيبين [36، ص. 258]. وكان سيبتيسيوس كلار، نصير سفيتونيوس، صديقاً حميماً لپلينوس الاصغر، ايديولوجيّ فترة حكم الامبراطور تراجان. وكانت سابينا نفسها، ابنة تراجان، على علاقة بالعهد السابق. أوليس محتملاً ان يكون موقفها هذا سبباً في قصر حياة حلقتها التي شتّتها ادريان عام ١٢١ او ١٢٢ (SHA, Madr. 11, 3)، وحتى سبباً في وفاتها؟ فقد دسّ لها الامبراطور السم (نفس المرجع، 9, 23) في السنوات الاخيرة من حكمه، حين بدأ يتضح استبداده اكثر فاكثر.

هؤلاء كانوا اشهر مواليد قادس الذين لعبوا دوراً مهماً في حياة روما الثقافية في القرن الأول ق.م. ومطلع القرن الثاني م. وبالطبع، كانوا قادسيين بالولادة فقط، ورومانيين نموذجيين بنمط الحياة والتربية وبيئة الاشخاص المقرّبين والاهتمامات، وحتى بمحل اقامتهم. ولم يتمكنوا من تمجيد قادس الاّ بعد مغادرتهم لها. لكن ما يهمنا الآن هو التحقق من ان قادس، بعد دخولها في نطاق الدولة الرومانية، خضعت لهيمنتها لدرجة ان سكانها تمكنوا من تأدية قسطهم في الحضارة الرومانية.

خاتمة

في هذا التاريخ السياسي للمدن الفينيقية الاسبانية تبرز امامنا بوضوح ثلاث مراحل:

تبدأ اولاها مع ظهور المستعمرين الصوريين في شبه جزيرة البيرنيه في أواخر الألف الثاني ق.م.،وتنتهي مع خضوع قادس لقرطاجة في حدود القرن السادس ـــ القرن الخامس. ويظهر القرطاجيون في هذه المرحلة على مسافة غير بعيدة من شواطئهم ويؤسسون مستعمرة قابس.

والمرحلة الثانية من تاريخ الفينيقيين الاسبان هي مرحلة وجودهم في نطاق الدولة القرطاجية، حين تجاوزت ممتلكات القرطاجيين حدود شريط المستعمرات الفينيقية الضيق لتشمل جزءاً مهماً من اسبانيا. وفي النصف الثاني من القرن الثالث ق.م.،قامت هناك دولة البركيديين الخاضعة اسمياً لا حكومة القرطاجية. وقد اعتبر سقوط تلك الدولة وخضوع المدن الفينيقية الاسبانية للرومان،حدًّا فاصلاً بين المرحلتين الثانية والثالثة.

اما المرحلة الثالثة والاخيرة فهي فترة هيمنة الرومان، وتنتهي في القرن الأول م.، حين فقدت المدن الفينيقية الاسبانية طابعها المميّز وتحوّلت الى مستلحقات ريفية عادية للدولة الرومانية.

تشكل المرحلتان الأوليان،من وجهة نظر تاريخ الحضارة الفينيقية الاسبانية، عصراً واحداً، وظهرت في هذه المرحلة بالطبع سمات ثقافية جديدة، لكنها مع ذلك حافظت بمجملها على ملامحها الاساسية.

ويبرز جلياً في ثقافة الفينيقيين الذين استقروا في اسبانيا تياران: تيار فينيقي اسباني ازدهر في المستعمرات الصورية، وتيار بوني اسباني قام في المستعمرات القرطاجية. وتلاحظ الاختلافات بين هذين التيارين في الدين والفن وحتى في الكتابة، رغم ان نقص مواد البحث لا يتيح لنا القيام باستنتاجات دامغة في الحالة الاخيرة. وعلى أي حال، نلاحظ ان ثقافة قادس ومالاغا والمستوطنات الاخرى، التي اسسها الصوريون، كانت مرتبطة كل الوقت بفينيقيا، في حين اتجهت قابس وباريا وجهة قرطاجة. وقد برز هذا الارتباط على نحوٍ خاص في التأثيرات الخارجية التي برزت في التأثير اليوناني الواضح على الآثار البونية الاسبانية (كما في البونية بشكل عام)، وينعدم عملياً، عند سلّان الصوريين المباشرين، اما المظهر الهلّيني للناووس القادسي العائد الى القرن الرابع او القرن الثالث ق. م. فيفسّره بقاء العلاقات مع المتروبول الشرقي، لا التأثير المباشر للفن اليوناني. وهكذا نرى ان الفن في احد مجالات الثقافة الفينيقية الاسبانية كان اكثر زخرفةً وبهاءً؛ وفي مجالٍ آخر، كان اكثر صرامةً وجفافاً. وقد حافظت ديانة البعض على العبادات القديمة التي جيء بها من بلد الآباء البعيد، لا سيما عبادة ملقارت حامي صور، اما عند الآخرين فقد احتلت عبادة تينّيت، كما كانت الحال في قرطاجة، المركز الاساسي.

وتعتبر النزعة المحافظة سمةً مميزةً من سمات الحضارة الفينيقية الاسبانية. ففي الفن والصناعة اليدوية والدين والكتابة (وحتى ربما في هذه الظواهر او تلك من الحياة اليومية) بقيت بعض العناصر والسمات، التي ميّزت المراحل المبكرة من تطور الحضارة الفينيقية، والتي اندثرت في الشرق او كادت، على غرار ما كانت عليه في قرطاجة. وتجدر الاشارة الى ان حضارة المستعمرات القرطاجية عامةً حذت حذو حضارة المتروبول.

وكان لا بدَّ للفينيقيين المقيمين في اسبانيا من ان يؤثروا على السكان المحليين لتلك البلاد. وقد ظهر هذا التأثير بخاصة في حضارة ترتيس، الدولة التي كانت علاقات القادسيين ومواطنيهم بها وثيقة جداً، رغم العداوة الدائمة. وفي ذلك الوقت، كان السكان المحليون (الترتيسيون، الأيبيريون) على درجة

اقل من التطور، وبطبيعة الحال كانت المساهمة الفينيقية الاكثر وضوحاً في عملية تفاعل الشعبين. كانت الحضارة الترتسية استشراقية، ظهرت فيها العناصر الشرقية الى حدٍّ فاق بكثير ما كانت عليه في اترووريا في النصف الثاني من الألف الأول ق.م. وفي الوقت نفسه، هناك عدد من ميزات الحضارة الفينيقية الاسبانية، كاستعمال الآجر الطري في بناء المنازل او حرق الموتى، تجد تفسيراً لها في تأثير السكان المحليين.

وكانت تدخل في النطاق الفينيقي الغربي للحضارة التي كان مركزها قادس،اراضٍ في الجانب الآخر من المضيق، من رحهون في الشمال الشرقي حتى موغادور في الجنوب الغربي. وقد ظهرت هذه الوحدة بخاصةٍ في الصناعة الحرفية. وهكذا، فقد ضمت المنطقة الفينيقية الغربية اسبانيا الجنوبية وافريقيا الشمالية الغربية. اما المدن البونية الاسبانية في جنوب شرق اسبانيا وبيتيوسّا، فتدخل في دائرةٍ اخرى يمكن تسميتها الدائرة الفينيقية المركزية، وتسمّى عادةً البونية، وكان مركزها قرطاجة.

وتعتبر عملية هيمنة الرومان جوهر العصر الثاني من تاريخ الحضارة الفينيقية في اسبانيا. وهذه الحضارة التي تمتعت بتقاليد عمرها الف سنة، وحافظت كليًّا في البدء على طابعها وقوّة تأثيرها على الجيران، لم تتمكن في نهاية المطاف من مقاومة حضارة الدولة الرومانية، فذابت تدريجاً فيها. وقد نسي اسلاف المستعمرين الصوريين لغتهم وعاداتهم ونمط حياتهم، وتحوّلوا الى رومان. لقد بقي من الماضي فقط عناصر الحياة العادية القديمة التي دخلت كجزءٍ مكوّن في حياة منطقة البحر المتوسط الرومانية، كعبادة ملقارت — هرقليس الروماني مثلاً. وقد اعتبرت نهاية القرن الأول ق.م.-القرن الأول م. فترة زوال الحضارة الفينيقية الاسبانية المستقلة. وليس الامر مصادفة بالطبع: فالانتقال من الجمهورية الرومانية الى الامبراطورية الرومانية ،كان يعني تكوّن دولةٍ متوسطية واحدة (بدل دولة الشعب الروماني بنظام « دوائرها ») « اختفت فيها جميع الفوارق القومية »، كما قال انجلس [1a، جزء 21، ص. 146]. وهكذا فان تاريخ الحضارة الفينيقية الاسبانية يعكس المجرى العام لتطور المنطقة المتوسطية.

وعلى امتداد ثلاثة عشر قرناً، من القرن الثالث عشر ق.م. حتى القرن الأول م.، ازدهرت في شبه جزيرة البيرنيه وبالقرب من سواحلها حضارة عظيمة الاهمية اعتبرت حلقة وصلٍ بين عالمين. فعلى الطرف الجنوبي الغربي من اوروبا نمت حضارة شرقية نموذجية ارتبطت بجذورها وتقاليدها واتجاهها العام بالشرق الاوسط، ادّى فيها الفينيقيون الاسبان قسطاً وافراً في عملية تطور الثقافة في العالم الغربي، لا سيما في اسبانيا. وقد استمر بعض ما بنوا من حضارة قائماً حتى نهاية العصر القديم. وقد وسّعت اسفار القادسيين ومواطنيهم آفاق العالم المعروف في ذلك الوقت. وما زال بعض المدن التي بناها الفينيقيون قائماً حتى اليوم. وقد اهدى رافايل ألبرتي ابن مدينة كاديس — قادس القديمة، واحدة من قصائده الى هذه المدينة، تقول:

ويدانِ منْ فينيقيه،
تحملُ الزيتونَ زهرا،
تحملُ طوقاً يمورْ،
ترتيسيَ العنقِ مشدوداً،
وحمّالَ لجينْ.
يا يدانِ وَجدَتْ في المنجمِ الصمِّ كنوزا،
مُدّتا للغرفِ مدا،
فالبحارُ فضةٌ تطفو، تعومْ.
في الرياحِ المالحاتْ الهائجات،
إسمُكِ رنَّ بنغْماتِ الظفرْ.
في ضباب خادعٍ أبيضَ هابطْ،
ينشرُ الظلّ على البعدِ النديْ،
تفتحين لأعينِ البحّارِ باباً،
أزرقَ اللونِ مشرّعْ،
فالكنوزُ بهجةٌ للعينِ
من ترتيسيا.

تستهينينَ بآفاقِ المحيطْ.
تمخرُ سُفْنُكِ ما يبدو أسيرا،
طرقَ البحرِ بعيداً في السماء،
حيثُ برجُ الشرقِ قادتْكِ المراكبْ،
وبنصفِ الليلِ تهتزُ نسائمْ
فسوارِكِ التواءٌ بالتواءْ.
تهدرُ أنفاسُ قعرٍ تحتَ أثقالِ سفائنْ،
من جديدِ الصنعِ هيْ.
وهواءٌ صرٌّ في أشرعةٍ،
من نسيمِ الشرقِ حارْ.
ومراسٍ فضةٌ، لا منْ رصاصْ،
أذهلتْ موجاً، مرافىء،
بعضَها من لازوردْ.
وأغانٍ أسمعُ رجعاً لها،
هاتِ يا بحّارُ هاتْ.
أسمعُ المجذافَ عبَّ الزبدِ يضربْ،
عبر سُدْلٍ من شعاعاتِ غمارٍ وغمائرْ،
أسمعُ رجعَ صدىً،
واضحِ الأرنانِ،
من جيلٍ قديمْ.
يا عروسَ الشمسِ،
يا كأسَ لُجينٍ،
أنتِ يا ترتيسيا.

(صياغة ميشال أبي فاضل).

البترون في ١٩٨٧/٣/٢٤.

أ ـ مصطلحات المصادر والمراجع

ВДИ — «Вестник древней истории», М.
AA — «Archäologischer Anzeiger», Berlin.
ABSA — «The Annual of British School at Athens», London.
AEArq — «Archivo Español de Arqueologia», Madrid.
Ael. Arist. Or.— Aelii Aristidi Orationes.
Ael. Var. hist.— Claudii Aeliani Varia historica.
AJA — «American Journal of Archaeology», Princeton.
Amm. Marc.— Ammiani Marcellini rerum gestarum libri qui supersunt.
Annali di Pisa — Annali della Scuola Superiore normale di Pisa, classe di lettere e filosofia.
Ant. Afr.— «Antiqutés Africaines», Paris.
APL — «Archivo de Prehistoria Levantina», Valencia.
App. Hisp.— Appiani Bellum Hispaniense.
App. Lyb.— Appiani Bellum Lybicum.
Arrian. Alex.— Flavii Arriani Anabasis Alexandri.
Ath. Pol.— Athenei Poliorcetici περὶ μηχανημάτων
AV — «Archéologie vivant», Paris.
Aug. Quest. in Hept.— Aurelii Augustini Questionum in Heptateuchum libri VII.
Av. or. mar.— Avieni ora maritima.
BAM — «Bulletin d'Archéologie Marocaine», Casablanca.
BASOR — «Bulletin of the American School of Oriental Researches», New Haven.
BSEE — «Boletín de la Sociedad Española de los Excurciones».
Bul. MB.— ««Bulletin de Musée de Beyrouth», Beyrouth
Caes. bel. civ.— C. Iulii Caesaris Commentarii de bello civili.
Caes. bel. Gal.— C. Iulii Caesaris Commentarii de bello Gallico.
Cic. ad Att.— M. Tullii Ciceronis epistulae ad Atticum.
Cic. ad fam.—M. Tullii Ciceronis epistulae ad familiares.
Cic. pro Balbo — M. Tullii Ciceronis oratio pro Balbo.
Cic. Q. fr.— M. Tullii Ciceronis epistulae ad Quintum fratrem.
CIL — Corpus Inscriptionum Latinarum, Berolini.
CIS — Corpus Inscriptionum Semiticarum, Parisiis.
Clem. Alex. Strom.— Clementi Alexandrini, Stromata.
Col.— L. Junii Moderati Columellae rei rustici libri.
CRAI — «Comptes rendues de l'Académie des inscriptions et belles lettres», Paris.
Dio Cass.— Dioni Cassii Cocceiani Historia Romana.
Diod.— Diodori Siculi Bibliothecae historicae quae supersunt.
Eus. Chron.— Eusebii Chronicorum Canonum.
Eus. praep. ev.— Eusebii praeparationis euangelicae libri.
Eust. ad. Dion — Eustathii Commentarii ad Dionisium Periegetum.
F. Gr. Hist.— Die Fragmente der griechischen Historiker.
Ez.— Ezechiel (Biblia Hebraica).
FHA — «Fontes Hispaniae Antiquae».
FHG — Fragmenta Historicorum Graecorum.
Gell. N. A.— Auli Gellii Noctes Atticae.
Gen.— Genesis (Biblia Hebraica).
Her.— Herodoti Historiarum libri IX.

Hes.— Hesychii Alexandrini Lexicon.
Hesiod. op. et dies.— Hesiodi opes et dies.
Hesiod. Theog.— Hesiodi Theogonia.
Hom. Il.— Homeri Ilias.
Hom. Od.— Homeri Odyssea.
ICO Spa — «Le iscrizioni fenicie e puniche delle colonie in Occidente», cap. IV, Spagna. Iscrizioni fenicie e puniche.
ICO Spa Bolli — «Le iscrizioni fenicie e puniche delle colonie in Occidente», cap. IV, Spagna. Bolli d'anfora.
ICO Spa Npu — «Le iscrizioni fenicie e puniche delle colonie in Occidente», cap. IV, Spagna. Iscrizioni neopuniche.
Ies.— Iesaia (Biblia Hebraica).
Ion.— Iona (Biblia Hebraica).
Ios. Ant.— Iosephi Flavii Antiquitates Iudaicae.
Ios. contra App.— Iosephi Flavii contra Appionem.
Isocr. Archidam.— Isocrati Archidam.
Iud.— Iudices (Biblia Hebraica).
Iust.— Marci Iuniani Iustini Trogi Pompei Historiarum Philippicarum epitoma.
JA — «Journal Asiatique», Paris.
JAOS — «Journal of the American Oriental Society», New Haven.
JHS — «The Journal of Hellenic Studies», London.
JRS — «The Journal of Roman Studies», London.
KAI — Kanaanäische und aramäische Inschriften.
Liv.— Titi Livii ab urbe condita libri.
Luc. de dea Syra — Luciani Samosatensis de dea Syra.
Macrob. Saturn.— Ambrosii Theodosii Macrobii Saturnalia.
Mart.— M. Valerii, Martialis epigrammaton libri.
Mela — Pomponii Melae de chorographia libri tres.
Mélanges USJ.— «Mélanges de Université Saint-Joseph», Beyrouth.
MM — «Madrider Mitteilungen», Heidelberg.
Nep. Hannib.— Cornelii Nepotis vita Hannibali.
Paus.— Pausanii Graeciae descriptio.
Phil. Apoll.— Philostrati vita Apollonii Tyanensis.
Pind. Ol.; Nem.; Istm.; Pyth.— Pindari Carmina Olympica; Nemeica; Istmica; Pythica.
PIR²— «Prosopographia Imperii Romani», editio secunda.
Plin.— C. Plinii Secundi Naturalis Historiae libri.
Plut. Caes.— Plutarchi vita Caesaris.
Plut. Solo — Plutarchi vita Solonis.
Pol.— Polybii Historiae.
Porph. de abst.— Porphyrii de abstinentia.
Porph. vit. Pyth.— Porphyrii de vita Pythagori.
Ps.— Psalmi (Biblia Hebraica).
Ps.-Arist. de mirab. ausc.— Pseudo-Aristotelis de mirabilibus auscultionibus.
Ps.-Sc.— Pseudo-Scimni orbis descriptio.
Ptol.— Claudii Ptolemaei Geographica.
RA — «Révue archéologique», Paris.
RE — «Real-Encyclopädie der klassischen Altertumswissenschaft», Stuttgart.
I Reg.— I Regum liber (Biblia Hebraica).
RH — «Révue historique», Paris.
RSO — «Rivista degli Studi Orientali», Roma.
Sallust. Iug.— C. Sallustii Crispi bellum Iugurtinum.
I Sam.— I Samueli liber (Biblia Hebraica).
SHA Hadr.— Scriptores Historiae Augustae, de vita Hadriani.
SHA Max. et Balb.— Scriptores Historiae Augustae, de vita Maximini et Balbini.

Sil. It.— Silii Italici Punica.
Steph. Byz.— Stephani Byzantii Etnicorum quae supersunt.
Stob.— Stobei Ioanni Opera.
Strabo — Strabonis Geographica.
Suet. Aug.— C. Suetonii Tranqulli de vita divi Augusti.
Suet. Iul.— C. Suetonii Tranqulli de vita divi Iulii.
Tac. Ann.— Cornellii Taciti Annales.
Thuc.— Thucididis Historiae.
Vel. Pat.— C. Vellei Paterculi ex historiae Romanae libris duobus.
Vitruv.— Vitruvii de architectura libri decem.



ب ــ المصادر والمراجع

1. К. Маркс. Экономические рукописи 1857—1859 годов. Критика политической экономии (черновой набросок 1857—1858 годов),— К. Маркс и Ф. Энгельс, Сочинения, изд. 2, т. 46, ч. I, II.
1а. Ф. Энгельс. Происхождение семьи, частной собственности и государства,— К. Маркс и Ф. Энгельс, Сочинения, изд. 2, т. 21.
2. В. И. Ленин. К пересмотру партийной программы,— Полное собрание сочинений, т. 34.
3. И. Д. Амусин. Тексты Кумрана, вып. I, М., 1971.
4. М. И. Артамонов. Сокровища скифских курганов, Л.— Прага, 1966.
5. В. К. Афанасьева. Одна шумерская песня о Гильгамеше и ее иллюстрация в глиптике,— ВДИ, 1962, № 1.
6. В. Д. Блаватский. Античная археология в Северном Причерноморье, М., 1961.
7. В. Д. Блаватский. Античный город,— сб. «Античный город», М., 1963.
8. Б. Р. Виппер. Искусство древней Греции, М., 1972.
9. Всеобщая история архитектуры, М., 1949—1973.
10. П. А. Гринцер. Две эпохи литературных связей,— «Типология и взаимосвязь литератур древнего мира», М., 1971.
11. И. М. Дьяконов. Эпос о Гильгамеше (О все видавшем), М.— Л., 1961.
12. Л. А. Ельницкий. Возникновение и развитие рабства в Риме в VIII—III вв. до н. э., М., 1964.
13. Н. Н. Залесский. Этруски и Карфаген,— «Древний мир», М., 1962.
14. Ф. Ф. Зелинский. Древнегреческая религия, Пг., 1918.
15. История римской литературы, т. 2. М., 1962
16. В. А. Истрин. Развитие письма, М., 1961.
17. М. М. Кобылина. Милет, М., 1965.
18. В. И. Козловская. Древнейшая письменность иберов и ее средиземноморские связи,— ВДИ, 1971, № 3.
19. В. И. Козловская. Проблемы истории Тартесса и Тартессиды, Воронеж, 1971.
20. К. М. Колобова. Из истории раннегреческого общества, Л., 1951.
21. М. А. Коростовцев. Путешествие Ун-Амуна в Библ, М., 1970.
21а. И. Ю. Крачковский. Избранные сочинения, т. II. М., 1956.
22. А. В. Мишулин. К интерпретации надписи Эмилия Павла,— «Известия АН СССР», сер. истории и философии, 1946, № 4.
23. А. В. Мишулин. Античная Испания, М., 1952.
24. Д. Д. Петерс. Финикийская и греческая колонизация на Пиренейском полуострове,— «Ученые записки Московского государственного педагогического института им. В. И. Ленина», 1942, т. 28.
25. В. М. Полевой. Искусство Греции, М., 1970.
26. М. Е. Сергеенко. Ученые земледельцы древней Италии, Л., 1970.
27. С. Л. Утченко. Кризис и падение Римской республики, М., 1965.
28. Н. Д. Флитнер. Искусство Двуречья и соседних стран. М.— Л., 1958.
29. Ю. Б. Циркин. Первые греческие плавания в Атлантическом океане,— ВДИ, 1966, № 4.

30. Ю. Б. Циркин. К вопросу об источнике «массалиотского пассажа» Помпея Трога,— «Вестник Ленинградского государственного университета», 1968, № 2.
31. Ю. Б. Циркин. К вопросу о родосской колонизации в Испании и Галлии,— ВДИ, 1970, № 1.
32. Исследования по дешифровке карийских надписей, М., 1965.
33. И. Ш. Шифман. Возникновение Карфагенской державы, М.— Л., 1963.
34. И. Ш. Шифман. Финикийский язык, М., 1963.
35. И. Ш. Шифман. Рабство в Карфагене,— в кн.: Д. П. Каллистов и др., Рабство на периферии античного мира, Л., 1968.
36. Е. М. Штаерман. Светоний и его время,— Светоний Транквилл. Жизнь двенадцати цезарей, М., 1964.
37. М. Гендерсон. Юлий Цезарь и латинское право в Испании,— ВДИ, 1946, № 3.
38. А. Л. Оппенгейм. Торговля на Ближнем Востоке в древности, М., 1970.
39. Дж. О. Томсон. История древней географии, М., 1953.
40. Р. Хенниг. Неведомые земли, т. I, М., 1961.
41. І. І. Вейцківський. Зовнішня політика країн Західного Средиземномор'я в 264—219 рр. до н. е., Львів, 1959.
42. W. F. Albright. New Light on the Early History of the Phoenician Colonisation,— BASOR, № 83, 1941.
43. W. F. Albright. The Role of the Canaanites in the History of Civilisation,— «The Bible and the Ancient Near East», London, 1961.
44. W. F. Albright. Archeologia Palestyny, Warszawa, 1964.
45. W. F. Albright. Syria, The Philistines and Palestine, Cambridge, 1966.
46. M. Almagro. A propósito de la fecha de las fíbulas de Huelva,— «Ampurias», t. XIX—XX, 1957—1958.
47. M. Almagro. Dos ánforas pintadas de Villaricos,— «Omaggio a Fernand Benoit», t. 1, Bordighera, 1972.
48. M. Angeles Vall de Pla. El poblado ibérico de Covalta, I. Valencia, 1971.
49. «Archéologie vivant», vol. 1, № 2, 1968/1969.
50. M. Astruc. La necrópolis de Villaricos, Madrid, 1951.
51. M. Astruc. Tradiciones funéraires de Carthage,— «Cahiers de Byrsa», t. 6, 1956.
52. M. Astruc. Exotisme et localisme; etude sur les coquilles d'oef d'autriche decorées d'Ibiza,— APL, 1957, vol. VI.
53. M. Astruc. Echanges entre Carthage et l'Espagne,— «Revue des Études anciennes», t. LXIV, 1962.
54. D. Baramki. The Coins Exibited in the Archaeological Museum of the American University of Beirut, Beirut, 1968.
55. R. D. Barnett. Assyrische Palastreliefs, Prag.
56. R. D. Barnett. A Catalogue of the Nimrud Ivories, London, 1957.
57. R. D. Barnett. Early Shipping in the Near East,— «Antiquity», vol. 32, № 128, 1958.
58. R. D. Barnett. Phoenician-punic art,— «Encyclopedia of World Art», 1966, vol. XI.
59. W. W. Baudissin. Adonis und Esmun, Leipzig, 1911.
60. C. M. Bawra. Pindar, Oxford, 1964.
61. J. Bayet. Les origines de l'Hercule Romain, Paris, 1926.
62. R. L. Beamont. The Date of the Treaty between Rome and Carthage,— JRS, vol. XXIX, 1939.
63. J. Beloch. Die Phoenikier an Aegeische Meer,— «Rheinische Museum», Bd 49, 1894.

64. A. Beltran. Acerca de los nombres de Cartagena en la edad antigua,— APL, 1945, vol. II.
65. A. Beltran. Topografia de Carthago-Nova,— AEArq, t. XXI, 1948.
66. A. Beltran. Estado actual de la numismática antigua de la España,— Congrès internacional de numismatique, t. II, Paris, 1957.
67. F. Benoit. Chevaux du Levant Ibérique,— APL, t. II, vol. IV, 1953.
68. F. Benoit. Recherches sur l'Hellénisation du Midi de la Gaulle, Aix-en-Provens, 1965.
69. D. van Berchem. Sanctuaires d'Hercule-Melqart,— «Syria», t. XLIV, f. 1—2. 1967.
70. A. M. Bisi. La ceramica di tradizione fenico-punica della Sicilia occidentale,— «Africa», t. III—IV, 1972.
71. C. Blanco de Torresillas. El tesoro de cortijo de «Evora»,— AEArq, t. XXXII, 1959.
72. C. Blanco. Nuevas piezas fenicias del Museo arquelógico de Cádiz,— AEArq, t. XLIII, 1970.
73. A. Blanco Freijeiro. Orientalia,— AEArq, t. XXIX, 1956.
74. A. Blanco Freijeiro. Cerámica griega de las Castellones de Ceal,— AEArq, t. XXXII, 1959.
75 A. Blanco Freijeiro. Orientalia II,— AEArq, t. XXXIII, 1960.
76. A. Blanco Freijeiro. El ajuar de una tumba de Cástulo,— AEArq, t. XXXVI, 1963.
77. A. Blanco Freijeiro. La colonisación de la Península Ibérica en el primero mileño ante Cristo,— «Las raíces de España», Madrid, 1967.
78. A. Blanco Freijeiro. Los primeros ensayos de representación plástica de la figura humana,— «España en las crisis del Arte Europeo», Madrid, 1968.
79. A. Blanco, J. M. Luzon y D. Ruiz. Excavaciones arqueológicas en Cerro Salomon, Sevilla, 1967.
80. J. M. Blázquez Martínez. Aportaciones al estudio de las religiones primitivas de España,— AEArq, t. XXX, 1957.
81. J. M. Blázquez Martínez. Caballos en el infierno etrusco,— «Ampurias», t. XIX—XX, 1957—1958.
82. J. M. Blázquez. Estado de romanisación de Hispania bajo Cesar y Augusto,— «Amerita», t. XXX, 1962.
83. J. M. Blázquez. Estructura económica de la Bética al final de la República Romana y acomienzos del Imperio,— «Hispania», 1967, vol. 27, № 105.
84. J. M. Blázquez. Tartessos, Salamanca, 1968.
85. J. M. Blázquez. Relaciones entre Hispania y los Semitos en la Antigüedad,— «Beiträge zur Alten Geschichte und deren Nachleben», Bd I, Berlin, 1969.
86. J. M. Blázquez. Algunas relaciones de la Península Ibérica con el Mediterraneo al final de la Edad de Bronce,— «Actes du VIII Congrés internacional des Siences Préhistoriques et Protohistoriques», Prague, 1970.
87. F. Bondí. I Libifenici nell'ordinamento carthaginese,— «Atti della Accademia Nazionale dei Lincei», Rendiconti, vol. XXVI, 1971.
88. G. Bonsor. Les colonies agricoles Pré-Romaines de la vallée du Bétis,— RA, III sér., t. XXXV, 1899.
89. A. van den Born. Rois (Livres),— «Dictionaire encyclopédique de la Bible», Paris, 1960.
90. P. Bosch-Gimpera. Huelva,— «Reallexikon der Vorgeschichte», Bd V, 1926.
91. P. Bosch-Gimpera. Pyrinäenhalbinsel,— «Reallexikon der Vorgeschichte», Bd X, 1927.
92. P. Bosch-Gimpera. La formación de los pueblos de España, México, 1945.

93. P. Bosch-Gimpera. Una guerra fra Cartaginesi e Greci in Spagna,— «Rivista di filologia classica», 1950.
94. P. Bosch-Gimpera. La edad del Bronce de la Península Ibérica,— AEArq, t. XXVII, 1954.
95. P. Bosch Gimpera. Les Phéniciens: leur prédesseurs et les étapes de leur colonisation en Occident,— CRAI, 1972.
96. H. Bossert. Altsyrien, Tübingen, 1951.
97. F. Brommer. Denkmälerlisten zu griechischen Heldensage, I (Herakles), Marburg, 1971.
98. P. A. Brunt. Italian Manpower, Oxford, 1971.
99. J. Cabré Aguiló. La necrópolis de Tutugi,— BSEE, t. XXVIII, 1920; t. XXIX, 1921.
100. J. Cabré Aguiló. El tesoro de orfebrería de Santiago de la Espada (Jaén),— AEArq, t. XVI, 1943.
101. J. Camón Aznar. Las artes y los puebloc de la España primitiva, Madrid, 1954.
102. W. Capelle. Moderatus,— RE, Hbd. 30, 1932.
103. R. Carpenter. The Greeks in Spain, London — New York, 1925.
104. R. Carpenter. Phoenician in the West,— AJA, vol. 62, № 1, 1958.
105. R. Carpenter. A Note on the Fundation of Carthage,— AJA, vol. 68, № 2, 1964.
106. C. et. G. Charles-Picard. La vie cotidienne à Carthage au temps d'Hannibal, Paris, 1958.
107. C. and G. Charles-Picard. Carthaginian and Other Punic Art,— «Encyclopedia of World Art», vol. XI, 1966.
108. C. and G. Charles-Picard. The Life and Death of Carthage, London, 1968.
109. M. Chéhab. Noms des personalités égiptiennes découvertes au Liban,— Bul. MB, t. XXII, 1969.
110. E. Ciaceri. Le origini di Roma, Milano, 1937.
111. P. Cintas. Deux campagnes des fouilles à Utique,— «Karthago», t. II, 1951.
112. P. Cintas. Nouvelles recherches à Utique,— «Karthago», t. V, 1954.
113. P. Cintas. Une aventure aux consequences prodiguienses: la naissance de Carthage,— «Archeologia», 1968, № 20.
114. P. Cintas. Les Carthaginois dans leur sité,— «Archéologie vivante», vol. I, № 2, 1968/1969.
115. P. Cintas. Manuel d'archéologie punique, t. I, Paris, 1970.
116. G. Contenau. La civilisation phénicienne, Paris, 1948.
117. G. Contenau [Рец. на]: M. Astruc. La necrópolis de Villaricos,— «Revue des Etudes Anciennes», vol. LVII, 1955.
118. Corpus vasorum Arretinorum.
119. T. Cuadrado Díaz. Los recipientos rituales metálicos llamados «braserillas púnicas»,— AEArq, t. XXIX, 1956.
120. E. Cuadrado Díaz. El mundo ibérico,— «I Symposium de la prehistoria de la Península Ibérica», Pamplona, 1960.
121. E. Cuadrado Díaz. Die iberische Siedlungen von El Carambolo,— «Jahrbuch des Römisch-Germanischen Zentral-Museums», 1961.
122. W. Culican. Quelques aperçus sur les ateliers phéniciennes,— «Syria», t. XLV, 1968.
123. W. Culican. Almuñecar, Assur and Phoenician Penetration on the Western Mediterranean,— «Levant», vol. II, 1970.
123a. W. Culican. Phoenician Demons,— «Journal of the Near Eastern Studies», vol. 35, 1976.
124. F. Cumont. Astarte,— RE, Hbd. IV, 1896.
125. D. Deden. Jonas (Livre),— Dictionaire encyclopedigue de la Bible. Paris, 1960.

125a. A. Degrassi. Quattorviri in colonie romane e in municipi retti da duoviri,— «Atti della Accademia Nazionale dei Lincei», Rendiconti, 1950, ser. VIII, vol. II.
126. M. Delcor. Réfleccions sur l'inscripcion de Nora en Sardaigne,— «Syria», t. XLV, 1968.
127. M. Delcor. L'nscripcion phénicienne de la statuette d'Astarté.— Mélanges USJ, t. XLV, 1969.
128. E. Dhorm. Les peuples issus de Japhet d'après le chapitre X de la Genése,— «Syria», t. XIII, 1932.
129. F. Díaz Esteban. Dos nuevas inscripcionas púnicas hispanas,— «Sefarad», an. XXV, 1965.
130. E. Diel, P. San Martín Moro, H. Schubart. Los Nietos, MM, Bd 3, 1962.
131. R. Dion. Tartessos, l'Ocean homerique et les Travaux d'Hercule, RH, t. CCXXIV, 1960, № 1.
132. C. Domergue. Les lingots de plomb romains du Musée archéologique de Carthagène et du Musée naval de Madrid,— AEArq, t. XXXIX, 1966.
133. H. Donner — W. Röllig. Kanaanäische und aramäische Inschriften, Bd I—III, Wiesbaden, 1966—1969.
134. F. Dornseiff. Antike und alter Orient, Leipzig, 1956.
135. H. Dörrie. Pythagoreismus, RE, Hbd. 47, 1963.
136. H. Dressel,— CIL XV.
137. R. Dussaud. Melqart,— «Syria», t. XIV, 1946—1948.
138. R. Dussaud. Les Phéniciens,— в кн.: E. Dhorm. Les religions de Babylonie et d'Assyrie; R. Dussaud. Les religions des Hittites et des Hourrites, des Phéniciens et des Syriens, Paris, 1949.
139. R. Dussaud. L'art phénicien du II millénaire, Paris, 1949.
140. O. Eissfeldt. Ras Schamra und Sanchunjation, Halle (Saale), 1939.
141. O. Eissfeldt. Phoiniker und Phoinikia. RE. Hbd. 31, 1941.
142. O. Eissfeldt. Tyros, RE, Hbd. 14A, 1948.
143. O. Eissfeldt. Sanchunjation von Berut und Ilimilku von Ugarit, Halle (Saale), 1952.
144. O. Eissfeldt. Einleitung in das Alte Testament, Tübingen, 1956.
145. O. Eissfeldt. Kanaanäische Religion,— «Handbuch der Orientalistik», I Abt., Lief. 1, Leiden, 1964.
146. Eitrem. Kerberos, RE, Hbd. 21, 1921.
147. M. Esteve Guerrero. Marco de fabricante de vidrios y otros hallazgos inéditos de Asta Regia,— AEArq, t. XXXIV, 1961.
148. R. Étienne. Les sénateurs espagnols sous Trajan et Hadrien,— «Les empereurs romains d'Espagne», Paris, 1965.
149. R. Étienne. A propos du «garum sociorum»,— «Latomus», t. XXIX, 1970.
150. M. Euzenat. Héritage punique et influences greco-romaines au Maroc,— «VII Congrès internacional d'archéologie classique», Paris, 1965.
151. The Excavations at Dura-Europos, Final Report V, pt 1, New Haven, 1959.
152. M. Fantar. Eschatologie phénicienne-punique, Tunis, 1970.
153. M. Fantar. Une tombe punique sur le versant est de la colline dite de Junona,— Ant. Afr., t. 6, 1972.
154. Fasti archeologici, Firenze, 1946.
155. C. Fernández Chicharro. Noticiario arqueológico de Andalucía,— AEArq, t. XXVIII, 1955.
156. A. Fernández de Avilez. Anillo púnico con escarabeo procedente de Cádiz,— AEArq, t. XXVIII, 1955.
157. N. Fernández Marcos. Estudios Biblicos,— «Sefarad», an. XXXI, 1971.

158. J. Ferron. A propos de la civilisation phénicienne d'Occident,— «La tomus», t. XXIX, 1970.
158a. J. Ferron. Un traité d'alliance entre Caere et Carthage,— «Aufstieg und Niedergang der römischen Welt», Bd I, 1, Berlin — New York, 1972.
159. J.-G. Février. Astronoé,— JA, t. CCLVI, 1968.
160. Fischer. Λιβυφοίνκες, RE, HBd. 25, 1926.
161. D. Fletcher Valls. La cueva y el poblado de la Torre del Mar Paso,— APL, vol. V, 1954.
162. D. Fletcher Valls. Zur Besiedlungsdichte und Siedlungsform der Iberer,— MM, Bd 8, 1967.
163. L. Foucher. Les representacions de Baal Hammon,— «Archéologie vivant», vol. I, № 2, 1968/1969.
164. H. Frankfort. The Art and Architecture of the Ancient Orient, Baltimore, 1955.
165. J. G. Fraser. The Golden Bough, vol. 1, pt IV, London, 1922.
166. P. M. Fraser. Greek-Phoenician Bilingual Inscriptions from Rhodes,— «The Annual of British Scool at Athens», 1970, № 65.
167. B. Freyer-Schaumburg. Elfenbeine aus samischen Heraion, Hamburg, 1966.
168. H. Frisk. Griechische etymologisches Wörterbuch, Lief. 22. Heidelberg, 1970.
169. H. Frost. Une épave punique au large de la Sicilie,— «Archeologia», 1972, № 48.
170. H. Galsterer. Untersuchungen zum römischen Stadtwesen auf der Iberischen Halbinsel, Berlin, 1971.
171. G. Garbini. Note di epigrafia punica II,— RSO, vol. XLII, 1967.
172. A. García Guinea. Excavaciones en la provincia de Albacete, 1958—1959,— AEArq, t. XXXII, 1959.
173. A. García y Bellido. Fenicios y Cartaginenses en España,— «Sefarad», an. II, 1942.
174. A. García y Bellido. Colonisaciones púnica y griega,— Ars Hispaniae, t. I, Madrid, 1947.
175. A. García y Bellido. El arte ibérico,— Ars Hispaniae, t. I, Madrid, 1947.
176. A. García y Bellido. La España del siglo I de nuestra era, Buenos Aires — México, 1947.
177. A. García y Bellido. La batalla de Artemision,— AEArq, № 67, 1947.
178. A. García y Bellido. Hispania Graeca, Barcelona, 1948.
179. A. García y Bellido. Esculturas romanas de España y Portugal, Madrid, 1949.
180. A. García y Bellido. Colonisación púnica,— «Historia de España», t. I, vol. 2, Madrid, 1952.
181. A. García y Bellido. Colonisación griega,— «Historia de España», t. I, vol. 2, Madrid, 1952.
182. A. García y Bellido. Phönizische und griechische Kolonisation im westlichen Mittelmeer,— Historia Mundi, Bd III, München, 1954.
183. A. García y Bellido. Materiales de arqueología hispano-púnica. Jarros de bronce,— AEArq, vol. XXIX, 1956.
184. A. García y Bellido. El elemento forastero en Hispania Romana,— «Boletín de Real Academia de Historia», t. CXLIV, cuad. II, 1959.
185. A. García y Bellido. «Parerga» de arqueología y epigrafía hispano-romanas,— AEArq, vol. XXXIII, 1960.
186. A. García y Bellido. Inventario de los jarros púnicotartessios,— AEArq, t. XXXIII, 1960.

187. A. García y Bellido. Vier Probleme der iberischen Geschichte und Kunst,— «Klio», Bd 38, 1960.
188. A. García y Bellido. Hercules Gaditanus,— AEArq, t. XXXVI, 1963.
189. A. García y Bellido. Nuevos jarros de bronce tartessios,— AEArq, t. XXXVII, 1964.
190. A. García y Bellido. La Itálica de Hadriano,— «Les empereurs romains d'Espagne», Paris, 1965.
191. A. García y Bellido. «Parerga» de arqueología y epigraphía hispano-romanas (III),— AEArq, t. XXXIX, 1966.
192. A. García y Bellido. Les religions orientales dans L'Espagne romaine, Leiden, 1967.
193. A. García y Bellido. Les Phéniciens et les Carthaginois colonisent l'Espagne,— «Archeologia», 1968, № 20.
194. A. García y Bellido. Algunas novedades sobre arqueología púnico-tartessia,— AEArq, t. XLIII, 1970.
195. J. R. Garrido Roiz. El problema de Tartessos en relación con la region onubense,— «Omaggio a Fernand Benoit», t. I, Bordighera, 1972.
196. G. (W.) Gesenius. Thesaurus Veteri Testamenti, Lipsiae, 1840.
197. J.-B. Giard. Pouvoir central et libertés locales,— «Revue numismatique», 6 sèr., t. XII, 1970.
198. F. Gisinger. Geographie, RE, SptBd IV, 1924.
199. G. Gisinger. Okeanos 1, RE, Hbd. 34, 1937.
200. J. M. Gómez Tabanera. Los pueblos antiguos de la Península Ibĕrica,— «Las Raíces de España», Madrid, 1967.
201. J. M. Gómez Tabanera. Las religiones prehistóricas y antiguas,— «La Raíces de España», Madrid, 1967.
202. E. Groag. L. Cornelius Balbus der Jungere,— RE, Hbd. 7, 1900.
203. P. Grosse. Gades,— «Kleine Pauly», Lief. 11, 1966.
204. O. Gruppe. Herakles,— RE, SptBd. III, 1918.
205. S. Gsell. Histoire ancienne d'Afrique du Nord, t. IV, Paris, 1928.
206. A. M. de Guadan. Gades como heredera de Tartessos,— AEArq, t. XXXIV, 1961.
207. M. G. Guzzo Amadasi. Le iscrizioni fenicie e puniche delle colonie in Occidente, Roma, 1967.
208. D. Harden. The Phoenicians, London, 1962.
209. C. F. C. Hawkes. Las relacoines en el bronce final entre la Península Ibérica y las Islas Británicas,— «Ampurias», t. XIV, 1952.
210. R. Helm. M. Porcius Latro,— RE, Hbd. 43, 1953.
211. M. Helzer. Caesar, Politican and Statesman, Cambridge, 1968.
212. J. Hernández Díaz. Catálogo arqueológico y artístico de provincia de Sevilla, t. II, Sevilla, 1943.
213. G. Hignett. Xerxes' invasion of Greece, Oxford, 1963.
214. A. History of Technology, vol. I, Oxford, 1956.
215. W. Hoffmann. Plebs,— RE, Hbd. 41, 1951.
216. W. Honigmann. Sidon,— RE, Hbd. 4A, 1923.
217. E. Hübner. Gades,— RE, Hbd. 14, 1912.
218. E. Hübner,— CIL II, Supplementum.
219. E. Hübner. Carthago Nova,— RE, Hbd. 6, 1899.
220. E. Hübner. Ebusus,— RE, Hbd. 10, 1903.
221. E. Hübner. Sexi,— RE, Hbd. 4A, 1923.
222. Hülsen. Crypta Balbi,— RE, Hbd. 7, 1900.
223. B. Jacoby. Verweht und ausgegraben, Leipzig, 1963.
224. F. Jacoby. Hecataios,— RE, Bd 7, 1912.
225. R. A. Jairasboy. Oriental Influenses in Western Art, London, 1965.
226. H. Jensen. Die Schrift, Berlin, 1958.

227. F. Jeremias. Tyrus bis zur Zeit Nebukadnezar's, Leipzig, 1891.
228. J. Jiménez Cisneros. Inscripciones funerarias gaditanas inéditas,— «Emerita», t. XXX, 1962.
229. A. Jirku. Zweier-Gottheit und Dreier-Gottheit in altorientalischen Palästina — Syrien,— Mélanges USJ, t. XLV, 1969.
230. A. Jodin. La Mauretanie et les relacons ibéro-puniques,— «Actes du 82e Congrés nacinal des sociétés savantes», section d'archéologie, Paris, 1959.
231. A. Jodin. Magador, Tanger, 1966.
232. A. Jodin. Les établissements du roi Juba II aux Iles Purpuraires (Mogador), Tanger, 1967.
233. J. J. Jully. Documentos de civilisación material e contactos en el Mediterraneo occidental durante le Edad del Hierro,— «Ampurias», t. XXX, 1968.
234. Kees. Seth,— RE, Hbd. 4A, 1921.
235. E. Kukahn. El sarcófago sidonio, de Cádiz,— AEArq, t. XXIV, 1951.
236. E. Kukahn. Phönikische und iberische Kunst,— в кн.: K. Schefold. Die Griechen und ihre Nachbarn, Berlin, 1967.
237. E. Kukahn. Zur Frühfase der iberischen Bronze,— MM, Bd 8, 1967.
238. E. Kukahn y A. Blanco. El tesoro de «El Carambolo»,— AEArq, t. XXXII, 1959.
239. J. Lafuente Vidal. Influencia de los cultos religiosos carthaginenses en los motivos artísticos de los ibéros del S. E. español,— APL, t. I, vol. 3, 1952.
240. E. Lange. Thucydides. Kommentar, Leipzig, 1896.
241. E. Langlotz. Greek art, Western,— «Encyclopedia of the World Art», vol. VII, 1963.
242. J. Leclant. Les relacions entre l'Egipte et la Phénicie du voyage d'Ounamon à l'expedition d'Alexander,— «The Role of the Phoenicians in the interactions of Mediterranean civilisation», 1948.
243. J. Le Gall. Le Tibre, Paris, 1953.
244. E. Leslie. Old Testament Religion in the Its Canaanite Background, New York — Chicago, 1936.
245. G. R. Levy. The Oriental Origin of Herakles,— JHS, vol. LIV, pt 1, 1934.
246. M. Lidzbarski. Handbuch der nordsemitischen Epigraphik, Weimar, 1898.
246a. G. Lindemann, H. G. Nimeyer und H. Schubart. Toscanos, Jardín und Alarcón,— MM, Bd 13, 1972.
247. M. Lombardo. Le concezioni degli antichi sur ruolo degli oracoli nella colonizzazione greca,— «Annali di Pisa», ser. III, vol. II, 1972.
248. O. Lordkipanidze. La civilisation de l'ancienne Colchide aux Ve—IVe siécles,— RA, 1971, f. 2.
249. A. Luquet. La céramique préromaine de Banasa,— BAM, t. V, 1964.
250. C. M. Garum. Diccionaire des Antiquités Grecs et Romaines, t. II, pt I, 1896.
251. J. Macabich. Notas sobre Ibiza púnico-romana,— AEArq, t. XX, 1947.
252. J. Maluquer de Motos. Pueblos ibéricos,— «Historia de España», t. I, vol. III, Madrid, 1954.
253. J. Maluquer de Motos. Nuevas orientaciones en el problema de Tartesso,— «I Symposium de Prehistoria de la Península Ibérica», Pamplona, 1960.
254. Manuel d'archéologie oriental, Paris, 1931—1947.
255. J. Marquardt. Römische Staatsverwaltung, Bd I, Leipzig, 1873.
256. J. R. Mélida. El tesoro de Aliceda, BSEE, t. XXIX, 1921.
257. O. Meltzer. Geschichte der Karthager, Bd I, Berlin, 1879.

258. Memorias de la Junta superior de excavaciones y antigüedades, Madrid, 1916—1930.
259. E. Meyer. Geschichte des Altertums, III, Stuttgart, 1937.
260. T. Mommsen. Bemerkungen zum Dekret des Paulus,— «Hermes», Bd III, 1869.
261. A. Montenegro Duque. Historia de España; edad ahtigüa, I, Madrid, 1972.
262. J. Morr. Die Quellen von Strabons dritten Buch,— «Philologus», SptBd XVIII, 1926.
263. S. Moscati. Geschichte und Kultur der semitischen Völker, Zürich — Köln, 1961.
264. S. Moscati. L'art punique à la lumière des récentes découverts en Italie,— «Archeologia», 1968, № 20.
265. S. Moscati. Świat Fenicjan, Warszawa, 1971.
266. S. Moscati. Nuove figurine puniche a Mozia,— «Rendiconti delle sedute dell'Accademia Nazionale dei Lincei», vol. XXV, 1970.
267. L. Moulinier. Quelques hypothèses relatives à la Géographie d'Homer dans l'Odysée, Aix-en-Provence, 1958.
268. H. Mülestein. Die Etrusker im Spiegel ihrer Kunst, Berlin, 1969.
269. C. Mullerus. Prolegomena de Hannone Carthaginiense,— «Geographi Graeci Minores», t. I, 1855.
270. J. M. Muñoz Gambero. Corpus Punicum,— «Taršiš», 1969, № 4.
271. Münzer L. Cornelius Balbus,— RE, Hbd. 7, 1900.
272. P. Naster. Les influences du style grec en Phénicie à l'époque achéménide,— «Atti del VII Congresso internazionale di archeologia classica», vol. I, Roma, 1961.
273. P. Naster. Les monnais phéniciennes,— «Archeologia», 1968, № 21.
274. V. Nedomački. Stara jevrejska umetnost u Palestini, Beograd, 1964.
275. G. Nieto Gallo. Una sepultura del Cabesico del Tesoro con «braserilla ritual»,— AEArq, t. XLIII, 1970.
276. M. Nilsson. The Mycenaean Origin of Greek Mythology, Berkeley, 1932.
277. H. G. Nimeyer, M. Pellicer, H. Schubart. Eine altpunische Kolonie an der Mündung des Rio Veles,— AA, 1964, Hft. 3.
278. H. G. Nimeyer — H. Schubart. Toscanos und Trayamar, MM, Bd 9, 1968.
279. H. G. Nimeyer, H. Schubart. Toscanos, Berlin, 1969.
280. H. G. Nimeyer, H. Schubart. Toscanos,— AA, 1972, Hft. 2.
281. M. Pallottino. El problema de las relaciones entre Cerdeña e Iberia en la antigüedad prerromana,— «Ampurias», t. XIV, 1952.
282. M. Pallottino. Scavi nel santuario etrusco in Pyrgi,— «Archeologia classica», vol. XVI, 1964.
283. J. B. Peckham. The Development of the late Phoenician Scripts, Cambridge, Massachusets, 1968.
284. J. B. Peckham. The Nora Inscription,— «Orientalia», vol. 41, 1972.
285. M. Pellicer Catalán. Excavaciones en la necrópolis púnica de «Laurita» del Cerro de San Cristobal (Almuñecar, Granada), Madrid, 1963.
286. M. Pellicer Catalán. Ein altpunische Grabfeld bei Almuñecar, MM, Bd 4, 1963.
287. M. Pellicer Catalán. Suchschnitte auf dem Peñon,— в кн.: H. G. Nimeyer, H. Schubart. Toscanos, Berlin, 1969.
288. M. Pellicer Catalán. Las primitivas cerámicas a torno pintadas hispanas, AEArq, t. XLI, 1968.
289. M. Pellicer Catalán. El yacimiento de los Toscanos y su contri-

bución al estudio de la ceramicas pintadas hispanas protohistóricas,— AEArq, t. XLII, 1969.
290. C. Pemán. Los toponimos antiguos del extremo sur de España,— AEArq, t. XXVI, 1953.
291. C. Pemán. Alfares y embarcaderos romanos en la provincia de Cádiz,— AEArq, t. XXXII, 1959.
292. C. Pemán. El capitel protojónico, de Cádiz,— AEArq, t. XXXII, 1959.
293. L. Pericot. Historia de España, t. I, Barcelona, 1958.
294. G. Perrot et Ch. Chipiez. Histoire de l'Art dans l'Antiquité, t. III, Paris, 1885.
295. A. J. Pfiffig. Uni-Hera-Astarta, Wien, 1965.
296. M.-Th. Picard-Schmitter. Bétyles hellénistiques,— «Monuments et Memoires», t. 57, 1971.
297. L. Piccirilli. Aspetti storico-giuridici dell'amficionia delfica e sui rapporti con la colonizzazione greca,— «Annali di Pisa», ser. III, vol. II, 1972.
298. A. Pierides. Jewellery in the Cyprus Museum, Nicosia, 1971.
299. E. Pla y Beltran. Actividades del SIP (1946—1959),— APL, vol. VI, 1962.
300. M. Ponsich. Nécropoles phéniciennes de la région de Tanger, Rabat, 1967.
301. M. Ponsich. Recherches archéologiques à Tanger et sa région, Paris, 1970.
302. K. Preisendanz. Tanit,— RE, Hbd. 8A, 1932.
303. K. Preisendanz. Melkart,— RE, SptBd III, 1935.
304. J. B. Pritchard. The Phoenicians in Their Homeland,— «Expedition», vol. 14, № 1, 1971.
305. K. Raddatz. Die Schatzfunde der Iberischen Halbinsel, Berlin, 1969.
306. «Las Raíces de España», Madrid, 1967.
307. A. Ramos Folques. El nivel ibéro-punico de la Alcudia de Elche,— «Omaggio a Fernand Benoit», t. II, Bordighera, 1972.
308. R. von Ranke-Graves. Griechische Mythologie, Bd 2, 1955.
309. D. B. Redford. Studies in Relation between Palestina and Egypt during the First Millenium B. C., II,— JAOS, vol. 93, № 1, 1973.
310. W. Röllig. Zur phöniziesche Inschrift der Astarta — Statuette in Sevilla,— MM, Bd 10, 1969.
311. R. Saidah. Chronique,— Bul MB, t. XX, 1967.
312. J. M. Sasson. Canaanit Maritim Involvement,— JAOS, vol. 86, № 2, 1966.
313. W. Seston. Des «portes» de Tugga à la «Constitution», de Carthage,— RH, t. CCCXXXII, 1967.
314. W. M. Shanklin and M. K. Ghatus. A Preliminary Report of the Antropologia of the Phoenicians,— Bul. MB, t. XIX, 1966.
315. U. Schmoll. Die südlusitanische Inschriften, Wiesbaden, 1961.
316. H. Schubart, J. P. Garrido. Probegrabung auf dem Cabezo de la Esperanza in Huelva, 1967,— MM, Bd 8, 1967.
316a. H. Schubart, G. Maaß, G. Lindemann. Chorreras und Jardín,— AA, 1976, Hft. 2.
317. W. Schüle. Die Meseta-Kulturen der Iberischen Halbinsel, Berlin, 1969.
318. A. Schulten. Hispania,— RE, Hbd. 16, 1913.
319. A. Schulten. Malaca,— RE, Hbd. 27, 1928.
320. A. Schulten. Forschungen in Spanien,— AA, 1927.
321. A. Schulten. Die Säulen des Herakles,— в кн.: O. Jessen. Die Strasse von Gibraltar, Berlin, 1927.
322. A. Schulten. Tartessos, Hamburg, 1950.
323. A. Schulten. Iberische Landeskunde, Bd I, Strasburg — Kehl, 1955.

324. E. Sellin. Einleitung in das Alte Testament, Heidelberg, 1950.
325. J. de C. Serra Rafols. Alcaser do Sal.— «Reallexikon der Vorgeschichte», Bd. I, 1924.
326. H. Seyrig. Divinité de Sidon,— «Syria», t. XXXV, 1959.
327. H. Seyrig. Les grands dieux de Tyre à l'époque grecque et romaine,— «Syria», t. XL, 1963.
328. H. Seyrig. Le culte du soleile en Syrie à l'époque romaine,— «Syria», t. XLVIII, 1971.
329. E. Soergel. Die Tierknochen aus der altpunischen Faktorei von Toscanos,— MM, Bd 9, 1968.
330. J. M. Solá-Solé. Miscelanea púnico-hispana I,— «Sefarad», an. XVI, 1956.
331. J. M. Solá-Solé. Miscelanea púnico-hispana II,— «Sefarad», an. XVII, 1957.
332. J. M. Solá-Solé. De epigrafía,— «Sefarad», an. XX, 1960.
333. J. M. Solá-Solé. Toponimia fenicio-púnica,— «Enciclopedia Lingüistica Hispánica», t. I, Madrid, 1960.
334. J. M. Solá-Solé. La inscripción púnica Hispania 10,— «Sefarad», an. XXI, 1961.
335. J. M. Solá-Solé. Miscelanea púnico-hispana III,— «Sefarad», an. XXV, 1965.
336. J. M. Solá-Solé. Nueva inscripcion fenicia de España.— RSO, vol. XLI, 1966.
337. J. M. Solá-Solé. Ensayo de antroponimia feno-púnica de Hispania antigua,— RSO, vol. XLIII, 1967.
338. J. M. Solá-Solé. Miscelanea púnico-hispana IV,— «Sefarad», an. XXVII, 1967.
339. J. M. Solá-Solé. Textos epigráficos de Toscanos,— MM, Bd 9, 1968.
340. G. Solier. Céramique punique et ibéro-punique sur le littoral du Languedoc du VIeme au debut du IIeme siècle avant J. C.,— «Omaggio a Fernand Benoit», t. II. Bordighera, 1972.
341. T. Spiteris. Art de Chypre, Lausanne, 1970.
342. G. H. Stevenson. The imperial Administration,— «Cambridge Ancient History», t. X, 1934.
343. I. Strøm. Problems concerding the Origin and Early Development of the Etruscan Orientalising Style, Odense, 1971.
344. M. Sznyger. Mythes et dieux de la religion phénicienne,— «Archeologia», 1968, № 20.
345. M. Tarradell. El impacto colonial de los pueblos semitos,— «I Symposium de prehistoria de la Península Ibérica», Pamplona, 1960.
346. M. Tarradell. Arte ibérico, Barcelona, 1968.
347. Tartessos y sus problemas, Barcelona, 1969.
348. A. Tchernia. Recherches archéologiques sous-marines,— «Gallia», t. 27, 1969.
349. J. Texidor. Bulletin d'épigraphie sémitique, 1968,— «Syria», t. XLV, 1968.
350. Thesaurus Linguae Latinae, 1926.
351. R. Thouvenot. Essai sur la province Romaine de Bétique, Paris, 1940.
352. J. J. Tierney. The Map of Agrippa,— «Proceedings of the Royal Irish Academy», vol. 63, 1963.
353. A. Tovar. Las lenguas primitivas de la Península Hispánica,— «Cahiers d'histoire Mondial», t. 2, 1958.
354. A. Tovar. Lenguas prerromanas. Testimonios antiguos,— «Enciclopedia Lingüistica Hispánica», t. I, Madrid, 1960.
355. Trümpel. Briareos,— RE, Hbd. 6, 1899.

356. F. Überweg-K. Praechter. Grundriss der Geschichte der Philosophie, t. I, Berlin, 1926.
357. R. de Vaux. La Phénicie et les Peuples de la Mer.— Mélanges USJ, t. XLV, 1969.
358. F. Villard. La céramique grecque de Marceille, Paris, 1960.
359. F. Villard. La céramique grecque du Maroc, BAM, t. IV, 1960.
360. G. Ville. Utica,— RE, SptBb IX, 1962.
361. F. Vittihghoff. Römische Kolonisation und Bürgerrectspolitik unter Caesar und Augustus, Wiesbaden, 1952.
362. A. Vives y Escudero. Monedas antiguas de Gades,— BSEE, t. XXI, 1913.
363. A. Vives y Escudero. La moneda Hispánica, Madrid, 1924.
364. A. I. Voščinina. Frühantike Glasgefäße in der Ermitage,— «Wissenschaftliche Zeitschrift der Universität Rostok», Jg. 16, 1967.
365. F. W. Walbanc. A historical commentary on Polybios, Oxford, 1957.
366. J. Weiss. Theatrum Balbi,— RE, Hbd. 10A, 1934.
367. G. Wentzel. Acheloos,— RE, Bd 1, 1894.
368. L. Wickert. Zu den Karthagerverträger,— «Klio», Bd 21, 1938.
369. L. Woolley. Mesopotamien und Vorderasien, Baden-Baden, 1961.
370. Wörterbuch der Mythologie, I Abt., Lief. 10, 1972.
371. Zahn. Garum,— RE, Hbd. 13, 1910.
372. K. Ziegler. Motya,— RE, Hbd. 31, 1933.

ج ـ لائحة الخرائط والرسوم

١ ـ لائحة الخرائط

٢ ـ لائحة الرسوم:

رسم ٤ب ــ مشط من العاج يحمل صوراً لعنقاء مغرب واسر وغزالين. القرن السابع ق.م. اشبيلية، متحف الآثار.

رسم ٥ ــ اقراط ذهبية من أليسيدا. حوالي عام ٦٠٠ ق.م. مدريد، المتحف الوطني للآثار.

رسم ٦ ــ سوار ذهبي من أليسيدا. حوالي عام ٦٠٠ ق.م. مدريد، المتحف الوطني للآثار.

رسم ٧ ــ حزام ذهبي من أليسيدا. حوالي عام ٦٠٠ ق.م. مدريد، المتحف الوطني للآثار.

رسم ٨ ــ شعرية ذهبية وعقد من أليسيدا. حوالي عام ٦٠٠ ق.م. مدريد، المتحف الوطني للآثار.

رسم ٩ ــ نوط ذهبي من ايفورا. القرن السابع ق.م. سيفيليا، متحف الآثار.

رسم ١٠ ــ عقد ذهبي من سينس. القرن السابع ق.م.

رسم ١١ ــ واقعية للصدر ذهبية من كارامبولو. القرن السابع ق.م. سيفيليا، متحف الآثار.

رسم ١٢ ــ واقعية للصدر ذهبية من كارامبولو. القرن السادس ق.م. سيفيليا، متحف الآثار.

رسم ١٣ ــ عقد ذهبي من كارامبولو. القرن السادس ق.م. سيفيليا، متحف الآثار.

رسم ١٤ ــ حاملة حنجر خزفية من البحر بالقرب من قادس.

رسم ١٥ ــ ابريق برونزي من مقاطعة ويلفا. القرن السادس ق.م. مدريد، متحف معهد « دون جوان ».

رسم ١٦ ــ تمثال صغير لرجل من ايسلا ــ بلانا من القرن السابع او القرن السادس ق.م. برشلونة، متحف الآثار.

رسم ١٧ ــ ناووس رخامي من قادس. من القرن الرابع والقرن الثالث ق.م. كاديس، متحف الآثار.

رسم ١٨ ــ قطعة من ناووس رخامي قادسي.

رسم ١٩ ــ تمثال صغير لامرأة مصنوع من الطين النضيج، اكتشف في بويغ ــ ديس ــ مولينس. مدريد، المتحف الوطني للآثار.

رسم ٢٠ ــ تمثال صغير لرجل مصنوع من الطين النضيج، اكتشف في بويغ ــ ديس ــ مولينس. مدريد، المتحف الوطني للآثار.

رسم ٢١ ــ فأس نذري برونزي صغير، تُعرف « بالموسى ». مدريد، المتحف الوطني للآثار.

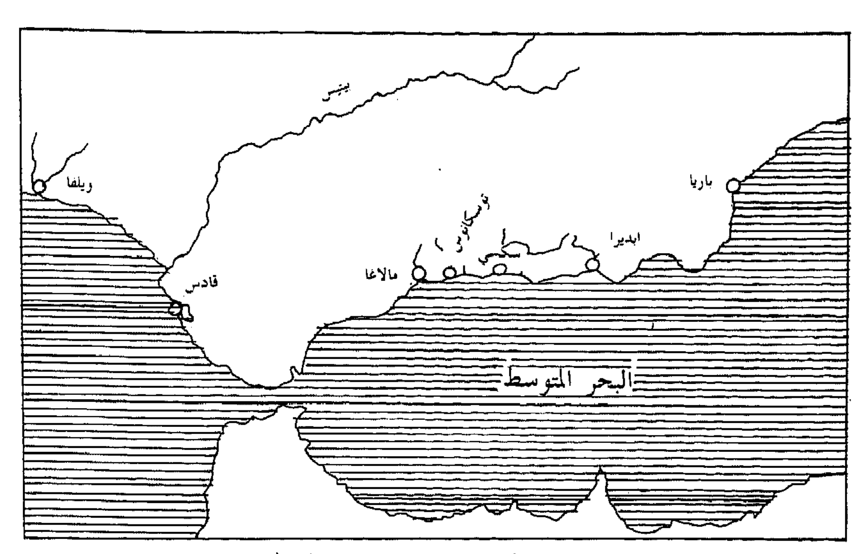
رسم ٢٢ ــ لوحة خزفية من جزيرة بيتيوس. مدريد، المتحف الوطني للآثار.

رسم ٢٣ ــ تمثال صغير مصنوع من الطين النضيج، من القرن السادس ق.م. برشلونة، متحف الآثار.

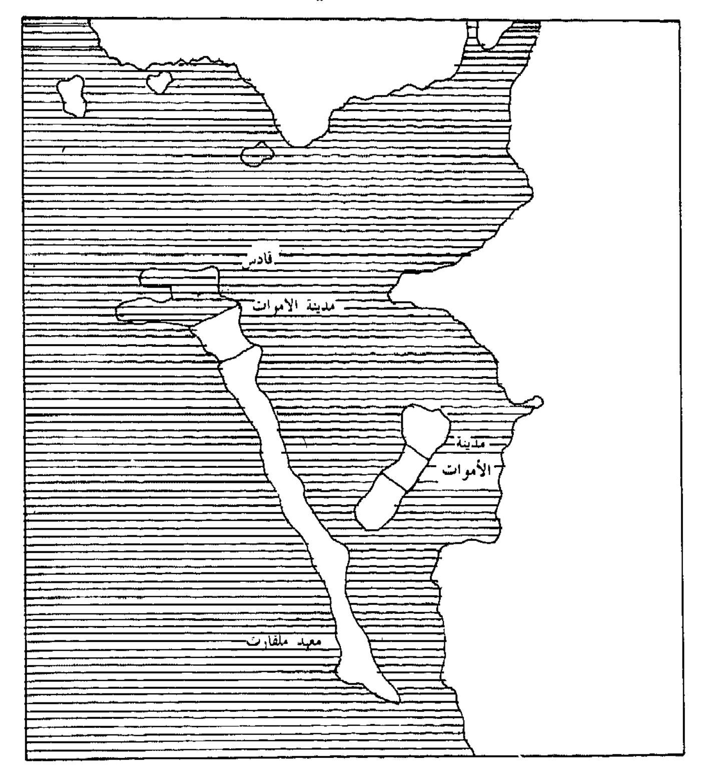


د ـــ الخرائط والرسوم

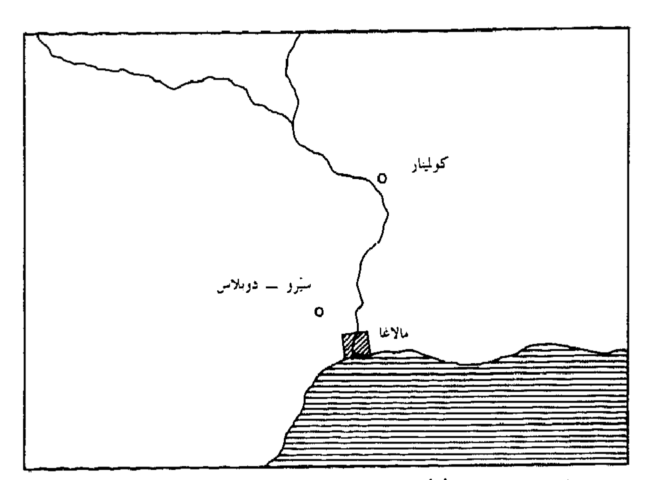
خارطة ١ ــ منطقة البحر المتوسط القديمة.



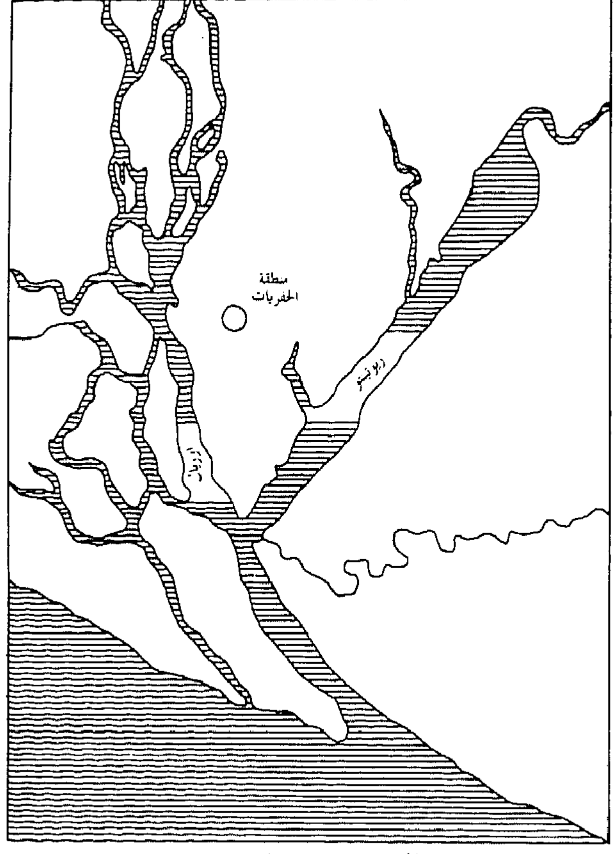
خارطة ٢ ــ المستعمرات الفينيقية في اسبانيا الجنوبية.



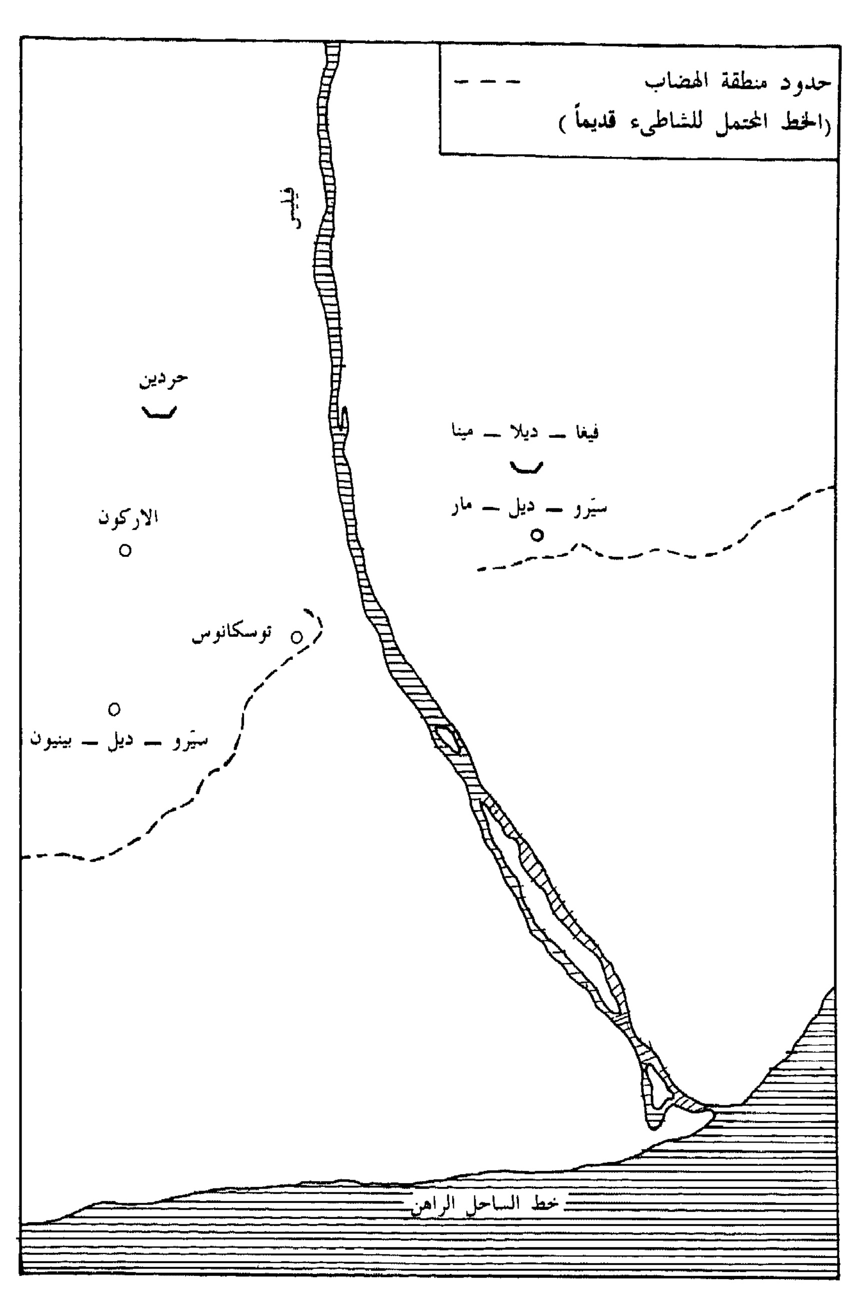
خارطة ٣ ــ قادس وضواحيها.



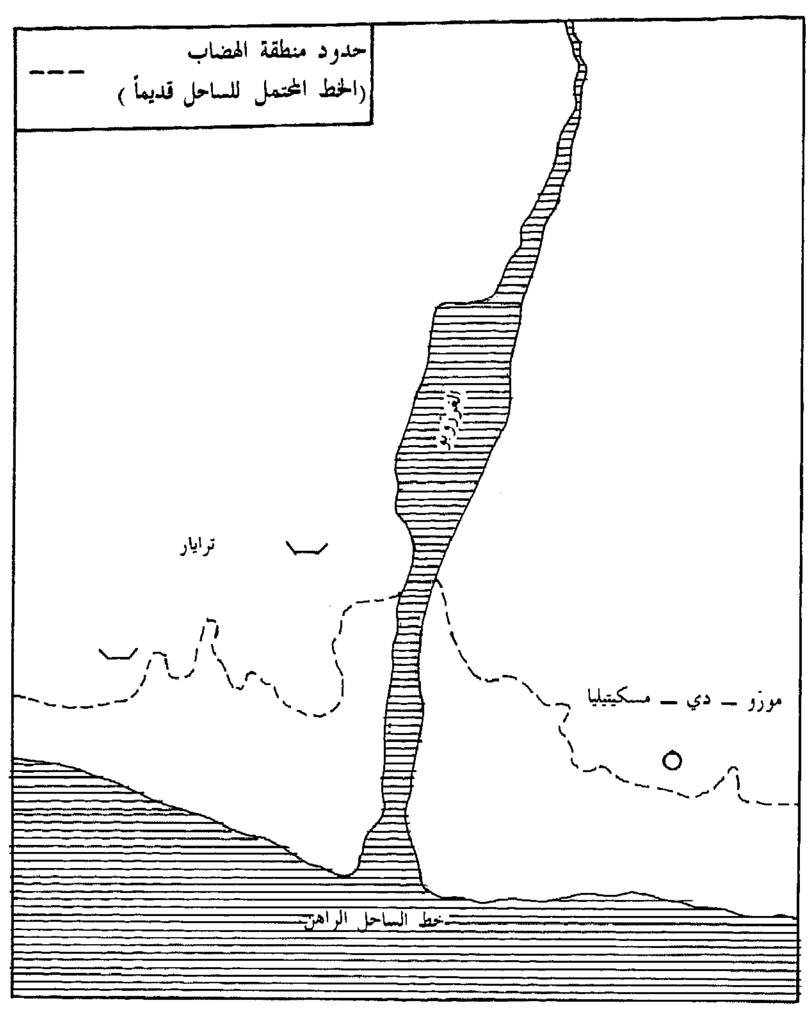
خارطة ٤ ــ مالاغا وضواحيها.



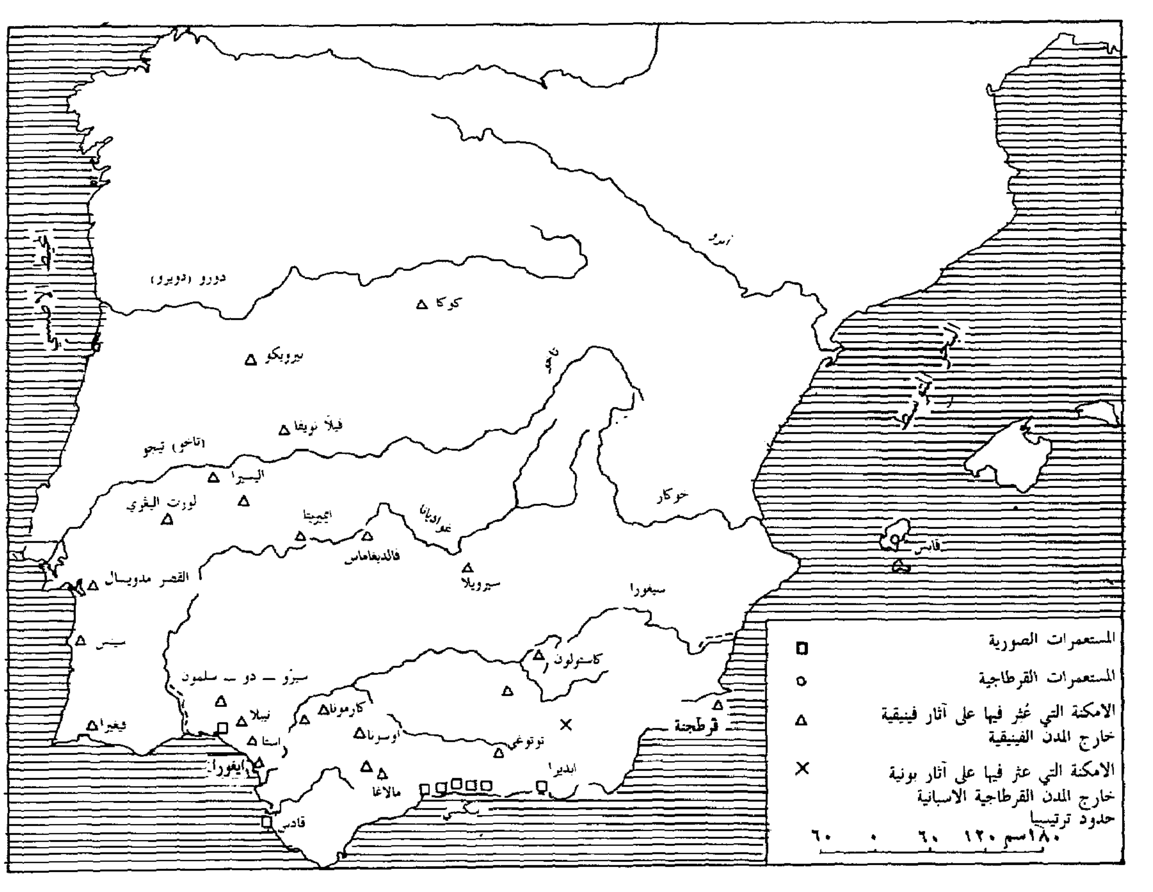
خارطة ٥ ــ ويلفا وضواحيها.



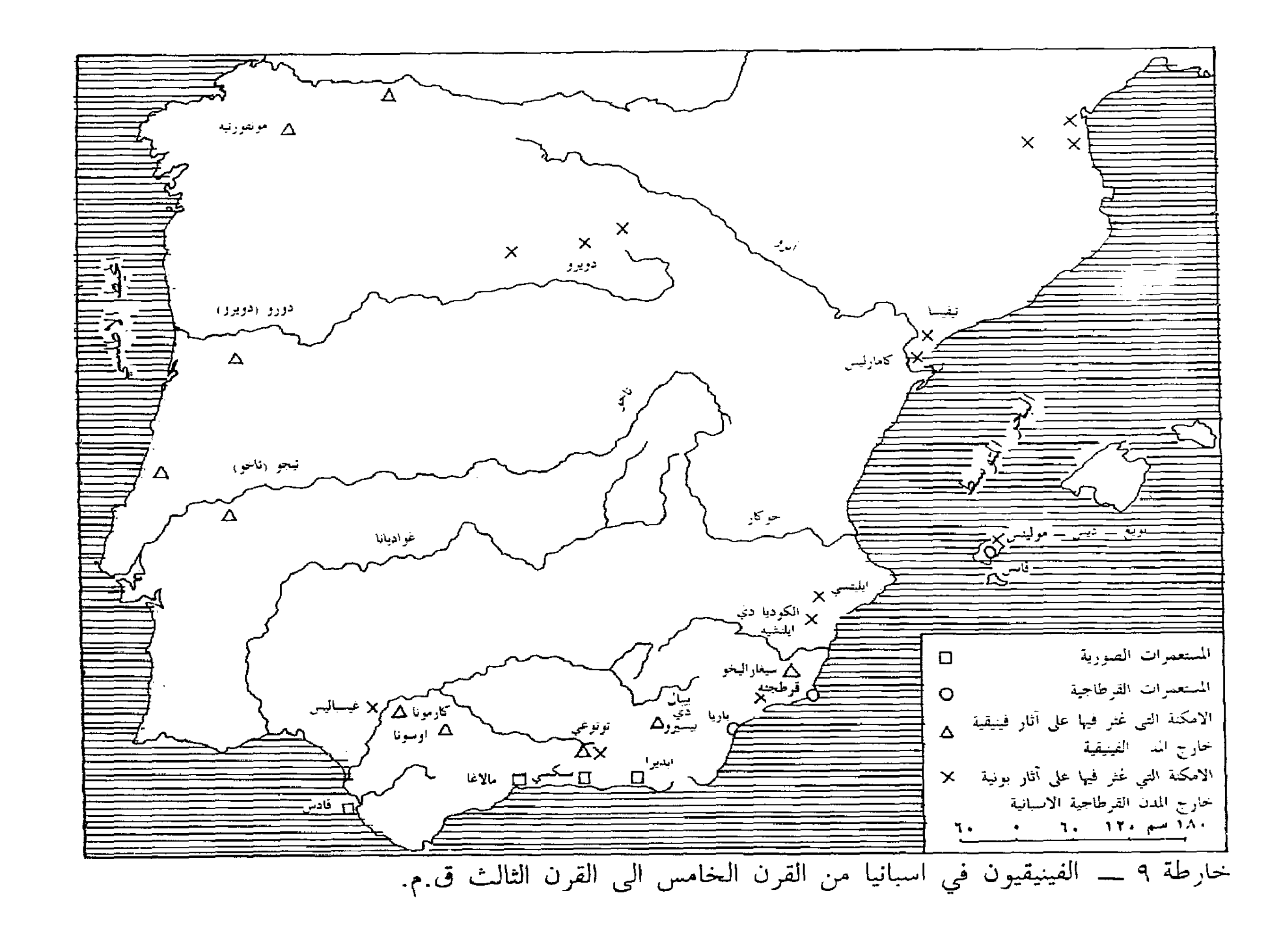
خارطة ٦ ــ توسكانوس وضواحيها.



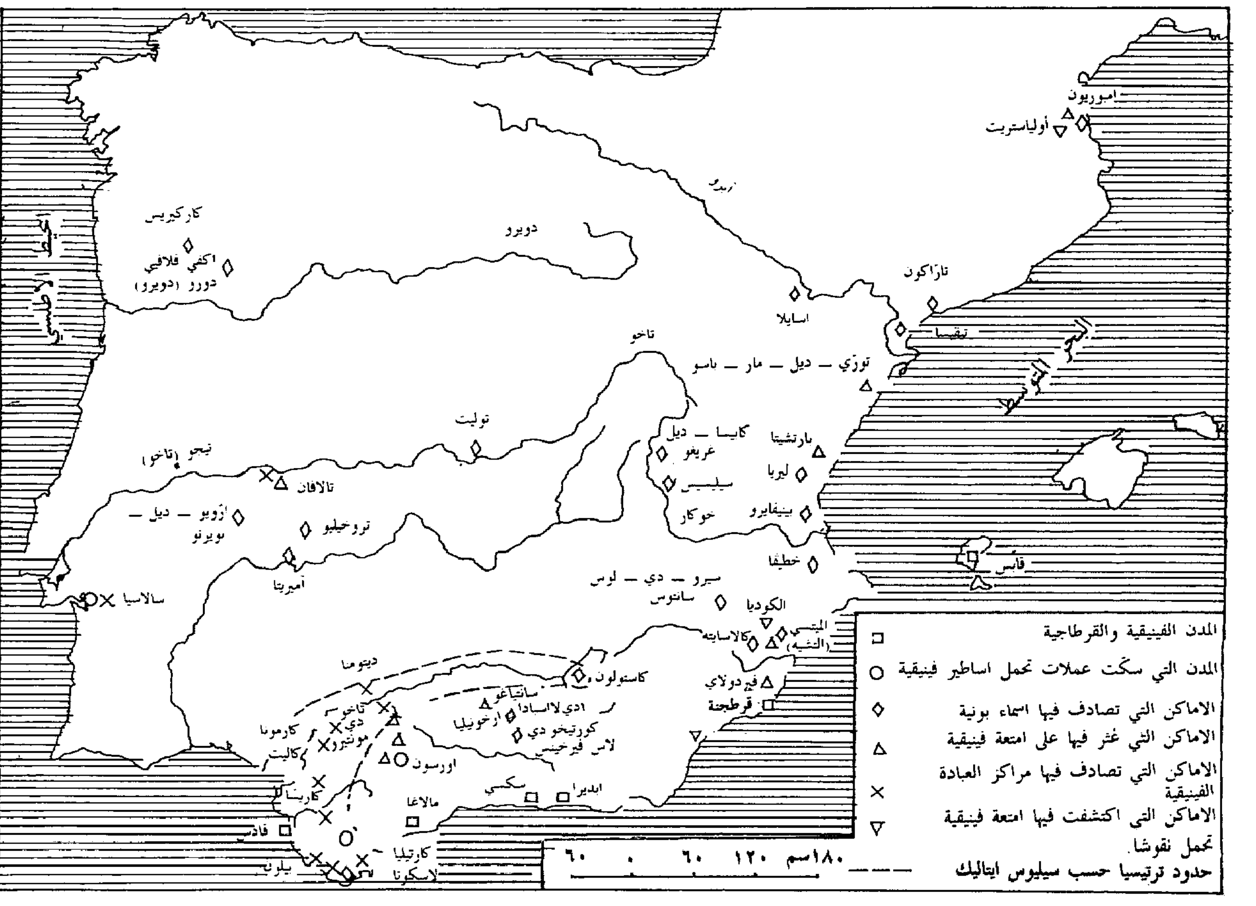
خارطة ٧ ـ مورّو ـ دي ـ ميسكيتيليا ومقبرة « ترايامار ».



خارطة ٨ ـــ الفينيقيون في اسبانيا من القرن الثاني عشر الى القرن السادس ق.م.



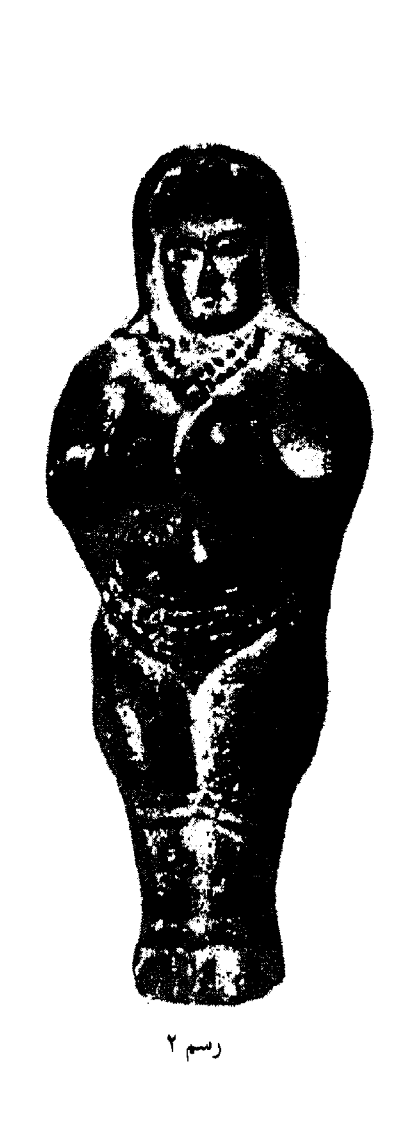
خارطة ٩ — الفينيقيون في اسبانيا من القرن الخامس الى القرن الثالث ق.م.



خارطة ١٠ ـــ الحضارة الفينيقية في اسبانيا الرومانية.



رسم ١



رسم ٢

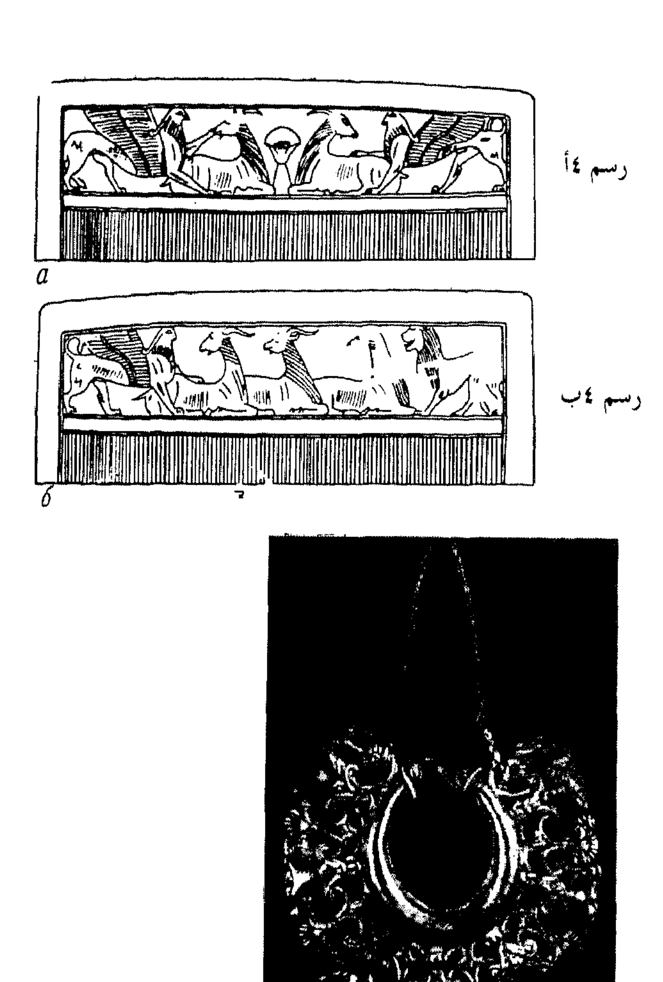
رسم ١ ــ تمثال برونزي صغير لعشتروت من سيفيليا. القرن الثامن ق.م. سيفيليا، متحف الآثار.

رسم ٢ ــ تمثال برونزي صغير لعشتروت من مقاطعة غرينادا، مجموعة خاصة.



رسم ٣

رسم ٣ ــ تمثال صغير من الرخام الشفاف لعشتروت من غاليرا. القرن السابع ق.م. مدريد، المتحف الوطني للآثار.

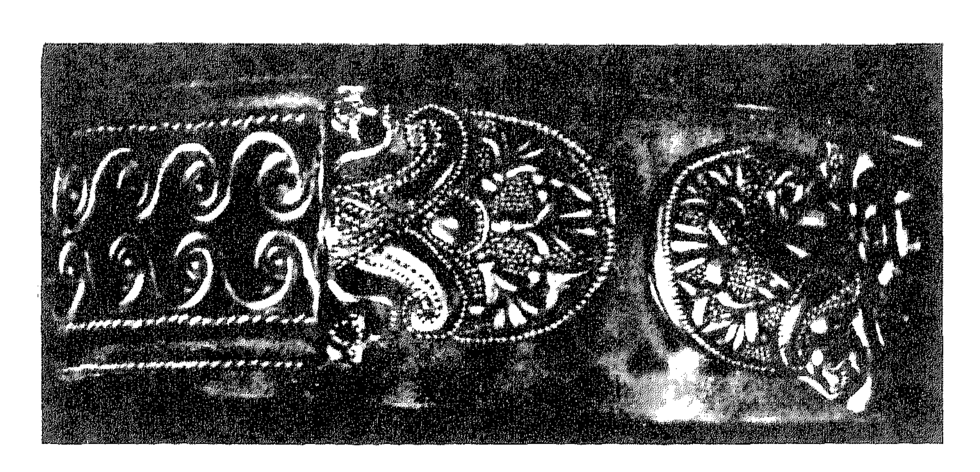


رسم ٥

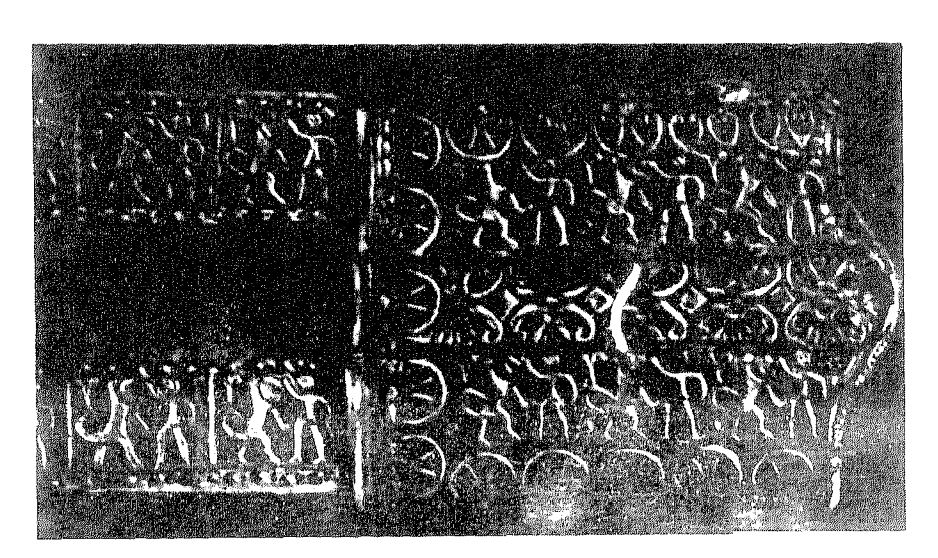
رسم ٤أ ــ مشط من العاج يحمل صوراً لعنقاء مغرب وغزالين. القرن السابع ق.م. سيفيليا، متحف الآثار.

رسم ٤ب ــ مشط من العاج يحمل صوراً لعنقاء مغرب واسد وغزالين. القرن السابع ق.م. سيفيليا، متحف الآثار.

رسم ٥ ــ. اقراط ذهبية من أليسيدا حوالي عام ٦٠٠ ق.م. مدريد، المتحف الوطني للآثار.



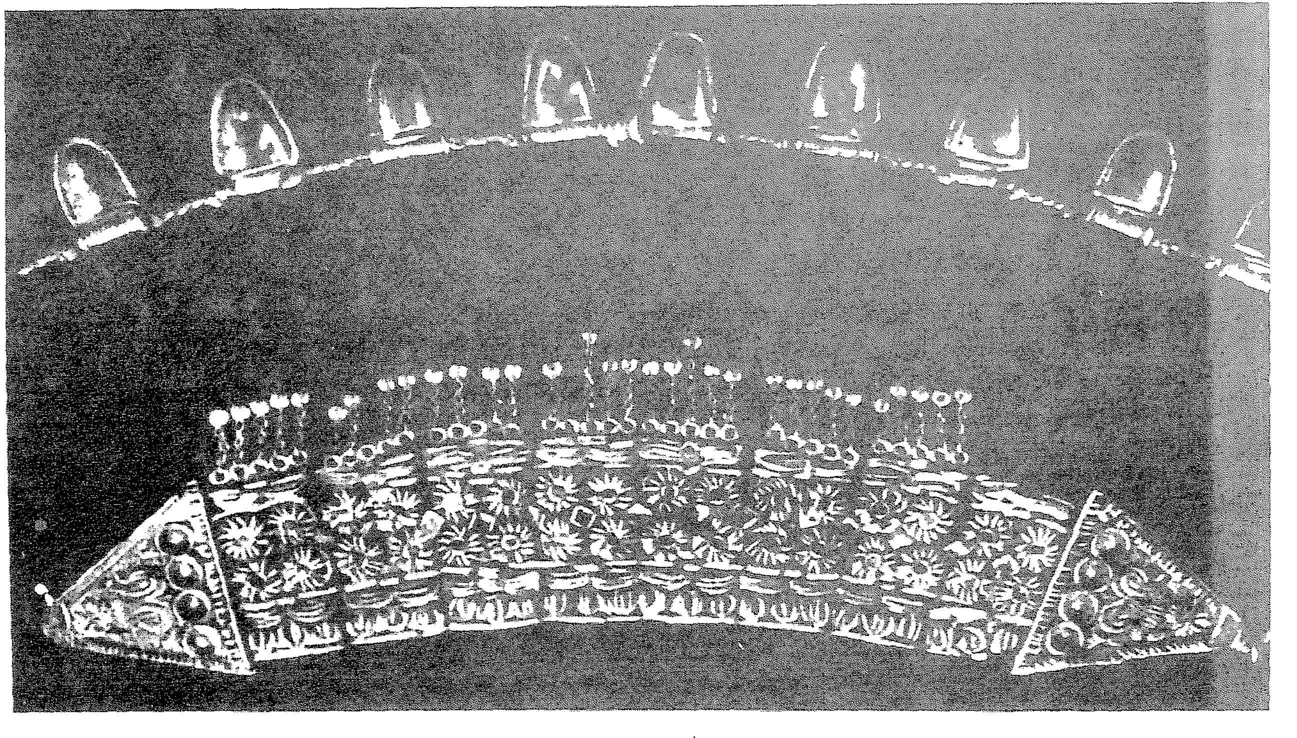
رسم ٦



رسم ٧

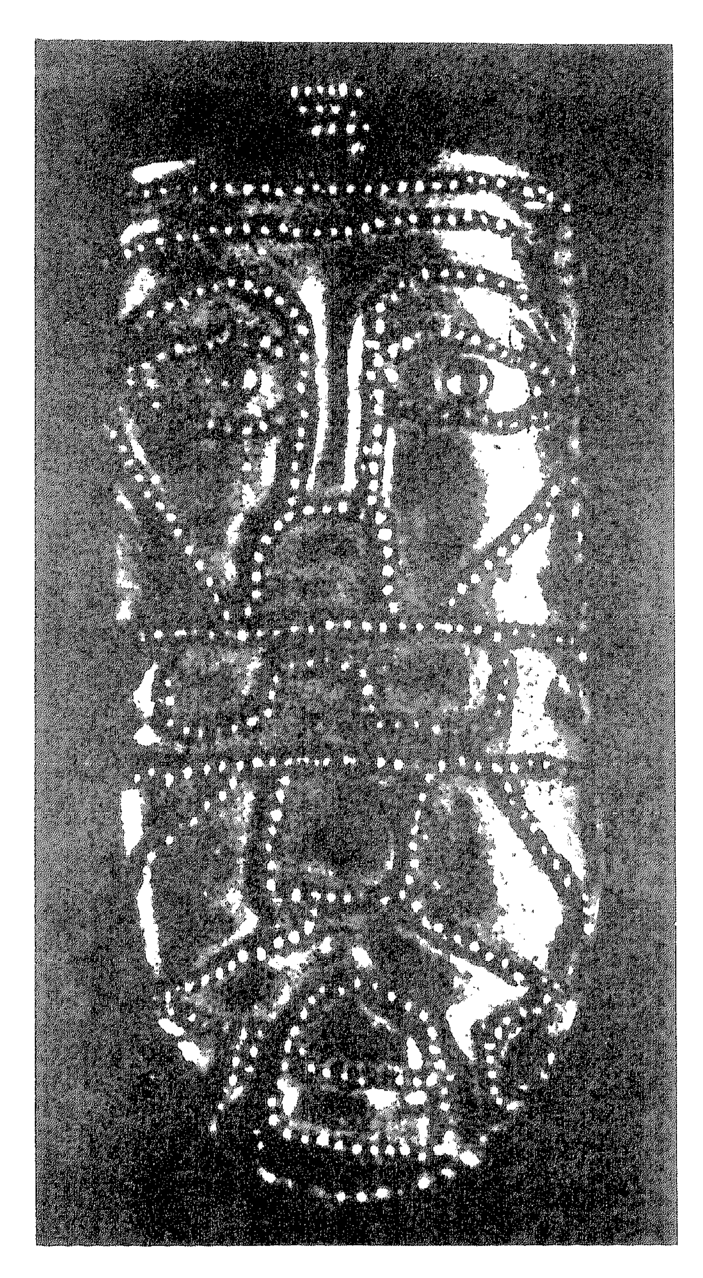
رسم ٦ ـــ سوار ذهبي من أليسيدا حوالي عام ٦٠٠ ق.م. مدريد، المتحف الوطني للآثار.

رسم ٧ ـــ حزام ذهبي من أليسيدا حوالي عام ٦٠٠ ق.م. مدريد، المتحف الوطني للآثار.



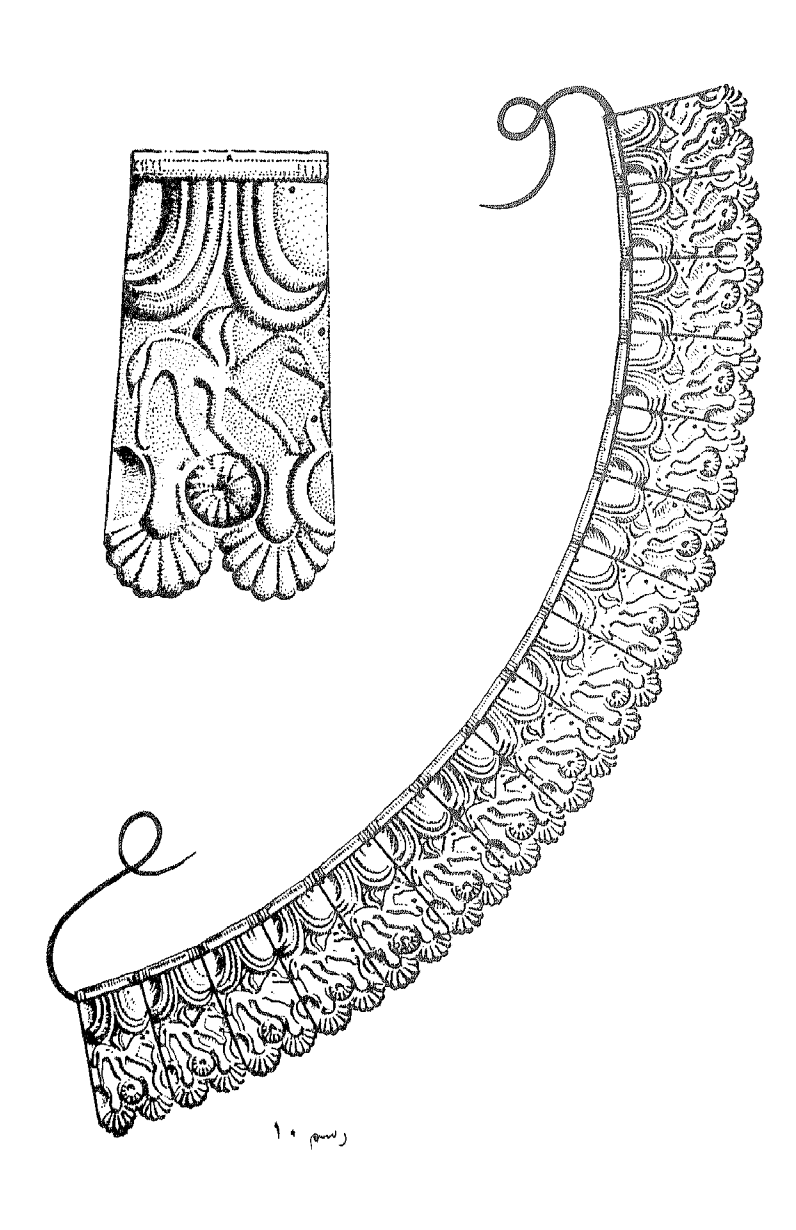
رسم ٨

رسم ٨ ـــ شَعْرَة ذهبية وعقد من أليسيدا حوالي عام ٦٠٠ ق.م. مدريد، المتحف الوطني للآثار.

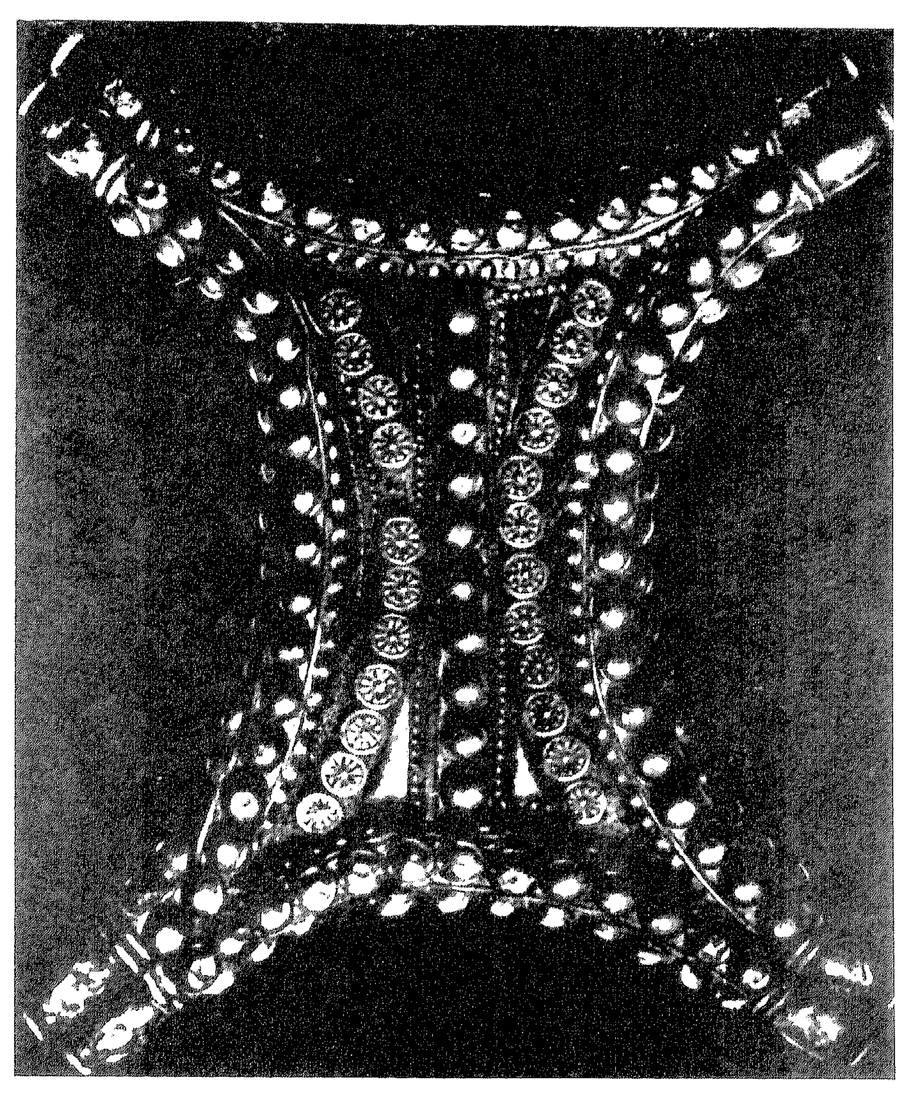


رسم ٩

رسم ٩ ــ نوط ذهبي من ايڤورا. القرن السابع ق.م. سيفيليا، متحف الآثار.

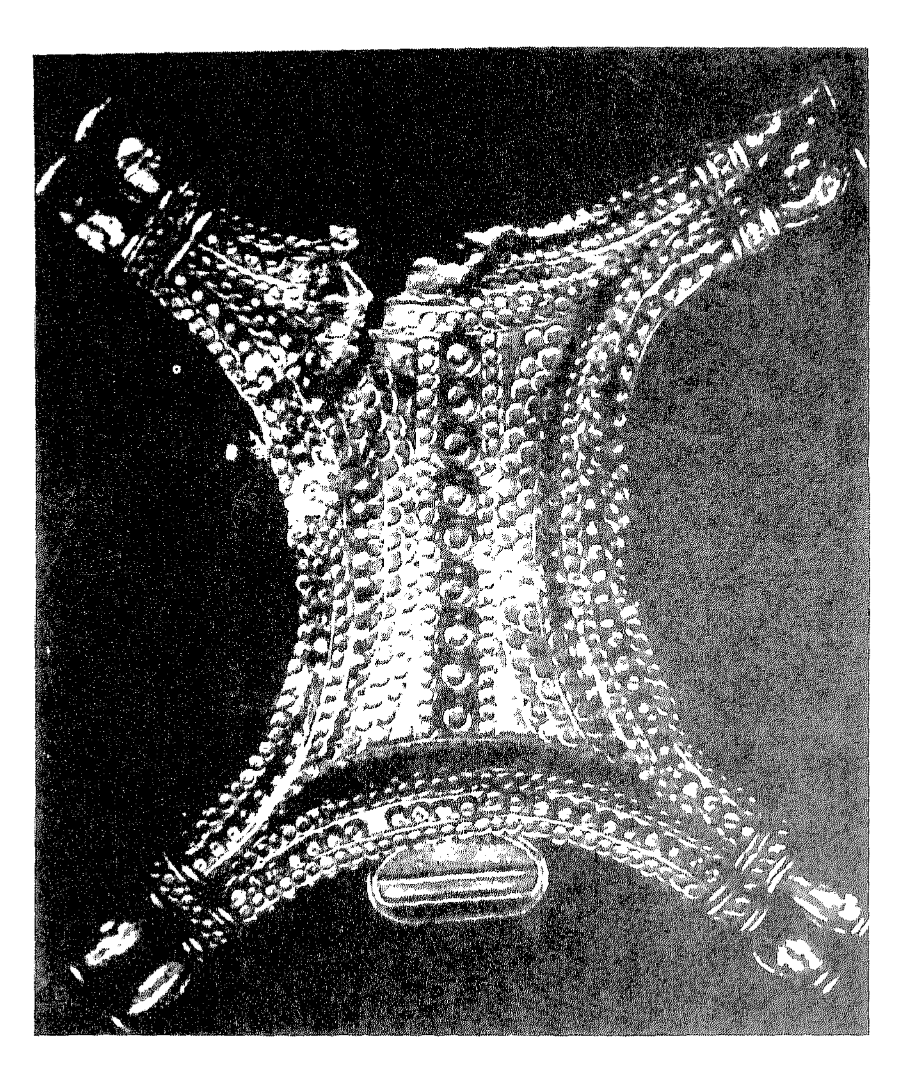


رسم ١٠ ــ عقد ذهبي من سينس، القرن السابع ق.م.



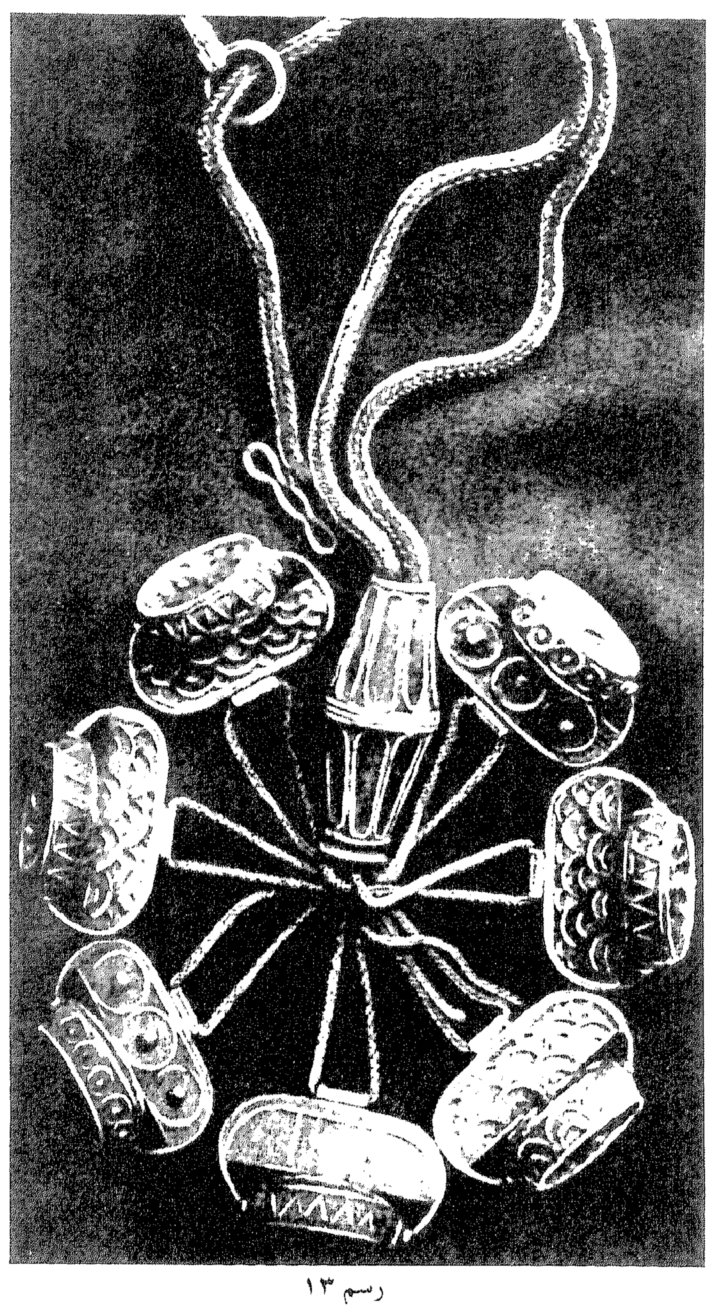
رسم ١١

رسم ١١ ــ واقية للصدر ذهبية من كارامبولو، القرن السابع ق.م. سيفيليا، متحف الآثار.



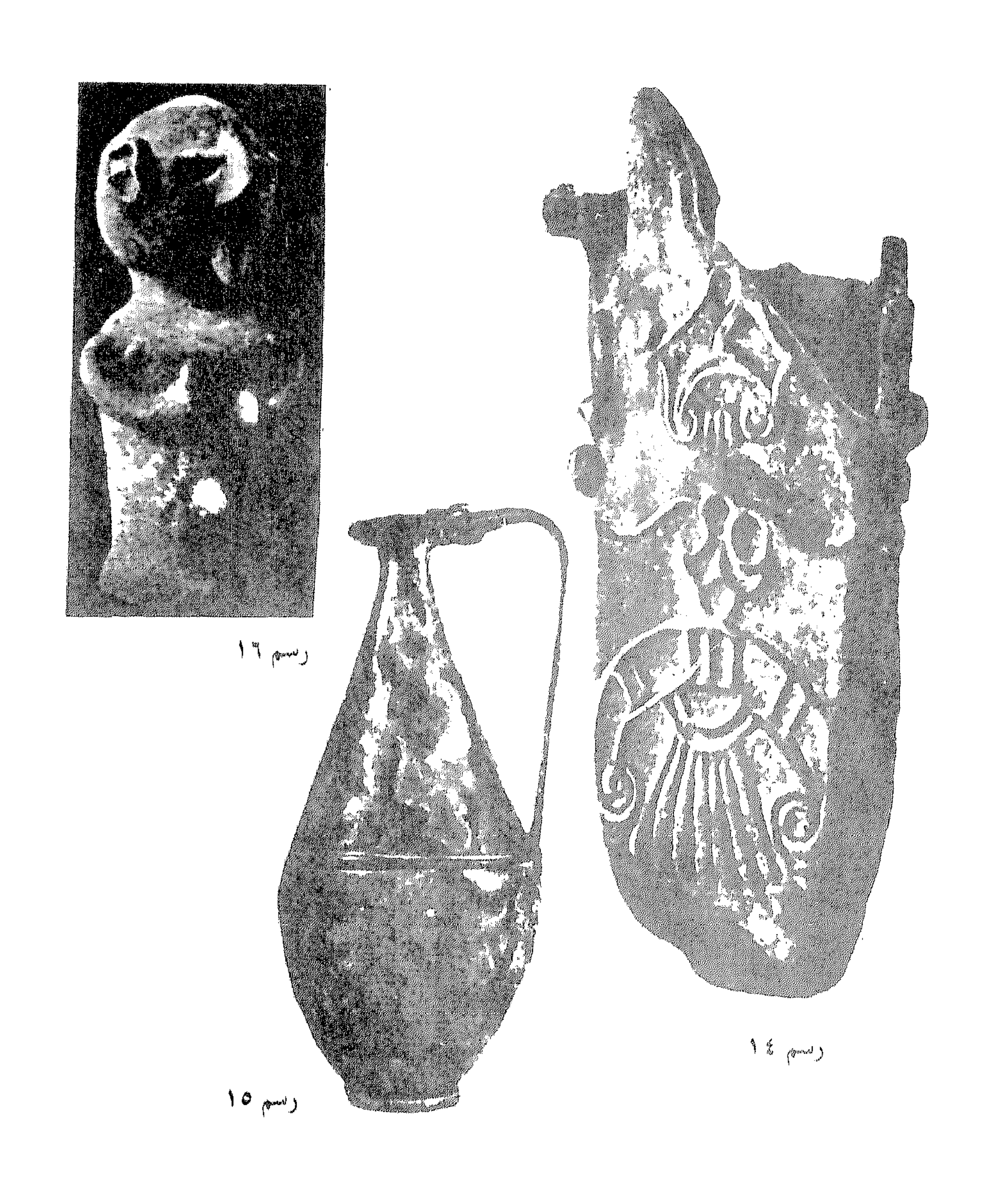
رسم ١٢

رسم ١٢ ـــ واقية للصدر ذهبية من كارامبولو، القرن السادس ق.م. سيفيليا، متحف الآثار.



رسم ١٣

رسم ١٣ ــ عقد ذهبي من كارامبولو، القرن السادس ق.م. سيفيليا، متحف الآثار.



رسم ١٤ ــ حاملة خنجر خزفية من البحر بالقرب من قادس.

رسم ١٥ ــ ابريق برونزي من مقاطعة ويلفا، القرن السادس ق.م. مدريد، متحف معهد « دون جوان ».

رسم ١٦ ــ تمثال صغير لرجل من ايسلا ــ پلانا من القرن السابع او القرن السادس ق.م. برشلونة، متحف الآثار.



رسم ١٧

رسم ١٧ ــ ناووس رخامي من قادس. من القرن الرابع والقرن الثالث ق.م. كاديس، متحف الآثار.



رسم ١٨

رسم ١٨ ــ قطعة من ناووس رخامي قادسي.





رسم ٢٠

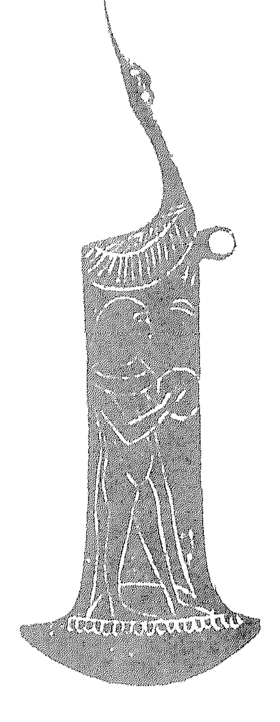
رسم ١٩

رسم ١٩ ــ تمثال صغير لامرأة مصنوع من الطين النضيج، اكتشف في بويغ ــ ديس ــ مولينس. مدريد، المتحف الوطني للآثار.

رسم ٢٠ ــ تمثال صغير لرجل مصنوع من الطين النضيج، اكتشف في بويغ ــ ديس ــ مولينس. مدريد، المتحف الوطني للآثار.



رسم ٢٢



رسم ٢١



رسم ٢٣

رسم ٢١ ــ فأس نذري برونزي صغير، تُعرف « بالموسى ». مدريد، المتحف الوطني للآثار.

رسم ٢٢ ــ لوحة خزفية من جزيرة پيتيوس. مدريد، المتحف الوطني للآثار.

رسم ٢٣ ــ تمثال صغير مصنوع من الطين النضيج، من القرن السادس ق.م. برشلونة، متحف الآثار.



هـ ـــ فهرس الأماكن الجغرافية



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

و ــ ملخص بالانكليزية

SUMMARY

Chapter I is devoted to the Phoenician colonisation of Spain. The first Phoenician colony in Spain — Gades — was founded by the Tyrians in the 12th century B. C. and the ancient tradition dating back to the time of its appearance should be considered authentic. Later, other Phoenician towns came into being. In the middle of the 7th century B. C. the Carthaginian colony of Ebes was organised on the island of Pitiuss. In the first half of the 1st millennium B. C. the state of Tartessus existed in Southern Spain (biblical Tarshish). The Phoenicians entered into various relations with the state, including military conflicts. The Greeks that appeared in Spain also warred against the Phoenicians. At the turn of the 5th century B. C. the Carthaginians established their control over Tyrian towns, blocked the strait at the Pillars of Hercules and seized South-West Spain. By the mid-4th century B. C. they also occupied South-East Spain. During the Libyan War the Spaniards threw off the yoke of the Carthaginians, but Hamilkar restored their domination. He and his successors enlarged the territory of the Carthaginian power in Spain. By the end of the 3rd century B. C. the Carthaginians were driven off from Spain by the Romans.

Chapter II describes day-to-day life and economic activities. The Phoenician settlements in Spain were situated in such places where it was possible to protect the population and also organise fishing and trade with local inhabitants. Some of these settlements were fortified and had fortresses outside city walls. Building technique was mainly the same as in the metropolitan country but raw bricks were extensively used, which can be regarded as a local influence. Spanish Phoenicians were engaged in crafts, fishing and trade. It should be noted, however, that there was agriculture, too, at least prior to the Carthaginian invasion. It is possible that the predominance of mediation in trade in the Spanish-Phoenician towns was one of the causes of the late appearance of currency here. Phoenician crafts and architecture influenced the local ones, while Spanish influence could be seen in the use of raw bricks.

Chapter III is devoted to religion. An examination of the cults of Melqarth and other gods shows that there were no sharp distinctions in the religious concepts of the Spanish Phoenicians and their countrymen in the East. The mode of inhumation was an exception, for in Spain cremation was wide spread for quite a long time. But due to the worsening of the country's international posi-

tion «nationalist» reaction could be observed, which was expressed, among other things, in the return to the traditional inhumation. However, there were differences in the religious thought of the Tyrian and Carthaginian settlers. The former were connected with Eastern Mediterranean, the latter — with their metropolitan country. Spanish-Phoenician religion and mythology influenced the thoughts aud concepts of the local population.

Chapter IV tells about art and artistic crafts. So far there have not been any generally recognised criteria for isolating Tartessian art proper. Therefore works of art of Phoenicians and Tartessians are examined together. In Spain, Spanish-Punic and Spanish-Phoenician trends should be distinguished. Strictness and severity are typical for the former, while the latter was a component part of the Phoenician world of art but was distinguished by conservatism, intensive decorativeness and brightness, although later it became stricter.

The written language of Spanish Phoenicians described in Chapter V, does not differ, with few exceptions, from Phoenician. A small number in inscriptions does not allow to make a sharp distinction between the written language of Tyrian settlers and the one of Carthaginian settlers, but the first language was, probably, more archaic. The Tartessian written language, and possibly the Iberian, appeared under the influence of the Spanish-Phoenician written language.

Chapter VI tells about Phoenician civilisation in Spain. After the Roman conquest the Carthaginian towns on the peninsula either ceased to exist or lost their Carthaginian appearance, except insular Ebes. Tyrian towns, which became «federal communities» retained their Phoenician character. At first, their influence on the local population became even stronger but soon it was replaced by Roman influence. The romanisation of Phoenician towns began, encompassing economy, social relations, political and administrative position and culture. In the latter half of the 1st century A. D. these towns became ordinary Roman provincial settlements.

Chapter VII describes the famous Gaditans and cites biographies of the Balbs, Columella, Moderat and Sabina.

The work concludes with a summary of the investigation results.

المحتوى

صفحة





